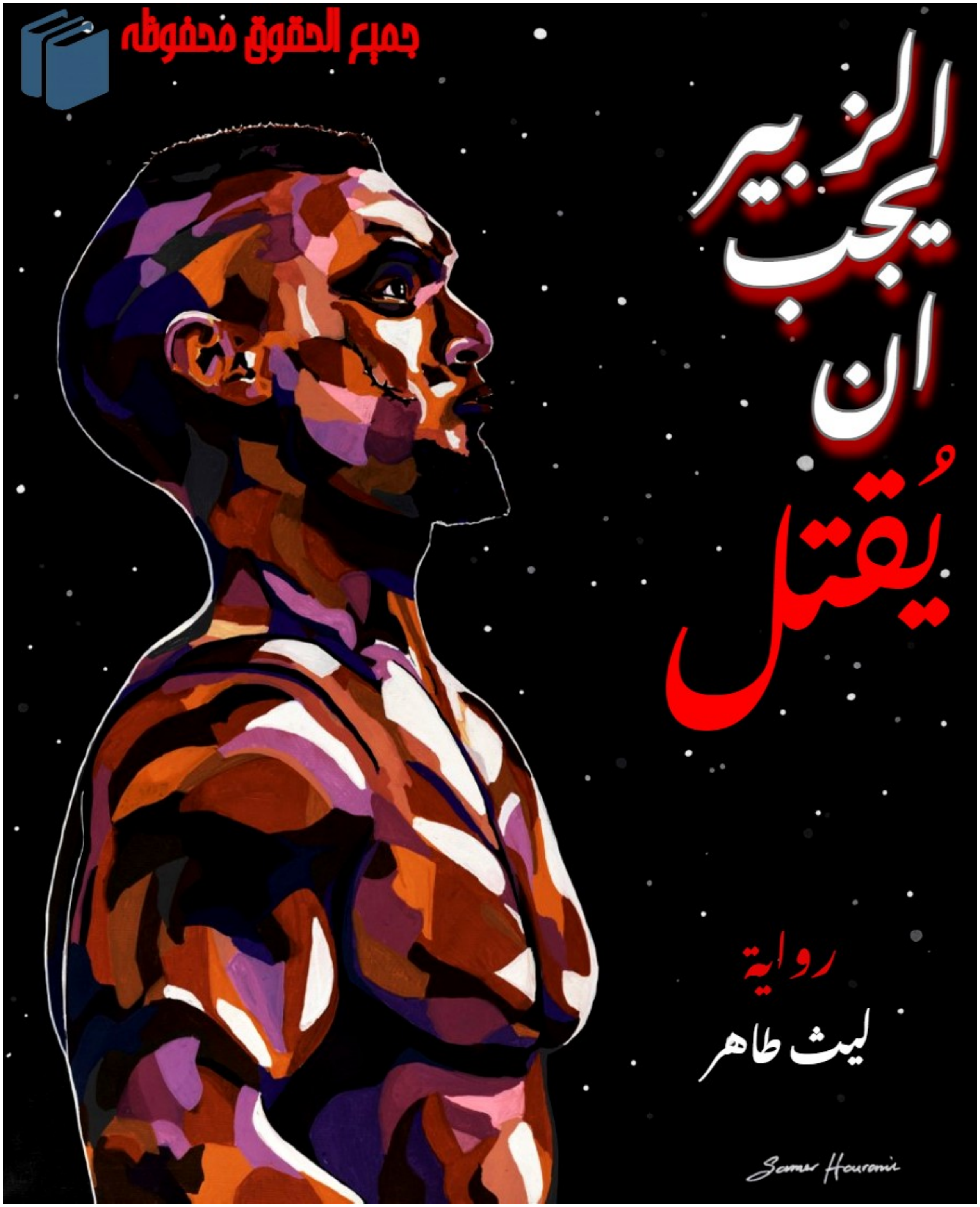
جميع الحقوق محفوظه
الزبير يجب ان يُقتل
رواية
ليث طاهر
Samer Hourani

الزبير
يجب أن
يُقتل

رواية

ليث طاهر

2021

الكتاب: الزبير يجب أن يقتل

المؤلف: ليث طاهر

الطبعة الأولى: نوفمبر/2021

ISBN: 9781005525811

الناشر: د. ليث طاهر سلام أبو محفوظ

للتواصل:

96264160129+

Novelistlaith@hotmail.com

رسم لوحة الغلاف: الفنان سامر الحوراني

تصميم الغلاف: د. ليث طاهر أبومحفوظ

تصميم الخريطتين داخل الكتاب: سامي سليم

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو غلافه أو جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر

المحتويات

تمهيد

الزبير

1

2

3

4

5

6

7

الملك_الهارب

8

9
10
11
12
13
الرجل_الغني
14
15
الرجل_القوي
16
17
18
19

الرجل_المحبوب

20

21

الحرب_الأولى

22

23

24

25

الحرب_الثانية

26

27

المملكة_الجديدة

28

29

30

31

32

33

المحبوبة

34

35

36

الابن

37

البديلة

38

39
40
41
42
يجب_أن_يقتل
43
44
الخاتمة
قوائم_شخصيات_الرواية
تنويه
نبذة_عن_الكاتب

ملاحظة:

هناك قائمة بأسماء شخصيات الرواية في نهاية الكتاب.

تمـهـيـد

قد يتساءل المرء بفضول وتعجب لماذا يريد أحدهم أن يُقتل هذا الزبير؟! وسيزداد فضوله عندما يعلم أن الذين أرادوا ذلك ليسوا واحداً ولا حتى اثنين، بل عدد كبير من الناس. وسيزداد تعجبه عندما يعلم أن هؤلاء لم يوحدهم أي شيء سوى رغبتهم المشتركة بأن يُقتل الزبير، وأن مقتله بات همهم الأول والأخير.

ولكن حتى يفهم المتسائل الحائر كل هذا لا بد وأن يتتبع الأمور منذ البداية ويعرفها ويعرف عقلية الزبير وشخصيته وعقلية من يريدونه مقتولا وشخصياتهم، وكيف آلت الأمور إلى أن غدا المكروه الأول لهم والعدو الألد.

***

هل قسوة القدر، أم تخاذل الأبناء وتهاونهم، أم غدر الأعداء - الذين لم يُتوقع أنهم أعداء- بلا رحمة ولا ضمير، هو الذي أطاح بمملكة ((البقاء)) وقضى عليها، أم ربما كانت كل هذه الأسباب وراء ما حدث؟

لقد قسا القدر على مملكة البقاء بأن جعلها محاصرة من الجهات جميعها بين مملكة ((ياقوتة)) إلى الشرق، ومملكة ((الهيجاء)) إلى الغرب، في حين أحاط بحر الأشرعة عظيم الاتساع بالبقاء من الجنوب، وأحاط بها من الشمال البحر الرمادي عظيم الاتساع كذلك. وقد تكالبت المملكتان المجاروتان على مملكة البقاء، وتآمرتا عليها حتى تمكنتا من القضاء عليها. واقتسمتا أراضيها، فلم يبق منها إلا أجزاء بسيطة متفتتة ومتفرقة، تمردت على المملكتين العدوتين ورفضت الخضوع لهما.

***

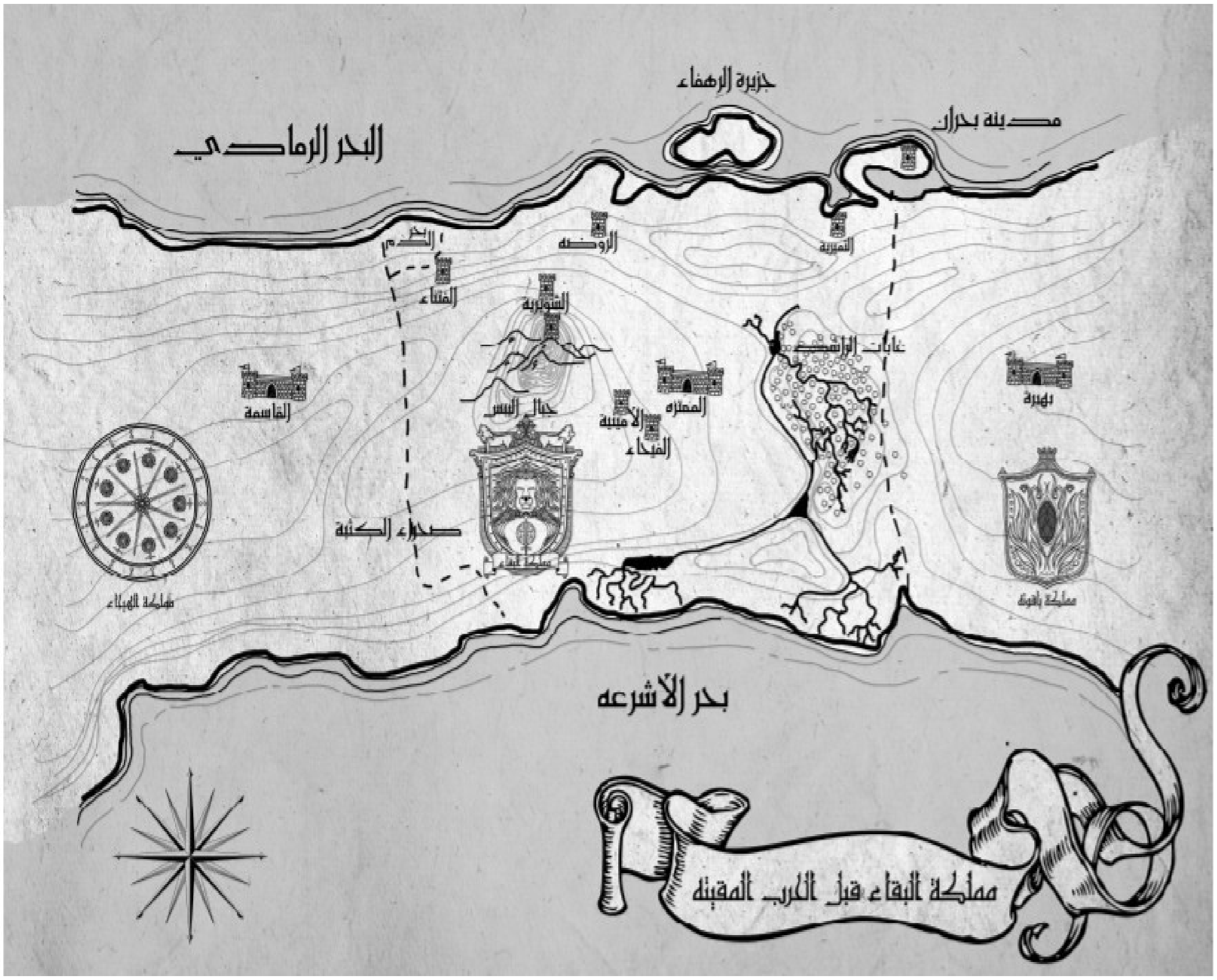
جزيرة الزهفاء
مدينة بحران
البحر الرمادي
الروضة
القاسمة
جبال البسر
المعتزه
الفيحاء
صحراء الكثبة
بهيرة
بحر الأشرعه
مملكة البقاء قبل الحرب المقيتة

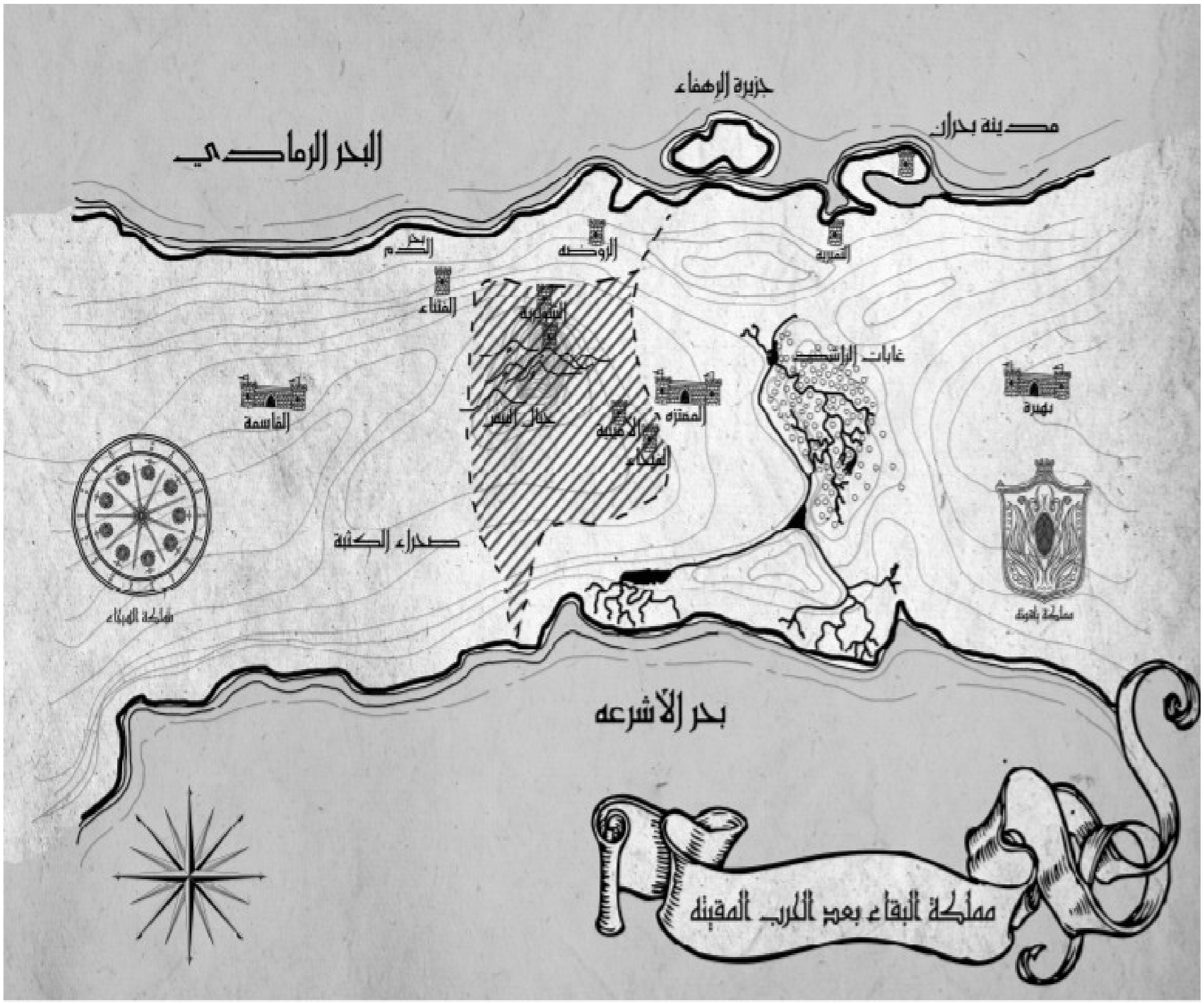
البحر الرمادي
جزيرة الرهفاء
مدينة بحران
الروضة
الفناء
القاسمة
غابات الرشيد
المنتزه
بهيرة
صحراء الكثبة
بحر الأشرعه
مملكة البقاء بعد الحرب المقيتة

الـفـصـل ا لأول

الــزبــير

((1))

في الجزء الغربي من البقاء، وقعت صحراء ((الكُثْبَةِ)) التي عاشت فيها قبائل كثيرة منها قبيلة ((الأَسْدِ)).

كان الزبير حفيد شيخ الأسد الشيخ ((عامر))، الذي اتصف بأنه طموح وقد امتلك مالا كثيرا جدا، وقد دفعه طموحه لاستغلال أمواله الطائلة لتحقيق مجد كبير؛ فقرر أن يغزو القبائل المجاورة الواحدة تلو الأخرى ليسيطر عليها ويجعلها تحت إمرته. وكان الزبير ابن ((رؤبة))، ابن الشيخ عامر الوحيد من الذكور.

وعندما كان عمر الزبير عشرة أعوام، قرر جده الشيخ عامر أن يغزو قبيلة ((القاسمين)) المجاورة. أعلم الشيخ أفراد قبيلته بنيته للغزو وطلب منهم أن يتجهزوا لذلك.

قاد الشيخ عامر معظم فرسان قبيلته لقتال قبيلة القاسمين، بمن فيهم ابنه رؤبة. ولم يترك في أرض قبيلة الأسد سوى عدد قليل من فرسانها؛ وذلك لأنه احتاج أكبر عدد ممكن من الفرسان ليتمكن من تحقيق النصر المؤزر.

لقد أراد الانتصار بأية طريقة، لا سيما وأن هذه هي المعركة الأولى في سلسلة معاركه لتحقيق خطته بتوحيد قبائل الكثبة تحت رايته.

التقت قبيلة الأسد مع قبيلة القاسمين التي يقودها الشيخ سعد.

وبينما امتطى الشيخ عامر جواده، نظر إلى فرسان الأسد الذين كانوا خلفه، وقال: يا قوم، اليوم تبدأ رحلتنا الطويلة نحو المجد. لا ترحموهم، والتهموهم شر التهام، لتعرف البسيطة كلها، أن الأسد أشرس فرسانها.

لبس فرسان الأسد لباسهم المعروف، الذي تلون باللون الأحمر في معظمه، بينما تخلله اللون الأبيض في أماكن معنية. وقد لبس كل منهم عمامة بيضاء غطت الرأس.

ثم نظر الشيخ نحو فرسان القاسمين، وصرخ: لقد أعطيناكم فرصة لتخضعوا لنا دون أن نسفك دماءكم، لكنكم أصررتم على أن تُسفك.

فصرخ الشيخ سعد بغضب: خسئت، لن يحدث ذلك.

عندها صرخ الشيخ عامر: هجوم.

وانطلق وخلفه ابنه رؤبة وفرسانه باتجاه القاسمين، والتحم الجمعان، وكان فرسان الأسد أقوى بكثير، وقتل كل من الطرفين الفرسان من الطرف الآخر، لكن عدد المقتولين من فرسان القاسمين كان أكبر بكثير.

وكان الشيخ عامر أبرز الفرسان في المعركة من الطرفين، وأقواهم على الإطلاق، وجعل يقتل من جنود القاسمين تباعا. وتميز كذلك ابنه رؤبة الذي أبدع في القتال. وقد تميز أسلوب قتال فرسان الأسد، بأن كل واحد منهم حمل خنجرا إضافة لسيفه، واستخدم السيف والخنجر معا في القتال، وهذا الأسلوب اتبعه مقاتلو كثير من قبائل الكثبة الأخرى.

واستمرت المعركة واستمر تفوق الأسد، واستمر القتل في القاسمين. وهرب عدد لا بأس به من مقاتلي القاسمين.

وعلى الرغم من أن المعركة باتت شبه محسومة، إلا أن الشيخ عامرا أراد أمرا معينا، ولم يكن ليتنازل عنه مهما حدث، ألا وهو قتل شيخ القاسمين سعد.

اتجه الشيخ عامر نحو سعد، وكان سعد مترجلا، فترجل الشيخ عامر ليقاتله.

فصرخ سعد: لقد جنيت على نفسك، الآن سأرسلك إلى الجحيم، وبعدها ستتحول المعركة لصالحنا.

فرد الشيخ عامر: قل ما تشاء، فلم يتبقَ لك في هذه الحياة سوى هنيهات معدودات.

هجم سعد على عامر بكامل قوته، وضرب بسيفه فصد عامر الضربة بسيفه، ثم هاجم سعدا بدوره، وجعل يضرب بسيفه مرات ومرات، وما فعل سعد شيئا سوى صد الضربات والتراجع للخلف. أنهك سعد من شدة ضربات عامر، ولكنه حاول أن يضربه بسيفه، فصد عامر الضربة، ثم ضرب بطن سعد ضربة شقتها وأردته قتيلا.

من قبل أن تبدأ المعركة، خطط عامر وأصر على أنه لا بد وأن يقتل شيخ القاسمين. فقد أراد من خلال قتل الشيخ سعد أن يُرسل رسالة قوية إلى سائر القبائل، أنه عنيف وقوي وقاس ولا يرحم وأن مصيرهم جميعا هو الهلاك إذا ما تحدوه، وهذا ينطبق على شيوخ القبائل قبل غيرهم.

هذه الرسالة من شأنها أن تسهل حملته في إخضاع الكثبة بأكملها لسلطته.

أنشأ الشيخ عامر يصرخ: لقد قتلت شيخهم... لقد قتلت شيخهم...

وقد تعمد ذلك حتى يُشيع في من تبقى من القاسمين مزيدا من الرعب والهلع. وقد نجح ما أراد، إذ هرب جميع من تبقى من مقاتلي القاسمين.

بعد المعركة اتجه الشيخ عامر وجنوده إلى أرض قبيلة القاسمين، ولما بلغوا حدودها، أمر الشيخ أحد جنودها بأن ينادي في الناس بأمر معين.

فجعل المقاتل ينادي بصوت عال في الناس: لقد انتهت المعركة معكم أيها القاسمون، لقد قتلنا الشيخ سعدا، وهزمنا من معه من مقاتلين. الشيخ عامر يريد السلم معكم، ولا يريد مزيدا من سفك الدماء، ولو أنصت شيخكم إليه، وانصاع لطاعته، ما سالت قطرة دم واحدة. من ينصع منكم لنا، يسلم، أما من يحاول أن يقاتلنا فسينتهي كما انتهى من قاتلونا.

وشرع المنادي يكرر هذا الكلام.

كان الشيخ سعد قد أبقى عددا قليلا من المقاتلين في أرض قبيلة القاسمين. فلما سمع هؤلاء المقاتلون، ومن وُجد في القبيلة من نساء وأطفال وشيوخ، كلام المنادي، أيقنوا أن الاستسلام هو الخيار الوحيد.

أمر الشيخ عامر بجمع كل القاسمين في ساحة في أرض القبيلة. فلما اجتمعوا خطب فيهم قائلا: أيها القاسمون، علينا أن ننسى ما سال بيننا من دماء. لقد قتلتم منا كما قتلنا منكم.

لقد عرضت على شيخكم الراحل السلم مقابل أن ينصاع لي لكنه رفض، وما قتالي لكم إلا بسبب رفضه. ما أريده ليس طموحا شخصيا، كل ما أريده هو أن أوحد قبائل الكثبة حتى تصبح يدا واحدة، وحتى تصبح قوة يخشاها الجميع، ولا يجرؤ أحد على التعدي على بعضها كما يحدث الآن وحدث من قبل.

اليوم أمد لكم يد السلام، اعتبروني أخا لكم، لا قائدا عليكم، أنتم من اليوم جزء منا ونحن جزء منكم، من احتاج منكم حاجة قضيتها له، ومن اعتُدي عليه ثأرت له. أنتم ونحن منذ الآن قوم واحد.

ولأثبت لكم حسن نيتي، فسأصرف لكم من مالي مبلغا معينا يرضيكم ويكفيكم. ومن ينضمّ إلي من مقاتليكم فسيكون له نصيب أكبر من المال. فأرسلوا إلى مقاتليكم الذين تركوا أرض المعركة ضدنا، أنهم في أمان إذا عادوا وأعلنوا لي الولاء، وأنني سأعطيهم ما يرضيهم.

استغرب الجميع من الطرفين ما قاله، وقد سبق استغراب الأسد استغراب القاسمين. فكيف برجل يغزو قبيلة فينتصر عليها، ثم يعطي أهلها المال، بدل أن يستولي على أموالهم؟!

لكن ما لم يعرفه كثيرون منهم، هو أن الشيخ عامرا، رغم أن أسلوبه اعتمد بالأساس على القوة والقسوة، إلا أنه مزج معه قليلا من الحكمة والعقلانية، وقد عرف جيدا، أن الترهيب يجب أن يجتمع معه الترغيب حتى يحقق مبتغاه. هو كان بحاجة لكل مقاتل ممكن لتحقيق طموحه، ومعاداة القبائل التي سينتصر عليها لن تكون إلا عقبة في طريق خطته.

لقد كان عامر خطيبا مفوها، وداهية، واستطاع بمعسول الكلام أن يكسب قلوب قبيلة القاسمين التي انصاعت له في نهاية المطاف. وقد اتسم كذلك بأنه قد يقول عكس ما يُبطن، فقد ذكر أن هدفه الرئيس هو جعل قبائل الكثبة هي الأقوى، ربما هو أراد ذلك، لكن ما أراده بالدرجة الأولى هو تحقيق المجد والطموح.

***

استمر الشيخ عامر بقتال قبائل الكثبة الواحدة تلو الأخرى، وكلما هزم قبيلة تعمد قتل شيخها وإعطاء أهلها المال، وإعطاء من ينضم إلى مقاتليه من فرسانها نصيبا أكبر من المال، وكل هذا ضمن أسلوبه بالجمع بين الترهيب والترغيب.

أما إذا خضعت له قبيلة دون قتال، فإنه يعفو عن شيخها فلا يقتله وعن مقاتليها فلا يقتلهم ولا يأسرهم، وأيضا يصرف لهم المال، ويصبحون أتباعه ويقاتلون معه.

ومر عامان على بدء الشيخ عامر لحملته للسيطرة على الكثبة، وخلال هذه المدة أخضع كثيرا من القبائل لسلطته، وغدا جل أفراد القبائل يحبونه؛ لأنه أنفق عليهم كثيرا من المال ولأنه تكفل بحمايتهم، وبات كثير من فرسانها جنودا له يقاتلون تحت إمرته.

***

وعندما كان عمر الزبير اثني عشر عاما، قُتل والده رؤبة في إحدى المعارك التي خاضتها قبيلة الأسد مع إحدى القبائل المجاورة، الأمر الذي ترك أثرا كبيرا – لاحقا- على الزبير.

وفي بيت العزاء، اجتمع رجال الأسد، ورجال سائر القبائل الخاضعة للشيخ عامر، لأداء واجب العزاء.

ما انفك الزبير يبكي منذ علمه بنبإ مقتل والده رؤبة، غير أنه تعمد أن يتماسك أمام أي أحد آخر، وكبت دموعه في دار العزاء.

وفي المساء، نادى الشيخ عامر حفيده الزبير - الذي أحس الشيخ بحزنه العارم طيلة يوم العزاء - وأخاه دريدا. جلس الشيخ على كرسي مصنوع من الخشب الفاخر، ووُجد في الغرفة كراسي أخرى وطاولات مصنوعة من الخشب الفاخر كذلك. فرغم أن الأسد أهل صحراء، إلا أن الشيخ عامرا وقبيلته اتسموا بالغنى الشديد، لا سيما مع ما جمعه الشيخ عامر من غنائم من معاركه ضد القبائل، مما جعلهم يعيشون في رفاه نسبي عن باقي بدو الكثبة.

كان الشيخ في الستين من عمره، قوي البنية مفتول العضلات رغم تقدم سنه، وله شعر أبيض كثيف غطى رأسه، وله شارب كثيف أبيض مهذب وأنيق، ولحية طويلة بيضاء مهذبة وأنيقة.

قال الشيخ: ما بالك، أيها الزبير؟!

فأجهش الطفل بالبكاء.

ودريد رغم حزنه الشديد على أبيه، ورغم أنه بكى سرا، إلا أنه علم أنه إذا بكى أمام جده، أو أظهر أية علامة ضعف، فسينال عقابا وخيما من الجد القاسي.

وعلى عكس المتوقع، وبدل أن يحنو الشيخ على حفيده الطفل، لطمه لطمة مدوية على وجهه، لن ينساها الزبير ما عاش، وقال الشيخ: اخرس، أيها الضعيف... أتبكي كالنساء؟!

عندها توقف الزبير عن البكاء، وتمالك نفسه، وتلك اللطمة شكلت أحد أهم الأحداث في حياة الزبير، والتي بنت شخصيته القاسية القوية العنيفة لاحقا.

ثم أمسك الشيخ الزبير من كتفيه، وقال: أيها الزبير، الحياة ليست مكانا سهلا، ولا بد فيها من التضحيات... وأبوك هو ابني وهو أغلى الناس على قلبي في العالمين، لا سيما وأنه ابني الوحيد من الذكور... وأنت وأخوك دريد – بعد رحيله – بتما أغلى الناس على قلبي دون منافس... وأعدكما أنني سأحميكما من أي شيء، حتى لو اتحد العالم كله ضدكما، فإني حاميكما... تذكرا هذا جيدا.

وبالفعل أحب الشيخ حفيديه هذين بالتحديد حبا جما؛ فدريد هو أكبر حفدته والذي سيخلفه يوما ما شيخا للأسد وسائر القبائل، ولأنهما حفيداه الذكران الوحيدان من ابنه الذكر الوحيد.

ما لم يعلمه الطفلان، أن وراء القسوة التي ظهرت على جدهما في تلك اللحظات، قبع حزن عارم وقلب مكسور؛ لأن الشيخ فقد أغلى الناس على قلبه، ولأنه لام نفسه بأنه السبب في ذلك؛ فمعاركه التي بدأ بها هي التي أودت بحياة ابنه.

***

((2))

كان الزبير ذا خمسة عشر عاما من العمر عندما قرر جده الشيخ عامر أن يغزو إحدى القبائل المجاورة.

تجمع رجال القبيلة في دار الشيخ. وهناك جلس الشيخ مع حفيده الكبيردريد، والصغير الزبير.

وقال وهو معهما: يا دريد، تجهز لأنني أريد أن أصطحبك معي في معركتنا القادمة.

في حقيقة الأمر أحس دريد - الذي كان ذا سبعة عشر عاما من العمر - برهبة وخوف؛ فمقاتلة قبيلة أخرى ليست بالأمر الهين، وهو كان صغيرا وغير ذي خبرة في القتال.

بينما اجتاح الزبيرَ غضب عارم، لأن جده اكتفى بذكر دريد ، فقال الزبير: وأنا يا جدي؟!

"أنت لن تأتي، أيها الزبير" قال الجد.

فرد الزبير: ولكنني أصغر من دريد بعامين فقط، وأنا أقوى منه بكثير، فلم تصطحبه وتتركني هنا مع النساء؟!

لقد اتسم الزبير منذ نعومة أظفاره بالطموح ولطالما اعتبر نفسه الأفضل بين الجميع، وقد امتلك ثقة عالية بنفسه؛ وهو ما دفعه ليذكر أنه أفضل من دريد.

نظر الجد إلى حفيده بقسوة امتزجت بحنان الأب على ابنه: أيها الزبير، أنت ما تزال صغيرا، وغير مؤهل للقتال، وليس من الحكمة أن آخذك وأفقدك بالمعركة. عندما تصبح بعمر دريد سأصطحبك معي في معاركي القادمة.

ازداد غضب الزبير، وقال بحرقة: ولكنني قوي رغم صغري وأريد القتال.

قال الشيخ بنبرة ملؤها الجفاف والحسم؛ لأنه يعرف أن الكلام الهادئ لن يوقف الزبير: لن أصطحبك معي، هذا قراري النهائي.

صمت الزبير، بينما اشتعلت النيران حامية داخله.

أما الشيخ، فأخفى بداخله فرحة عارمة، منبعها فخره بشجاعة حفيده وقوته وقسوته منذ صغره.

***

قاد الشيخ عامر معظم فرسان قبيلته لقتال قبيلة أعدائه.

وقد اصطحب معه حفيده دريدا، في حين أبقى حفيده الزبير في أرض القبيلة، والنار تحرقه من الداخل.

وكالعادة أبلى الشيخ أفضل بلاء في المعركة، وكان أقوى المقاتلين من الطرفين.

لم يبلِ دريد جيدا في القتال، فعمره الصغير منعه من ذلك، كما أنه لم يمتلك الشجاعة الكافية التي تؤهله للإبداع في المعارك.

حرص الشيخ عامر على البقاء قريبا من حفيده، وحرص على حمايته بكل ما يستطيع، فآخر نتيجة أرادها لطموحه العظيم، هي أن يخسر حفيده في سبيله، لا سيما بعد أن خسر ابنه بغية تحقيق الطموح نفسه.

وما انفك الشيخ يقود مقاتليه في المعارك، ويصحب حفيده دريدا في كل معركة. وقد ظل الشيخ يرفض طلب حفيده الزبير بأن يسمح له بالمشاركة بالقتال.

***

ومر الوقت، وأمسى الزبير ذا سبعة عشر عاما من العمر، ووافق بالنهاية جده على السماح له بالقتال ضمن مقاتليه.

وأخيرا هدأ الغضب والحرقة اللذان اجتاحا الزبير طيلة هذه المدة، ولكن كل هذا الوقت الذي أمضاه غاضبا، خلق لديه حافزا كبيرا؛ لكي يثبت نفسه لجده وللجميع والأهم لنفسه.

حان موعد أول معركة للأسد بعد سماح الشيخ عامر للزبير بالقتال، وكانت ضد قبيلة بني حميد بقيادة شيخهم حيدر.

وقد لبس الزبير لباس الأسد نفسه، والاختلاف الوحيد تمثل في أن الزبير لم يلبس عمامة، وهذا ديدنه حتى آخر يوم في حياته؛ ومنبع ذلك تمرد الزبير وتحديه للجميع، ولأنه أحب دوما أن يتميز ويبرز.

اتجه الأسد إلى حيث سيلتقون ببني حميد. وبينما الجمعان متقابلان تقدم أحد فرسان بني حميد - وهو على حصانه - إلى الأمام، وكان طويلا جدا، لم يكن ضخما لكنه مفتول العضلات، وقد بدا عليه الهيبة والقوة والشدة.

وصرخ: أنا صهيب أقوى فرسان بني حميد، فهل بينكم من مبارز؟

وفورا حدثت المفاجأة، إذ تقدم الزبير على فرسه، وصرخ: أنا لها.

اجتاحت المفاجأة والاستغراب الجمعين.

صحيح أنهم لطالما رأوا فرسانا يافعين يمتازون بالشجاعة والإقدام، لكن أن ينبري يافع في أول معاركه للمبارزة وبهذه الثقة، لهو من أشد العجائب.

وبين المذهولين كان الشيخ عامر، الذي امتزجت المفاجأة بداخله مع الخوف، فهو لم يكن متهيئا لأن يفقد حفيده الأصغر وفي أول معركة له.

تقدم الشيخ عامر على فرسه بسرعة، ووقف بجانب حفيده، وقال له: ارجع أيها الزبير، أنت لست مستعدا لهذه المعركة.

لكن الزبير تجاهل جده وقاد حصانه مسرعا، وتوجه باتجاه صهيب الذي قاد حصانه بدوره باتجاه الزبير.

لقد امتاز الزبير بأنه يسبق عمره بكثير، كأنه رجل ذو خمسين عاما يعيش في جسد فتى ذي سبعة عشر عاما، وهذا ما يفسر تجاهله لجده وعناده وقوة شكيمته.

نزل الفارسان عن جواديهما، واستل كل منهما سيفه.

أمسك الزبير سيفه بيديه الاثنتين، بينما جعل صهيب يلوح بسيفه يمنة ويسرة، ويحركه حركة دائرية، وقد أراد استغلال صغر سن الزبير وبث الخوف داخله. لكن الزبير لم تجتحه ذرة خوف واحدة، وظل ينظر بعينيه القاسيتين المخيفتين إلى غريمه.

هجم صهيب على الزبير وضرب بسيفه يقصد رأس الزبير، لكن الأخير تراجع وتفادى الضربة، بينما طفقت دقات قلب جده تتسارع، ثم ضرب صهيب بقوة هائلة يقصد جسد الزبير،

لكنه تفادى الضربة، وجعل الأمر يتكرر، وهنا تسارعت دقات قلب الشيخ عامر إلى أقصى حد، واجتاح الخوف أفراد الأسد؛ لأن فقدان حفيد الشيخ في أول معركة له أمر فظيع للغاية.

وظل الأمر على حاله، صهيب يضرب بسيفه والزبير يتفادى، وفجأة ضرب الزبير بسيفه فصد صهيب الضربة، وشرع كل منهما يصد ضربات الآخر، وفجأة ضرب صهيب يقصد رأس الزبير، فتفادى الضربة ثم غرس سيفه - الذي يمسكه بيديه الاثنتين - في بطن صهيب الذي سقط قتيلا.

اجتاحت الفرحة قلوب الأسد جميعا وبينهم دريد أخو الزبير، وجعلوا يحيون الزبير بعبارات المديح والثناء.

رفع الزبير سيفه إلى الأعلى متفاخرا بانتصاره، ثم ركب جواده وعاد باتجاه جنود الأسد.

الوحيد الذي لم يشعر بفرحة بين الأسد كان الشيخ عامراً، فقلبه منذ بداية المبارزة كان بين يدي صهيب الذي أمكنه كسره إلى الأبد في أية لحظة بقتل الزبير. لكن الخوف الذي سكن قلب الشيخ تلاشى وتنفس الصعداء.

عاد الزبير إلى صفوف قبيلته. ثم عدا كل من الجمعين مسرعا باتجاه الجمع الآخر، واشتبكا وبدؤوا يقتل بعضُهم بعضا.

فاق عدد جنود الأسد عدد بني حميد بكثير، فصفوف الأسد ضمت عددا كبيرا من فرسان القبائل التي خضعت للأسد، كما أن وجود الشيخ عامر القوي أمال الكفة لصالح الأسد كالعادة. لكن العامل الجديد في المعركة كان براعة الزبير الفائقة في القتال، إذ أخذ يقتل من بني حميد الواحد تلو الآخر. لقد أراد إثبات نفسه ونجح في ذلك.

وقد أراد أن يُري الجميع أنه ليس امرَأً هينا وأنه سيكون له مستقبل عظيم بين الفرسان. لذا اتجه نحو قائد بني حميد الشيخ حيدر لقتاله، وكان الشيخ قويا وقد قتل عددا لا بأس به من فرسان الأسد.

ترجل الزبير، وهجم بسيفه ليضرب الشيخ حيدرا فصد الشيخ الضربة، وجعل الاثنان يصد أحدهما ضربات الآخر، حتى ضرب الزبير ببسالة صدر الشيخ فشقه.

شاهد الشيخ عامر بسالة حفيده وشعر بفخر عظيم، وعلم أن حفيده رجل عظيم وليس مجرد فتى صغير.

واستمر القتال بين الطرفين حتى انتهت المعركة بالنصر المبين للأسد.

***

عاد الأسد وحلفاؤهم كلٌّ إلى دياره. ومنذ عودتهم بات الزبير حديث جميع الأسد وحلفائهم. وجعل الجميع يثني عليه ويمدح شجاعته وجرأته وقوته، وتحدث الكل عن الفتى الذي يمتلك إقدام فرسان يكبرونه بثلاثين عاما.

ومنذ عودة الشيخ عامر وحفيديه إلى ديارهما، ظل الشيخ عابس الوجه قليل الحديث، وبالذات مع الزبير؛ إذ لم يحادثه قط.

بعد يومين، أتى يوم لم ينسه الزبير قط طيلة حياته.

استيقظ الشيخ وزوجه وأرملة ابنه رؤبة، وحفيداه. وبعد مدة قصيرة، قال الشيخ: أيها الزبير، تعال، أريد أن أحادثك وحدنا.

ثم نظر إلى زوجته وأم الزبير وإلى دريد، وقال: لا تقتربوا من الغرفة، ولا تحاولوا التنصت علينا.

مشى الشيخ باتجاه غرفته بينما يتبعه الزبير.

دخل الشيخ فالزبير إلى الغرفة.

أغلق الشيخ باب الغرفة بالمفتاح. ثم مشى ووقف مقابل الزبير.

لقد علم الزبير أن أمرا غير جيد سيحدث، من خلال ملامح جده، وبسبب غضب الأخير وسكوته منذ عودتهم من المعركة.

نظر الشيخ إلى حفيده بغضب عارم وقد اتسعت عيناه، بينما بادله الزبير نظرات جادة حادة.

طفق الاثنان ينظر أحدهما إلى الآخر نظرات حادة شرسة. كان الموقف حادا جدا حتى إن كليهما لم يرمش ولا مرة!

طال الأمر. وفجأة رفع الشيخ يده اليمنى عاليا ثم لطم الزبير على وجهه لطمة مدوية.

احمر خد الزبير، وشرع الدم يسيل من منخره. ورغم كل هذا، لم يفقد الزبير تماسكه، بل زادت نظراته حدة، واتسعت عيناه القاسيتان اللتان حدق بهما في جده.

الوالد والجد بالنسبة للزبير كانا شيئين عظيمين، بل إنهما حتى يصلان حد التقديس. ومهما فعل به جده - حتى لو قطّع أطرافه الأربعة – فإنه لا يمكن أن يرد عليه بأي شيء مهما صغر. أحب الزبيرجده وعده قدوته العظمى التي يطمح للوصول إليها أو حتى إلى جزء منها.

ثم أمسك الجد الذي يتفجر غضبا حفيده من قبة ثوبه، وجعل يدفعه تارة ويسحبه تارة، وهو يصرخ: مرة ثانية، عندما آمرك بأمر فعليك أن تطيعه صاغرا. لا سيما إن كان أمام أناس آخرين.

ثم صرخ بصوت أعلى: هل تفهم؟

جدة الزبير وأمه وأخوه دريد، كانوا قد خالفوا أمر الشيخ، ووقفوا عند باب الغرفة، وقد سمعوا ما حدث بين الشيخ والزبير، وأحزنهم ذلك.

عاد الشيخ للوقوف مقابل الزبير، وتبادلا النظرات من جديد، وفجأة هجم الجد على حفيده واحتضنه بيديه الاثنتين، بينما ظل الزبير مرخيا يديه.

قرب الجد فمه من أذن الزبير، وهمس فيها: أنت خليفتي، أيها الزبير، أنت تشبهني تماما، كأنك نسخة طبق الأصل عني، أنا أحبك كثيرا أكثر من أي أحد آخر، لقد جعلتني فخورا. ليت أخاك مثلك، ليته يمتلك قوتك وقسوتك. لكنه هو من سيخلفني في قيادة القبيلة... لا أستطيع تغيير ذلك... هو حفيدي الأكبر... ولا أستطيع أن أكسر قلبه بأن أعلنك خليفة لي... حتى أبوك رؤبة لم يكن مثلك!

اختار الجد أن يهمس هذه الكلمات همسا لأنه تأكد أنه لا بد وأن دريدا كان يتنصت عليهما في تلك اللحظات ولم يرد له أن يسمع هذه الكلمات التي ستجرحه.

لم ينس الزبير هذا الحوار أبدا.

***

وبعد أيام، أتى شاب من قبيلة الأسد لزيارة الزبير. فحياه الزبير وطلب منه الجلوس، وضيفه فنجانا من القهوة.

بدا على الشاب الارتباك والريبة وهو يزور الزبير، وطيلة عمرهما لم يتحادثا إلا مرات قليلة.

تحادثا حتى قال الشاب: أنا اسمي قيس، أيها الزبير... وأحببت أن أتشرف بزيارتك.

فاستغرب الزبير من هذا الكلام، وقال: أتظنني لا أعرفك ولا أعرف شبان قبيلتي؟!

فأجاب قيس: لقد شككت في الأمر... أنت قليل الاختلاط بشباب القرية، وظننت أنني نكرة بالنسبة لك.

فرد الزبير: لا لستَ كذلك... أنتم أهلي وأحبائي. وبئس الرجل الذي لا يعرف أهله، ولا يكرمهم.

وقد لاحظ الزبير منذ بداية زيارة قيس له، تلبك الأخير وارتباكه، فقال: أحس أنك لست مرتاحا في الجلسة... أتمنى منك أن تخبرني السبب.

تنهد قيس، ثم قال: أخشى أن تنزعج إذا أخبرتك بالسبب.

"لا، لن أنزعج، أعدك بذلك" رد الزبير فورا.

فقال قيس: أنت شاب قاس شديد، وكل هذه الصفات تصل أوجها فيك، رغم أنك شاب. ومثل هذه الأمور لا تظهر على المرء قبل الثلاثين أو حتى الأربعين من العمر... في حقيقة الأمر...

وسكت قيس.

أحس الزبير بمزيج متناقض من الفرح والحزن من كلام قيس. الفرح لأنه يحب أن يظهر بمظهر القوي القاسي. والحزن لأن هؤلاء هم أهله وقبيلته، ومن المفترض أن يكونوا قريبين منه دون حواجز بينه وبينهم. بيد أنه نجح في إخفاء مشاعره.

شجع الزبير قيسا على الإكمال قائلا: أكمل... لا تخشَ شيئا. في حقيقة الأمر ماذا؟

فأجاب قيس: كثير من شبان القبيلة يقولون إنك مغرور، حتى تجاه أخيك الذي يكبرك. وذلك لأنك حفيد الشيخ، وثاني أقوى رجال القبيلة بعده.

زادت فرحة الزبير أكثر وأكثر؛ فقد انتشى بصورة الفحولة والشدة المأخوذة عنه من شبان القرية.

ثم سأل الزبير: وأنت ما رأيك في هذا؟

استغرب قيس من كلام الزبير، ثم أجاب: أنا... لا أعتقد أنك كذلك... أنت إنسان مر بظروف صعبة... أن يقتل أبوك وأنت بذلك العمر... ربما هذا...

أعجب كثيرا الزبير بكلام قيس وتحليله، وشجعه قائلا: ربما هذا ماذا؟

فأكمل قيس: ربما هذا جعلك مختلفا نوعا ما... لا سيما وأنك حفيد الشيخ ووسط كل هذه الحروب والفتن، كل هذا ضغط عليك أكثر وأكثر... مما جعلك إنسانا شرسا.

استدرك قيس كلمته الأخيرة، وقال فورا: أعتذر... أقصد أنك إنسان قوي.

فقال الزبير: لا عليك، يا قيس... لا عليك. حتى لو قصدت أنني شرس، فذلك لا يزعجني.

سكت قيس، ثم أكمل: لا أعتقد أنك متكبر على شبان القبيلة... ربما تجنبهم لك وضع بينك وبينهم حاجزا... وأنا متأكد أنك مستعد لأن تفدي أيا منهم بروحك لو تطلب الأمر.

فرح الزبير بكلامه، وقال: هذا صحيح، يا قيس.

ثم قال قيس: أهم سبب لزيارتي لك... هو أنني أريد أن أخبرك أنك قدوتي، وأنك شاب عظيم، وأعظم من قابلت بعد الشيخ عامر... أنا مستعد لأن أفديك بروحي؛ لأنك رفعت رأس الأسد والكثبة بأكملها.

وعلى العكس مما اعتاد عليه الزبير، ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: أريد أن أكون صديقك، يا قيس. هل تقبل هذا؟

ففرح قيس، وأجاب: بالتأكيد، هذا شرف لي.

فرد الزبير: بل الشرف لي.

تفاجأ قيس من تواضع الزبير، على عكس ما يقال عنه.

وأكمل الزبير: أريد أن أطلب منك شيئا، يا صديقي. أريدك أن تأتي لزيارتي متى شئت، وأينما شئت. حتى لو طرقت الباب في منتصف الليل، فأهلا بك. وإذا احتجت يوما إلى أية مساعدة، فتعال فورا.

ابتهج قيس، وقال: شكرا جزيلا، أيها الزبير.

وبعدها بدأت الزيارات بين الصديقين، حتى غدت يومية. وباتا أعز صديقين وأقرب صديقين في القبيلة. وبعدها، لم يدع الزبير مجلسا له مع جده، أو كبار رجال الأسد أو باقي قبائل الكثبة، إلا وكان قيس حاضرا معه.

***

((3))

استمر الشيخ عامر بالسيطرة على قبائل الكثبة الواحدة تلو الأخرى، سواء أكان ذلك طوعا أو كرها. وحافظ على أسلوبه؛ فكلما خضعت قبيلة له أنفق عليها من ماله، لا سيما من ينضم إليه من فرسانها، وكذلك تعهد بحمايتها من أي اعتداء. وهكذا أصبح أهل هذه القبائل يحبونه ويقاتلون في صفوفه بولاء تام. واستمرت مشاركة الزبير في المعارك، وكما مر الوقت زاد إبداعه في القتال وزاد لمعانه، كما أنه أظهر للناس –إلى جانب شراسته في القتال- حكمة ورأيا سديدا. وبعد مرور الزمن، بات في نظر أهل الكثبة ثاني أهم رجل فيها بعد الشيخ عامر. وبعد سنوات غدا الشيخ عامر شيخا لكل قبائل الكثبة على بكرة أبيها، وأصبح الملك غير المتوج للصحراء التي لطالما كانت متمردة وعصية على أي رجل ابتغى أن يُخضعها لسلطانه.

لقد تبعت صحراء الكثبة لمملكة البقاء، وكان ملكها في ذلك الزمان الملك هزبرا. ولما سيطر الشيخ عامر على الكثبة برمتها، أعلن ولاءه للملك هزبر. ويعود ذلك لأسباب عدة؛ فقد أحب الشيخ عامر الملك وأكن له كل الاحترام كجل أهل البقاء؛ فقد كان ملكا عادلا، وقد أنفق العطايا بسخاء على شعبه، إذ اتسمت المملكة بالغنى وعاش أهلها برفاهية عظيمة حسدها أهل الممالك الأخرى.

كما أن أهل البقاء لطالما تفاخروا بأسرة الضياغم أسرة الملك هزبر، الذين اتسموا بالقوة والشدة ضد أعدائهم، ولطالما أذاقوهم المر إذا تجرؤوا وهاجموا البقاء.

ولأن الشيخ طموح جدا، فقد لاحت في باله كثيراً من المرات فكرة أن يتمرد على الملك، ويستقل بصحراء الكثبة فتصبح مملكة مستقلة عن البقاء. لطالما لمعت في سماء مخليته نجم فكرة أن يكون ملكا على رأسه تاج، لكنه دائما ما كان يئد تلك الفكرة في مهدها. فصحراء الكثبة رغم اتساعها كانت صغيرة جدا مقارنة بمملكة البقاء الشاسعة. فقد احتوى جيش الملك هزبر من الجنود والعتاد عشرات أضعاف ما لدى الشيخ عامر.

وفرضا، لو تمكن الشيخ عامر – بطريقة ما – أن يهزم الملك ويعلن الكثبة مملكة مستقلة، فستصبح عندها الكثبة هدفا سهلا لملوك مملكة الهيجاء التي وقعت على الحدود الغربية لصحراء الكثبة. فالأمر الذي لطالما منع ملوك الهيجاء من مهاجمة الكثبة، هو أنها خاضعة لملوك البقاء الأشداء، الذين خشي بطشَهم ملوك الهيجاء.

وقد علم الشيخ أن إعلانه الولاء للملك سيغدق عليه أموالا لم يرها في حياته، وسيعيش بذلك في رفاه، وستساعده هذه الأموال في بسط مزيد من السيطرة على أهل الكثبة، وسيزيد ولاؤهم له عندما يصرف هذا المال عليهم.

لهذا كله توجه الشيخ عامر إلى عاصمة البقاء المعتزة، وقابل الملك هزبرا وأعلن ولاءه له. وقد رحب الملك بذلك أيما ترحيب، وأغدق الأموال على الشيخ -كما توقع وأمل-، ومع مرور الزمن بات الرجلان صديقين، وزاد حب الشيخ للملك أضعافا.

***

ظلت العلاقة تشتد بين الملك هزبر والشيخ عامر، حتى تحول الأمر إلى صداقة، وبات في قلب الشيخ حب عظيم للملك الكريم عليه الوفي له. ولكن الأمر لم يدم طويلا؛ فقد وقعت الحرب المقيتة، وغدر الملك خلدون ملك ياقوتة بالملك هزبر، فارتكب مجزرة قتل فيها الملك وجل أهله. وانهارت مملكة بقاء، وهجمت عليها مملكتا ياقوتة والهيجاء بعد اتفاق مسبق مبطن بين ملكيها.

لقد كانت صحراء الكثبة في الجزء الغربي الجنوبي من مملكة البقاء، على حدودها مع مملكة الهيجاء. وفي الحرب المقيتة وبعد مقتل الملك هزبر وجل أهله، قرر الملك هزيم ملك الهيجاء الهجوم على الأجزاء الغربية من مملكة البقاء، ومنها صحراء الكثبة.

ولما علم الشيخ عامر بمقتل الملك هزبر، وبالطريقة التي اغتيل فيها، في مجزرة بشعة ملؤها الغدر والخبث، حزن حزنا هو الأعظم في حياته كلها.

أرسل ملك الهيجاء فيلقا كبيرا من جيشه لاحتلال الكثبة وإخضاع قبائلها، وعسكر الفيلق بالقرب من الكثبة. وقد ضم ما يقرب الخمسين ألف مقاتل.

فلما علم الشيخ عامر بهذا، أسرع في طلب شيوخ القبائل الموالين له جميعهم، ليحضروا إلى أرض قبيلة الأسد.

أتت الوفود إلى أرض قبيلة الأسد تنفيذا لأمر الشيخ. وقد أولم لهم وأكرم ضيافتهم، فدعاهم إلى اجتماع طارئ لا يمكن تأجيله.

اجتمع الشيوخ ووجهاء قبائلهم، ووجهاء قبيلة الأسد في بيت الشيخ عامر، وحضر الاجتماع الشيخ وحفيداه دريد والزبير.

قال الشيخ عامر: أهلا وسهلا بكم، أيها الكرام.

تنهد بألم وأسى، ثم أضاف: يا قوم، لا بد وأنكم تعلمون أن ملك الهيجاء أرسل لنا فيلقا ضخما ليحتل الكثبة.

وكما تعلمون أنا شيخ يقر بالشورى، ولا يكتفي برأيه دون آراء من حوله. يا قوم، أشيروا علي ماذا نفعل.

جعل الحضور ينظر بعضهم إلى بعض، وبدؤوا يتحادث بعضهم مع بعض، وعلت أصواتهم، حتى قال أحد الشيوخ: يا قوم... ثم قال بصوت عال حتى ينصتوا إليه: يا قوم.

نظروا جميعا إليه.

نظر الشيخ إلى الشيخ عامر، وقال: أيها الشيخ عامر، نحن أمام خيارين، إما أن نقاتل وإما أن نهاجر شرقا وننجو بأرواحنا. وفي هذه المواقف علينا الاستماع لصوت الحكمة. أيها الشيخ، علينا أن ننجو بأنفسنا وأن نغادر هذه الأرض.

فأجاب الشيخ عامر فورا: لكننا لسنا جبناء. نحن الجبابرة الذين أخضعوا أقسى صحراء في العالم لقوتنا، أفتريدنا أن نهرب كالنساء؟!

فقال شيخ آخر: أيها الشيخ عامر، نحن هنا لا نتحدث عن أرواحنا نحن الرجال فحسب. نحن نتحدث عن أرواح نسائنا وأطفالنا وشيوخنا. إذا هزمنا في الحرب، وإذا قتل معظمنا، فلن يتبقى أحد لحماية النساء والأطفال والشيوخ، فهم عندئذ إما قتلى أو عبيد. كيف نرضى أن تنتهك أعراضنا؟! علينا أن ننجو بضعفائنا وبأعراضنا وأن نحقن دماءنا.

علت الأصوات من جديد في القاعة، وجعل الناس يحادث بعضهم بعضا. وقد استاء الشيخ عامر مما قاله الشيخان؛ لأن الكرامة والعزة أمران لا غنى عنهما بالنسبة له. لكن في النهاية هو من طلب مشورة أتباعه، وعليه أن يتقبلها حتى لو كانت ضد رغبته.

وفجأة قال الزبير: يا قوم، اهدؤوا ودعوني أتحدث.

هدأ الجميع، ونظروا إلى الزبير، وبينهم جده الذي ارتاح كثيرا؛ لأن رأي الزبير يهمه.

ثم قال الزبير: يا قوم، لو فر كل قوم يريد قوم آخر مقاتلتهم، لفسدت الأرض ولاستشرى الظلم وعم الفساد.

نعم، هم أكثر منا. نعم، هم يملكون سلاحا أكثر مما نملك. لكن هذا لا يعني الاستسلام. لو خططنا تخطيطا محكما ذكيا لقتالهم، فسوف ننتصر عليهم. نحن أهل صحراء، وأي صحراء! والواحد منا عن عشرة منهم.

فرح الشيخ عامر بكلام حفيده، وعلت الأصوت من جديد حتى قال شيخ آخر: أيها الزبير، أرى فيك حماسة الشباب. لكن لو خيرتُ بين الاستماع لصوت الحكمة أو صوت الحماسة، فالأسلم هو الإنصات للحكمة.

مملكتنا ضاعت وانهارت، والملك هزبر الذي كان سدا يحمينا من أي اعتداء محتمل قد قتل. ولا يوجد لنا الآن من يحمينا.

لو أننا سنقاتل قبيلة أخرى أو حتى مجموعة أخرى من القبائل أكثر عددا منا، فسوف أشير بالقتال؛ لأننا أنداد لهم. أما أن نقاتل ونحن قبائل، مملكةً كاملة وحدنا، فهذا هو الموت عينه.

سادت الجلبة من جديد، حتى قال الشيخ عامر: يا قوم.

فأنصت الجميع، ثم أضاف: من يؤيد عدم القتال فليرفع يده.

فرفعت الغالبية العظمى أياديها، ومنهم حفيده دريد.

فاستاء الشيخ، ثم قال: من يؤيد القتال فليرفع يده.

فرفعت قلة قليلة أياديها، ومنهم حفيده الزبير.

ثم قال الشيخ: لقد شاورتكم، فأمهلوني أفكر حتى يوم غد ثم أعلمكم ماذا قررت.

منذ انتهاء الاجتماع، طفق الشيخ عامر يتفكر في المسألة، ودرس الخيارين المطروحين أمامه بعناية، وظل يقلبهما في عقله حتى اجتمع من جديد بالأناس نفسهم في اليوم التالي.

قال الشيخ عامر: أهلا بكم، يا قوم.

ثم أضاف: لقد تفكرت جيدا بالأمر... لقد قررت أن نقاتل ملك الهيجاء.

ظهرت علامات الامتعاض وعدم الرضا على وجوه الأغلبية التي لا تريد القتال، وعلى النقيض ظهرت علامات الرضا والإعجاب على وجوه من يريدون الحرب.

لقد توقع الشيخ مسبقا أن لا يرضي كلامه الأغلبية، فقال: يا قوم، إياكم أن تظنوا أنني تجاهلت مشورتكم، بل إنني تفكرت عميقا بها، وهذا لعمري أصعب تفكير خضته في حياتي، وإني أخال أنني من أكثر الناس الذي احتاروا يوما ما في تقرير أمر ما. لكن كما تعلمون فإن القائد يختار القرار الصحيح حتى وإن خالفته الأغلبية.

ثم بدأ يشرح دوافعه: نحن شجعان كرماء نأبى الهزيمة والذل، ولا يمكن لنا أن نرضى أن نعيش والناس تصمنا بعار الفرار من القتال. الموت أرحم علينا. ونحن- أهلَ صحراء هي الأقسى بين الصحارى – أكثر قوة وخبرة وحنكة من جنود الهيجاء الضعفاء المدللين الذين اعتادوا حياة المدن والقرى.

والواحد منا عن عشرة منهم.

العبارة الأخيرة هي عبارة الزبير التي قالها قبل يوم، وقد أسعده تكرار جده لها أمام أهم أهل الكثبة جميعا.

في الواقع، هنالك سبب آخر لم يذكر الشيخ عامر لاختياره للحرب، وهو أنه أراد أن ينتقم لصديقه الملك هزبر الذي أحبه بجنون، وأن يحافظ على عزة وطنه مملكة البقاء التي كان متيما بعشقها.

لم تقتنع الأغلبية التي تؤيد عدم القتال بما قاله الشيخ، لكن في النهاية هو شيخ كل الكثبة وعليهم اتباعه مهما قال؛ فهو زعيمهم وهو الذي لطالما حماهم وأنفق عليهم.

بعد انتهاء الاجتماع نادى الشيخ حفيده الزبير، وأمسك به من كتفيه وقال: لقد جعلتني فخورا من جديد، كما فعلت دائما. لقد أعجبتني مشورتك، وأعجبني إقدامك وجرأتك على الحديث رغم صغر سنك مقارنة بكثير ممن حضروا. أيها الزبير، أنت أكثر إنسان يهمني رأيه في العالم كله. وما أصررت على القتال إلا وأنا أعلم أنك تشير به.

فرح الزبير كثيرا بثقة أعظم رجل في حياته به، وحُفِرَتِ الجملةُ الأخيرةُ عميقةً في ذاكرته.

***

سار فرسان الكثبة بقيادة الشيخ عامر إلى منطقة قريبة من الحدود بين مملكتي البقاء والهيجاء، لقتال فيلق مملكة الهيجاء.

وحان موعد المعركة.

بلغ عدد جنود الكثبة ما يقرب عشرة آلاف مقاتل، في حين وصل عدد جنود الهيجاء إلى خمسين ألفاً.

وعلى الرغم من شجاعة فرسان الكثبة، فقد هالهم الفرق الهائل في العدد والعدة بينهم وبين عدوهم، وتوقعوا أن النهاية لن تكون سعيدة لهم.

لبس فرسان الكثبة زيهم المعروف الأبيض في معظمه، ويتخلله اللون الأحمر.

لبس فرسان الهيجاء زيهم المعروف الذي كان من اللون الأسود في معظمه وتخلله اللون الذهبي. وحملوا التُرُس السوداء، التي ميزت مقاتلي الهيجاء واعتمدوا كثيرا عليها في القتال. وضم جيشهم الملك هزيما وابنه وولي عهده الأمير ميمونا. وكان للملك فرقة حراسة خاصة اسمها الفرقة الذهبية، أتت أيضا إلى المعركة. وقد لبس الملك وابنه وأعضاء الفرقة الذهبية لباسا ذهبيا في معظمه وتخلله اللون الأسود، وحملوا الترس المصنوعة من الذهب الخالص، أما أغماد سيوفهم ومقابضها فصنعت كذلك من الذهب الخالص. أما علم الهيجاء فقد احتوى مثلثا أسودَ رُسم فيه ترس ذهبي وأحاط بالمثلث اللون الذهبي.

ضم صف الكثبة، الزبير ودريدا وشيوخ قبائل الكثبة جميعهم.

انطلق الجمعان أحدهما باتجاه الآخر، والتحما. وبدأ الطرفان يقتل بعضهم بعضاً. وقد أبلى الشيخ عامر بلاء حسناً، حيث جعل يقتل من جنود مملكة الهيجاء. وكذلك تألق الزبير، وإن لم يكن بمثل تألق جده؛ فهو يفتقد إلى خبرته. واستخدم الزبير أسلوب القتال المعتمد على المزج بين السيف والخنجر، كجل مقاتلي الكثبة، وهو الأسلوب الذي ظل يتبعه الزبير إلى آخر عمره.

لو قارنت أي فارس من فرسان الكثبة بجندي من جنود الهيجاء، فعلى الأغلب ستجد أن فارس الكثبة أقوى بكثير، فهو عاش طيلة عمره في صحراء قاسية، ولطالما خاض الحروب والمعارك القاسية.

لكنّ الكثرة تغلب الشجاعة، وقد فاق عدد جنود الهيجاء عدد فرسان الكثبة بأضعاف. ولذلك وعلى الرغم من بسالة الشيخ والزبير وجل مقاتلي الكثبة، فقد التهم الفيلق مقاتلي الكثبة شر التهام.

وكلما مر الوقت زاد القتل في فرسان الكثبة، وزادت هزيمتهم.

وبعد مرور الزمن، طفق كثير من فرسان الكثبة يفرون من أرض المعركة؛ فالهزيمة كانت محتومة ولا أمل بالنصر على الإطلاق.

بيد أن الشيخ عامرا، وحفيديه الزبير ودريدا ظلوا ثابتين في أرض المعركة.

ومر الزمن، ولم يبق من فرسان الكثبة سوى المئات، في حين لم يخسر فيلق الهيجاء سوى المئات من جنوده.

في تلك اللحظات أدرك الشيخ عامر أنها النهاية، جيش الكثبة العظيم هذا الذي بناه على مدى السنوات الطويلة الشاقة، انهار في معركة واحدة.

لقد خسر كل شيء، لم يعد للحياة قيمة، لكن هنالك شيء وحيد ظل لم يخسره بعد ألا وهو كرامته، وإذا فر من أرض المعركة فسيخسره وستتحول حياته إلى شقاء، لذا قرر أن يقاتل حتى يُقْتَلَ.

اقتحم الشيخ صفوف فيلق الهيجاء، وتوغل باتجاههم، كمن يمشي نحو الموت بقدميه.

لاحظ الزبير هذا، وأيقن في تلك اللحظة مدى عظمة جده، وأنه أشجع منه بمئات المرات.

لما رأى الزبير جده يتوغل باتجاه صفوف مقاتلي الهيجاء، صرخ: جدي، عد، أرجوك، عد. لا أمل في الانتصار عليهم. عد يا جدي.

سمع الشيخ صراخ حفيده، وقد عرف الزبير ذلك، لكن الشيخ تجاهله، وظل يتوغل باتجاه أعدائه. وقد كان الشيخ في تلك الأثناء يقتل خصومه وهو على جواده.

صرخ الزبير: جدي، أرجوك، نحن نحتاجك... أنا أحتاجك.

لكن الشيخ تجاهل صوت ابنه، وظل يتوغل، وبينما هو يفعل ذلك، تجمع حوله خمسة مقاتلين، فقتل الشيخ واحدا منهم، غير أن واحدا آخر طعنه في ظهره. وهكذا كانت تلك اللحظات الأخيرة في حياة القائد المقدام.

شاهد الزبير كل هذا، وكانت هذه اللحظات هي الأقسى والأكثر إيلاما مما مر من حياته ومما سيمر. سالت دموعه وأحس أن ألم الكون كله يتجمع في جسده.

جده هو قدوته التي لطالما أراد أن يصير مثلها بل أن يتفوق عليها في يوم من الأيام، لكنه أدرك حينها أنه من المستحيل أن يصل - حتى لو عاش ألف ألف عام - لشجاعة جده البطل.

انهار الزبير، وفجأة اقترب منه أخوه دريد، وأمسك به من ذراعه، وصرخ: هيا، أيها الزبير، علينا أن نرحل وننجو بحياتنا قبل أن نقتل.

"الرحيل" هي الكلمة التي اختارها دريد، لكنها كانت تعني الفرار والجبن لدى الزبير.

الزبير كان مذهولا مصعوقا في تلك اللحظات بعد مقتل جده، ووجد نفسه يركض مع أخيه دريد هاربا من أرض المعركة.

***

"لماذا لم أقاتل حتى النهاية، حتى الموت كما فعل جدي؟!" جعل الزبير يتفكر منذ اللحظة التي وافق فيها على اقتراح أخيه بالفرار من أرض المعركة.

"كيف تركتُ قتلة جدي أحياء وفررت منهم؟!" فكرة أخرى طفقت تدور في باله، إذ شعر بالعار؛ لأنه هرب من قتلة جده ولم يقتص منهم، ولأنه لم يذهب إلى جده ويدافع عنه في اللحظات الأخيرة من حياته.

منذ اللحظة التي قتل فيها الشيخ عامر، ندم الزبير لأنه أشار عليه بقتال فيلق مملكة الهيجاء، ولام نفسه على مقتل جده، ومنذ اللحظة نفسها، قرر الزبير أنه لا بد وأن يثأر لجده من قتلته، ولو بعد ألف عام.

دريد والزبير كلاهما فر من أرض المعركة على جواده مسرعا، ولما ابتعدا، ظل دريد مسرعا، في حين تباطأ الزبير، وقاد حصانه بذل وهو مطأطئ الرأس.

فلما لاحظ دريد ذلك، عاد إلى أخيه، وبينما هما على جواديهما، أمسك دريد كتفي الزبير، وصرخ: لا وقت الآن للحزن والندم.

ثم أضاف صارخا: علينا أن نرحل قبل أن يلحقوا بنا، علينا أن نصل إلى نسائنا وأطفالنا وشيوخنا وننجو بهم، لا مجال الآن للضعف.

كان الزبير كالغاطّ في النوم، وكلمات أخيه أيقظته، فانطلق الاثنان مسرعين نحو أرض الأسد.

ولما وصلا هناك، خرج إليهما القلة القليلة من الفرسان التي أبقاها الشيخ عامر في أرض القبيلة لحماية نسائها وأطفالها في حال حدوث أية هجمة غادرة.

قبل وصول دريد والزبير، وصل عدد من فرسان الأسد الفارين من المعركة؛ لذا كان الفرسان الذين خرجوا للقاء دريد والزبير على علم بما حدث في المعركة.

قال أحدهم: يا دريد، نحن نعلم ما حدث، وظللنا ننتظرك أنت والزبير، حتى نتلقى أمركما بخصوص ماذا سنفعل.

الزبير كان ما زال غارقا في بحر الصدمة؛ لذا التزم الصمت.

أما دريد، فبرباطة جأش قال: اجمع لي كل الفرسان الموجودين في أرض القبيلة، في دار جدي. سأنتظرهم أنا والزبير هناك.

ثم أضاف: بسرعة، أريد أن أجدهم جميعا هناك بسرعة فائقة.

انطلق دريد والزبير إلى دار جدهما، وبعد زمن قصير تجمع كل فرسان الأسد هناك.

فلما اجتمعوا، قال دريد: يا قوم، لا مجال الآن للكلام الكثير، لقد خسرنا الحرب، وقُتِلَ جدي الشيخ عامر. وجيش الهيجاء لن يصبر علينا، وسيهاجمنا في أية لحظة. نحن الآن مهزومون وغير منظمين، وعلينا أن ننجو بأرواحنا قبل أن يجهزوا علينا، على الأقل علينا أن نؤمن حياة نسائنا وأطفالنا قبل أن يستعبدهم ملك الهيجاء.

سنتجه شرقا، ونتوغل في صحراء الكثبة أكثر وأكثر، حتى نصعب المهمة على جيش الهيجاء.

ثم نظر إليهم وقال: فليذهب خمسون منكم، إلى شيوخ قبائل الكثبة في أراضيهم، وليخبروهم أننا سنجتمع بهم جميعا في أرض قبيلة المعصومين، وهناك سنناقش ماذا سنفعل فيما بعد.

كانت أرض قبيلة المعصومين أبعد القبائل عن مملكة الهيجاء، إذ وقعت شرقيّ صحراء الكثبة، ولم يقع إلى الشرق منها أية قبيلة أخرى، لذا اختارها دريد نقطة للتجمع لأنها آمن مكان بعيدا عن براثن ملك الهيجاء.

وأكمل دريد: أما بقية الفرسان، فلتذهبوا إلى النساء والأطفال والشيوخ، ولتجمعوا أهم المتاع وما يكفي من الغذاء، ولنتجه فورا نحو أرض المعصومين.

ظل الزبير ملتزما الصمت، بينما بدأ فرسان الأسد ينفذون أوامر دريد.

انطلق خمسون فارسا لإيصال رسالة دريد إلى شيوخ الكثبة، بينما قاد قبيلته كلها ولم يذر امرأ واحدا في أرض الأسد، واتجهوا جميعا نحو أرض المعصومين، بعد أن أخذوا كل ثمين من حلي وذهب ومال.

اتسمت رحلتهم بالقساوة والصعوبة؛ فقد أحسوا جميعا بالذل وهم يتركون أرضهم صاغرين أذلاء فرارا من ملك الهيجاء. القبيلة التي لطالما عاشت عزيزة مفتخرة بأنها تقود الكثبة كلها، ها هي تفر من قتلة شيخها وأبنائها بدل أن تبقى لمواجهتهم والثأر منهم.

الأصدقاء العاديون، معرفتنا بهم لا يميزها ذلك الشيء الفريد، ويمكن أن ننساهم في أية لحظة. لكن الأصدقاء الحقيقيون هم أولئك الذين لهم مكانة مميزة في القلب، لا يمكن أن تختفي أبدا؛ وذلك بسبب مواقف عظيمة أدوها، أو كانوا – على الأقل – جزءا بارزا فيها.

هذا ما ميز العلاقة بين الزبير، وقيس أعز أصدقائه على الإطلاق.

الجميع خشوا الزبير، حتى الذين كبروه بأعوام بلغت أحيانا أربعين عاما! فكيف بمن هم في عمره أو قريبون من عمره؟!

لذلك قلل أقران الزبير من الحديث مع

وهذا كله انطبق على قيس كذلك. لكن هذا الشاب أحب الزبير حبا جما ربما اقترب من حب والدي الزبير له. لذلك قرر قيس أن يضغط على نفسه، وأن يقاوم الخوف والرهبة اللذين بداخله تجاه الزبير، وأن يحادثه بخصوص مقتل جده.

وبينما قبيلة الأسد توقفت قليلا عن المسير في رحلتها، وبينما الزبير وحده، اقترب منه قيس الذي تحين مثل هذه الفرصة.

لم يشعر الزبير باقتراب قيس، فباله شُغل بما حدث لجده، ولم يستوعب أي شيء يدور حوله.

"مرحبا... أيها الزبير" قال قيس برهبة.

لم يرد الزبير الذي كان شارد الذهن.

"أيها الزبير، كيف حالك؟" قال قيس بصوت عال.

انتبه الزبير حينها وقال بحزن عارم: أنا بخير.

"أيها الزبير" قال قيس وأكمل: ما حدث سيئ جدا، وهو غالبا أسوأ ما ستواجهه في حياتك كلها.

تنهد ثم أضاف: سأكذب إن قلت هو سهل... إنه صعب للغاية. وليس لأحد لم يواجهه أن ينظّر عليك... لكن أيها الزبير، مهما فعلت لن يعود جدك... لقد انتهى ذلك... أنت أعظم رجل في الكثبة... وكل أهلها يعتمدون عليك... بقاؤهم رهن بك... لذا استجمع قواك وقدنا نحو الانتصار.

كاد قيس يبكي في لحظات الألم والذل والهزيمة تلك، غير أنه منع نفسه من ذلك؛ لأنه لم يرد أن يزيد ببكائه من آلام الزبير، ثم قال بصوت مرتجف: أرجوك... أيها الزبير... لا تستسلم...

ثم أضاف بعد حين: أرجوك...

نظر الزبير مكسور الجناح بعينين حادتين إلى قيس، ثم عاود النظر إلى الأرض كما فعل طيلة المحادثة.

تنهد قيس من جديد ورحل من المكان، دون أن يعلم أن كلماته هذه نجحت كثيرا في شحن الزبير وتحميسه للخروج مما هو فيه.

فالزبير منذ الذي حدث لم يواسه أحد غير أهله، ولم يتوقع الزبير مثل ذلك؛ بسبب الحاجز بينه وبين سائر أهل القبيلة. ولذلك ترك ما فعله قيس بصمته في قلب الزبير، وزادت محبة الأخير الكبيرة له.

***

مضت أيام، ثم وصل دريد ومن معه إلى أرض قبيلة المعصومين.

خرج إليهم شيخ المعصومين، ورحب بهم: أهلا بدريد والزبير، يا قوم قد حللتم أهلا ووطئتم سهلا.

ثم أضاف: تفضل، يا دريد وأيها الزبير، إلى داري.

ثم أمر أفراد قبيلته: يا قوم، أحسنوا استقبال من أتى من إخواننا الأسد. أكرموهم وأطعموهم وأسكنوهم دياركم.

دخل دريد والزبير دار الشيخ، بينما توزع أفراد الأسد على دور أهل قبيلة المعصومين الذين أكرموهم ونفذوا سائر أوامر شيخهم.

بعدما دخل دريد والزبير دار الشيخ، نادى الشيخ عبيده، ثم أمرهم: أحضروا الطعام والشراب للشيوخ.

فقال دريد: أيها الشيخ، لا وقت الآن لمثل هذا، علينا أن نخطط لما سنفعله، لقد أرسلت إلى سائر شيوخ الكثبة وأخبرتهم أن يجتمعوا هنا في أرضك، حتى نقرر معا ما الخطوة القادمة.

فرد الشيخ: نعم، أعلم هذا، فقد أتت بعض القبائل إلينا قبل وصولكم، وأنا في انتظار البقية.

ظلت القبائل تتوافد على أرض المعصومين حتى تجمعوا كلهم فيها، وحالما تأكد دريد من قدوم كل الشيوخ أو من ينوب عنهم، طلب من شيخ المعصومين أن يدعوهم إلى داره ليجتمع بهم.

بعض شيوخ الكثبة قتلوا في المعركة؛ لذا أتى ابن كل منهم أو أخوه أو من اختاره قومه نائبا عنه.

اجتمع دريد والزبير وشيوخ الكثبة أو من ينوب عنهم في دار شيخ المعصومين.

وهناك ضيفهم شيخ المعصومين ورحب بهم.

وبعد حين قال دريد: يا قوم، لقد أرسلت في طلبكم، وطلبت اجتماعكم هنا، حتى نقرر ماذا سنفعل، ولكي نتحرك كجسد واحد لا كقبائلَ متفرقة ضعيفة.

فقال أحد الشيوخ الحاضرين: ولكن...

شعر بالرهبة مما سيقوله، لكن استجمع قواه، ثم أكمل: علينا أن نختار شيخا من شيوخ القبائل ليكون شيخا على الكثبة بأكملها بعد مقتل الشيخ عامر.

وخرجت أصوات من حاضرين آخرين تثني على كلامه.

شعر دريد بحرج عظيم، فقد تصرف على أنه هو شيخ الكثبة الجديد منذ لحظة مقتل جده؛ لأنه حفيده الأكبر والذي سيخلفه.

الزبير غرق في بحر الصدمة في اللحظة التي قتل فيها جده، وقد وصل عمقا سحيقا فيها، ولكن بسبب قوته ظل يسبح للأعلى في هذه البحيرة حتى ينجو منها. لقد ظل يستعيد وعيه وقوته تدريجيا، وكان ما قاله هذا الشيخ وإثناء آخرين عليه، اللحظة التي استفاق فيها.

صرخ الزبير بالقسوة التي عرفت عنه، وقد احمرت عيناه: ما هذا الذي تهرف به؟! وأنتم يا من أيدتم كلامه هل نسيتم أنفسكم؟!

ثم أكمل بالطريقة نفسها: هل نسيتم أنفسكم؟! أنتم لم تختاروا جدي شيخا عليكم بمحض إرادتكم، بعضكم لم يخضع له إلا بالسيف، وبعضكم رضي به سلما؛ لأنه علم أنه ليس ندا له. والأمر ليس لكم الآن لتقرروا من سيخلفه. شيوخ الأسد هم شيوخ الكثبة بأكملها، شاء من شاء وأبى من أبى. ومن سيخلف جدي، أمر داخل قبيلة الأسد يقررونه بمفردهم. وقد اخترنا نحن الأسد أخي دريدا شيخا علينا؛ فالعادات تنص على أن أكبر أبناء الشيخ أو حفدته هو من يخلفه. وبالتالي أخي دريد هو شيخكم وشيخ الكثبة بأكملها.

ساد صمت مخيف في الدار، وتفاجأ الجميع مما قاله الزبير والأسلوب القاسي العنيف الذي قاله به.

دريد، صحيح أنه استاء مما قالوه، لكنه أبدا لم يكن ليتصرف مثلما فعل الزبير.

الزبير تصرف بهذه الطريقة؛ لأنه فهم عقلية أهل الصحراء والبادية؛ ففي قلب كل منهم ممن عانى قسوة الصحراء طمع عظيم وشوق كبير لمباهج الحياة، لذا من المتوقع أن يطمع كل منهم بأن يكون شيخ الكثبة كلها. لهذا كله قرر في تلك اللحظة أن يكشر عن أنيابه ويمنع أية فتنة.

وفجأة وسط هذا الصمت المطبق، حدث ما لم يكن بالحسبان.

قام الزبير، وأخرج سيفه من غمده، وصرخ وقد جحظت عيناه واحمرتا غضبا: من لا يعجبه كلامي، فليقل الآن حتى أقطع رأسه.

أي شيء كان من الممكن أن يحدث في تلك اللحظة، فالحاضرون ساءتهم قسوة الزبير، فكيف به وهو يهددهم هكذا؟!

ساد صمت في الدار، وسكت الجميع، وقرروا الخضوع للزبير.

بعد زمن، قال أحد الشيوخ: أيها الزبير، لا داعي للغضب، أنتم شيوخ الكثبة وأنتم أسيادها وستظل قيادتها فيكم. لقد زل لسان من اقترح اختيار شيخ جديد وأخطأ من أيده، فلتسامحهم بطيب خلقك الذي عهدناه عنك.

هدأ الزبير مع انصياع الجميع، وكلام الشيخ، وجعل ينظر يمينا وشمالا في الحاضرين، وبعد زمن أرجع سيفه إلى غمده وجلس.

وبهذا بات دريد الشيخ الجديد للكثبة بأكملها، وإن كان ذلك بصمت الحاضرين وإذعانهم.

فقال دريد: يا قوم، قد قررت أن نسير باتجاه الشرق، لننجو من هذا الملك الحاقد. فهل لدى أحدكم أي رأي آخر يشير به علي.

ساد صمت في الدار، فقد علموا جميعا أن هذا هو الاقتراح الأفضل.

وقال شيخ: هو ذا، أيها الشيخ.

وجعلت الأصوات تؤيد الفكرة تباعا.

مقاتلو الكثبة، قتل ما يقرب نصفهم في المعركة، وهرب النصف الآخر منها. كانت ضربة قوية ولم يستطيعوا أن يقاتلوا ملك الهيجاء من جديد. وهكذا اتجهوا شرقا، وتركوا بيوتهم، وآخذوا النساء والأطفال والشيوخ، وباتوا يعيشون في الخيم. في حين ظل فيلق الهيجاء يلاحقهم، لكن ببطء لأنه عدد جنوده أكبر بكثير من عدد النازحين من أهل الكثبة.

***

((4))

ظل الزبير يقترح على أخيه الشيخ دريد أن تستمر هجرة أهل الكثبة في الجزء الشرقي منها. فعلى العكس من الجزء الغربي المبسوط السهل، امتلأ الجزء الشرقي بالوديان السحيقة والجبال الشاهقة والأراضي الوعرة. وقد اقترح الزبير ذلك؛ لأن أهل الكثبة اعتادوا مثل تلك المناطق، في حين أن فيلق الهيجاء سيعاني إذا توغل فيها؛ لأن لا خبرة له فيها.

وقد استجاب الشيخ لمشورة أخيه، وهذه باتت عادته أن يستجيب لأي شيء يشير به الزبير، الذي كان هو القائد الحقيقي، فلطالما كان أهم رجل في الكثبة بعد جده.

وعلى الرغم من كل هذه التدابير التي اتخذها أهل الكثبة للفرار والنجاة بأرواحهم، فإن الحقد والطمع أعمى ملك الهيجاء، وظل مصرا على احتلال الكثبة كلها وحتى ما بعدها من مناطق. وظل فيلق الهيجاء يتوغل بإصرار شرقا في الكثبة.

وبسبب هذا، أدرك الزبير أنه لا بد لأهل الكثبة أن يوجهوا ضربة قاسمة لفيلق الهيجاء ليردعوهم، وأدرك أنه لا بد وأن يتحول أهل الكثبة من مدافعين إلى مهاجمين. ولكن بالطبع امتاز الزبير بالواقعية؛ وقد علم أن أية مواجهة مباشرة بين مقاتلي الكثبة وفيلق الهيجاء ستنتهي بالفشل، وستتكرر مأساة الحرب التي قتل فيها جده. ولذا فكر وفكر حتى وصل لفكرة عبقرية تعتمد على الخدعة والمكر والدهاء.

خطط الزبيرللخطة جيدا، ودرس كل تفاصيلها، ثم أشار على أخيه الشيخ بها وأطلعه على التفاصيل من أصغرها إلى أكبرها. وكالعادة أنصت الشيخ لمشورة أخيه.

عندما تتجه شرقا في صحراء الكثبة، لا بد أن تمر بواد اسمه وادي "الطويل". وقد سماه أهل الكثبة بذلك لأنه طويل جدا. وقد امتاز إلى جانب ذلك بأنه سحيق وضيق جدا بحيث لا يستطيع أن يتجاور بداخله أكثر من امرئين وهما يركبان دوابهما، ويحده من الجانبين هضبتان شاسعتا الارتفاع. وقد مر به أهل الكثبة أثناء هجرتهم، وكان لا بد على فيلق الهيجاء أن يمر به ليستمر في حملته شرقا. ونظرا للعدد الهائل من جنود الهيجاء، كان من الصعب جدا عليهم أن يصعدوا الهضبتين المجاورتين للوادي الطويل، فذلك سيستغرق أضعاف الوقت بعشرات المرات مقارنة بمرورهم بالوادي، حتى إنه قد يحتاج شهورا، لا سيما مع الأسلحة والمؤن التي نقلها الفيلق معه حيثما ارتحل.

قبل تنفيذ الخطة، توجهت نساء قبائل الكثبة وجمعن ما استطعن من حشائش الصحراء، وعدن بها إلى خيامهن، وقد جمعن كميات كبيرة جدا منها. كما أنهن ملأن عددا كبير من القدور بالزيت.

اتجه عدد كبير من مقاتلي الكثبة بقيادة الشيخ دريد، ومعهم الزبير، وصعدوا الهضبتين المحيطتين بالوادي الطويل، وقد اصطحبوا معهم كل الحشائش والقدور المملوءة بالزيت. بالطبع

امتاز الأمر بالصعوبة نظرا لعلو الهضبتين، لكن عدد مقاتلي الكثبة الذين توجهوا هناك كان ضئيلا جدا ويكاد لا يرى مقارنة بعدد جنود الهيجاء، مما جعل مهمتهم أكثر سهولة، كما أنهم توجهوا هناك قبل أيام كثيرة من قدوم فيلق الهيجاء.

انتظر مقاتلو الكثبة هناك، والنار تشتعل بداخلهم، لا سيما الزبير، الذي أراد أن يوجه أية ضربة مهما كان حجمها لقتلة جده.

وبعد أيام، أتى فيلق الهيجاء العرمرم، وبدأ بالمرور بالوادي الطويل. بالطبع لم ير أحد من جنود الهيجاء أيا من مقاتلي الكثبة، فالهضبتان كانتا شاهقتا الارتفاع يصعب رؤية ما فوقهما، كما أن مقاتلي الكثبة أجادوا الاستتار لما علموا بمقدم جنود الهيجاء.

وأخذ جنود الهيجاء يمرون بالوادي، وشكلوا صفا طويلا، وتتابعوا بحيث يمرون واحدا واحدا أو اثنين اثنين؛ إذ لا يمكن أن يتجاور أكثر من اثنين داخل الوادي.

وعلى الرغم من النار المشتعلة داخل أفئدة مقاتلي الكثبة، فإنهم تمالكوا أنفسهم ولم يبدؤوا بتنفيذ الخطة، إلا في الوقت المناسب.

انتظر مقاتلو الكثبة، حتى خرج جزء لا بأس به من فيلق الهيجاء من الوادي الطويل، في حين كان جزء لا بأس به ما زال ينتظر في مؤخرة الفيلق لدخول الوادي، وانحشر جزء كبير داخل الوادي.

عندها بدأ مقاتلو الكثبة بتنفيذ خطتهم. سار جنود الهيجاء داخل الوادي مطمئني القلوب، مرتاحي النفوس، متفاخرين بانتصاراتهم الهائلة على أهل البقاء حيث أذلوهم وأذاقوهم المر. وقد علموا أن مهمتهم سهلة بملاحقة هؤلاء البدو الهمج قليلي العدد بالاتجاه شرقا في الكثبة. لكن ما لم يعلموه أن البدو من أذكى الأنام وأدهاهم وأن مكرهم لا يؤمن مهما حدث، وأنه يجب على المرء ألا يستخف بهم إذا نظر إلى مظهرهم البسيط، فخلافا له حفرت الصحراء القاسية في قلوبهم وأفئدتهم القوة والشجاعة. وفجأة ووسط سهو جنود الهيجاء، أحرق فرسان الكثبة الحشائش التي معهم وجعلوا يرمونها من الهضبتين شاهقتي الارتفاع على الوادي، وجعل يرمون القدور الممتلئة بالزيت أيضا، فباتت تتكسر وينتثر الزيت الذي بداخلها هنا وهناك. تفاجأ جنود الهيجاء بالمطر الذي ينزل عليهم من الأعلى لكن المطر لم يكن من الماء وإنما من نقيضه النار، وساد الخوف فيهم واضطربوا وجزعوا وظنوا أن هذا عقاب إلهي، فمن من الممكن أن يُسقط عليهم كل هذا من البشر؟! وبدأت النيران تشتعل فيهم، وبدأ الحريق يهاجمهم، وما زاد الطين بلة، أن مقاتلي الكثبة أطلقوا عشرات السهام المشتعلة بالنار، على الوادي، فاشتعل الزيت المتناثر في كل مكان، وزاد اشتعال الحشائش، وهبت الحريق في جنود الهيجاء، واضطربوا وجعلوا يسرعون بالمسير أو بقيادة الخيول التي يركبونها. وبعد مدة نظر الزبير وباقي مقاتلي الكثبة إلى الوادي، الذي بدا من الارتفاع الشاهق الذي كانوا عليه حزاما أحمر من النار. لقد تحول الوادي من الوادي الطويل إلى الجحيم. احترق جنود الهيجاء وهم أحياء، وتجمع الدخان في الوادي الذي كان كالمكان المغلق بسبب عمقه السحيق وضيقه الشديد، وبات من لا يموت حرقا يموت اختناقا. وظل مقاتلو الكثبة يطلقون السهام المشتعلة

بالنيران ليزيدوا حرارة السعير على خصومهم. ولما تدافع جنود الهيجاء، سقط كثير منهم على الأرض وبات بعضهم يدوس الساقطين بأقدامهم أو بحوافر الخيول التي يركبونها، حتى قتل عدد كبير من التدافع. وهكذا سلبت أرواح مقاتلي الهيجاء بين الحرق والاختناق والدهس. وبدأ جنود الهيجاء المحشورون في الوادي يحاولون مغادرته إما بالتقدم إلى الأمام أو بالعودة إلى الخلف. وتفاجأ جنود الفيلق في مقدمته ومؤخرته والذين كانوا خارج الوادي بما يحدث وباندفاع زملائهم من الوادي وكثير منهم يحترقون، كأنهم حمم تغادر بركان، أو شياطين تحاول الفرار من جهنم. وبينما ظل مقاتلو الكثبة يطلقون مزيدا من الأسهم المشتعلة ويزيدون الأمر بلاء، عم الارتباك والاضطراب وانتقل من الفارين من الوادي إلى الذين بخارجه. وبات الفيلق هائجا متفرقا يهرب منه الجميع في كل اتجاه وهم لا يدركون ما الذي يحدث. بالتأكيد الزبير بعبقريته وحنكته، أدرك أن هذا أمر حتمي وسيحصل لا محالة، لذا خطط لأن يكون هناك عدد من مقاتلي الكثبة الذين ينتظرون ارتباك فيلق الهيجاء. ولما شاهد هؤلاء المقاتلون ارتباك الفيلق، عدوا على خيولهم مسرعين، وجعلوا يطلقون الأسهم ويصطادون بها أرواح مقاتلي الفيلق، وجعلوا يلاحقون الجنود الفارين ويقتلونهم بسيوفهم. وظل مقاتلو الكثبة المباغتين، يفرون ويكرون ويقتلون من أعدائهم ما استطاعوا. كان جنود الهيجاء خائفين مرتعبين، لذلك كان أمر قتلهم سهلا للغاية من قبل مقاتلي الكثبة، لا سيما مع تصاعد الغبار من رمال الصحراء الذهبية بسبب حركة الجنود الهائجين، مما سهل مهمة مقاتلي الكثبة. وهكذا ظل مقاتلو الكثبة في أعلى الهضبتين يطلقون الأسهم المشتعلة، وظل زملاؤهم الذين على الخيول يصطادون جنود الهيجاء الواحد تلو الآخر، واستمر الأمر على هذا حتى فر كل الذين كانوا أحياء من داخل الوادي، وبدأ الفيلق يستوعب ما حدث ويتنظم، عندها غادر مقاتلو الكثبة الذين كانوا أعلى الهضبتين، وزملاؤهم الذين على الخيول المكان، بهدوء وبسرعة كأنهم ملك الموت يخطف الأرواح في ثوان معدودات بهدوء وأناقة وخفة، والأهم بمفاجأة.

وطيلة كل هذا جعل الزبير ينظر إلى منظر المحترقين في الوادي وبقية رفاقهم وهم يتقتلون، وأحس بشفاء لصدره، والنار التي أحرقت أعداءه، أطفأت ولو جزءا صغيرا من النار المشتعلة بداخله والتي لن تنطفئ كلها إلا بالانتقام الكامل من ملك الهيجاء.

***

غدا ما حدث يُعرف بمجزرة الطويل، وانتشى بها أهل البقاء بأكملها وبردت – ولو قليلا – صدورهم، في حين انخزى بها أهل الهيجاء.

لقد مثلت ضربة قوية للهيجاء ولفيلقها المتوغل في الكثبة؛ إذ خسر ذلك العدد المهول من الجنود والذين زاد عددهم عن ما يقرب الثلاثة آلاف مقاتل مقابل عشرات من مقاتلي الكثبة. ناهيك عن الإصابات التي اجتاحت الفيلق؛ حيث فاق عدد المصابين خمسة آلاف مقاتل. أصيب كثير من المقاتلين بعاهات دائمة، وتنوعت الإصابات بين الحروق، وفقدان البصر نتيجة الحروق، والكسور في العظام نتيجة تدافع الجنود ودوس بعضهم على بعض، حتى إن بعضهم أصيب بالشلل نتيجة

ضربات على الرأس والظهر، وكذلك اجتاحت الأمراض رئات كثير من المقاتلين نتيجة الاختناقات من الدخان الذي تراكم في وادي الطويل إبان مجزرة الطويل.

لطالما نظر ملك الهيجاء الملك هزيم إلى أهل الكثبة على أنهم همج ضعفاء، ولكنهم علموه درسا لن ينساه ما عاش، وأدبوه وروضوه.

وبسبب هذه الضربة المدوية، ولأن أغلب الأجزاء الشرقية من صحراء الكثبة مقفرة لا خير فيها، قرر الملك هزيم أن يوقف فيلقه عن الزحف شرقا في الكثبة، لكن أمره أن يظل في الموقع المتقدم الذي بلغه وأصر على بقائه فيه.

وهذا جعل أهل الكثبة يشعرون بالاختناق؛ فقد أرادوا تراجع الفيلق ولو قليلا. وذلك لأنهم أرادوا أن يعودوا غربا نحو الأراضي المليئة بالعشب والتي يتساقط فيها المطر، بدلا من المناطق الشرقية القفراء القاحلة.

ظل أهل الكثبة، شيوخا وأفرادا، يشكون ضيق الحال والاختناق الذي يحسون به للشيخ دريد.

وكالعادة، بحث الزبير عن حل حتى وجد بدهائه حلا للمعضلة. اقترح على أخيه، الالتفاف على فيلق الهيجاء، ومهاجمة قوافل أهل الهيجاء، وإبادتها وسرقتها على بكرة أبيها، وكل ذلك لوضع مزيد من الضغط على الملك هزيم وإجباره على التراجع. شرح الزبير الخطة لأخيه؛ فقد كان عدد مقاتلي الكثبة أقل بكثير من جنود فيلق الهيجاء، وحركتهم أسرع، ويستطيعون التحرك بأي وقت حتى في الليل والفجر، وهم أخبر بشعاب الكثبة وأراضيها من فيلق الهيجاء.

اقترح الزبير على أخيه، أن يبدؤوا حرب عصابات ضد فيلق الهيجاء؛ لأن الجيوش الضخمة دائما ما تتنغص بحروب العصابات. ورغم أن أهل الكثبة كانوا أهل مروءة وأخلاق، وأن ليس من عادتهم الإغارة على غير المقاتلين ممن كانوا في قوافل أهل الهيجاء، إلا أن أهل الهيجاء بدخولهم الكثبة، باتوا أعداء لقبائلها، إذ يعتبر ذلك إقرارا منهم بالظلم الذي ارتكبه الملك هزيم ضدهم. كما أن أهل الكثبة كانوا في وضع مزر على شفا الحد بين الحياة والموت، ووجب عليهم أن يفعلوا أي شيء مهما بلغت قذارته للنجاة بأنفسهم.

وكعادته وافق الشيخ دريد على اقتراح أخيه. وبدأت غارات جنود الكثبة على قوافل أهل الهيجاء؛ إذ قتل مقاتلو الكثبة من يحاول القتال من أفراد القافلة وأسروا الآخرين من رجالها وسبوا النساء والأطفال، وغنموا كل ما في القافلة من حلي ومؤن وخيول وسائر ما فيها. وظلوا يفعلون ذلك؛ لأن الزبير أراد إرسال رسالة للملك هزيم أنه لا أمن لأهل الهيجاء ما دام مصرا على ظلم أهل الكثبة. ومع ازدياد عدد قتلى القوافل، وضياع ما فيها من كل ثمين، وتراكم الأسرى والسبايا عند أهل الكثبة، بدأ وجهاء الهيجاء وكذلك أكبر تجارها بالتشكي للملك هزيم ومحاولة الضغط عليه لحل المعضلة. وقد اكترث الملك هزيم لآرائهم، بسبب ما امتلكوه من أموال طائلة.

وظلت الغارات تتكرر على القوافل. ولما سمع الزبير بالضغوط التي تعرض لها الملك لحل المعضلة، قرر إرسال رسول لمفاوضة الملك. فاقترح الأمر على الشيخ دريد فوافق، وأشار عليه باختيار رجل معين رسولا، فوافق كذلك.

لقد أدرك الزبير أن أهل الكثبة بمفردهم غير قادرين على هزيمة الوحش الضخم المتمثل بمملكة الهيجاء. لذا أيقن أن أفضل ما يمكن فعله هو مفاوضة الملك هزيم والحصول على أكبر المكتسبات منه.

ورغم العداوة المقيتة بين أهل الكثبة وبين الملك هزيم، فإن الزبير تيقن بأن الملك لن يقتل رسوله. كان من المعروف عند أهل البقاء ومملكتي الهيجاء وياقوتة اللتين جاورتاها أن من يقتل الرسل يوصم بالعار مدى عمره، ويحتقره الجميع حتى أقرب المقربين إليه. ويعود ذلك إلى ما حدث لآخر من فعل ذلك في هذه الممالك جميعها وهو أسود الوجه الحنشي. لقد عاش أسود الوجه في الفترة التي سبقت فترة الزبير بما يقرب الألف عام. وقد كان ملكا لمملكة مركزها منطقة الحنش الواقعة شرقي مملكة البقاء. وبالطبع لم يكن أسود الوجه جسديا، بل معنويا. وقد لقب بذلك؛ لأنه قتل رسولا أرسله له ملك عدو له كان يحاربه، ثم قطع أطرافه ورماه في وسط الحنش. وقد اعتبر ذلك خرقا للعادات والتقاليد ونقضا للمروءة والأخلاق، واستقواء على الضعيف الذي أتى مسالما لأسود الوجه. وبات الجميع يلقبونه بهذا اللقب دلالة على أن وجهه أسود بعد الفعل القبيح الذي فعله. وقد احتقره الجميع، وأولهم أهل مملكته، وحتى أقرب المقربين إليه بمن فيهم أصدقاؤه وعائلته واعتبروه أسوأ ممن يبيع نفسه للشيطان. وظل أهل مملكته يصمونه بالعار هو وأهله، ولم يستطع أهله أن يظلوا وسط هذا العار، وانتهى الأمر بأن قتل أسود الوجه من قبل أخيه ليغسل العار الذي وصمهم به. ورغم أن كثيرا من الناس آمنوا بأن هذه مجرد أسطورة، إلا أنه منذ ذلك اليوم قبل ألف عام لم يجرؤ أي من أهل الممالك الثلاث على قتل أي رسول. لهذا كله اطمئن الزبير أن الملك هزيم لن يقتل رسول الكثبة.

الرجل الذي اختاره الزبير كان شيخ إحدى قبائل الكثبة، وأمهر أهل الكثبة في التفاوض والمراوغة على الإطلاق. واسمه هو ضرار. جل البدو من أهل الكثبة، تميزوا بالذكاء، وفيهم مكر، ولطالما لجؤوا للخدع؛ لأن جلهم فقير قليل الحيلة، والظروف الصعبة، من قسوة صحرائها ونار شمسها وقلة مطرها، أجبرتهم على تطوير نفسهم من النواحي المذكورة. ورغم كل ذلك، تميز ضرار بأنه أدهاهم في المفاوضات، وأكثرهم مهارة فيها.

دعاه الزبير إلى أرض قبيلة الأسد، فلبى الدعوة.

واجتمع به الزبير في داره.

كان رجلا نحيلا، طويلا قليلا، ذي عضلات بارزة، أنيقا في لباسه والعطر الذي يضعه، له شعر أسود على ذقنه، في حين يخلو باقي أنحاء وجهه من الشعر. وله شعر رأس أسود كثيف يمشطه تمشيطا جميلا أنيقا. وأكثر ما تميز به، هي ابتسامته الصفراء التي تحمل في طياتها كثيرا من الخداع والمكر والدهاء.

تحادث الرجلان في الدار، وأخبره الزبير بأنه يريد إرساله إلى ملك الهيجاء ليفاوضه.

"أريدك أن تنجز الأمر بأية طريقة ممكنة" أخبره الزبير.

فابتسم ضرار ابتسامته الصفراء التي تسلب اهتمام كل من يراها، وقال: اعتبر الأمر منتهيا.

فقال الزبير: لك جائزة كبيرة إذا نجحت.

فرد ضرار بذكاء: جائزتي محبتك ورضاك.

توجه ضرار على رأس وفد من فرسان الكثبة إلى القاسمة عاصمة الهيجاء، ووصل قصر الملك هزيم، والتقى به، وعرفه بنفسه وبمن معه وأنه أتى بغية عقد هدنة طويلة معه. لم يجد الملك بدا من الترحيب بهم واستقبلهم ضيوفا في قصره.

وقبل الملك ببدء التفاوض مع رسول الكثبة ومن معه، وأنشؤوا يتفاوضون ويطلب كل طرف من الطرف الآخر أمورا يريدها. تشبث كلا الطرفين بمطالبه، وأبدى كلاهما عنادا صلبا على موقفه. لكن ضرارا كان أصلب وأقوى؛ فقد تذكر كلام الزبير بأن الملك سيقبل عاجلا أم آجلا بشروطهم.

وبعد أسابيع من المفاوضات رضخ الملك لشروط أهل الكثبة؛ وذلك لأن ضرارا امتاز بأنه مفاوض مراوغ لا مثيل لدهائه في المفاوضات، ولأن الملك كان يتعرض لضغوط هائلة بسبب ما يحدث لقوافل مملكته، كما أنه علم أن الطموح وحده ما قاده لاجتياح صحراء الكثبة التي لا خيرَ كثيراً فيها لا سيما في جزئها الشرقي.

وقد قدم ضرار تنازلات منطقية وواقعية لصالح الملك؛ فقد علم الزبير أنه مهما وقف في موقف القوة، فإن أي مفاوض لا بد وأن يقدم تنازلات ليحصل على ما يريد.

وفي النهاية أقر الطرفان معاهدة هدنة مدتها مدى الحياة، تضمنت توقف قبائل الكثبة عن مهاجمة قوافل الهيجاء وتعهدهم بأن لا يحاولوا الهجوم على فيلق الهيجاء، مقابل انسحاب فيلق الهيجاء مسافة بعيدة باتجاه الغرب بحيث يستطيع أن يستوطن أهل الكثبة في غربها على أن تظل بعض الأجزاء الغربية من الكثبة تحت حكم ملك الهيجاء. كما تضمنت ألا يتدخل ملك الهيجاء بالكثبة على الإطلاق وأن يتعهد بألا يحاول مجددا أن يتوغل شرقا في الكثبة وألا يهاجم أيا من أهلها. وتضمنت أن يسلم الشيخ دريد كل من أسرهم من قوافل الهيجاء إلى الملك مقابل أن يسلم الملك هزيم كل من أسرهم من أهل الكثبة إلى الشيخ.

سُر الزبير كثيرا بنجاح ضرار، وقال: ما أذكاك! وما أدهاك! أنت "داهية الكثبة".

وبات هذا لقبه لدى الجميع منذ ذلك اليوم، حتى كاد ينسى أن اسمه ضرار!

***

((5))

بعد توقيع معاهدة الهدنة مع ملك الهيجاء، بدأ الزبير فورا بالتفكير بخطة للانتقام من حكام الهيجاء وياقوتة على حد سواء.

وما عزز رغبة الزبير، هو تضييق ملك الهيجاء وياقوتة على أهل الكثبة ومنعهم من الاتجار مع غيرهم.

***

أمضى الزبير سنينَ وهو يحبك الخطة حتى وصل إلى أفضل وجه ممكن لها.

وبعد ذلك اتجه على فوره إلى دار أخيه الشيخ دريد.

تبادل الأخوان التحايا ثم جلسا.

ضيف الشيخ أخاه، وبعد حين قال الزبير: أخي العزيز، أريد أن أعرض عليك أمرا.

لقد وثق الزبير أن أخاه لن يرفض طلبه؛ لا سيما أنه في مصلحة أهل الكثبة.

"تفضل، أيها الزبير" رد الشيخ.

فقال الزبير: إن قومنا يعيشون بضنك، وجدنا وملك البقاء وأهله غدر بهم، والبقاء باتت موطنا لأعدائنا يرتعون ويمرحون فيها.

سكت الزبير قليلا، ثم أضاف: علينا أن نفعل شيئا حيال كل هذا.

استغرب الشيخ دريد، وقال: وماذا عسانا أن نفعل؟!

فقال الزبير: لقد أعددت خطة تمكننا من الثأر ومن تحرير البقاء.

زاد استغراب الشيخ، لكنه لم يقلل من كلام الزبير، فقال: أخبرني بها.

طفق الزبير يشرح خطته التي أمضى سنين كثيرة يعد لها، وشرحها لأخيه من أول خطوة حتى أخر واحدة، وذكر أصغر تفصيل وأدق تفصيل قد تحتاجه الخطة لتنجح.

أنصت الشيخ دريد بإمعان للخطة.

لما فرغ الزبير من الشرح بعد زمن طويل، تعجب الشيخ من هذه الخطة التي بدت مستحيلة ومن عالم الخيال، وحكايات السحر والجن التي ترويها نساء الكثبة المسنات لأحفادهن.

حتى إنه هم بالضحك، لكنه كتم ضحكته توقيرا للزبير الذي احترمه بكل ذرة من ذرات قلبه.

قال الشيخ دريد: أيها الزبير... أنت تعلم كم أحترمك، وكم أقدر رأيك، وأني لطالما أنصتّ لمشورتك، وأنني لم أستخف بأي من خططك مهما بلغت صعوبتها ومهما بدت مستحيلة، وما قبولي بخطتك التي أودت إلى مجزرة الطويل إلا أكبر دليل على ذلك.

تنهد الشيخ بحرقة، ثم أكمل: لكن، سامحني... لا أستطيع أن أوافق على خطتك.

فتح الزبير عينيه متعجبا، وتسارعت دقات قلبه وأنفاسه غضبا وغيظا، بينما أكمل الشيخ: خطتك هذه مستحيلة، وتبدو من حكايات الخيال... نحن سنوحد أهل البقاء ونقضي على ملوك الهيجاء وياقوتة! هذا أمر مستحيل... كما أنه حتى لو كان ممكنا فهو خطير جدا، وقد يقود لفناء من تبقى من أهل الكثبة، وأنا – شيخا لهم – لا أستطيع أن أوافق على أمر – غالبا – سيؤدي لاندثارهم. كما أن خطتك هذه تتضمن كثيرا من التفاصيل الدقيقة، وتحتاج لموافقة كثير من الرجال الأقوياء عليها، وفشل أي خطوة صغيرة، ورفض أي رجل من هؤلاء للوقوف معنا سيودي بها إلى الفشل.

سامحني، أيها الزبير، لا أستطيع الموافقة. يبدو أن حياتنا الصعبة في الصحراء قد جعلتك تفكر تفكيرا غير منطقي، قادك إلى هذه الخطة المستحيلة.

ازداد غضب الزبير مع كل كلمة قالها أخوه، حتى بلغ حدا عظيما، ثم قال غاضبا: دريد، خطتي مضمونة تماما، ويستحيل أن تفشل، ويجب أن ننفذها.

فرد الشيخ الذي أحزنه غضب أخيه: آسف، أيها الزبير، لا أستطيع الموافقة.

فقال الزبير: أونسكت على مقتل جدنا؟! أنحجم عن الثأر له؟! أونرضى بأن تظل البقاء محتلة؟! أونرضى بحياة الذل والفقر التي نعيشها بعد أن كنا أسيادا وأهل عز؟!

فقال الشيخ: وأيم الله، إني لا أرضى بأي مما ذكرت، وإن نفسي تتوق للانتقام من أعدائنا شر انتقام، توقَ صحرائنا للغيث... لكن، أيها الزبير، المرء يجب أن يتسم بالواقعية والمنطقية... نحن قلة مقارنة بأعدائنا، وأسلحتنا تكاد لا تذكر مقارنة بأسلحتهم، ولم يتبق لنا مال. وما تبقى من أهل البقاء ليس لنا – أهلَ الكثبة – عليهم سلطان، وربما لن يتبعونا في تنفيذ خطتنا... وهؤلاء الذين ذكرتهم في خطتك من كبار رجال البقاء، من يضمن أن يستمعوا لك.

ولو فرضنا أن كل خطوات الخطة نجحت، وتوحد كل أهل البقاء الأوفياء لها، فإن الاحتمال الأكبر هو أن نخسر ضد ملوك الهيجاء وياقوتة، الذين هم في وضع أقوى من وضع أهل البقاء.

فقال الزبير: دريد، علينا أن نفعل شيئا، لا يمكننا أن نظل هكذا ساكتين على الظلم كالأوثان.

رد دريد: اعذرني، أيها الزبير، وأرجو ألا تلح علي أكثر.

احمرت عينا الزبير غضبا، فقام وغادر دار أخيه.

كانت هذه المرة الوحيدة، التي رفض فيها دريد طلبا للزبير. لطالما كان الزبير الحاكم الفعلي للكثبة بعد مقتل جده، وهو من يحل ويربط، وقد علم الجميع بذلك.

لم يكن دريد – رغم ما يظهر عليه من الحلم وسعة الصدر – امرأ هينا.

لقد تناقض الزبير ودريد كالماء والنار، ولكن تناقضهما هذا لم يعن أن أحدهما قوي والآخر ضعيف. فالقوة لها أوجه عدة، وليست القوة دائما بالشدة والصراخ والقتال وذبح الخصوم، فالحنكة والهدوء في مواضع الشدة، وإظهار الود للأعداء – رغم كرههم- ثم الغدر بهم والإجهاز عليهم على حين غرة، كلها أوجه أخرى من وجوه القوة.

لقد اتسم الزبير بالإقدام في حين اتسم دريد بالحذر. لطالما بحث الأول عن الفوز بكل شيء، في حين بحث الثاني عن الظفر بالمضمون مقابل عدم المخاطرة وخسارة ما لدى المرء أصلا. اتصف الأول بالغضب في حين اتسم الثاني بالهدوء.

لقد كان كل واحد منهما قويا لكن بأسلوبه هو!

***

((6))

*** العام 476.**

ومرت السنوات وظل الزبير يحاول إقناع أخيه بالخطة، وما انفك الأخير يرفضها بحسم وعناد.

استيقظ قيس منذ الصباح الباكر، لبس ثوبه الملون باللونين الأحمر والأبيض في معظمه. وضع من الطِيب على عنقه ووجهه وكتفيه وأعلى صدره. ثم وضع عمامته البيضاء على رأسه.

في اليوم السابق طلب من زوجه أن تغسل لباسه جيدا وأن تحضره لليوم التالي.

لقد حرص أشد حرص على أن يكون بأفضل مظهر وهندام ورائحة؛ فهو سيقابل أعظم رجل عرفه في حياته، الرجل الأعظم في نظر أغلب أهل الكثبة كذلك.

اتجه نحو دار صديقه وسرعان ما وصل، فداراهما كانتا قريبتان إحداها من الأخرى.

كان قيس متوسط الطول مكتنز الجسد ويمكن وصفه بالسمين سمنة بسيطة، لم يمتلك شاربا في حين غطى وجهه لحية سوداء كثيفة غزيرة وطويلة امتدت إلى صدره. لم تنبع لحيته من تدين أو تصوف، بل عكست الوقار والحكمة اللذين سكنا بداخله، أو اللذين – على الأقل – ظن أنه يمتلكهما.

لقد امتلك حضورا وشخصية مميزتين، لفتا انتباه كل من شاهده وتعامل معه، وكذلك لفت انتباه كل أولئك هدوؤه، وطريقته المميزة في الحديث، وفي إلقاء الخطب الفصيحة الرنانة.

طرق قيس الباب، ففتحه له رجل قاسيةٌ ملامحُ وجههِ، له شعر أسود خفيف على أعلى رأسه، أما على جانبي رأسه وعلى مؤخرة رأسه فلم توجد شعرة واحدة، وبدت فروة رأسه البيضاء واضحة. كان لديه شعر كثيف غزير أسود اللون على ذقنه، ولم يكن لديه لحية ولا شارب. كان الرجل طويل القامة عريض المنكبين، في الحقيقة كان ضخما، وبدت ذراعاه وصدره منتفخين من كبر عضلاتهم وضخامتها. منظره بث الهيبة والوقار وأحيانا الرعب في كل من رآه.

"مرحبا، أيها الزبير" قال قيس.

"أهلا، يا قيس" قال الزبير.

ثم أضاف: تفضل بالدخول.

دخل قيس الدار التي كانت مبينة من الطين وبسيطة حالها حال سائر دور قبيلة الأسد بعد الحرب المقيتة. ثم تبعه الزبير، حتى وصلا مجلس الضيوف.

ظل قيس واقفا إجلالا للزبير، حتى أذن له الأخير: تفضل بالجلوس.

كانت أرضية الغرفة من الحجر القاسي. ووجد على محيطها أبسطة عادية، وضعت عليها وسائد استندت إلى الحيطان ليسند الموجودون ظهورهم عليها، بينما استلقت عليها هنا وهناك وسائد أخرى ليتكئ عليها الموجودون. وهذا حال كل دور القبيلة في ذلك الزمان. غرفة وأبسطة ووسائد ناقضت قمة التناقض ما اعتاد عليه أهل الكثبة لا سيما أفراد قبيلة الأسد قبل الحرب المقيتة، حين عرفوا الرخاء والغنى والرفاه.

جلس قيس على البساط وأسند ظهره إلى الوسادة على الحائط.

"كيف حالك، يا صديقي؟" قال قيس.

فرد الزبير بعد مدة وقد بدا أن الهم والحزن يشغلانه: بخير.

صب القهوة في فنجان ثم ضيفها لقيس. ثم صب القهوة في فنجان آخر وجلس، ثم قال: وأنت، كيف أمورك وأمور أهلك؟

فأجاب قيس: بخير والحمد لله.

تحادث الاثنان ثم دخل الزبير وجلب طعاما ووضعه أمام قيس، وقال: تفضل، يا صديقي.

وطفق قيس ثم الزبير بتناول الطعام، وتبادلا الحديث.

وبعد مدة قرر قيس الحديث من جديد في المسألة - التي علم أنها هي التي تزرع الهم والحزن في قلب صديقه - فقال: أيها الزبير، أتأذن لي أن أحادثك في أمر معين؟

رغم أن قيسا كان أعز أصدقاء الزبير على الإطلاق، ورغم أنه علم بمدى لين الزبير مع من يحبهم، إلا أنه تعمد الحديث بطريقة مهذبة معه وتعمد الاستئذان، لأنه علم أن بداخل الزبير مزيجا فريدا وغريبا من اللين والقسوة، لين مع من يحبهم، ولكن قسوة مع من يسيئون بحقه، وما يفصل بينهما سوى شعرة رفيعة.

علم الزبير ما هو ذلك الأمر الذي يريد أن يحادثه فيه صديقه، وقال: تفضل.

فقال قيس: أيها الزبير، يجب أن نبدأ بتنفيذ خطتك في أقرب فرصة بل فورا، لقد صبرنا سنوات طويلة، ولم يعد هنالك متسع لمزيد من الصبر.

تنهد الزبير، وبعد مدة قال: لا أعرف ما الحل!... لقد حادثت أخي بخطتي منذ سنوات، وفي المدة الأخيرة أكثرت من ذلك، بل وبالغت فيه، لكنه ما يزال مصرا على الرفض. هو الأمر الوحيد الذي رفضه لي منذ استلامه قيادة القبيلة، لكنه الأمر الأهم في حياتي حاليا.

اتسم الزبير بثقة بالغة في نفسه، لم يشهد أغلب من عرفه مثيلا لها، ورغم ذلك قال لأعز أصدقائه: أحيانا أشعر أن خطتي خيالية، أحيانا أشعر أن أخي على صواب وأنني على خطأ... لا أعرف... أحيانا أشعر أنني يجب أن أتوقف...

فقال قيس فورا: إياك، أيها الزبير، أن تتراجع ولو لحظة. نحن كلنا نثق بك، نحن كلنا نعتمد عليك. ليس أنا وأهلك وأهل الكثبة فقط. كل أهل البقاء ينتظرونك، حتى الذين لم يعلموا يوما بوجودك ولا بخطتك ينتظرونك منذ زمن بعيد. أنت الأمل، أنت الغيث الذي سينقذهم من البؤس والشقاء الذين هم جميعا فيهما. عليك أن تنفذ خطتك مهما كلف الأمر، مهما علا الثمن، مهما بلغت التضحيات. إما خطتك وإما سيظل هذا الجحيم الذي أهل البقاء فيه إلى الأبد.

نظر برزانة إلى الزبير، ثم قال: افعل أي شيء لإقناع أخيك... أي شيء.

أنصت الزبير جيدا إلى كلامه، واجتاحته المشاعر الفياضة، واستمر يفكر بعمق فيما يجب أن يفعله.

***

جلس الشيخ دريد في داره، التي كانت مبينة من الطين وبسيطة حالها حال سائر دور قبيلة الأسد.

وبينما هو كذلك طرق الباب.

قام الشيخ وفتح الباب، فوجد الزبير.

قال الشيخ: أهلا بالزبير، تفضل بالدخول.

فرد الزبير على أخيه الشيخ: مرحبا، يا دريد.

كان الشيخ متوسط الطول، وله شعر رأس كثيف أسود، وشارب أسود كثيف، بينما غطى الشعر الأسود الكثيف ذقنه ولم يكن له لحية.

دخل الرجلان وجلس الزبير، بينما ظل الشيخ واقفا وصب القهوة للزبير، الذي أخذ الفنجان من يد أخيه وجعل يشرب.

نعم، ليس من الطبيعي أن يضيف شيخ قبيلة في أي مكان من الكون ضيوفه بنفسه، لكن الزبير كان رجلا يأتي مرة كل ألف عام.

ارتشف الزبير من القهوة، ثم قال: كيف حالك، يا أخي؟

فرد دريد: بخير.

فقال الزبير: وكيف حال أهلك؟

فرد الشيخ: بأفضل حال.

ثم سأل الشيخ: وأنت كيف حالك؟

تنهد الزبير بعمق، ثم شرب ما تبقى في الفنجان من القهوة، ثم قال: أنت تعرف حالي جيدا، يا دريد، وتعرف أن ما بها هو بسببك.

عبس الشيخ وقال: ألا تمل من الحديث في الأمر نفسه مرارا وتكرارا؟! لقد تناقشنا كثيرا في المسألة وأخبرتك برأيي النهائي فيها.

عبس الزبير بدوره واحمر وجهه، وقال: يا دريد، يجب أن نثأر لجدي، لا يمكننا أن نعيش بدون ثأر، يجب أن ننتقم من ملوك الهيجاء ونمرغ أنوفهم بالتراب.

رد الشيخ دريد: هذا لن يحدث، أيها الزبير. كم مرة أخبرتك بهذا؟! أنا غير موافق على هذا الأمر، وحتى لو وافقت، فلن نستطيع هزيمة ملوك الهيجاء الذين يملكون جيوشا جرارة. نحن نكاد لا نستطيع الحفاظ على ما تبقى من أراضي الكثبة من مخالب الملك ((ميمون))، فكيف بنا نهاجمه ونثأر منه؟!

والملك ميمون كان ملك الهيجاء في اللحظات التي تحادث فيها الأخوان، وهو ابن الملك الراحل هزيم.

رد الزبير بثقة: لقد أخبرتك مرارا بخطتي التي لا يمكن أن تفشل.

فقال الشيخ باستغراب: خطتك؟!... أن نوحد ما تبقى من أراضي البقاء وأن نعيد ملوك الضياغم ملوكا على البقاء، ثم نحرر الأراضي التي احتلها ملوك الممالك المجاورة... بالله عليك، أيها الزبير، أهذا كلام يقبله عاقل؟!

فرد الزبير بحزم: نعم، خطتي تلك. لقد فكرت بها لسنوات، وحبكت أدق تفاصيلها. صدقني هي خطة كاملة، ولا يمكن أن تفشل مهما حدث.

رد الشيخ بجدية: أيها الزبير، لقد انتهى كل شيء، مملكة البقاء لن تعود مهما حدث، لقد باتت سرابا في التاريخ كالأسربة التي نراها في صحرائنا. إن علمتني الحياة شيئا، فهو أن تَقَبُّلَ الهزيمة والرضا بها من شيم الرجال الأشداء، وإن لم يفعلوا ذلك فسيظلون يتجرعون هزيمة تلو أخرى حتى يقضى عليهم.

لقد خذل مملكة البقاء من خذلها، وتهاون عن الدفاع عنها من تهاون، وحكمها مغفلون لم يشتموا رائحة الغدر والمكيدة، فاختفت هذه المملكة، ولا أريد للقبائل التي أحكمها أن تختفي مثلها.

ثم قال بصوت هادئ: حالنا الآن هو أفضل حال يمكننا العيش فيه.

استفز كلام الشيخ الزبيرَ استفزازا عظيما.

ازداد عبوس الزبير، وقال: لقد مللت من تكرار هذه المسألة معك، أهذا آخر كلامك، يا دريد؟

"نعم" رد الشيخ.

فقام الزبير، وقال: أنا سأذهب، إلى اللقاء.

فقال أخوه: إلى اللقاء.

وغادر الزبير دار أخيه.

***

ومرت الأيام، وبينما الزبير جالس بداره صباحا، طُرق الباب، قام الزبير وفتحه، فإذا به يجد طفلا في الثانية عشرة من عمره، وهذا هو سهيل ابن أخيه دريد.

تنفس سهيل بسرعة كبيرة، وبدا عليه التعب، الذي نتج عن الركض السريع، وبدا عليه كذا علامات الخوف والفزع.

قال سهيل وصوته يتقطع من تنفسه السريع: عمي الزبير، أرجوك تعال فورا إلى دارنا.

في الظروف الطبيعية لم يكن سهيل ليستعجل عمه لفعل أمر ما، فهو يكن له احتراما عظيما، بل ويشعر بخوف ورهبة كبيرين تجاهه.

عبس الزبير؛ إذ علم أن هنالك أمراً جللا قد حدث.

ثم قال: ما بك؟ ما الذي حدث؟

فرد سهيل: منذ استيقظت أمي، وجدت أبي لا يتحرك ولا يتكلم. لا ندري ما به. أمي أرسلتني إليك لكي تأتي وتراه.

بسرعة خرج الزبير، دون أن يغير ثيابه من ثياب النوم إلى ثياب أنيقة مناسبة للخروج من المنزل.

ركض بسرعة حتى دخل دار أخيه المجاروة لداره.

وجد زوجة أخيه رند تبكي بكاء شديدا، وقد احمر وجهها وسالت الدموع غزيرة على وجنيتها.

"بسرعة، أيها الزبير، بسرعة" قالت.

لم يتوقف الزبير، وظل متجها بسرعة حتى دخل غرفة أخيه، فوجد أخاه نائما على سريره دون حراك، وعيناه مفتوحتان وتنظران للأعلى دون أن ترمشا.

حالما دخل الغرفة، صرخ الزبير: دريد، ما بك؟! أجبني، يا دريد.

رند وسهيل دخلا الغرفة مع الزبير، ووقفا ينظران إليه وهو يحادث أخاه.

لم يجب دريد. اقترب الزبير من أخيه وجعل يحرك فيه، وهو يصرخ بشكل جنوني: دريد، أجبني، أرجوك، أجبني.

لكنه لم يجب.

اجتاح الخوف والفزع الزبير وهو ينظر إلى أخيه.

وبسرعة وضع أذنه على صدر أخيه، يريد أن يسمع هل يدق قلبه أم لا، لكنه لم يسمع شيئا.

مما يميز الزبير أنه يسيطر على نفسه حتى في أصعب الظروف، وعلى الرغم من فزعه وخوفه، إلا أنه سيطر على نفسه، وخرج بسرعة من الدار وسط دهشة رند وسهيل.

جعل الزبير يركض بسرعة هائلة، وتفاجأ من رآه من أهل القبيلة بسرعته وبثياب النوم التي لبسها؛ إذ اعتادوا أن يروه بأجمل حلة وأبهى لباس.

ظل الزبير يركض حتى وصل إلى دار طبيب القبيلة.

طرق الباب، ففتح الطبيب الباب، ولما رأى الزبير اجتاحته الرهبة؛ فكل أهل القرية خشوا الزبير وحسبوا له ألف حساب.

صمت الرجل وهو يرى الزبير بثياب النوم وهو يتنفس بسرعة، وقال الزبير: بسرعة تعال معي، أخي يعاني من مشكلة ما.

الطبيب كان كذلك يلبس ثياب النوم، لكنه لم يكن ليدخل ويبدلها؛ فأوامر الزبير يجب أن تنفذ في لحظة صدورها.

خرج الزبير والطبيب وهما يركضان باتجاه دار دريد، ركض الزبير أسرع بكثير من الطبيب، وكلما تأخر الطبيب في الركض، عاد الزبير إليه وأمسكه من يده وسحبه بقوة ليركض أسرع.

وظلا على هذه الحال حتى وصلا دار دريد، فدخلا غرفة نومه.

عندما رأى الطبيب دريدا، أدرك من خبرته أنه ميت، لكنه احتفظ بهذه الحقيقة لنفسه؛ لأنه خشي من غضب الزبير إذا أخبره بهذا الأمر فورا.

جعل الطبيب يحرك جسد دريد، ويفحصه، ومضى وقت، وبات من المحتم عليه أن يخبر الزبير بالحقيقة.

وقف الزبير ورند وسهيل وهم ينظرون إلى الطبيب، وقد بدت عليهم علامات الفزع.

وقف الطبيب مقابل الزبير، وقال وهو ينظر إلى أرضية الغرفة: للأسف...

صمت ثم استجمع قواه، وقال: للأسف، الشيخ قد توفي.

صرخت رند، وجعلت تبكي. أما الزبير، فقد اتجه إلى جثمان أخيه، وركع على ركبتيه، وأمسك بيده، واحمر وجهه وجعل يبكي البكاء المر، ونزلت دموعه غزيرة، وجعل يقول وصوته يتهدج: لا ترحل... يا أخي... لا ترحل... يا دريد...

لم يسبق لأحد أن رأى الزبير بهذه الحالة التي هالت رند وسهيلا والطبيب.

مشاعر الزبير اتسمت بالقوة، سواء في حزنه أو فرحه، إذا كره أحدا كرهه بجنون، وإذا أحب أحدا أحبه بجنون.

***

((7))

بعد وفاة الشيخ دريد، تجمع الناس لأداء واجب العزاء في داره. أتى من كل قبيلة تدين بالولاء للشيخ وفد يضم شيخ القبيلة وكبارها ووجهاءَها. لقد كان الشيخ بمثابة ملك غير متوج لصحراء الكثبة، وقد حسب كل من سكنها أو مر بها ألف حساب له.

قبل العزاء وقبل أن يعلم أهل الشيخ الآخرين بوفاته، وبينما نظر الزبير إلى جثمان أخيه، والدموع تتساقط غزيرة من عينيه، رأى ابن أخيه سهيلاً يبكي البكاء المر وقد احمرت وجنتاه. تمالك الزبير نفسه، وكبح دموعه، فقد علم أنه يشكل مثالا لسهيل يقتدي به، ويجب عليه أن يكون قويا وأن يتماسك، حتى يكون سهيل قويا ويتماسك بدوره.

اتجه الزبير إلى سهيل الباكي، وجلس القرفصاء، ووضعه يديه على كتفي سهيل، وقال له: سهيل، لا تبكِ. أنت رجل. أنت فارس. والرجال والفرسان يسيطرون على أنفسهم. يجب أن تكون قويا، وأن تتحكم بمشاعرك.

ثم شد بقوة على كتفيه، وأضاف: لا تخش شيئا، ولا تخف، إذا رحل أبوك، فأنا هنا موجود من أجلك وسأظل موجودا من أجلك، أحميك وأحرسك من أي ضرر.

وذلك اليوم، دُفن دريد ثم بحضور الزبير والمعزين، ثم توجهوا جميعا إلى دار دريد لتأدية واجب العزاء. وطيلة هذه الأحداث حرص الزبير على أن يظل سهيل بجواره أينما ذهب. وكلما سنحت الفرصة له، وضع يده على رأسه أو على كتفه أو ظهره، حانيا عليه.

جعل المعزون يقدمون واجب العزاء للزبير وسهيل وسائر أفراد قبيلة الأسْد. لقد شعر الزبير بحزن بالغ ينفجر بداخله، لكنه أخفاه ببراعة.

وفي اليوم الأول، قدم قيس العزاء للزبير مع سائر الحاضرين، لكن منذ وصولهم دار دريد، تحين قيس الفرصة للاختلاء بالزبير والحديث معه. وبعد مرور وقت قصير حدث ذلك، إذ خرج الزبير ومعه سهيل خارج الدار؛ حيث أراد الزبير الذي ضاق صدره أن يستنشق بعض الهواء الطلق في فناء دار دريد.

لحقه قيس، فوجد الزبير واقفا يحدق في الأفق دون حراك وهو يمسك بيد سهيل الذي وقف قريبا منه وطأطأ رأسه ونظر في الأرض. لكأن الحزن تجسد في جسدي هذين المرئين.

كانت لحظات صعبة على قيس، الذي شعر بثقل الموقف، لكنه استجمع قواه، وتنهد، ثم قال: أيها الزبير...

لم ينظر إليه الزبير، فأكمل قيس الذي زاد ارتباكه: لا أعرف ما الذي حدث! لا يمكن لأي شيء أن يفسره! ما الطريقة التي تمكن من خلالها الموت من خطف روح الغالي دريد في هذا العمر، وبهذا الأسلوب المفاجئ؟!!!

لا شيء يمكن لأي امرئ أن يقوله، من شأنه أن يخفف ألمك... الموت أمر قاسٍ جدا، خصوصا إذا عانيت منه أكثر من مرة... وإذا أتى فجأة كما حدث مع الغالي دريد، وبالأخص عندما تفقد أغلى ثلاثة على قلبك في هذا العالم...

وقد قصد ب "الثلاثة" جد الزبير وأبيه وأخيه.

لم يطرأ أي تغير على ملامح الزبير، الذي أيقن قيس أنه يتألم أشد ألم من الداخل.

ثم أكمل قيس: لكن أيها الزبير، الحياة يجب أن تستمر، وأنت أقوى رجل في هذا العالم بأكمله، إذا استسلمت أنت للموت، ماذا تركت للبقية الذين هم جميعا أقل قوة منك؟!

عليك أن تستجمع قواك، وأن تقودنا جميعا نحو الانتقام ونحو النصر والعزة، وأن تعلي رايتنا في الكون كله.

افعل ذلك من أجل جدك ومن أجل دريد ومن أجل سهيل، من أجلي وكل أهل الكثبة وكل أهل البقاء.

اقترب قيس من الزبير الذي ظل جامدا كالتمثال، ووضع يده على كتفه، ثم أكمل: أعلم أن البعيدين عن أي أزمة ليسوا كالواقعين فيها، لكنني واثق أنك ستتجاوزها قريبا.

ثم أزال يده عن كتف الزبير، ونظر إليه نظرة أخيرة آلمت قلبه، قبل أن ينسحب ويعود إلى داخل الدار.

تلك اللحظة واحدة من ثلاث لحظات فقط، شاهد فيها قيس الزبير في أسوأ حالة ممكنة له. الأولى لحظة مقتل جده، وهذه هي الثانية، أما الثالثة فستأتي بعد سنوات كثيرة جدا.

وفي اليوم الثالث من العزاء، في ركن من دار الشيخ الراحل، حيث كانت الغالبية العظمى من الجالسين من قبيلة الأسد، وقف واحد منهم وهو رجل مسن، اسمه يامن، وقال: يا قوم، أيها الأسد، بحلول الليلة سينتهي العزاء، وأنا أدعوكم لوليمة في داري غدا، فعلينا أن نناقش أمورا هامة تخص قبيلتنا. يجب عليكم جميعا أن تأتوا.

ثم نظر إلى الزبير – الذي جلس سهيل بجانبه – وقال: وأنت أيها الزبير، وابن أخيك، أهم من يجب أن يحضر.

في تلك اللحظة أومأ الزبير برأسه موافقا، فقد فهم فورا لماذا دعاهم يامن إلى الوليمة، على العكس من سهيل الذي نظر إلى الأرض بالخجل الذي كان عليه منذ بداية العزاء، وظن أن الأمر مجرد وليمة عادية.

وكذلك عرف قيس وداهية الكثبة - اللذان حضرا العزاء - ما الأمر الذي أراد يامن الحديث فيه. وهذان الاثنان، منذ الهدنة التي أبرمها الشيخ دريد مع ملك الهيجاء، لم يغيبا عن اجتماع حضره الزبير؛ فهما أعز أصدقائه وأتباعه، وشكل قيس يده اليمنى، في حين شكل الداهية يده اليسرى.

في ظهيرة اليوم التالي، لبس الزبير لباسا أنيقا، وذهب إلى دار أخيه، وطلب من أرملته أن تعد ابنها سهيلا لكي يأتي معه إلى الوليمة، ففعلت.

اتجه الزبير وسهيل إلى دار يامن. ومع مرور الوقت، اجتمع هناك أغلب وجهاء القبيلة إضافة إلى عدد كبير من رجالها.

وضع أولاد يامن الطعام والشراب للضيوف الذين أكلوا وشربوا.

ولما فرغوا من غسيل أيديهم وأفواههم، عادوا جميعا للجلوس وأنصتوا؛ فقد علموا أن يامنا يريد الحديث في أمر هام.

قال يامن: يا قوم، لقد جمعتكم اليوم لنتحدث بشأن هام لنا جميعا...

جعل يقلب أنظاره بين ضيوفه، ثم أضاف: لقد توفي شيخنا، وعلينا أن نبايع شيخا جديدا...

لم يتفاجأ الزبير؛ فقد علم مسبقا بأن هذا هو الأمر الذي دعاهم يامن للحديث عنه.

أكمل يامن: تنص عاداتنا على أن يخلف الشيخ أكبر أبنائه. ونحن لسنا قوما يغيرون عاداتهم مع كل ظرف... لكن شيخنا الراحل توفي شابا، وابنه الأكبر صغير في السن...

نظر الجميع إلى سهيل، بينما أكمل يامن: لذا أرى أن الحكمة في أن يخلف الشيخ رجل آخر من القبيلة...

أنصت الجميع في هذه اللحظات بإمعان؛ لأنهم علموا أن يامنا على وشك اقتراح اسم الشيخ الجديد.

أكمل يامن: ولم أجد بيننا، رجلاً يجمع بين القوة والخير، وبين الصلابة والحكمة، سوى... الزبير.

نظر الجميع إلى الزبير، ثم أكمل العجوز: وهو يمتاز بميزة أخرى، وهو أنه ثاني أقرب رجل إلى شيخنا الراحل دريد بعد ابنه الصغير، وبالتالي ستظل قيادة القبيلة محصورة في عائلة شيخنا الراحل، ولن نغبنهم حقهم.

ساد صمت في الدار، حتى قال العجوز: إن وُجِدَ لدى أحدكم اعتراض، فليخبرنا به وليرشح لنا اسما آخرَ. فهل بينكم معترض.

صمت الجميع، فكل واحد منهم عرف أن الزبير أفضل رجال القبيلة وأقواها، بل أفضل رجال الكثبة كلها وأقواهم. لم يمتلك أحدهم الجرأة على الاعتراض.

وفجأة تكلم أحدهم معترضا، ولم يتوقع أحد أن يكون هو بالذات المعترض.

"أنا أعترض..." قال الزبير بصوت حازم قوي، فاندهش كل الحاضرين.

ثم أكمل: لا يمكن لنا أن نغير عاداتنا، ابن الشيخ هو الذي يخلفه، وابن أخي سهيل أحق مني بالخلافة. وهو مثل ابني ولا يمكن لي أن أسلبه حقه.

شعر سهيل بسعادة بالغة؛ ليس لأنه يريد أن يصير شيخا للقبيلة، ولكن لأن أعظم رجل قابله في حياته يدافع عنه، بل يؤثره على نفسه.

فقال يامن: أيها الزبير، أنا لم أرشحك تحيزا لك... ولا تجنيا على ابن أخيك. ولكن مصلحة القوم، ومصلحة كل أهل الصحراء الذين يدينون لنا بالولاء، أهم من مصلحة فرد واحد.

صمت العجوز ثم أكمل: هي أهم من مصلحتي ومصلحتك ومصحلة ابن أخيك... أنا رشحتك لأن في ذلك الأفضل للقوم... ابن أخيك صغير ويحتاج عشر سنوات حتى يصير قادرا على قيادتنا... ونحن في صحراء قاسية، ويتربص بنا الأعداء من كل حدب وصوب، ويجب أن يقودنا رجل قوي.

"لكن أنا لا أقبل ترشيحك" قال الزبير فورا.

ساد هرج في الدار، وجعل الجميع يتحادثون مدهوشين، حتى قال رجل مسن بينهم بصوت عالٍ: يا قوم... يا قوم... أنصتوا إلي.

فأنصت الجميع إليه، فأضاف: أنا أقترح حلا، فلنستشر صاحب الشأن.

ثم نظر إلى سهيل وقال: يا سهيل، هل لك أن تخبرنا إن كنت تعترض على اختيار عمك الزبير بدلا منك قائدا للقبيلة.

نظر الجميع إلى الطفل، الذي أصبح على شفا الموت من الخجل، وبسبب ذلك ظل ينظر في الأرض دون أية حركة أو كلمة، حتى خالوه صنما.

وفجأة قال الزبير: يا قوم، سهيل رجل وهو قوي، لكنه خجول.

ثم أضاف: أنا مستاء مما يحدث، لكن أرى أن أغلبكم يريدني قائدا للقبيلة... وحتى نحل الموضوع، سأطلب من ابن أخي أن يبدي رأيه.

ثم نظر إلى سهيل وقال: يا سهيل، إن كنت ترفض أن أنوب عنك فأومئ برأسك رافضا، وإن كنت توافق على ذلك فأومئ برأسك موافقا.

صحيح أنه أحس بخجل في تلك اللحظات هو الأعظم في حياته، ولكنه قرر أن ينفذ أمر عمه الذي لا يعصي له أمرا.

أومأ سهيل برأسه موافقا على أن يغدو عمه القائد.

ابتسم قيس فرحا بذلك؛ لأن الأسطورة – بنظره – الزبير سيغدو أخيرا الآمر الناهي لقبائل الكثبة. وكذلك فرح الداهية.

عندها قال أحدهم: لنبايع الزبير.

فوقف أغلب القوم يريدون مبايعته.

لكن الزبير وقف وقال بصوت عال: يا قوم، قبل أن تبايعوني، أُشهد الله وأشهدكم أنني لا أزيح ابن أخي عن منصب هو الأحق به، وأشهد الله وأشهدكم أنني سأرجع له قيادة القبيلة ذات يوم عندما يكبر وعندما يكون الوقت مناسبا.

ثم نظر إلى سهيل وقال: يا سهيل، يا ابن أخي، أنت أعز الناس على قلبي بعد وفاة أخي، وأنت ابني، ولأنني ليس لي أولاد، فستكون كنيتي منذ اليوم "أبا سهيل"، وأريد من القوم جميعا أن ينادوني بها. كن يا سهيل على ثقة أنني أحبك حبا جما ولم أخدعك ولم أسلب منك شيئا... إنما استجبت للقوم لأنهم أصروا.

فرح سهيل بكلام عمه الحاني، وشعر بثقة بالغة.

بينما طفق أهل القبيلة يبايعون أبا سهيل شيخا جديدا لهم، وقائدا لصحراء الكثبة بأكملها.

***

هل احتاجت النار المضرمة بصدر الزبير - رغبةً في تنفيذ خطته والثأر من قتلة جده - مزيدا من الحرارة لتشتعل أكثر وأكثر؟!

هذا تماما ما حدث عندما زاره قيس.

فبعد مرور ثلاثة أيام – فقط - من تنصيبه شيخا على قبائل الكثبة كلها، وبينما هو في داره، أتاه صديقه.

تبادل الاثنان التحية، وجلسا سوية في غرفة الجلوس، وضيف الزبير قيسا.

تبادلا حديثا عاديا حتى قال قيس: أيها الزبير، متى سنشرع بتنفيذ خطتك وبالانتقام؟

ثم أضاف وهو ينظر إلى الزبير نظرات ملؤها الجدية والتصميم: يجب أن نفعل ذلك فورا.

فقال الزبير والنيران تخرج من عينيه: وهل تظن أنه قد مرت علي لحظة منذ مبايعتي شيخا لم أفكر بها في الخطة وفي الانتقام؟! هل تظن أنه مرت علي لحظة منذ ذلك الحين، لم أر فيها طيف جدي وهو يخاطبني متسائلا متى سأثأر له؟!

فقال قيس الذي لم تخف النار التي في صدره حماوة عن تلك التي بصدر صديقه: لا مجال – أيها الزبير – للانتظار، لم يعد هنالك وقت!

فرد الزبير: لك ذلك، يا قيس. سأبدأ بتنفيذ الخطة بوقت أقرب مما قد تتخيل. سأنتقم لجدي وللكثبة وسأمرغ وجوه أعدائنا بالطين. لا تخف، يا قيس.

ثم قال بنبرة قاسية قوية: ليس الزبير بالذي يسكت على الثأر وعلى الضيم. والله لتأتي أيام كثيرة تسر قلبك وتفرح فؤادك.

ابتسم قيس ابتسامة عريضة؛ فهو يعرف جيدا أن صديقه إذا وعد وعدا أوفى به...

***

بعد مدة قصيرة من مبايعة الناس للزبير قائدا لقبيلة الأسد وقبائل الكثبة، أرسل الزبير يدعو شيوخ القبائل التابعة له لزيارة أرض قبيلة الأسد لأنه يريد إعلامهم بأمر معين.

توافدت وفود القبائل على أرض قبيلة الأسد، حيث ضم كل وفد شيخ القبيلة ووجهاءَها.

وكلما وصل وفد دخلوا دار الزبير، وأعلنوا الولاء له وأهدوه هدايا أحضروها معهم.

أكرم الزبير وفادة الوفود، وضيفهم ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وحرص على أن يستضيفهم في خيار ديار القبيلة.

وبعد أيام ولما اجتمعت كل الوفود في أرض الأسد، أعلمهم الزبير أنه يريد أن يخطب بهم في ظهيرة اليوم التالي.

تجمع أعضاء الوفود وكذلك أعضاء قبيلة الأسد في ذلك اليوم في ساحة كبيرة، خصصت لإلقاء الخطابات.

انتظر الجمع الغفير هناك، ولما اجتمعوا أتى الزبير، ووقف على قطعة خشبية كبيرة، مرتفعة عن سطح الأرض، وقد وضعت هناك حتى يقف عليها، فيراه كل المجتمعين وهو يلقي خطبته.

"السلام عليكم، يا قوم" قال الزبير. ثم أكمل: لقد حللتم أهلا ووطئتم سهلا، إذ أتيتم إلى أرضنا، أرض الأسد. وهي أرضكم؛ فنحن – وإن كثرت قبائلنا – قبيلة واحدة وعائلة واحدة، ولا فرق بين أحد منا. أنتم إخوتي وأبنائي وأعمامي وأخوالي.

اتسم منظره وهو يخطب فيهم بالهيبة والوقار، وبث في صدورهم مزيجا من توقيره والخشية منه، إضافة إلى الشعور بالطمأنينة بأنه شيخ شيوخ قبائلهم، وهو يمتاز بما يمتاز به من الدهاء والقوة والفراسة والشجاعة.

وأكمل: لقد وافت أخي الشيخ دريداً المنيةُ، وبايعني قومي شيخا عليهم وبت شيخا على كل قبائل الكثبة.

وسأكمل مسيرة أبي وأخي من بعده في قيادتكم، وفي خدمتكم والحرص على مصالحكم وحمايتكم.

على الرغم من قوته، لم يتصف الزبير بالغرور والتكبر، وقد تعمد في خطابه أن يقول إنه يخدمهم، لأنه أراد أن يطيعوه عن طيب خاطر.

وأكمل: يا قوم، إني جمعتكم اليوم، لأطلعكم على أمر جلل قررت تنفيذه.

زاد تركيز القوم، وتشوقوا لمعرفة الأمر.

فأكمل: لقد غدر بنا ملوك الهيجاء، وتجرؤوا علينا، وقتلوا جدي شيخنا، وقتلوا منا من قتلوا وأسروا من أسروا، وطردونا من ديارنا ولاحقونا فيما تبقى من صحرائنا.

ثم صرخ بصوت عال ملؤه الحزم والشدة: وها أنا أقسم أمامكم، أنه لن يهدأ لي جفن حتى أنتقم من ملك الهيجاء ومناصريه.

ثم ارتفع صوته أكثر وأكثر وهو يقول: نحن قوم أعزاء، لا نرضى بالذل والهوان. الموت علينا أرحم من الخضوع.

خسئ ملك الهيجاء، وخسئ من سبقه، وخسئ من أيده.

وأكمل صارخا: استعدوا يا قوم، للانتقام، حتى يعلم أهل البسيطة جميعا من هم قبائل الكثبة.

دبت الحماسة في قلوب الحضور جميعا، وجعلوا يصرخون معا على قلب رجل واحد، وأفئدتهم تلتهب توقا للانتقام: يحيا الزبير... يحيا الزبير... يحيا الزبير...

اجتاحت الفرحة قلبه، واطمأن إلى وقوفهم بجانبه في قادم الأيام في تنفيذ خطته.

***

أول قرار حقيقي اتخذه الزبير بعد تسلمه قيادة الكثبة هو إعلام أهلها بخطته للانتقام؛ لأنه أراد أن يكسب أكبر وقت ممكن قبل الشروع في تنفيذ هذه الخطة الصعبة.

لقد امتاز الزبير بقوة الملاحظة ودقتها، ولقد اقتنع أن العظماء يخلقون الفرص من العدم، فكيف بهم إذا وجدت فرص سانحة أمام أعينهم؟!

هذا كله فسر ثاني أهم قرار اتخذه بعد مبايعته شيخا.

في ذلك الزمان والمكان، انتشرت العبودية، وفي مملكة البقاء وما حولها كان معظم العبيد من ذوي البشرة السوداء. وهذا انطبق على قبائل الكثبة ومنهم الأسد، ففي الفترة التي ساد فيها الأسد وامتلكوا فيها كثيرا من المال، امتلكوا عددا كبيرا من العبيد والإماء. حتى إن أقل الأسد ثراء امتلك الواحد منهم عبدا واحدا أو أمة واحدة على الأقل.

ومرت الأيام، وهزم ملوك الهيجاء قبائل الكثبة، فهاجرت القبائل شرقا، وضاعت معظم أموالها وأملاكها. ورغم ذلك ظل العبيد والإماء ملكا لأفراد القبائل.

منذ صغره، لاحظ الزبير أن العبيد ذوي البشرة السوداء، مختلفون جسديا، عن أفراد الكثبة وسائر البقاء؛ فمعظم أطول قامة وأقوى جسديا وبكثير، ومعظم أجسادهم تملؤها العضلات المفتولة! وفي المعارك، عندما يطلب السادة من عبيدهم القتال إلى جانبهم، اتضحت جليا قوتهم في القتال. وكذلك لاحظ الزبير – قوي الملاحظة – أنهم لا يشتاقون لشيء في الحياة شوقهم للحرية، وأنهم مستعدون لفعل أي شيء لنيلها. لذا قرر أن يستغل هذا كله لصالحه، فقد علم جيدا أنه إذا منحهم حريتهم فسيمنحونه ولاءهم، وسيوفون له حتى أكثر من أفراد عائلته.

أمر الزبير بجمع كل العبيد القاطنين في أرض قبيلة الأسد ليحادثهم، ومنع أي أحد من الأحرار من حضور هذا الاجتماع حتى أقرب المقربين منه بمن فيهم سهيل وقيس والداهية. وشدد على أن يحضر الاجتماع عبد أسود اسمه بيدق.

أتى عبيد الأسد جميعهم إلى الاجتماع، ومعظمهم من ذوي البشرة السوداء، وحضر بيدق. كان بيدق مملوكا لواحد من أثرى رجال الأسد بل البقاء كلها في الفترة التي سبقت الحرب المقيتة، لكنه فقد جل أمواله وما ملك إبان الحرب. ومنذ صغر الزبير، لاحظ أن بيدق رجل قوي جدا، وليس المقصود هنا قوة الجسد، رغم أنه تميز بذلك، ولكن المقصود هنا قوة الشخصية. رغم أن بيدق عبد وأنه كسائر العبيد أطاع مالكه طاعة عمياء، لكن نفسه كانت عزيزة كأنها نفس رجل حر. لطالما بدا عليه أنه غير سعيد بحقيقة أنه عبد، وإذا طلب منه أحد من الأحرار شيئا كان ينفذه لكن يبدو على وجهه عدم الرضا والامتعاض. لم يذكر أحد طيلة السنوات الكثيرة، أنه رآه وهو يضحك بل حتى يبتسم. بيدق أتى أكثر من مرة إلى دار الشيخ الراحل عامر- جد الزبير – وعرض عليه أن يصير خادمه الوفي وحارسه الأكثر ولاء، إذا أعتقه من العبودية. وقد علم الزبير بهذه الزيارات وما فيها. لكن الشيخ عامرا ظل يرفض هذا الطلب؛ لأنه أراد أن يحافظ على علاقته الطيبة بالرجل الثري جدا الذي امتلك بيدقا وكان يرفض نهائيا فكرة بيعه لأحد. وفي كل مرة، وبخ الشيخ عامر بيدقا وطالبه بعدم العودة إلى أحد في هذا الموضوع، لكن الشيخ – ولحسن أخلاقه – لم يعلم مالك بيدق بكل هذا.

وقف العبيد الكثيرون في حضرة الزبير ومنهم بيدق. كان رجلا أسود متوسط الطول، ممتلئا قليلا، وقد انتشرت العضلات المفتولة من أعلى جسده إلى أسفله. امتلك لحية وشاربا أسودين كثيفين لكن مهذبين بطريقة توحي أنه حر لا عبد، وتخلل شعر رأسه ووجهه شعر أبيض هنا وهناك أضفى على هيئته مزيدا من الوقار. نظر إليه الزبير، ورأى فيه الفخامة والوقار، نظر إلى عينيه الشرستين إذ مال لون بياضهما للصفار، بينما كانت أسنانه ناصعة البياض كأنه بياض حسام، وناقضت تماما لون بشرته السوداء.

كان الاجتماع خارج أرض الأسد في منطقة قريبة منها؛ لأن الزبير لم يرد لأحد من أفراد قبيلته أن يعلم بما سيدور في اجتماعه مع العبيد.

وقف الزبير مقابل العدد الغفير من العبيد، ثم قال: أهلا بكم، يا قوم.

استغربوا جميعا من مخاطبته لهم بالقوم؛ ففي ذلك الزمان والمكان، تعامل الأحرار باستعلاء وطبقية مفرطين مع العبيد. ولم يرد أحد التحية على الزبير؛ فأنى لعبد مستضعف أن يرد على أعظم رجال الكثبة كلهم؟!

فقال الزبير بصوت عال: ألا يرد أحدكم التحية؟!

كانوا جميعا ينظرون إلى الأرض بخضوع وذل، ولم يرد منهم أحد.

"يا قوم، ردوا التحية" قال الزبير بصوت عال استمر طيلة الاجتماع.

لما قال ذلك، عدوه أمرا، فقال بيدق: أهلا بمولانا وسيدنا.

فتبعته الأصوات ترد التحية على الزبير.

فرح الزبير، ثم قال: ما شعوركم تجاه رجل لو حرركم وجعلكم أحرارا، بل من أكرم الأحرار في البسيطة كلها إلى أبد الأبدين؟!

تفاجؤوا جميعا، حتى بيدق الذي لطالما ظهرت عليه علامات الرصانة، علا التعجب محياه.

فقال الزبير: أتبادلونه الوفاء والمحبة؟! أتكونون له السد الحامي والحصن المنيع؟! أتعتبرونه الأخ والصديق؟!

لم يجرؤ أحدهم على الرد.

فنظر الزبير إلى بيدق، وقال: أجبني، يا بيدق.

ظل بيدق ينظر في الأرض وقال: يا مولاي، نحن نحبك وأوفياء لك ولجدك وأخيك الراحلين منذ القدم. وإذا حررتنا فستمتلك قلوبنا وأفئدتنا إلى الأبد، سنحبك أكثر من آبائنا وأبنائنا... هذا الكلام ليس نفاقا، وأنت تعلم أني لم أنافق - حتى سيدي - طيلة عمري، هذا كلام ينبع من قلب صادق.

ابتسم الزبير وقال: لك ذلك، يا أخي بيدق. ولكم ذلك، يا قومي الأعزاء. من اليوم إلى أبد الآبدين أنتم عتقاء، وأنتم أحرار، مثل أحدكم كمثل أي رجل من الأسد، بل مثل أحدكم مني كمثل ابن أخي سهيل مني. من يقطع يد أحدكم، قطعت يده، ومن قتل واحدكم، فلن أهدأ حتى أقتله، ومن شتم أحدكم أو أهانه فكأنه شتمني أو أهانني.

في هذه الأثناء علت علامات السرور والفرحة وجوه الحاضرين ونظروا جميعا بإجلال إلى الزبير، مما ملأ قلبه بالسرور، وأكمل: أنتم أحرار دون أي مقابل، بإمكان واحدكم أن يغادر الآن، ولن أسأل أين ذهب وماذا فعل.

لكن لي طلب، من أخ لكم، سأؤسس فرقة لن ينضم إليهم إلا أفراد منكم. هذه الفرقة ستكون مهمتها حمايتي وحراستي، إضافة لمهام خاصة وصعبة لا يمكن أن ينجزها إلا عظماء أمثالكم. فمن انضم إليها، قربته إلي ومنحته المال مقابل مهامه.

أطلب منكم – إخوتي – أن تنضموا إليها، ولكم الحق أن ترفضوا أو توافقوا.

ومن اليوم كلكم أحرار، ولستم وحدكم في ذلك، كل العبيد في قبائل الكثبة – بمن في ذلك النساء والأطفال والمسنون – أحرار إلى يوم القيامة. وفرقتي هذه سأسمح للعبيد من سائر قبائل الكثبة أن ينضموا إليها إذا وافقوا على ذلك.

رفع بيدق يده، وحركها وهو يهتف صارخا: يحيا الزبير... يحيا الزبير... يحيا الزبير...

وشرع كل العبيد يهتفون ويصرخون بالعبارة ذاتها وبعبارات أخرى مشابهة تبجل أعظم رجال الكثبة.

ابتسم الزبير ابتسامة واسعة، واتجه إلى بيدق واحتضنه، وفي هذه الأثناء تجمع العبيد حوله وعلى مقربة منه، ثم أخذ يحتضن بقية العبيد، وتحول المشهد من اجتماع بين سيد وعبيد، إلى عرس بين أهل!

لاحقا أسس الزبير الفرقة، وعين بيدقا قائدا لها، وانضم لها كل عبيد الأسد من الرجال بلا استثناء، وانضم إليها الغالبية العظمى من عبيد الكثبة الرجال، في حين اختارت قلة قليلة لا تذكر خيار عدم الانضمام، ولم يحاسبهم الزبير تنفيذا لوعده. وجعلهم الزبير يلبسون لباسا تكون في معظمه من اللون الأسود بما في ذلك العمائم السوداء، والأحذية الجلدية طويلة العنق السوداء، وتخلل لباسهم الموحد اللون الأبيض. وللمفاجأة في كل قتال لاحق، لبس الزبير لباسا مختلفا لكنه يشابه لباسهم في أنه في معظمه باللون الأسود ويتخلله اللون الأبيض. وأينما ذهب، وطيلة الوقت لحقه حراس منهم لحمايته. ومنذ يوم تأسيسها، أمر الزبير بأن يتدرب أفرادها أقسى تدريب وأشد تدريب على القتال، وأمر بتعويد أفرادها على النظام وتنفيذ الأوامر بطاعة والأهم بدقة متناهية، ولم يمر يوم على أفرادها دون تدريب مجهد مضنك، لكن ذلك – على عكس ما قد يتوقعه البعض- أفرح قلوبهم؛ لأنه أمر حبيبهم وأخيهم الزبير!

بالتأكيد أن ذلك لم يعجب كثيرين من الأسياد الذين امتلكوا العبيد قبل تحريرهم، وهذا صحيح. لكن الزبير عندما يأمر أحدا من أهل الكثبة بشيء فأمره ينفذ فورا ودون نقاش، وإلا فإن سيفه – الذي لا يصد – سيكون الرد.

لاحقا باتت تعرف هذه الفرقة بفرقة "الزنوج"، ومع مرور الأيام والسنين اقتنع جل الناس أنها تضم أقوى مقاتلي البقاء وما حولها على الإطلاق.

الفصل الثاني

الملك الهارب

((8))

في المعتزة عاصمة مملكة البقاء، في قصر الضيغم، حيث أقام آل الضياغم حكام المملكة، أرسل الملك هزبر في طلب ابن أخيه الأمير قصي.

لبى الأمير طلب عمه الملك، وحضر إلى حيث دعاه، وهي غرفة جلوس مليئة بالآرائك المصنوعة من الخشب الثمين المزخرف ببراعة، وفي الأسفل سجاد هو الأثمن في كل البلاد، وكانت الغرفة مليئة بالأعمدة البنفسجية المزخرفة بحرفية وفن جميل، ومفتوحة على الخارج إذ أطلت على باحة القصر. وقد بنيت أرضية القصر وجدرانه وحيطانه من الرخام البنفسجي الفاخر المزخرف. وانتشرت في الغرفة وسائر القصر جرار فخارية كبيرة طويلة، يزينها الذهب والفضة والألماس. وانتشرت في الغرفة وسائر غرف القصر الأثاث والتحف الثمينون، وعلقت على الحائط السيوف ذات المقابض والأغماد الذهبية والفضية. كما استشرت في القصر برك الماء الصافي، وامتازت بالتصميم الجميل الذي يسر الألباب، واعتنى بملئها بالماء وبتنظيفها خدم القصر أيما اعتناء.

لما رأى الحارسان على باب الغرفة، الأمير، أفسحا له المجال، فدخل على الملك، وقال: مرحبا بجلالة الملك.

الأمير قصي كان ذا أربعين عاما، وامتلك جسدا قويا ذا عضلات مفتولة، وكان متوسط الطول، ذا شعر أسود كثيف ولحية وشارب أسودين.

وقد لبس الحارسان زي مقاتلي جنود البقاء، المتكون في معظمه من اللون البنفسجي ويتخلله اللون الأسود. أما علم البقاء، فقد تألف من رأس أسد أسود يزأر وينظر إلى اليمين، والأسد يرمز لآل الضياغم، وأحاط بالرأس الأسود اللون البنفسجي.

اعتدل الملك من اتكائته على الأريكة حالما رأى الأمير، وقال: أهلا، بابن أخي. كم مرة أخبرتك أن تناديني عمي عندما نكون وحدنا؟ "جلالة الملك" هذه أمام الآخرين لا سيما الغرباء، أما نحن فعائلة واحدة.

"اعذرني، يا مولاي" رد الأمير، وأضاف: ولكنني لا أستطيع أن أخاطبك بلفظ لا يليق بك.

ضحك هزبر، وبينما الملك يمسك رأس الضيغم، طلب من ابن أخيه الجلوس، فجلس على أريكة أخرى.

ورأس الضيغم هذا هو عصا، طرفها العلوي على شكل رأس أسد مصنوع من الذهب الخالص، ويتصل به من الأسفل عمود أسود اللون. وهذه العصا كانت دوما مع ملك البقاء، وترمز لملوك الضياغم، وعندما يموت ملك يستلمها الملك الجديد.

جعل الملك يشرب من كأس فضية أخذها من الطاولة التي أمامه، بينما أسرع أحد الخدم الثلاثة الواقفين لصب العصير في كأس فضية أخرى فضيفها للأمير.

جعل الأمير يشرب، بينما سأله الملك عن زوجته وأولاده، فرد الأمير بأنهم بخير.

بعدها قال الملك: كما تعلم، لقد حل الربيع، وكعادتنا في كل ربيع نتجه والعائلة لنخيم في غابات الراشد، ونستمتع بخضرة الربيع، وبالصيد والشواء والهواء العليل. سنخيم عدة أسابيع هناك، وسأصحب زوجتي وأولادي، وأخي عماراً وعائلته، وإخوتك وعائلاتهم. وسأتركك هنا في المعتزة لتحكم البلاد وتديرها.

غابات الراشد هذه وقعت في أقصى شرق مملكة البقاء على مسافة ليست بعيدة من حدودها مع مملكة ياقوتة.

قبل استلام الملك هزبر الحكم، كان أبو الأمير قصي الملك المثنى هو ملك البقاء. وقد قاد الملك المثنى بنفسه حربا ضروسا ضد مجموعة من القبائل تسمى البُرَّد، سكنت في الشمال الشرقي من البقاء، وأرادت الانفصال عن البقاء. وقد دُعِمَت بفائض من المال والعتاد وحتى بعدد لا بأس به من الجنود من حكام مملكة ياقوتة الذين أنكروا بالطبع كل هذا الدعم، لكن الجميع علم بوجوده، وقد حثهم ملك ياقوتة على الانفصال. ومع هذا الدعم امتاز البرد بقوة لا بأس بها. وقد قُتل الملك المثنى خلال حربه معهم. ولأن قوانين مملكة البقاء تنص على أنه عند موت الملك يخلفه أكبر إخوته لا أكبر أبنائه، أصبح الملك هزبر الملك الجديد للمملكة، وثأرا لمقتل أخيه سخر كل قوته لمحاربة البرد حتى هزمهم وأذلهم وأجبرهم على البقاء خاضعين لحكمه.

قرر الملك هزبر، بعد مقتل أخيه الملك المثنى، أن يعين ابن المثنى قصيا الوزير الأول في المملكة؛ وذلك تكريما له ومواساةً بسبب حزنه الشديد على مقتل أبيه.

وقد تعمد هزبر منذ استلامه الملك، أنه إذا غادر المعتزة لأي سبب، أن يوكل قصيا مهمة إدارة المملكة كلها؛ وذلك لإكسابه الثقة بالنفس والخبرة.

فرح الأمير قصي بقرار عمه، وقال مبتسما: شكرا، يا مولاي، على ثقتك بي.

قال الملك: هذه المرة أريد أن أصحب زوجتك وأبناءك معنا، فما قولك؟

فأجاب الأمير: أرجوك، يا مولاي، دعهم يبقون معي، فأنا لا أطيق فراقهم.

وقد كان أحب أولاد قصي عليه هو الأمير ريان الذي بلغ من العمر – آنذاك- ثلاثة عشر عاما.

فرد الملك: يا قصي، لماذا تخاف عليهم كل هذا الخوف؟! دعهم يأتوا معنا ويستمتعوا بالرحلة.

قال قصي: يا مولاي، هم أعزاء على قلبي، ومع رحيلكم جميعا، لن يبقى أحد يواسيني سواهم، فأرجو أن توافق على بقائهم.

رد الملك: كما تشاء... كما تشاء.

***

اتجه الملك هزبر إلى غابات الراشد مصطحبا معه زوجته وأولاده وولي عهده وأخيه الأمير عمارا وعائلته وإخوة قصي وعائلاتهم. وقد صحبه كذلك عدد كبير من الحرس وعدد من خادمات العائلة الملكية.

وقد خطط الملك لأن يبقى هو ومن معه هنالك لأسابيع كما اعتادوا أن يفعلوا كل ربيع.

أقام الملك ومن معه هناك في الغابات شديدة الخضرة الدهماء حيث أحاطت بهم الأشجار الباسقة شديدة الخضرة كثيرة الأوراق، وأحاط بهم العشب شديد الخضرة من كل اتجاه. وقد وُجد في الغابات عدد من البرك المليئة بالمياه، وعج المكان بالحيوانات صغيرها وكبيرها وبالطيور التي استمتع الملك ومن معه بألحان زقزقتها البديعة. اتسم المكان بالروعة البديعة التي سرت قلوبهم جميعا.

ومنذ اليوم الأول اتجه الملك وكبار السن من رجال عائلته للصيد، بينما ظلت النساء والأطفال والخادمات في مكان معين يتحادثون. وقد انقسم الحرس قسمين قسما صحب الملك والرجال وقسما ظل مع النسوة والأطفال والخادمات. ولما حل المساء عاد الملك والرجال ومعهم الكثير من الحيوانات والطيور التي اصطادوها، ثم شووا ما اصطادوه وتناول الجميع رجالا ونساء وأطفالا وحتى الحرس من الطعام المشوي إضافة إلى ما أعدته نساء العائلة والخادمات من طعام مما جلبوه معهم من المعتزة.

وهكذا تكررت الأمور نفسها كل يوم، حيث شعر الجميع بسعادة بالغة وسط هذه الجنة الخلابة، ومع هذا الصيد المشوي اللذيذ وبوجود أفراد العائلة من أصغرهم إلى أكبرهم.

مرت تسعة أيام على قدوم الملك ومن معه إلى الغابات، وفي الفجر كان الملك وأفراد عائلته جميعهم والخدم نائمين، بينما استيقظ عدد كبير من الحرس وتكفلوا بحراسة الملك وعائلته. كان الحرس قد غرسوا عددا من الأعمدة الحديدية السوداء في الأرض، حيث حمل كل عمود منها في أعلاه قنديلا أضاءه الحرس لكي يتمكن الجميع من رؤية بعضهم ليلا. ورغم ذلك كان الضوء المنبعث منها ضعيفا لا ينغص على الملك وعائلته نومهم.

بدأ بعض الحرس المستيقظين يسمعون أصوات خيول تصهل وتسير بسرعة عالية، وحسبوا أنه ربما قد أتى أناس من الشعب للتخييم في الغابة. وفجأة زاد صوت الخيول ارتفاعا، حتى رأى

الحرس عددا من الفرسان يتجهون نحو مكان تخييم الملك ومن معه. اتجه أحدهم بسرعة وأيقظ الحرس النائمين وأيقظ الملك وظل خمسة حرس حول الملك وحده، واستل الجميع سيوفهم حتى الملك.

"ماذا هنالك؟!" صرخ الملك.

فأجاب قائد الحرس الذي قرر البقاء بجوار ملكه: يبدو أننا نتعرض لهجوم يا مولاي.

في هذه الأثناء هاجم الفرسان الحرس، وكان عددهم يقرب الأربعمائة مقاتل بينما عدد حراس الملك لا يتجاوز الخمسين.

جعل المهاجمون والحرس يتقاتلون، وقتل المهاجمون الحرس واحدا واحدا ولم يخسروا أي مقاتل بسبب الفرق الهائل في العدد بين الطرفين.

مع مرور الوقت، كان كل من مع الملك قد استيقظ، وقد استل الملك وكبار السن من الرجال سيوفهم في حين تجمعت النسوة والأطفال والخدم معا وأحاط بهم الحرس من كل اتجاه.

اقترب المهاجمون من حيث الملك ومن معه كثيرا.

صرخ الملك: علينا أن نقاتلهم، لن نظل واقفين.

فاندفع ليقاتل المهاجمين واندفع معه أخوه والكبار من أبنائهما وسائر عائلته وكبار الحرس الذين دب الارتباك فيهم.

جعل الملك الذي اتسم بقوة شديدة يقاتل المهاجمين، وقتل ثلاثة منهم، وجعل أخوه وأبناؤهما يقاتلون كذلك. وفجأة شق أحد المهاجمين صدر أخيه ولي العهد، ثم قتل المهاجمون في لمح البصر جميع أولاد الملك. نظر الملك بحسرة وألم مهول، فصرخ بأعلى صوته: لاااااااا.

كانت تلك أسوأ لحظات حياته، وشعر أن المُلْكَ جلب عليه لعنة أبدية.

وبينما هو في حاله هذا، مر أحد المهاجمين خلفه وهو على فرسه، فضرب ظهر الملك بسيفه، فسقط قتيلا وهو مصدوم.

بعدها قتل المهاجمون كل من تبقى من رجال عائلة الملك ومن الحرس الذين معه وأهله.

حاول الحرس المحيطون بالنسوة والأطفال والخدم أن يهربوا بهم بعيدا، بينما قاتل الملك ورجاله المهاجمين، لكن العدد الهائل من المهاجمين لحق بهم، وقتل جميع النسوة والأطفال دون رحمة ولا رأفة. وقتلوا كذلك جميع الحرس الذين معهم.

المفاجأة هي أن هؤلاء المهاجمين لم يكونوا لصوصا أو قطاع طرق أو أناسا لهم ثأر مع الملك أو أحد أفراد عائلته، بل هم جنود مملكة ياقوتة.

لقد كان الوقت ليلا، ولم يستطع الملك هزبر وجنوده تمييز لباس من يهاجمونهم. وقد لبس مقاتلو ياقوتة زيهم المعروف عنهم الأبيض في معظمه، وتخلله زخرفات باللون البرتقالي المائل إلى الأحمر. وعلم مملكة ياقوتة، يتألف من ياقوتة حمراءَ يحيط بها اللون الأبيض. وأما قصر الملك خلدون ملك ياقوتة، فبني من حجارة برتقالية جميلة المنظر تميل إلى الحمرة.

والملك خلدون هذا خطط للإجهاز على مملكة البقاء واحتلالها، وأول خطوة في مخططه هي اغتيال الملك هزبر وكل عائلته. انتظر خلدون سنوات لتنفيذ هذه الخطة بصبر عظيم. وقد بث العيون في جميع أنحاء مملكة البقاء والمعتزة حتى بات له عيون في قصر الملك هزبر نفسه.

ومن خلال عيونه علم أن الملك هزبرا وكل عائلته يتجهون كل ربيع إلى غابات الراشد ويخيمون هنالك أسابيع بغية الصيد والاستمتاع. ويا لها من فرصة ذهبية للتخلص من ملك البقاء وكل آل الضياغم حتى لا يخلف أحد منهم هزبرا في الحكم، لا سيما أن غابات الراشد قريبة جدا من حدود البقاء مع ياقوتة! أمر الملك خلدون بتجهيز قوة ضخمة من أربعمئة مقاتل، ثم وضع لهم خطة بأن يغيروا فجأة على العدد البسيط من جنود مملكة البقاء على نقطة حدودية غير مهمة بين المملكتين، ثم أن يتوجهوا إلى غابات الراشد التي بعدت أقل من مسير يوم واحد عن الحدود وأن يقتلوا الملك وكل من معه. وقد طلب منهم أن يغيروا فجرا على الملك وآله؛ لأن ذلك أفضل وقت لمباغتة أي امرئ.

بعد ارتكاب جنود ياقوتة المجزرة بالملك هزبر ومن معه، مثلوا في جميع القتلى، حتى النساء والأطفال، بلا أي رحمة أو هوادة. فقد أراد الملك خلدون من التمثيل بث الرعب فيمن تبقى من آل الضياغم وفي أهل البقاء أجمعين.

***

الملك خلدون أرسل ثلث جيشه إلى غرب مملكته قرب منطقة معينة من البقاء، إذ حشر الملك كل جنوده على امتداد الحدود بالقرب منها. وجمعه كل هذا العدد المهول من جيشه لم يشكل مخاطرة؛ فحدود مملكته الآخرى كانت كلها مؤمنة لتحالفه مع ملوك الممالك الأخرى التي تحده.

وقد عسكر سدس جيش البقاء في تلك المنطقة على الحدود مع ياقوتة.

وفي الوقت نفسه للمجزرة ضد ملك البقاء، جعلت مجانيق كثيرة حشدها الملك خلدون تطلق الحجارة الضخمة على معسكر جيش البقاء، كما جعل رماة جيش ياقوتة يطلقون السهام المشتعلة بالنار عليهم.

كل هذا حدث بغتة وغدرا، وبينما كان معظم جنود البقاء يغطون بنوم عميق.

سقطت الحجارة الضخمة عليهم فقتلت من قتلت وجرحت من جرحت وهشمت الرؤوس وأجزاء الجسد المختلفة، ودبت النار التي صاحبت السهام التي أطلقها جنود ياقوتة في معسكر البقاء وأخذت تحرق الخيام وأحرقت عددا من الجنود الذين لم يتنبهوا لما يحدث.

دب الرعب والخوف في جنود البقاء، وأنشؤوا يفرون في كل مكان، واتجه بعضهم باتجاه الحدود مع مملكة ياقوتة، فوجودوا جنودها المتأهبين الذين شربت سيوفهم وسهامهم من دمائهم.

استمرت حصد أرواح جنود البقاء، وبعد مدة، بعد أن انتشر الدمار والنيران في معسكر البقاء، أغار ثلث جيش ياقوتة على المعسكر، ووسط الخيام التي اشتعلت بالنيران، وجدوا جنود البقاء هائجين مرتبكين يتجهون في كل حدب وصوب. ولأن جنود ياقوتة أكثر عددا ومستعدون للمعركة على العكس من جنود البقاء، تمكنوا من قتل كل من يرونه منهم، حتى إنهم قتلوا الجرحى وجعلوا سنابك خيولهم تدوس رؤوس الجرحى الملقين على الأرض وتسحقها وتفجرها دون رحمة. هذا تضمنته خطة الملك خلدون الذي شدد على قائد جيشه ضرورة قتل كل جريح؛ لأنه أراد أن يتناقل أهل البقاء فيما بعد وحشية جيش ياقوتة فيدب فيهم الرعب والخوف.

انقسم جيش ياقوتة إلى قسمين، قسم بقى في معسكر جيش البقاء يقتّل من تبقى من جنوده، وقسم آخر أكبر انقسم إلى عدة أجزاء ذهبت في اتجاهات مختلفة بحثا عن الهاربين من جنود البقاء. وظلوا يلاحقونهم طيلة يومين، ويقتّلون بهم، حتى لم يتبق من جنود البقاء سواء في معسكرهم أو من الهاربين سوى قلة قليلة تكاد لا تذكر.

تعمد الملك خلدون إعلان نبأ اغتياله للملك هزبر وآله في مجزرة شنيعة وما تبعها من تمثيل في جثثهم، لبث الرعب في قلوب من ظل من آل الضياغم وكذلك في أهل البقاء.

تناقل أهل ياقوتة الخبر كأنه يطير مع الريح السريعة، حتى وصل إلى الأمير قصي.

إذ كان يجلس في إحدى قاعات القصر في المعتزة، حيث وقف على بابها حارسان، وانتشر فيها الحرس.

دخل حاجب القصر على الأمير وحياه فرد عليه التحية.

ثم قال الحاجب مرتجفا بصوت متقطع: مولاي... لدي... نبأ... سيئ للغاية.

"ما هو؟" قال الأمير بتركيز.

فرد الحاجب: إنه أمر جلل، يا مولاي... وأرجو أن تتهيأ له... فهو ليس بالهين.

"قل، يا رجل" قال الأمير الذي بدأ يرتبك.

فقال الحاجب: مولاي، الملك خلدون الغادر... اغ... اغتال الملك... هزبر.

فزع الأمير وتسارعت دقات قلبه، وسأل على فوره: وماذا حدث لبقية العائلة؟

فرد الحاجب: اغ... اغتالهم جميعا وتعمد التثميل في جثثهم.

قالها بسرعة ليتخلص من الحمل الثقيل الذي على صدره.

حالما سمع الأمير ما سمعه، اجتاحه الحزن والفزع بسرعة كالبرق، فانهار وغدا في وضع مزر للغاية. أغمض عينيه ووضع كفيه على وجهه وأنزل رأسه باتجاه الأرض.

بعدها جعل يبكي البكاء المر الشديد، حتى إنه منظره أثار شفقة الحاجب وجميع الحرس في القاعة وطفقت الدموع تنزل من عيونهم.

استمر الأمير بالبكاء المر؛ فهذا أصعب ما حدث بحياته. تمنى في تلك اللحظة الموت، فالحياة بعد ما حدث أثقل من الجبال الشاهقة.

ظل يبكي كطفل صغير، يتمنى فراق الحياة ليرتاح، لأيام كثيرة. لكنه في النهاية قرر أن يتماسك؛ صونا لمصلحة البقاء ولمصلحة زوجته وأبنائه.

بعدها أتى قائد جيش البقاء ((الهيثم)) إلى الأمير قصي. فحالما علم الهيثم بنبإ مجزرة العائلة المالكة وفناء سدس الجيش، توجه فورا باتجاه المعتزة على رأس عدد قليل من الجنود؛ ليتمكن بسرعة من الوصول إلى الأمير قصي.

فلما وصل دخل على الأمير الموجوع، وسلم عليه فرد الأمير السلام.

كان الهيثم ذا بنية قوية جدا عريض المنكبين مفتول العضلات، ذا قسمات وجه حادة، وذا شعر أسود كثيف غطى رأسه ووجهه. وكان كأنه شمس تنبعث منها أشعة الثقة والطمأنينة لمن يحبهم ويحرص عليهم.

قال الهيثم: مولاي، أنت وحدك من تبقى حيا من حفدة جدك الملك رائف وأبنائه، ويجب أن نبايعك فورا ملكا على البلاد.

تنهد الملك المتوجع وجعل ينظر بحزن إلى الأرض، وهو جالس على الكرسي الكبير آخر القاعة.

اقترب الهيثم بسرعة من قصي، ووضع يديه على كتفي الأمير، وقال: مولاي، ما حدث صعب... عظيم... لا يصدق... ولا يحتمل... منذ علمت بما حدث وأنا أبكي خفية عن الجنود... لكن علينا أن نتماسك وأنت عليك أن تتماسك... حتى تنقذ البقاء... وتنتقم لملكها وآله.

أومأ الأمير الحزين موافقا برأسه.

فقال الهيثم: بعد مبايعتك ملكا، عليك أن ترحل على الفور من المعتزة.

نظر الأمير مستغربا إلى الهيثم وكأنه يسأله بنظراته، "لماذا؟!"

فقال الهيثم: جيش ياقوتة يزحف من الشرق، وجيش الهيجاء يزحف من الغرب، ويجب أن تذهب إلى مكان في المنتصف تماما بين المملكتين الغادرتين؛ فذلك هو آمن مكان. ومدينة الفريدة هي آمن مكان لك. عليك أن تظل هناك إلى...

تنهد ثم أكمل: إلى أن تستقر الأمور.

قال الجملة الأخيرة بمرارة؛ لأنه علم أن هنالك احتمالا كبيرا ألا تستقر أبدا.

ثم أضاف الهيثم: حياتك أهم شيء الآن، إذا حدث لك شيء فسينتهي كل شيء، ستضيع البقاء إلى الأبد. أنت البقاء... عليك أن تفهم هذا جيدا... أنت البقاء.

نظر الأمير بإمعان إلى القائد الذي أكمل: مولاي، أهم شيء أن تظل محاطا بحرسك... وألا تثق بأي كان، حتى أقرب المقربين إليك، لا تثق إلا بنفسك. وتذكر أن ملوك ياقوتة وملوك الهيجاء ذئاب... وإذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب.

أومأ الأمير برأسه موافقا على كل كلمات القائد الخبير القوي، الذي وثق الجميع بقوته وحنكته ومنهم الأمير قصي.

بايع كبار المعتزة والقائد الهيثم الأمير قصيا ملكا لمملكة البقاء، وبعدها بدأ بتنفيذ تعليمات القائد، فرحل مع زوجه وأولاده غربا إلى الفريدة.

***

في الوقت نفسه انقض جيش ياقوتة من الشرق وجيش الهيجاء من الغرب على أراضي مملكة البقاء، وجعلوا يحتلونها شبرا تلو شبر، ويقتلون كل من يواجهونه من جنود ومقاتلين. فقد اتفق الملك خلدون ملك ياقوتة مع ملك الهيجاء على كل هذا منذ سنوات بعيدة، وحين حانت اللحظة المناسبة انقضا على عدوهما.

واستمر جيشا المملكتين بالزحف من الشرق ومن الغرب، حتى خسر جيش البقاء ما يقرب نصفه في المعارك.

أحس قائد الجيش الهيثم أنه بدأ يفقد كل شيء، وأن الأمور باتت تزداد صعوبة كلما مر الوقت، لذا قرر أمرا هاما وهو أن يسحب كل جنود البقاء من الجزء الغربي منها، وأن يضمهم للجزء الرئيس من الجيش وأن يسخرهم جميعا لقتال ياقوتة دون قتال الهيجاء. لقد أدرك أنه لا يستطيع مقاومة هذين الطرفين في الآن ذاته، وإذا ظل يقاتل على الجبهتين فسيخسر بسهولة. كما أنه أيقن أن أهل الغرب سيوقفون زحف جيش الهيجاء، وأنه سيواجه صعوبة بالغة، لا سيما من قبل بدو الكثبة الذين سكنوا صحراء يستحيل حتى على الجن أن يحتلوها.

منذ اغتيال الملك هزبر، والغارة على معسكر البقاء في الشرق، لم يبق سوى نصف جيش البقاء. لذا حشد القائد الهيثم هذا النصف الذي لم يعد يملك غيره شرق العاصمة المعتزة في انتظار جيش ياقوتة.

القائد الهيثم – رغم قوته الهائلة وشدة بأسه – اتسم بالواقعية. لقد أحس أنه جيشه سينهزم في المعركة القادمة، وأدرك في قرارة نفسه أن كل شيء انتهى. لذا قرر أن يطلب من الملك قصي الرحيل من مدينة الفريدة إلى مكان آمن. فكتب له رسالة وقلبه يعتصر من الألم، كتبها بمداد الحزن والأسى، وأرسلها مع رسول إلى الملك.

استقبل الملك قصي الرسول في أكبر قاعات قصره في مدينة الفريدة، إذ كان يجلس على كرسي جليل في آخر القاعة.

حيا الرسول الملك، فرد عليه التحية، ثم أخبره أنه يحمل رسالة من القائد الهيثم.

فك الملك الرسالة، وجعل يقرؤها:

" مولاي الملك قصي، حفظك الله،

السلام عليك وعلى أهلك جميعا.

أرجو أن تكون قد تجاوزت ما حدث لأهلك الراحلين – رحمهم الله -. أعلم أن تجاوز هذا صعب للغاية، وقد يحتاج لسنوات طويلة، وربما لا يحدث أبدا؛ فأنا – نفسي – لم أستطع أن أتجاوز الألم. لكن – يا مولاي – الحياة علمتني أن علينا أن نستمر، أن تتنفس ونمشي ونأكل ونحارب ونحمي أحباءنا وأنفسنا رغم ما يحتل قلبنا من ألم عظيم، لذا – يا مولاي – أرجو أن تتماسك؛ لأننا – أهلَ البقاء – بحاجة إليك، بحاجة أن تظل، فأنت الآن تمثل البقاء.

مولاي، أرسل إليك هذه الرسالة، لأعلمك أن وضعنا صعب للغاية، فمع انقضاض الغدارَين علينا من الجهتين، باتت المسألة معقدة للغاية. لا يوجد إنسان في العالم يستطيع الجزم بما سيحدث في المستقبل، لكن بإمكان المرء أن يتوقع ما قد يحدث. من خلال خبرتي طيلة هذه السنوات جنديا في الجيش ثم قائدا له، أرى أن فرصنا في المعركة القادمة ضئيلة جدا. لكنني مصر على القتال حتى أوقع أكبر خسارة بجيش ياقوتة، ثم لتكمل أنت المسيرة يوما ما، إذا تمكنت من ذلك، وقلبي يخبرني أنك ستتمكن من ذلك.

ولكي تكمل المسيرة عليك أن تظل بآمان، عليك أن تعيش. مكانك الحالي خَطِرٌ جدا عليك وعلى حياتك، فإذا هزمنا في المعركة القادمة، فلن يتوانى جيشا عدوينا في الزحف إلى الفريدة، ومحاولة قتلك، وبالتالي قتل من تبقى من آل الضياغم، وقتل البقاء. لذا – يا مولاي – أنصحك بكل ذرة من ذرات قلبي، أن تهاجر غربا إلى جبال اليُبْسِ، فهي منطقة وعرة جدا لا يعرفها إلا أهل البقاء، وهي آمن مكان لك، وحتى لو عرف عدوانا أنك هناك، فلن يسهل عليهما إيجادك واغتيالك.

أتمنى – يا مولاي – أن تطبق النصيحة التي غالبا هي الأخيرة لي.

خادمك المطيع،

الهيثم."

تنهد الملك بعمق، وزادت أوجاعه، لليأس والحزن اللذين رآهما ينبعثان من رسالة القائد.

***

((9))

أنصت الملك قصي لنصيحة القائد الهيثم، وهرب من الفريدة إلى الغرب إلى جبال اليبس، واصطحب معه بالطبع زوجته وأبناءه. وكذلك ذهب معه كثير من أبناء عمومته من آل الضياغم بالإضافة إلى عدد من أبناء خؤولته.

نصح الهيثم الملك بجبال اليبس؛ لأنها أوعر منطقة وأخطر منطقة في البقاء كلها؛ فهي مليئة بالجبال والوديان والمغارات والأشجار الكثيفة، ولا يعرفها جيدا إلا أهل البقاء، وعلاوة على هذا كله امتازت بمساحة شاسعة. ولهذا كله يستحيل لأحد أن يصل إلى الملك إذا آوى إلى هناك.

وصل الملك ومن معه إلى جبال اليبس، وجعلوا يصعدون باتجاه أعلى جبل فيها، وظلوا يفعلون ذلك ما يقرب الأسبوعين حتى وصلوا أعلى الجبال واستقروا هناك.

الملك ساءه هذا المكان، فبعد أن تعود على حياة الترف والرفاه في القصور ما يزيد على أربعين عاما، ها هو يجد نفسه في هذا المكان البائس. مكان ليس به طرق واضحة المعالم، مليء بالعراقيل والحفر والمطبات والصخور، مليء بالأفاعي والكلاب والقطط والحيوانات الضالة التي كان معظمها شرسا، وتصعب الحركة فيه بسبب حدة الطلعات والنزلات فيه، حتى إن بعض مناطقه لا يمكن التنقل فيها.

وبينما جلس في الليلة الأولى في أعلى الجبال، يستمع إلى عواء الذئاب والكلاب الضالة، حزن على عائلته أكثر من حزنه على نفسه، فكيف لامرأة وأطفال - هم زوجته وأبناؤه - اعتادوا رفاهية القصور أن يتأقلموا مع مثل هذا المكان المزري؟!

لكنه ظل يخبر نفسه، بأن هذا هو الخيار الوحيد، وأنه إذا اضطر لعيش الضنك هذا، فإنه قد استمتع بطيب العيش لساعات وأيام بل سنين، في حين أن كثيرا من البشر عاشوا مثل هذه الحياة طيلة عمرهم، ولم يذوقوا ساعة من ساعات الترف التي ذاقها ولن يذوقوها أبدا.

ورغم محادثته لنفسه بهذا الكلام، ظل الأمر مرا صعبا، لا سيما وهو يرى البؤس على وجوه زوجته وأبنائه.

قرر الملك أمرا وهو ألا يستقر في مكان واحد في جبال اليبس، بل اتخذ مراكز كثيرة ظل يتنقل بينها؛ حرصا على ألا يعرف أنه يستقر في مكان واحد، فيشي به خائن، ويسهل على أعدائه الوصول إليه. لم يكن الملك امرأ سهلا، وقد حَذِرَ الجميع حتى أقرب المقربين إليه، وتذكر جيدا نصيحة الهيثم بأن يفعل ذلك.

وظل الملك هناك، ومع مرور الوقت ظل يأتي أتباعه ويتجمعون في الجبال إضافة إلى مزيد من أبناء عمومته وخؤولته.

بعدها وقعت الحرب بين جيش البقاء وجيش ياقوتة، وانتصر جيش ياقوتة انتصارا مؤزرا، وقتل ما يقرب نصف جيش البقاء الذاهب إلى الحرب، وهرب النصف الآخر وتشتتوا في البلاد، وقُتل القائد الهيثم الباسل الذي ظل يقاتل لآخر لحظة وهو يذود عن البقاء. وتبع ذلك احتلال معظم أراضي البقاء من قبل ملك ياقوتة وملك الهيجاء، باستثناء أجزاء بسيطة امتازت بالوعورة وشدة بأس أهلها، ومن بينها جبال اليبس. وأطلق أهل البقاء على هذه الحرب اسم الحرب المقيتة.

تتالت هذه الأنباء على الملك قصي، وكل مرة سمع فيها نبأ مات جزء من قلبه، حتى تلقى الطعنة الأخيرة باحتلال جل البقاء من قبل ملكي ياقوتة والهيجاء. حزن على صديقه الهيثم، وعلى المعتزة، وشعبه، وبلده، وحزن على ذكرياته، وباتت حياته كالجحيم. لكنه امتاز بالشدة والإقدام والصبر، وقرر أن يتماسك وأن يقاتل حتى اللحظة الأخيرة من حياته، لعل يوما ما يأتي تشرق فيه شمس البقاء من جديد، وتتحرر من رجس احتلال أعدائها، رغم أنه أحس في كثير من الأحيان أن هذا مستحيل بعدما حدث لجيش البقاء.

وبمرور الوقت ظل أتباع الملك يتجمعون في جبال اليبس، حتى تجمع عدد كبير منهم وباتوا يشكلون مع أهل الجبال الأصليين وأهل ما يحيط بها من مناطق قوة تذود بأرواح أفرادها عن حياة الملك الهارب.

***

كان الملك قصي قد اصطحب معه رجلا من حرس عمه الملك هزبر، يدعى جاسماً، منذ لحظة مغادرته للمعتزة. ومنذ لحظة اصطحابه له، استلم جاسم مهمة حماية الملك قصي وأهله. وبعد تجمع أقارب الملك وأتباعه ومناصريه في جبال اليبس، بات هؤلاء يعرفون بقوة حماية الملك، وعين الملك جاسما قائدا عليهم. لقد اختاره الملك؛ لأنه وثق به ثقة عمياء، ولأنه رجل اتسم بالقوة والشدة والوفاء إضافة إلى الذكاء وحسن التدبير. وقد أحبه الملك المثنى أبو الملك قصي وقربه إليه ووثق به، مما شجع الملك قصيا على اختياره لهذه المهمة.

لم يهدإ الملك خلدون ولا حليفه ملك الهيجاء على الإطلاق، منذ علموا بأن أحد أفراد آل الضياغم – ألا وهو قصي – ما زال حيا. وأرادوا رأسه بأي ثمن؛ ليقضوا على أي بصيص أمل لعودة ملوك الضياغم لتحرير البقاء وحكمها من جديد، رغم أن بصيص الأمل هذا كان ضئيلا جدا، بعد انهيار جيش البقاء والمجزرة التي ارتكبت بملوك الضياغم.

وقد بحث الملكان بحثا دؤوبا ملؤه الجدية بلا ملل ولا كلل عن الملك الهارب، وأرسلوا الجنود وبثوا العيون في كل مكان، لكنهم لم يجدوا له أثرا؛ لكأنه ملح ذاب في بحر واسع.

ولكن ومع مرور الوقت، منذ هروب الملك قصي إلى جبال اليبس، شرعت الشائعات تظهر بأنه موجود هناك. وقد انتشرت الإشاعات حتى بلغت مسمع الملكين العدوين. فبثوا عددا هائلا من العيون في المناطق المحيطة بجبال اليبس، ليتوثقوا من الخبر. وكان بعض هذه العيون من أهل البقاء؛ فلطالما أثبت التاريخ أن المال بإمكانه أن يغري كثيرا من الأنام لخيانة أوطانهم. وبعد مرور

الزمن، وجمع العيون للمعلومات، توصلوا أنه من شبه اليقين وجود الملك الهارب في جبال اليبس، وأعلموا الملكين العدوين بذلك.

جبال اليبس كانت من المناطق القليلة في البقاء التي لم يحتلها الملكان؛ فقد علما بصعوبة ذلك، ولم يجرؤا حتى على المحاولة. لكن بعد علمهم بوجود غريمهما فيها، قررا أن يقتحماها بحثا عنه علهم يظفرون برأسه، فيستريحون من احتمال عودته، الذي رغم ضآلته أقض مضاجعهم ونكد عليهم حياتهم.

أرسل الملك خلدون، قوة لصعودِ الجبال وقتلِ الملك الهارب.

قائد قوة الحماية، القائد جاسم، بحنكته ودهائه تبنأ أنه سيأتي اليوم الذي سيعلم فيه الملكان العدوان بوجود الملك قصي في الجبال، وأنهما لا بد وسيحاولان البحث عنه هناك. لذلك أعد منذ وصوله إلى الجبال أفراد قوة الحماية ودربهم للمعركة التي ستأتي - لا محالة - يوما ما. لقد أدرك أن قوته لا يمكن أن تنافس أية قوة سيرسلها الملكان العدوان؛ لأنها قوة جيش مدربة وذات عدد كبير من الجنود ولديها سلاح كثير، في حين افتقر أفراد قوة الحماية كل هذا. لهذا كله، دربهم على أسلوب حرب العصابات، الذي يعتمد على الضرب ثم الهرب ثم العودة والضرب والهرب من جديد، كما أنه تعمد أن يتجول وإياهم في كل أنحاء الجبال شاسعة المساحة، حتى حفظوها عن ظهر قلب، وتعودوا الصعود والنزول فيها، وتجاوز عراقيلها، وحفظوا جبالها ووديانها ومغاراتها.

وصلت القوة التي أرسلها الملك خلدون، وعلم القائد جاسم بذلك، وتهيأ وأفرادَ قوة الحماية. لم يضرب جاسم الضربة الأولى، وإنما انتظر أن يصعد جنود ياقوتة جبال اليبس مسافة كافية، حتى يقعوا في الفخ فيصطادهم جاسم ومقاتلوه.

وبالفعل صعد جنود ياقوتة الجبال الشاسعة التي لم يعرفوا عنها شيئا، وكانوا أشبه بمن يبحث عن إبرة في كومة قش. وظلوا يصعدون وهم يواجهون صعوبات بالغة.

وذات فجر، وبينما يخيمون في ناحية من جبال اليبس، تجمع حولهم أفراد قوة الحماية بوجود قائدهم جاسم. وجعلوا يطلقون أسهما مشتعلة بالنيران على مخيم جنود ياقوتة. فاشتعلت خيامهم ودب الذعر فيهم، وجعلوا يهربون مرتبكين خائفين مضطربين، فطفق أفراد قوة الحماية يصطادونهم الواحد تلو الآخر بسهامهم.

قتل كثير من جنود ياقوتة، لكنهم لم ينسحبوا، وظلوا يحاولون البحث عن الملك الهارب. وبعد أيام، وبينما يصعدون جبلا وعرا شديد الميلان، انقض عليهم عدد قليل من أفراد قوة الحماية وجعلوا يطلقون عليهم السهام من بعيد، ويصطادونهم واحدا واحدا، ولم يعرف جنود ياقوتة كيف يتصرفون في هذا المكان الوعر وارتبكوا، ولم يجدوا بديلا عن الاختباء. في حين رحل أفراد قوة الحماية عن المكان، ولكنهم ظلوا يتبعون أسلوب حرب العصابات، بالضرب والهرب، طيلة الأيام التالية، حتى ظل ما يقرب من عشرين مقاتلا فقط من جنود ياقوتة. أفراد هذا العدد الضئيل قرروا الرحيل عن الجبال والعودة بأرواحهم إلى ياقوتة، وبينما هم ينزلون جبال اليبس، أحاط بهم ما يقرب من مئة مقاتل من أفراد الحماية، وهجموا عليهم بسيوفهم، فهذه المرة كان عددهم أكبر بكثير

من خصومهم. مقاتلو ياقوتة ذعروا وخافوا، بينما شاهدوا أفراد قوة الحماية وهم يتحركون بخفة ورشاقة وسط المنطقة الوعرة. حاول جنود ياقوتة القتال، لكن مقاتلي قوة الحماية أجهزوا عليهم واحدا تلو الآخر فلم يذروا منهم رجلا حيا، في حين لم تخسر قوة الحماية رجلا واحدا.

***

منذ وصوله إلى جبال اليبس، أكثر ما أرق الملك قصيا هو حالُ أهله، لا سيما زوجته وابنيه. لقد تقطع من الداخل وهو يرى الحزن واضحا عليهم، وهو يراهم يقاسون ويعانون ويتحسرون على ما فات.

ومنذ مقتل عمه ومعظم أهله في تلك الهجمة الغادرة، كل ما فعله الملك قصي مع زوجته هو تهدئتها – بين الحين والآخر – بعبارات بسيطة من قبيل "لا تخافي، كل شيء سيتحسن وبسرعة"، "المصاب كبير، لكن اصبري، وسنعود إلى ديارنا"، "اطمئني لن يستطيعوا إيذاءنا". لكن أيا من كل هذا لم يقنع زوجته الأميرة رقية التي انهارت في لحظة علمها بالمجزرة وظل الحزن مصاحبا لها طيلة الوقت، وبين حين وآخر دخلت في موجات بكاء عنيفة، شاهد الملك كثيرا منها، وما كان منه إلا أن يحاول أن يهدئها بعباراته البسيطة.

لكن بعد هجرتهم إلى جبال اليبس، واستقرارهم – ولو ظاهريا – قرر أنه لا بد وأن يحادثها باستفاضة عما حدث، وتحين أول فرصة ملائمة ليفعل ذلك.

وفي إحدى الليالي عاد الملك الهارب إلى الحجرة المحفورة في الصخر التي أقام هو وزوجه فيها، وبجوارها وُجدت حجرة لابنه الأمير ريان، وأخرى لابنته الأميرة هدى.

لم تتسم تلك الحجر بالرفاه الذي اعتادوه في القصور، لكن قصيا حرص أشد الحرص على أن يجلب أفضل البنائين إلى جبال اليبس، فحفروا الغرف أفضل الحفر في الصخر بطريقة متقنة للغاية. كما أنه حرص على تأثيثها من الداخل بأفضل أثاث وأفخر أثاث ممكن، وانتشر على أرضيتها سجاد متقن الصنع.

ولما دخل، وجد الملكة رقية تبكي البكاء الشديد وتسيل دموعها غزيرة كأنها أنهار هادرة، ويتهدج صوتها من شدة البكاء، وهي تضع كفيها على وجهها المحني بذل للأسفل.

عندها أيقن أن تلك هي اللحظة التي لطالما تحينها.

ركض نحوها وركع على ركبتيه بجوارها واحتضنها، وضمها إلى صدره.

"أرجوك، لا تبكي، يا رقية" قال وأضاف: أرجوك، لا تكسري قلبي.

"كيف حدث ذلك؟! كيف؟! كيف؟!" صرخت، ثم قالت: ما حدث بشع جدا... لا يمكن لقلب بشري أن يتحمله، ما حدث فظيع... أنا أتألم كثيرا... لم تمر علي لحظة واحدة لم أتالم فيها... كيف سأنسى كل من قتلوا؟!... كيف؟!

فقال زوجها بهدوء: لن تنسيهم، يا حبيبتي... وأنا لن أنساهم... ولا أحد منا سينساهم، ولكن وأيم الله لأنتقمن لك ولكل أحبائنا شر انتقام، انتقاما سيطفئ النيران التي في قلوبنا إلى الأبد، وسيجعلنا فخورين بذكراهم، لأننا مرغنا أنوف قاتليهم في الطين.

قبل رأسها، ثم قال: أعدك أننا لن نغادر هذه الحياة، إلا ونحن قد اقتصصنا من ملوك ياقوتة وأدبناهم.

فقالت فورا: هذا مستحيل... كل شيء ضاع.

أمسكها من ذراعيها، وقال: أعدك بذلك... هل أخلفت وعدي يوما؟! سيأتي يوم يحدث فيه ذلك.

سكت لمدة ثم قال: لي فترة طويلة تراودني أحلام كثيرة متكررة واضحة صافية، كلٌّ منها طويل الأمد. فيها جميعا أرى جيشا جراراً يعيد لي ملكي ويثأر لي من أعدائي.

استنشقت رقية وتوقفت عن البكاء ومسحت وجهها من الدموع التي ملأته.

وبعد مدة قالت وهي ما زالت تتنفس بسرعة: ولكن حياتنا قاسية جدا، حياتنا مزرية... أنا حزينة جدا على انقلاب حياة أبنائي من قمة الرفاه إلى قاع المعاناة. انظر إلى شقائهم في هذه الجبال الوعرة القذرة بعد أن اعتادوا على رخاء القصور ورهفها ودلالها!... هذا أصعب شيء في الحياة، أن تتقلب من القمة إلى القاع... لو عشنا منذ البداية في المعاناة لتقبلنا ذلك... أصعب شيء في الكون ذل بعد عز.

في الحياة، إذا كان المرء سيحزن على غيره أكثر من حزنه على نفسه، فلن يكون ذلك إلا على أبنائه.

تنهد الملك ثم قال: افهميني جيدا، يا رقية. سننتصر مهما طال هذا الحصار. هذا شيء لا ريب فيه. وبعد أن ننتصر سنعود إلى قصورنا ورفاهنا وحياتنا السابقة، وسيعيش أبناؤنا أفضل حياة ممكنة، بل سأحرص على تدليلهما وإسعادهما أكثر مما اعتادا عليه قبل هذه الحرب القذرة... أعدك بذلك... ستكونين راضية... أعدك.

سكتت قليلا ثم قالت: وفكرة أننا سنُلاَحَقُ مدى عمرنا من قبل الملكينِ القذرينِ، كيف سأتعايش معها؟! أنا وأنت... ابنتنا وابننا كلنا أهداف لملكينِ قذرينِ لا يعرف قلباهما الرحمة ولا الرأفة! انظر ماذا فعلا بعمك وأهلك! كيف سنعيش كأننا حيوانات يمكن أن يصطادها أي أحد في أية لحظة؟!

حزن عندما تذكر ما حدث لأهله، لكنه استجمع قواه في تلك اللحظة الصعبة وقال بصوت ملؤه الثقة: لا تخافي، واجعلي الطمأنينة تسكن قلبك. لقد أخذت الاحتياطات الأكثر من كافية، ومعي رجال يأكلون الحديد ويشربون النار لو أرادوا، ويقودهم جاسم الذي لم أشهد له مثيلا. لقد جعلنا هذه الجبال – باحتياطاتنا – أصعب مكان في هذه البسيطة، ويستحيل على الجن لو حاولوا أن يجدونا فيها. هل تعلمين أنه لو اجتمع ملوك الأرض كلها مع ملكي ياقوتة والهيجاء فلن يستطيعوا النيل منا. هذا كلام لا مبالغة فيه... اطمئني أتم اطمئنان.

ضمها من جديد إلى صدره، وهو يفكر بها، وبابنيه.

بعد كل ما حدث من مآسٍ تكسر المرء من الداخل، وبعد الانقلاب المفاجئ من القمة إلى القاع، إذا استمر الملك بتدليل ريان، فذلك سيجعله مهزوزا ضعيفا؛ لأنه لن يستطيع استيعاب فكرة كل ما حدث. لذلك تعمد الملك أن يقسو عليه، فدوما ما حادثه محادثة جافة قاسية، ودوما ما تعمد أن يرفض جل طلباته، بل إنه لجأ إلى أسلوب الضرب المبرح كلما أخطأ الابن، أو بدر منه تصرف خاطئ. مع أن الملك طيلة عمره وحتى بعد قراره استخدام أسلوب الضرب، اقتنع بأنه أسلوب سيئ لا يتبعه إلا أب قذر مريض. لكنه اقتنع أيضا أن الضرورات تبيح المحظورات.

وعلى العكس، وبعد الهجرة إلى جبال اليبس، دلل ابنته الأميرة هدى أفضل دلال؛ فهي لن تقود أحدا بعد موته، ولن تغدو الملكة المسؤولة عن هذه المملكة الشاسعة، كما سيحدث لأخيها.

((10))

ظل ملكا ياقوتة والهيجاء يرسلان الجنود إلى جبال اليبس بحثا عن الملك الهارب، وكل مرة أرسلا عددا أكبر من المقاتلين، حتى أرسلا عشرات الحملات. وظل أفراد قوة الحماية بقيادة جاسم يصطادون الجنود الغازين بسهولة بالغة، باستخدام أسلوب حرب العصابات.

وهذا – على عكس المتوقع- لم يزرع اليأس في قلبي الملكين العدوين، بل زاد من عنادهما كل مرة، حتى بلغ السيل الزبى، وقررا أمرا معينا هو إرسال قوة ضخمة مشتركة تضم جنودا من كلتا المملكتين، واختار الملكان رجلا يدعى رضا قائدا لهذه القوة التي احتوت ما يزيد على سبعة آلاف مقاتل. اختياره كان مدروسا بعناية، فالرجل كان أحد قادة جيش ياقوتة الكبار، وتمتع بقوة عظيمة وشدة وبأس. ولكن أهم ما ميزه، هو خبرته التي امتدت لسنوات طويلة، في ملاحقة أهم قادة قطاع الطرق والمجرمين في ياقوتة، ولم يحدث قط أن كلف بمهمة جلب رأس أحدهم وفشل في ذلك.

أولى خطوات القائد المحنك الخبير رضا، كانت حصار جبال اليبس من جميع الجهات، ومنع دخول أي شيء أو أحد إليها أو خروجه منها. لقد أدرك من خلال خبرته، أن أفضل وسيلة لاصطياد الفريسة، ألا تذهب بحثا عنها، بل أن تجعلها تأتي بنفسها إليك. ولذلك حاصر أهل الجبال حتى يجبرهم على الخروج منها فينقض عليهم، فقد أدرك جيدا، أن اقتحام هذه الجبال الوعرة أمر صعب وخطير جدا، لا سيما مع العدد الكبير من الجنود الذين قادهم.

لكن ما لم يحسب رضا حسابه هو أن أهل الجبال كانوا محنكين وأذكياء؛ فالقائد جاسم حرص دوما أن يتواجد فيها ما يكفي أهلها لما يزيد على السنة. ومن خلال عيونه التي انتشرت في البقاء المحتلة، علم بزحف القوة الضخمة بقيادة رضا باتجاه جبال اليبس، لذلك قبل وصول القوة، جلب من المناطق المحيطة بالجبال كل ما ينقص أهلها، واستعد لحصار طويل. كما أنه بعد حصار رضا للجبال، إذا احتاج أي من أهلها لأشياء، فإنهم بخبرتهم للجبال وحفظهم لطرقها الوعرة، اعتادوا في الليل أن يتسللوا ويخرجوا منها ويعودوا إليها بخفة حاملين ما يحتاجونه، دون أن يشعر بهم جنود رضا.

أحكم رضا الحصار ما يزيد على ستة أشهر، وللأسباب السابقة كلها فشل حصاره في إجبار أهل الجبال على مغادرتها؛ لذا وصل إلى طريق مسدود وبات حتميا عليه أن يصعد الجبال الشاهقة الأكثر ارتفاعا في البقاء بل حتى في الهيجاء وياقوتة.

بدأ في صعود الجبال بكل جنوده، لكنه استفاد مما حدث مع القوات السابقة التي أرسلها ملكا ياقوتة والهيجاء إلى الجبال. لذلك حرص أن يظل عدد كبير من الجنود مستيقظا طيلة الليل ليحرسوا البقية، وقد تناوب الجنود على هذه الحراسات الليلية. وكل هذا لأن أفراد قوة حماية الملك

الهارب اعتادت أن تضرب دوما في الليل. كما أنه حرص دوما أن يتقدم قوته الضخمة قوات صغيرة تذهب في جميع الاتجاهات للاستكشاف، وبالتالي تكشف أي رماة يتجهزون لاصطياد جنود قواته، وبالتالي لو اصطاد الرماة أيا من جنود القوات الصغيرة، فسيعود بعض من جنودها لتحذير أفراد القوة الكبيرة وبالتالي لن يخسر رضا كثيرا من المقاتلين.

لهذه الأسباب كلها، لم يتمكن أهل الجبال من الانقضاض على قوة رضا، وهزيمتها، كما اعتادوا أن يفعلوا مع كل قوة غازية تهاجم الجبال.

ومرت الأيام ثم الأسابيع وجنود رضا يزحفون في الجبال حتى قطعوا مسافة كبيرة فيها؛ مما زرع الفرح في قلب رضا؛ لأنه أدرك أنه بات على شفا المهمة التي فشل فيها جميع من سبقوه.

وذات ظهيرة يوم، وبينما رضا وجنوده يصعدون جبلا شاهقا، شديد الانحدار، يتطلب بلوغ قمته المسير مسافة طويلة، حدث ما لم يكن بالحسبان، جعلت صخور ضخمة كثيرة العدد تسقط من قمة الجبل باتجاه جنود رضا. وبسبب شدة انحدار الجبل، كانت سرعة الحجارة تزداد أضعافا كلما قطعت مسافة باتجاه الجنود. لما رأى جنود القوات الصغيرة، الصخور تتجه نحوهم تفاجؤوا، فمنهم من لقي حتفه في حين اتجه آخرون باتجاه القوة الرئيسة لإعلام القائد رضا بما يحدث. وبينما هم يتجهون إليهم ازداد عدد الصخور وسرعتها أضعافا حتى هرست أفراد القوات الصغيرة، ثم وصلت أفراد القوة الكبيرة، فتفاجؤوا بالمنظر المذهل. جعلت الصخور تدهس الجنود، فتهرس أجسادهم وعظامهم، فقتلت العدد الهائل منهم، وتسببت بكسور وجروح لجلهم، في حين حاول البعض الاختباء أسفل الحجارة الكبيرة التي انتشرت في مختلف أنحاء الجبال. ولأن عدد الجنود ضخم، ارتبكوا وهلعوا وباتوا يتحركون باضطراب في كل مكان مما زاد الطين بلة. وظلت الصخور تجري بسرعة نحوهم، حتى أدرك القائد رضا أنهم يجب أن ينزلوا الجبل، فصرخ في جنوده: اهربوا إلى أسفل الجبل.

فبدأ العدد الهائل من الجنود يفعل ذلك، لكنهم لقوا مفاجأة أكبر لم تكن بالحسبان. فالقائد جاسم منذ علم - من خلال عيونه - بزحف قوة رضا باتجاه الجبال، جعل عددا كبيرا من أفراد قوة الحماية يختبئون في بيوت الناس الساكنين حول جبال اليبس والذين كانوا موالين للملك الهارب. وهذا العدد الكبير من الجنود بالإضافة إلى عدد كبير من المتطوعين من أهل المناطق المحيطة بالجبال، نفذوا أمر القائد جاسم واتجهوا نحو مؤخرة قوة رضا وهي تصعد الجبل الشاهق. فلما نزل جنود رضا باتجاه أسفل الجبل، وجدوا كل هؤلاء بانتظارهم، وبينما جنود رضا هلعون خائفون مضطربون كل همهم النجاة بحياتهم من جحيم الصخور المتساقطة، كان الموالون للملك الهارب في قمة الراحة وهدوء الأعصاب، فجعلوا يطلقون الأسهم حتى قتلوا عددا كبيرا من الجنود، ولما اقترب بعض الجنود منهم، استل أتباع الملك الهارب سيوفهم وجعلوا يقتلون جنود رضا. وهكذا بات جنود رضا بين فكي كماشة. وظل الموت يحصد أرواح الجنود فلم يبق منهم الكثير، وجل من بقي كان جريحا. عندها توقفت الصخور عن السقوط وانقض جنود من أفراد حماية الملك الهارب من أعلى الجبل الشاهق باتجاه جنود رضا، وفي الوقت نفسه انقض المقاتلون الموالون للملك الهارب من أسفل الجبل باتجاه أعدائهم، وجعل الجنود يقتلون خصومهم من الجهتين حتى أجهزوا عليهم.

***

بعد المعركة، أسر جنود جاسم من تبقوا أحياء من جنود رضا. أراد الملك قصي أن يرى إن أسر أفراد قوة حمايته القائد رضا ومن عاونه من أدلاء. لذلك أمر بجلب وجهاء المناطق المحيطة بجبال اليبس لينظروا إلى الأسرى ويخبروه هل من يبحث عنهم من بين الأسرى أم لا. لقد أقام رضا وجنوده ما يقرب الستة أشهر في المناطق المحيطة بجبال اليبس أثناء حصاره لها، ولهذا تعامل كثيرا مع وجهاء هذه المناطق الذين باتوا يعرفونه جيدا. أمر القائد جاسم بإيقاف كل الأسرى بعضهم بجانب بعض في صف واحد. وسار الوجهاء بجوار الأسرى المقيدين ينظرون إليهم حتى رأوا جميع الأسرى، وقد تعرفوا على رضا ودليلين اثنين من الأدلاء الذين اصطحبهم معه، ثم أخبروا القائد جاسم أي الأسرى هم رضا وأدلاؤه.

اصطحب القائد جاسم رضا والدليلين معه إلى مقر الملك قصي الرئيس حيث كان يجلس الملك على عرشه في نهاية المقر. كان المقر محفورا في إحدى المغارات، وكان يطل إلى الخارج، حيث حُفر في الصخر عدة نوافذ امتدت طوليا مسافة طويلة من الأعلى إلى الأسفل، وأطلت على الخارج على الهواء الطلق. ووجدت في القاعة عدة أعمدة حديدية سوداء حملت في أعلاها قناديل مضاءة. وانتشر في القاعة عدد من أفراد قوة الحماية لحراسة الملك قصي. وغطى الأرضية سجاد متقن الصنع.

دخل رضا والدليلان المقر، وجعلوا ينظرون بذلة في الأرض وهم مقيدون، ووقف خلفهم القائد جاسم.

وظلوا على حالهم هذا، حتى قال الملك لأحد حراسه: اجلبوا لهم ثلاثة كراسيّ.

فجلب الحارس ثلاثة كراسي خشبية. ووضعها في صف واحد بعضها بجوار بعض.

أمر الملك أسراه الثلاثة: اجلسوا على الكراسي.

فلم يفعلوا، فصرخ الملك: قلت: اجلسوا على الكراسي.

جلس الثلاثة وبدؤوا يرتجفون.

القائد رضا كان ذا ملامح قاسية قوية لطالما أخافت كل من نظر إليه، لكن في تلك اللحظات العصيبة لم تكن هذه الملامح ذات قيمة على الإطلاق.

وقف الملك واتجه بخطوات بطيئة حتى اقترب من الثلاثة الجالسين المقيدين، ثم وقف بجوار رضا، وقال: برأيك هل يقتل الملوك الضياغم أسراهم؟

أراد رضا أن يجاوب بالنفي، وفي تلك اللحظات امتلأ بالأمل بأن يعفو عنه الملك، لكنه التزم الصمت؛ لأنه أحس أن الملك غاضب جدا، وأن الصمت خير من الكلام.

فصرخ الملك: أجب.

فرد رضا: لا، لا يفعلون.

قال الملك: بالطبع، لا يفعلون. لأنه ليس من شيم الكرماء الأصلاء أن يقتلوا أسراهم وهم في حالة ضعف. وملوك الضياغم كرماء أصلاء... يا رضا.

بدأ رضا يشعر بالاطمئنان شيئا فشيئا؛ فكلام الملك عنى أنه لن يقتله.

ثم أضاف الملك: لكن لكل شيء استثناء. عندما يغير ملك على عائلة كاملة غدرا وفي الفجر، ويقتل كل أفرادها بمن فيهم النساء والأطفال، ثم يمثل بهم جميعا، فهذا ليس بفعل إنسان... إنه فعل حيوان قذر.

تنهد الملك وجحظت عيناه، ثم أكمل: وعندما يطيع أشخاص هذا الملك ويوالونه ويعملون في جيشه، فهذا يعني أنهم حيوانات قذرون مثله.

حدق الملك في رضا الذي تلاشت الطمأنينة من صدره، وحل محلها خوف وتسارع في نبضات القلب.

ثم قال الملك: أيها الحيوان القذر، لن أسامحك، فأنت لست بأسير يستحق الاحترام، سأقتلك ثم سأصلبك في منطقة حول جبال اليبس.

تسارعت أنفاس رضا، بينما استل الملك خنجرا وجعل يطعن رضا وهو على الكرسي، فطعنه أربع طعنات وسال دمه غزيرا وملأ يدي الملك، حتى فارق رضا الحياة.

ثم نظر الملك إلى الدليلين، اللذين كانا يرتعشان خوفا، كأنهما وسط جليد بالغ البرودة.

ثم قال الملك لهما: أتعلمان أن خيانة الصديق شر بألف مرة من غدر العدو؟!

ثم أضاف: مصيركما هو مصير هذا الحقير.

اتجه الملك إليهما وطعن الدليل الأول ثلاث طعنات ثم الدليل الثاني أربع طعنات، وتدفق الدم غزيرا في كل مكان وملأ يدي الملك وثيابه وخنجره، وسال على جثث القتلى الثلاثة وملأ الأرض في مشهد دموي لا رحمة فيه.

بعد ذلك أمر الملك بقتل كل الأسرى فقتلوا، ثم علق جثث جميع القتلى على صلبان في إحدى المناطق المحيطة بجبال اليبس، وتقدمهم جميعا صليب حمل جثة رضا، وخلفه مباشرة على يمينه ويساره صليبان حملا جثتي الدليلين، وخلفهما جثث سائر القتلى. وكانت جميع الجثث مليئة بالدماء. وكل هذا أراد منه الملك الهارب إرسال رسالة إلى الملك خلدون يؤدبه شر تأديب بها، ورسالة أخرى لأهل المناطق المحيطة بجبال اليبس وهي أن الخيانة عواقبها وخيمة للغاية.

وبعد أن علم الملك خلدون وملك الهيجاء بكل ما حدث، يئسوا وأقروا باستحالة قنص رأس الملك الهارب، لذلك أوقفوا إرسال الحملات إلى جبال اليبس.

وهكذا مرت السنين، وتقدم الملك الهارب بالعمر، وظل أعداؤه يتمنون لو يحصدون رأسه لكن دون جدوى.

***

من بين كل أهل البقاء، لم يكن الملك الهارب الأكثر حقدا على ملكي ياقوتة والهيجاء، على الرغم من أن ما حمله تجاههما كان أوسع من البحار، وأكثر امتدادا من السماء. أكثر أهل البقاء حقدا على الملكين الغادرين كان ابنه الأمير رياناً. تخيل أن تعيش في أقصى درجات الرغد والرفاه، وأن تكون في ثلاث ممالك شاسعة تتمتع برغد ورفاه ليس لأحد من أهل تلك الممالك ربعه حتى، وبعضهم لو وصفت له هذا الرغد لما استطاع استيعابه. ثم فجأة وبين ليلة وضحاها، تخيل أن تنتقل لتعيش حياة قاطع طريق بين الجبال والوديان مع الذئاب والكلاب الضالة تتساءل كل لحظة: هل سيخطف أعدائى حياتي عما قريب؟!

والمرء إذا ولد فقيرا يعاني ضنك الحياة وظل كذلك طيلة حياته، فذلك أهون من أن يولد غنيا في فيه ملعقة من ذهب، ثم يتحول بين ليلة وضحاها إلى فقير معدم.

كل هذا صدم الأمير ريانا صدمة كسرته من الداخل، وأثرت على شخصيته، فجعلته حقودا جدا متعطشا بشدة للانتقام، وقويا جدا، وكل هذا تضاعف مع تربية أبيه القاسية المهينة له.

ظل الأمير يقترح على أبيه الملك أن ينتقموا من أعدائهم وأن يحرروا البقاء من براثنهم، واقترح عليه عدة خطط، وألح على والده كثيرا بغية تنفيذها، لكنه لم يلق منه إلا أقسى توبيخ وأعند رفض.

أكثر مرة بلغ فيها النقاش حدته كانت ذات ظهيرة عندما دخل الأمير ذو السبعة عشر عاما على مجلس أبيه في الحجرة، إذ وجد فيها الملك والقائد جاسما وعددا كبيرا من حراس أبيه.

"السلام عليكم" قال الأمير الحاقد بعينيه الغاضبتين.

"وعليك السلام" رد الأب ثم تبعه القائد جاسم.

جلس الأمير وهو يتنفس بسرعة، وظل ملتزما الصمت، بينما اتضح لجميع من في الحجرة الغضب العارم الذي اجتاحه.

جعل يحدق في أبيه بحدة وبعينين ملؤهما الغضب.

تحادث الملك والقائد جاسم.

وبعد مدة، نظر الملك إلى ابنه، وقال: ما بالك؟! ولم التزمت الصمت مذ جلوسك؟! وما كل هذا الغضب الذي يعتريك؟!

وفي مفاجأة للجميع صرخ الأمير بأعلى صوته: ما بالي؟! أعداؤنا يقتلون عائلتنا ويحتلون أراضينا ويستبيحون شعبنا ونساءنا، ونحن هنا كالنساء نختبئ في الجبال!

عندها اتسعت عينا الملك واحمرتا غضبا ووقف من جلسته على عرشه، وجعل يلوح بيده للأمير ويقول: اخرس، أيها الولد الحقير... كيف تجرؤ أن تحادثني هكذا؟!... أنت مجرد صعلوك، فكيف تحادث ملك البلاد كلها هكذا؟!

لطالما تعمد الملك القسوة على ابنه وتلك اللحظة لم تكن استثناء، كما أنه لم يكن ليقبل بأن تهز صورته على أنه الملك العظيم أمام أي أحد.

أصاب الجزع كل من في الحجرة حتى القائد جاسما، ولم يصدقوا جميعا ما حدث، فلما يمر عليهم من قبل مثل هذا الخلاف بين الملك وابنه.

نظر الأمير إلى الأرض وطأطأ رأسه وتعاظمت نيران غضبه وتسارعت أنفاسه أكثر وأكثر.

عندها قال الملك وهو واقف: غادروا جميعا الحجرة، واتركوني مع ريان وحدنا.

عندها نفذ جاسم وكل من في الحجرة أمر الملك.

وبعد أن غادروا، قال الملك بصوت منخفض لكنْ غاضب: إياك أن تحادثني بهذه النبرة مجددا... لا سيما إن كان معنا أحد.

لم يرد الأمير، بينما ظل الملك يرمقه بنظرات الغضب وبعد مدة جلس على عرشه.

انتظر مدة ليست بهينة، ثم قال بصوت هادئ: اهدأ قليلا... وأخبرني –وبهدوء– ما يسافر من أفكار في رأسك.

ظل الابن ينظر بغضب في الأرض وقال بهدوء وصوت منخفض: أبي، يجب أن نفعل شيئا... يجب أن ننتقم... يجب أن نحرر أرضنا... يجب أن نرجع ملوكا...

فقال الملك بهدوء: ولكننا لسنا مستعدين بعد، وليست لدينا خطة محكمة ننتصر من خلالها.

نظر الأمير إلى أبيه ورد فورا: ولكنني أخبرتك بكثير من الخطط وقد رفضتها كلها.

"لأنها كلها سيئة وغير منظمة" قال الملك.

فرد الأمير: خطتي الأخيرة محكمة جدا، وعلى الرغم من ذلك فقد رفضتها أيضا.

فقال الملك: أية خطة، يا ريان؟! أن نتجمع سرا مع عدد قليل من المقاتلين على حدود ياقوتة، وبعدها – بطريقة ما – سيعلم الناس بذلك ويلتحقون بنا لنقاتل جميعا ملك ياقوتة ونهزمه!

هذه – لعمري – أبأس خطة سمعت بها في حياتي كلها.

استاء الأمير كثيرا من كلمات والده، وكانت تلك ضربة جديدة من الضربات التي وجهها له والده وجرح بها كرامته.

"أنصت إلي جيدا، يا ريان" قال الأب ثم أكمل: أنا أدرك كم الغضب الذي تشعر به، فما مررتَ به ليس هينا... وربما لم يمر بمثله أحد من البشر سواك.

شعر الأمير بشجن عظيم، وهو يستمع إلى تلك الكلمات.

ثم أضاف الملك: لكنك شاب، ويحتلك طيش الشباب وغضبهم. أنا أكثر منك حكمة وخبرة وبفارق كبير، بسبب السنوات الكثيرة التي تفصل بيننا، وبسبب اختلاطي بالملوك والساسة أيام إقامتنا في القصور... صدقني، أنا أعلم أكثر منك... نحن حاليا غير متهيئين لقتال أعدائنا.

تنهد ثم أضاف: ورغما عن هذا، فليرتح فؤادك، فأنا متيقن أنه ذات يوم سننتصر وسنحقق كل ما تصبو إليه... ربما يكون ذلك اليوم بعيدا، لا أعرف... ولا أعرف كيف سنحقق كل هذا، لكنني متأكد أننا سنحققه.

لم يقتنع الأمير بكل هذا، وتعاظم الغضب أضعافا في صدره.

وظل الأمير في المستقبل يعرض الأمر على أبيه، وظل الأخير يرفض.

***

في اليوم التالي، دخلت الملكة رقية حجرة ابنها الأمير ريان، فوجدته جالسا على الكرسي فيها وهو في قمة الغضب.

"كيف حالك، يا بني؟" سألت الملكة وهي واقفة.

فأجاب ابنها بحدة وجفاف: بخير... كيف سأكون إذاً؟!

فقالت: لقد سمعت بما دار بينك وبين أبيك... هل أنت غاضب لهذا السبب؟

فوقف ريان غاضبا، وصرخ: نعم، غاضب لألف سبب، وهذا على رأسها... أبي لا يترك فرصة إلا ويهينني فيها... يعاملني كما لو أنني ابن خادم، لا على أنني أمير وولي عهد، وابن ملك... والذي يقهرني هو أنه يفعل كل هذا أمام الآخرين. أنا أكره طريقة تعامله معي منذ صغري.

فردت الأم: ريان، أنصت إلي جيدا... إن طريقة والدك قد تكون خاطئة، وقد حادثته بخصوصها مرارا وتكرارا... لكن لكل شيء مساوئ ومحاسن، ورغم مساوئ هذه الطريقة، فإن لها محاسن جمة... انظر إليك كيف أنت رجل قوي شجاع... لو دللك أبوك بعد كل المآسي التي حدثت لنا، لنتج لنا أمير ضعيف مكسور مدلل، لا يستطيع مواجهة الصعاب... الآن أنت بت رجلا كبيرا، وتعي كل هذا.

هدأ الأمير قليلا، ثم جلس على السرير، فجلست بجواره، ثم قال وهم يحكم قبضتي كفيه: أنا متعب، يا أمي... أتدرين ما معنى أن تولدي أميرة في قصر، ثم ينتهي بك الأمر شاردة في جبال لا تسكنها إلا الضباع والكلاب... الموت أرحم... الموت أرحم بألف مرة... كل يوم... كل لحظة... أغمض عيني وأتخيل كيف كانت لتكون حياتي، لو لم تحدث الحرب المقيتة... أتخيل القصور

والطعام والخدم والنساء وطاعة الناس وتملقهم... بدلا من هذا القرف الذي نعيش به... تبا لحظي... تبا له.

فوضعت الأم يدها على ظهر ابنها، ثم قالت بهدوء: نعم، أعرف معنى ذلك... وأكثر منك... فلقد وعيت كل ذلك الثراء والجاه، ثم حدث لي ما حدث... أما أنت فقد كنت صغيرا – آنئذ- ولم تع المرحلة جيدا.

تنهدت بحرقة، ثم أكملت: من الأشياء التي علمتني إياها الحياة، هي أن الله إذا ابتلى امرأ وهو صغير، فغالبا سيتيح له فرصة التعويض عندما يكبر... البقاء يستحيل أن تظل محتلة... وسيأتي يوم – لا محالة – ستتحرر فيه... وأنا أراك منذ الآن ملكا للبقاء ذات يوم... فهدئ من روعك.

أنصت الأمير لهذه الكلمات جيدا، وهو يحاول أن يقنع نفسه بها، رغم أنه أيقن مدى صعوبة أن يتحقق أي مما قالته أمه.

***

كان للأمير ريان، صديق غال على قلبه اسمه الأمير عماد، وهو ابن خالة ريان، ومن أفراد العائلة المالكة الذين لجؤوا إلى جبال اليبس، بعد الحرب المقيتة. وقد اعتاد عماد وريان على اللقاء دوما. فأتى عماد لزيارة ريان، في الحجرة المخصصة للأخير في الجبال.

طرق عماد الباب.

فقال ريان بصوت غاضب: من هنالك؟

"أنا عماد" قال صديقه.

فقال الأمير بنبرة ملؤها التأمر – رغم أن عمادا صديقه وأمير-: تعال.

لقد تميز الأمير بثقة كبيرة في نفسه، ونظر إلى نفسه على أنه رجل عظيم جدا، لا سيما أنه في تلك اللحظات كان ولي عهد الملك الهارب، مما أثر على علاقته بالجميع، بمن في ذلك الأمراء، ما دعا الكثيرين لوصفه بالغرور.

دخل عماد الغرفة، فوجد ريانا يشتعل غضبا، وهو جالس على سريره، ويسند كوعه الأيمن إلى ركبته اليمنى، ويسند رأسه إلى كفه اليمنى.

جلس عماد على كرسي في الحجرة، وسأل: ما بالك غاضبا؟!

فانفجر ريان بغضب وعجرفة – غير مراع صداقته لعماد-: ما بالي؟! لقد سئمت من أبي... سئمت من كل هذا... يجب أن ننفذ خطة نحرر بها البقاء... سئمت من هذا الضعف وهذا الجبن، كأننا نساء لا رجال.

فقال عماد: اهدأ، يا ريان... الوقت ليس مناسبا... وسيأتي يوم يحدث فيه كل ما تريده.

فرد ريان غاضبا: ومتى سيأتي هذا اليوم؟! بعد مئة عام عندما نكون عظاما رميمة في التراب! كم سنة صبرنا! وكم ذلا تحملنا!

"اهدأ، يا صديقي" قال عماد، وأضاف: عليك أن تصبر حتى تحين اللحظة المناسبة، فمن شرب البحر، بإمكانه شرب البحيرة... لا أعرف إن كانت البقاء ستتحرر يوما ما أم لا... سواء أحدث ذلك أم لم يحدث، لا تحرق زهرة شبابك وأنت تنتظر أمرا هو من الغيب.

صمت ريان، والغضب يشع منه.

وبعد مدة قال بنبرة هادئة ملؤها الغضب والاشمئزاز: أبي سيصيبني بالجنون... يتعامل معي باحتقار، كأنني عبد حقير عنده، لا أمير وولي عهد... لقد سئمت منه، ومن توبيخه لي أمام الناس دوما.

فرد عماد: اهدأ، يا ريان. لا تجعل غضبك يوثر على عقلانيتك، وطريقة نظرك إلى الأمور. لا تنس أن هذا الذي تتحدث عنه هو ملك البقاء، وأعظم رجل فيها... وحتى لو لم يكن كذلك، لا تنس أنه أبوك، وعليك طاعته مهما حدث.

ظل الاثنان يتحادثان بينما حاول عماد تهدئة صديقه. في حين تساءل ريان، هل سيأتي اليوم الذي تتحرر فيه البقاء؟!

***

((12))

العام 476.*

بعد استلام الزبير قيادة كل قبائل الكثبة، لم ينتظر كثيرا ليبدأ في تنفيذ خطته بتحرير البقاء وإعادتها مملكة مستقلة قوية. وتوجه إلى جبال اليبس، لتنفيذ أول خطوة في خطته والتي كانت أصعب خطوة، وهي إيجاد الملك الهارب، ثم شرح الخطة له، والحصول على موافقته عليها. لقد عنى هذا الأمر مخاطرة كبيرة قد تهلكه، لكنه استعد لدفع حياته ثمنا لنجاح خطته.

حالما وصل الزبير المناطق المحيطة بجبال اليبس، نزل في نُزل هناك. وضع أغراضه في غرفته، وتناول قليلا من الطعام والشراب الذي أعده العاملون في النزل، ثم استراح قليلا. بعدها توجه إلى صاحب النزل وسأله عن أشهر المطاعم والمقاهي وأكبرها في المناطق المحيطة بجبال اليبس، فأخبره صاحب النزل عن سبعة منها.

على الفور توجه الزبير إلى أحد المطاعم ثم دخلها. وُجِدَ هنالك مربعات كثيرة منتشرة في المكان، ومفصولة عن بعضها من خلال فواصل ضئيلة الارتفاع مبنية من الطوب، وفي كل مربع وُجِدَت أفرشة على الأرض، جلس عليها بعض الناس واتكأ عليها بعضهم الآخر، كما وجدت أفرشة تستند إلى الحيطان وإلى الفواصل بين المربعات، وقد أسند بعض الموجودين ظهورهم إليها. وفي نهاية المطعم وجدت منصة جلس خلفها صاحب المطعم لاستقبال طلبات الحاضرين. هذا كان النمط الذي بنيت عليه معظم المطاعم والمقاهي في البقاء.

كان صوت الناس في المطعم وهم يتحادثون ويتضاحكون عاليا.

حالما دخل الزبير، جعل عدد من الرجال ينظرون إليه باحترام شديد، نتيجة للهيبة التي انبعثت من مظهره ونظراته.

توجه الزبير إلى المنصة حيث صاحب المطعم، وقال: مرحبا.

فرد صاحب المطعم: أهلا بك، سيدي.

ثم أضاف: ماذا تحب أن تتناول من الطعام والشراب؟

فرد الزبير: شكرا لك، أنا لم آتِ لذلك.

فسأل صاحب المطعم: فكيف لي أن أساعدك؟

وفجأة قال الزبير بصوت عال: أنا شيخ الكثبة بأكملها.

فأنصت الحاضرون جميعا بإمعان.

ثم أضاف: أنا أبحث عن الملك الهارب، فأين يمكن أن أجده؟

نظر الجميع بذهول وتعجب إليه، وتوتر المكان برمته.

"كيف يمكن لأحدهم أن يسأل مثل هذا السؤال، وأمام الجميع؟! ألا يعلم أن كل من أتى بحثا عن الملك الهارب لقي حتفه؟!" دارت هذه الأفكار في رؤوسهم.

لما رأى الزبير استغرابهم وأحس بالتوتر، أضاف بصوت عالٍ: أنا من محبيه، وأريد أن أساعده.

ازداد تعجب الحاضرين ودهشتهم، وازداد التوتر في المكان.

عندها صرخ صاحب المطعم بتشنج وبنبرة تهديد: اذهب من هنا قبل أن يؤذيك أحدهم.

على الرغم من أنه وجه إهانة للزبير، إلا أنه لم يرد عليه، لأنه أتى إلى جبال اليبس لمهمة محددة ليس من ضمنها الاقتتال مع أصحاب مطاعم.

التف الزبير وغادر المكان بينما رمقته عيون جميع الموجودين بمزيج من الدهشة والشعور بالهيبة تجاهه.

توجه بعدها مباشرة إلى مقهى آخر ودخله حتى وصل المنصة التي وقف خلفها صاحب المقهى، وقال بصوت عال كلاما مشابها لما قاله في المطعم السابق، وتكرر كل ما حدث من انتشار للدهشة والتوتر في المكان.

فكان رد صاحب المقهى بأن صرخ قائلا: لا أعرف أين تجده، وإياك أن تكرر هذا الحديث في أي من المناطق المحيطة بجبال اليبس.

من جديد لم يرد الزبير على صاحب المقهى ورحل عنه.

بعدها ظل يتوجه إلى سائر المطاعم والمقاهي التي أخبره عنها صاحب النزل الذي نزل فيه، وما انفك يكرر ما فعله في أول مطعم، بالسؤال بصوت عال عن الملك الهارب، والقول إنه يريد مساعدته، وظل يتلقى ردودا مشابهة من أصحاب المقاهي والمطاعم.

لقد تعمد أن يسأل بصوت عال أمام الجميع عن الملك الهارب وأن يخبرهم بأنه يريد مساعدته، وذلك حتى ينتشر هذا بسرعة في المناطق المحيطة بجبال اليبس ثم في الجبال نفسها، فيسمع به الملك ويرسل من يحضره إليه. وقد توقع أن ينجح في خطته.

عاد الزبير إلى غرفته في النزل، وظل ينتظر أياما بفارغ الصبر، لعل الملك يكون قد سمع به وبما قاله ويرسل إليه أحدا من طرفه. لكن ذلك لم يحدث. عندها قرر الزبير أن يتخذ خطوة للأمام كان قد فكر بها مسبقا وهو في أرض قبيلته.

ترك سيفه وخنجره في غرفة النزل، وأخذ معها راية بيضاء، أحضرها معه من الكثبة.

ركب حصانه ومعه الراية البيضاء، واتجه إلى جبال اليبس. ثم بدأ صعود الجبال وهو يحمل الراية البيضاء، وهو لا يحمل أي سلاح.

الراية البيضاء في البقاء رمزت للاستسلام، أو أن من يرفعها لا يريد القتال أو المشاكل، وهذا ما أراد الزبير توجيهه لمن قد يراه من أفراد قوة حماية الملك الهارب الذين استوطنوا الجبال.

ظل يتوغل ثلاثة أيام صاعدا جبال اليبس، أمضاها بين النوم والصعود، وفي ظهيرة اليوم الرابع، وبينما هو يصعد أحد الجبال، أحاط به مقاتلون مسلحون من كل مكان، وجميعم وضعوا اللثام على وجوههم.

بالطبع الزبير كان يرفع الراية البيضاء، وهذا ما جعل المقاتلين لا يهاجمونه مثلما يهاجمون أي غريب مقتحم للجبال.

وقد أدرك الزبير بذكائه أن هؤلاء أفراد من قوة حماية الملك الهارب، لما رأى كثرة الأسلحة التي يحملونها وأنهم يلبسون ملابسَ متشابهة، بيضاء في جلها، ولبسوا جميعا عمائم سوداء، وكانت لُثُمهم جميعا سوداء.

حالما رآهم، رفع يديه إلى الأعلى بينما يحمل الراية البيضاء بإحديهما، ثم قال: أيها الفرسان، أنا أتيت هنا مسالما، ولا أحمل أي سلاح... أريد فقط أن أحادثكم.

عندها قال أحدهم وهو قائدهم: ألا تعرف أين أنت؟! هذه الجبال لا يدخلها إلا أهلها وأنت لست منهم.

ثم أضاف بنبرة قاسية ملؤها التهديد: ارحل من هنا ولا تعد أبدا وإلا ستفقد حياتك.

توقع القائد أن الكلام سيخيف الزبير، لكن المفاجأة احتلت صدر القائد وجنوده، عندما ابتسم الزبير ابتسامة ملؤها القوة والثقة بالنفس.

التف الجنود وعزموا على المغادرة، عندها قال الزبير: حسنٌ، سأرحل... لكن... أيها الفرسان، إن كنتم تعرفون الملك قصيا فأخبروه أن شيخ قبائل الكثبة يبحث عنه.

تفاجأ المقاتلون عندما سمعوا ذلك وجعلوا ينظر بعضهم إلى بعض.

ثم أضاف الزبير: أنا شيخ قبائل الكثبة التي لطالما والت الملوك الضياغم.... أنا صديق... ولست عدوا.

أنصت المقاتلون جيدا لهذه الكلمات، ثم بدؤوا بالرحيل، في حين اتجه الزبير بالاتجاه المعاكس عائدا إلى النزل وهو فرح مبتسم؛ لأنه شَعَرَ - بما يقارب اليقين - أن خطته بإيجاد الملك ستنجح وأن الملك سيرسل أحدا من طرفه إلى الزبير.

***

بعد عدة أيام، وبينما الزبير جالس في غرفته في النزل، طرق الباب بقوة عدة مرات.

قام الزبير وفتحه، فوجد تسعة فرسان يتقدمهم فارس يتضح أنه قائدهم، وقد لبسوا ملابس تشبه ملابس المقاتلين الذين اعترضوا الزبير حينما صعد جبال اليبس، وقد كانوا جميعا ملثمين كذلك.

لكن أهم ما في الأمر أنهم جميعا كانوا يحملون سيوفهم بأيديهم، وقد تعمدوا ذلك، لإخافة الزبير وثنيه عن أية محاولة لقتالهم، لكنهم لم يعرفوا أن مثل هذه الأمور لا تؤثر به.

"انظر من النافذة" قال قائدهم للزبير بنبرة جادة قاسية.

اتجه الزبير إلى نافذة الغرفة التي أطلت على الشارع أسفل النزل، ونظر منها فوجد ستة فرسان آخرين ملثمين، يلبسون اللباس نفسه للمقاتلين الواقفين على باب غرفته.

ثم قال القائد الواقف بباب الزبير: لا تحاول القتال؛ فذلك ليس من صالحك.

نظر الزبير إليه بهدوء وقال بهدوء مماثل: حسنٌ، أنا أصلا لم آتِ من الكثبة إلى هنا للقتال.

ثم قال بلطف للقائد: تفضل، ويفضل أن تعيدوا سيوفكم إلى أغمادها، فلا داعي لها.

أومأ القائد للمقاتلين فأعادوا السيوف إلى أغمادها، ثم فعل هو الأمر نفسه. بعدها دخل وجلس على كرسي في الغرفة، ثم جلس الزبير على السرير.

"ماذا تريد من الملك قصي؟" قال القائد، ثم أضاف: ولم تبحث عنه؟

رد الزبير ببساطة واختصار وبرسالة واضحة: أنا شيخ قبائل الكثبة، وقد وضعت خطة لإعادة تحرير البقاء، وإعادة بناء المملكة وتنصيب الملك قصي ملكا عليها.

نظر القائد إلى مقاتليه باستغراب مما سمعه، ثم أعاد نظره إلى الزبير، في حين ظل المقاتلون يتبادلون نظرات التعجب فيما بينهم؛ فما قاله الزبير أمر عظيم شديد الصعوبة إلى الدرجة التي قد يبدو فيها خياليا بل حتى من باب المزاح.

قال القائد: حسن، سنأتيك بعد أيام هنا برد الملك قصي.

فرح الزبير كثيرا؛ فالآن تأكد بأن الملك الهارب حقيقي وليس مجرد أسطورة كما أشاع البعض، ولأنه أخيرا سينجح في تنفيذ خطته التي أحكم تنظيم خطواتها منذ سنوات بعيدة.

قام القائد وخرج وأغلق باب الغرفة ورحل مع مقاتليه؛ بينما شرع الزبير ينتظر بفارغ الصبر رد الملك.

***

مرت ستة أيام، قبل عودة الفرسان الملثمين، إلى النزل. أمضى الزبير هذه المدة كأنه يقف على الجمر وهو ينتظر رد الملك، ورغم أنه كان متفائلا بموافقة الملك، إلا أنه امتلأ توقا ليسمع نبأ الموافقة من مقاتلي قوة الحماية.

هذه المرة أتى القائد نفسه، ولكن معه ثلاثة مقاتلين آخرين فقط، فهو لم يعد يخشى أية حركة غادرة من الزبير.

طرق القائد الباب، فقام الزبير وفتحه بسرعة، ووجد الرجال الملثمين الأربعة، وتمكن من معرفة أن قائدهم هو نفسه الذي أتى المرة السابقة.

"أهلا وسهلا" قال الزبير.

ثم أضاف وهو يشير بيده إلى الداخل: تفضل.

فدخل القائد الملثم وجلس على الكرسي بينما جلس الزبير على السرير.

نظر القائد بعينيه الحادتين إلى الزبير لمدة ثم قال: لقد وافق الملك على مقابلتك.

ابتهج الزبير أشد ابتهاج وارتاح أخيرا؛ فأصعب خطوة في خطته الشائكة قد نجحت.

لم يمهل القائد الزبير كثيرا، فأضاف: لكن لدينا شرط.

الزبير استعد لتنفيذ أي أمر يطلبه الملك في سبيل لقائه؛ لذا رد بثقة: سأنفذه أيا كان.

فقال القائد: عليك أن تأتينا بأحد أقرب أقاربك، حيث سنحتجزه في مكان ما. إذا حدث شيء للملك بسببك، فسنقتل قريبك الذي نحتجزه دون رحمة، أما إذا غادرت جبال اليبس دون أن يحدث أدنى مكروه للملك، فسيعود إليك قريبك سالما معافى بعد أن نكرم ضيافته لدينا.

حياة الملك الهارب أهم شأن في البقاء بل في الممالك الثلاث المتجاورة، وقد استغرق الحفاظ عليها سنين كثيرة؛ لذا اشترط أتباع الملك على الزبير هذا الأمر.

حالما سمع الزبير كلام القائد، لاح في مخيلته صورة أعز الناس على قلبه، ابن أخيه سهيل.

فكر الزبير لثوان معدودات، ثم رد بثقة تامة: حسن، لك ما تريد.

وقف القائد وقال للزبير: عندما تعود ومعك قريبك، لا تبحث عنا، فقط ظلا في هذا النزل، ونحن سنعلم بذلك وسنأتيكما.

ثم غادر القائد ومن معه.

***

اتجه الزبير فورا إلى الكثبة تحديدا إلى أرض قبيلة الأسد. ولما وصل هناك دخل داره وارتاح فيها ونام قليلا.

وبعدما استيقظ أرسل خادمه فورا في طلب سهيل؛ إذ كان الزبير متحمسا للغاية ولم يكن ليضيع أي وقت.

جاء سهيل إلى دار عمه، وحالما رآه عمه ركع على ركبيته واحتضن ابن أخيه ذي الاثني عشر عاما بقوة كبيرة، وقد بادل سهيل عمه الاحتضان بأقصى قوته.

لقد وُجِدَتْ بينهما محبة عظيمة جدا.

"كيف حالك، يا سهيل؟" قال الزبير.

فرد سهيل: بخير، الحمد لله على سلامتك.

ابتسم الزبير، ثم دخلا إلى غرفة جلوس الدار وجلسا هناك، وجعلا يتحادثان.

بعد مدة قال الزبير لسهيل: أريد منك معروفا، يا سهيل. وأتمنى أن توافق عليه.

فرد سهيل: حسن، يا عمي، أنا مستعد لتنفيذ أي أمر تأمر به.

فرد الزبير: هو طلب وليس أمرا.

ثم أضاف: أريد أن أصحبك معي إلى جبال اليبس، وأن أتركك عدة أيام في ضيافة قوم هناك. فهل أنت موافق؟

نظر سهيل إلى عمه باحترام، وقال: بالطبع أوافق.

لقد اعتاد سهيل على طاعة عمه طاعة عمياء، ووثق به ثقة عمياء كذلك.

ابتسم الزبير فرحا، وفي اليوم التالي اتجه إلى دار أخيه الراحل دريد، وطرق الباب، فلقيته أرملة أخيه رند، وحيته وحياها وأدخلته إلى غرفة جلوس الدار، وجلسا هناك، ثم أتى سهيل وجلس معهما.

تحادثا لمدة ثم قال: أريد أن أطلب منك أمرا. أريد أن أصحب سهيلا معي عدة أيام ثم سأعيده إليك بأفضل حال.

ارتبكت الأم خوفا على ابنها وقالت فورا: لا، أرجوك. ابني صغير للغاية وأخاف عليه ولا أطيق فراقه.

فرد الزبير: لا تخافي، أنا عمه وبمثابة والده، وقد أعلمته بذلك وقد وافق. لا تخافي عليه.

فقالت: أرجوك لا، أنا أخاف عليه. أرجوك أيها الشيخ.

فرد: لو كان لي ابن، لكان سهيل أغلى على قلبي منه.

فرح سهيل بكلمات عمه.

اطمأنت الأم مع كلمات الزبير، ثم قالت: حسن، أيها الشيخ. كما تشاء.

بعد ذلك اتجه الزبير فورا إلى دار صديقه قيس.

حالما رآه قيس احتضنه لرجوعه من السفر وتبادلا التحايا، ودعا قيس صديقه إلى داره، فدخلا غرفة جلوس الدار.

ضيف قيس صديقه ثم طفقا يتحادثان.

"لن تصدق ما حدث" قال الزبير.

تحمس قيس أشد حماسة وقال: أرجوك، أخبرني... هل من أنباء جديدة؟... أخبرني أنه حدث شيء بخصوص خطتك...

ابتسم الزبير؛ لأنه أيقن بالفرحة العارمة التي ستجتاح قيسا بعد أن يخبره بما حدث.

ثم قال: سألتقي بالملك الهارب.

فتح قيس فاه غير مصدق ما سمع؛ فهذه أكبر مفاجأة مرت عليه في حياته حتى تلك اللحظة!

ثم قال: أنت لست من النوع الذي يمزح، أيها الزبير. وهذه المرة ليست استثناء. أليس كذلك؟!

فقال الزبير بملامح جدية: نعم، ليست كذلك. سألتقي بالملك الهارب، يا قيس.

ضحك قيس وقام من جلسته وقبض كفيه فرحا بما سمع، وجعل يصرخ: الحمد لله، الحمد لله. ثم انكب على الزبير واحتضنه وقال: أخيرا، سيتحقق حلم السنين. أخيرا.

ابتسم الزبير ابتسامة ضئيلة تكاد تكون غير موجودة، حفاظا على رزانته المعهودة، وهو يشاهد الفرحة الجنونية لصديقه.

انتظر الزبير حتى هدوء قيس، ثم قص عليه كل ما حدث.

ثم قال قيس: أنا أثق بك، أيها الزبير، في كل خطوة، وفي كل شيء تفعله... لكن – أرجوك – لا تجازف بابن أخيك؛ لأنك ستقطع جزءا من قلبك بيدك إذا حدث له شيء، لا سيما إن كان هذا الشيء بسببك أنت.

قال الزبير بثقة وهدوء: لا تخف، يا قيس. كل شيء عندي محسوب بحساب دقيق. احتمال أن يحدث مكروه لسهيل معدوم... ثق بي جيدا، ولا عليك.

في اليوم التالي، سافر الزبير ومعه سهيل باتجاه جبال اليبس، وبعد أيام من السفر المتواصل وصلا هناك، فنزلا في النزل نفسه الذي نزل فيه الزبير المرة الماضية.

وبعد أيام أتى القائد نفسه الذي أتى إلى الزبير المرة السابقة، ومعه هذه المرة تسعة مقاتلين، وقد كانوا جميعا وقائدهم ملثمين كالعادة.

سأل القائد الزبير وهو يشير إلى سهيل: ما صلة هذا بك؟

فأجاب الزبير: هذا ابن أخي، سهيل. وهو أقرب الناس إلى قلبي.

ثم انحنى الزبير للأسفل، ووضع يديه على كتفي سهيل وقال له: اذهب معهم، يا سهيل. ولا تخف ولو للحظة واحدة؛ فأنا أفديك بروحي.

ثم أخرج صرة مليئة بالنقود وأعطاها سهيلا، وهو يقول: هذه لك، لتشتري ما تحتاجه.

ثم أضاف: سأعود لك بعد بضعة أيام، فلا تخف.

أومأ سهيل برأسه موافقا، ورغم صغر سنه وغرابة ما يحدث، إلا أنه لم يشعر بالخوف على الإطلاق؛ فقد وثق بعمه أتم ثقة.

اقترب ثلاثة من المقاتلين وأخذوا سهيلا بهدوء ورحلوا بينما نظر الزبير إلى حبيبه. لم يقلق الزبير عليه؛ لأنه وثق بأنهم لن يؤذوه فالزبير لم يضمر أية خطة لإيذاء الملك الهارب.

بعدما رحل سهيل والمقاتلون الثلاثة، قال القائد: تذكر جيدا ماذا سيحدث لأقرب الناس إلى قلبك، لو آذيت الملك بأية طريقة.

أومأ الزبير برأسه مظهرا تفهمه الكامل.

بعدها قال القائد: هيا، سنبدأ رحلتنا إلى الملك قصي.

"هل تحمل أي سلاح؟" سأل قائد المقاتلين الزبير.

أجاب الأخير: نعم، أحمل سيفي إضافة إلى خنجر.

"اتركهما هنا في غرفتك، فلن تصبحهما معك." قال القائد بنبرة جادة.

فك الزبير السيف المربوط على حزامه، ثم فك الخنجر المربوط على حزامه من الخلف، ثم وضعهما على طاولة بالغرفة.

"اقترب مني." قال القائد.

فاقترب منه الزبير.

ثم أمر القائد: مد ذراعيك جانبا.

ففعل الزبير ذلك.

أومأ القائد برأسه لأحد مقاتليه، فاقترب من الزبير ووضع يديه أسفل ذراعي الزبير، وجعل يفتشه بحثا عن أي سلاح قد يحمله، ثم نزل بيديه وفتش خصره، ومد يديه خلف ظهره وفتش هنالك، ثم فتش رجليه وصولا إلى قدميه.

نظر المقاتل إلى قائده وقال: لا يحمل أي سلاح.

أومأ القائد برأسه مظهرا تفهمه، ثم قال للزبير: هيا، لنبدأ الرحلة.

مشى الزبير خارجا من الغرفة ثم من النزل، بينما يتبعه القائد ومقاتلوه.

فلما خرجوا وجدوا ثمانية خيول.

أشار القائد إلى أحدها وقال للزبير: امتطِ هذا الحصان.

ففعل الزبير، ثم امتطى القائد حصانا وكذا فعل سائر مقاتليه.

انطلق القائد وتبعه مقاتلوه حيث توسطهم الزبير إذ تقدمه ثلاثة وظل خلفه ثلاثة. وقادوا خيولهم حتى وصلوا جبال اليبس.

عندها توقف القائد ثم توقف البقية.

ترجل القائد عن جواده، وأخرج عصبة سوداء من القماش من صرة موضوعة على جواده، ثم أومأ برأسه لأحد المقاتلين وهو يمسك بالعصبة. فترجل ذلك المقاتل، وأخذ العصبة من القائد.

"ترجل عن جوادك" قال القائد للزبير ففعل ذلك.

فقال القائد: سوف نربط هذه العصبة حول رأسك، ونضعها على عينيك.

سكت القائد ثم أضاف بجدية وحزم: إذا أزحت هذه العصبة، فستقتل فورا. لا تستهن بهذا الأمر. ليس هنالك أدنى تهاون في هذه المسألة.

أومأ الزبير برأسه مظهرا تفهمه، بينما وقف المقاتل خلفه، وربط العصبة على رأسه بحيث غطت عينيه ثم ساعد الزبير ليمتطي جواده من جديد.

بعدها انطلق الجميع في رحلتهم، بينما أمسك أحدهم بحبل طويل ربط حول لجام الجواد الذي يمتطيه الزبير، وشرع يقوده بالاتجاه الذي يريده.

أحس الزبير بأنه يصعد مرتفعات في أكثر الأحيان، وبنزول في أحيان قليلة. وهكذا استمر المشوار الذي كان أغلبه صعودا.

ولم يتوقف الجمع سوى كل ليلة للنوم – الذي لم يستغرق وقتا طويلا - وظهر كل يوم لتناول الطعام والشراب الذي يحملونه، حيث كانت هذه الأوقات هي الأوقات الوحيدة التي يزيلون فيها العصبة عن رأس الزبير ليتمكن من الشرب وتناول طعامه، وحالما ينتهي من ذلك، يربط أحدهم العصبة من جديد حول رأسه.

لم تكن رحلة ممتعة للزبير، وهو يتحرك كل هذه المسافات الطويلة، ويمضى كل هذه الأيام والليالي لا يرى شيئا كأنه أعمى. لكنه استعد لفعل المستحيل ليرى الملك وينفذ خطته.

ومرت الأيام على هذا الحال من السفر الشاق، وفي ليلة اليوم الخامس من السفر وصل المسافرون إلى مكان معين، وهناك سمع الزبير قائد المقاتلين المسافرين معه يقول: مرحبا.

فرد عليه أناس: أهلا بكم.

وجعل المصاحبون للزبير والأناس الآخرون يتبادلون التحايا.

بعدها سمع الزبير صوت ترجل المقاتلين الذين معه وقائدهم عن خيولهم. بعدها اقترب أحدهم من الزبير وساعده في الترجل عن جواده. بعدها انطلق الجمع يقودهم قائدهم بينما رجع الفارس - الذي ساعد الزبير على الترجل – خلف الزبير وجعل يوجهه باتجاه المكان الذي يقصدونه. وبعد مسير ليس بطويل دخلوا مكانا معينا.

عندها سمع الزبير قائد المقاتلين يقول: مولاي الملك، لقد أحضرناه إليك.

بعدها مباشرة فك الفارس - الذي صاحب الزبير - العصبة من على عيني الأخير.

شرع الزبير فورا ينظر في أرجاء المكان. كان بداخل غرفة ما. أول ما رآه هو رجل كبير بالعمر قوي البنية متوسط الطول، بشرته سمراء قليلا، وشعر رأسه خفيف أبيض في معظمه وله لحية وشارب خفيفان جدا، لونهما أبيض يتخلله سواد قليل. وكان يجلس على عرش في آخر الغرفة. وعلى مسافة قريبة منه على يمينه جلس شاب حاد النظرات، قوي البنية مفتول العضلات، طويل القامة، لديه شعر رأس أسود غزير، ولديه شارب أسود كثيف وشعر كثيف أسود على ذقنه. قلّب الزبير نظره هنا وهناك فرأى قائد المقاتلين الذين اصطحبوه إضافة إلى عدد منهم. أيضا رأى رجلا مهيبا يقف في الغرفة تظهر عليه علامات الجلال، ورأى أيضا عددا من الحراس ينتشرون في القاعة. كانت الغرفة محفورة في إحدى المغارات، وقد أطلت إلى الخارج على الهواء الطلق، حيث حُفر في الصخر عدة نوافذ امتدت طوليا مسافة طويلة من الأعلى إلى الأسفل. ووجدت في القاعة عدة أعمدة حديدية سوداء حملت في أعلاها قناديل مضاءة أنارت عتمة ذلك الليل الحالك.

بعدها أعاد الزبير نظره على الرجل الذي يجلس على العرش في آخر القاعة، وقد أدرك أنه الملك الهارب لا محالة.

شعر الزبير بسعادة غامرة وحماسة لا حصر لها لرؤية الملك؛ فقد أحبه كثيرا، وأحد أكبر أحلام حياته تحقق برؤية الملك الأسطورة. وسبب آخر لفرحته، هو أنه أيقن بعينيه أن الملك الهارب حقيقة وليس كذبة أو فرية كما زعم كثير من الناس.

عندها انحنى الزبير ثم استوى من انحناءته، وخاطب الملك: مولاي الملك قصي، أنا خادمك المطيع الزبير.

فرد الملك، وهو يمسك بكفه رأس الضيغم إذ يسنده إلى الأرض: أهلا وسهلا بك.

فقال الزبير: هذا أعظم شرف في حياتي يا مولاي؛ أن أراك.

بعدها مباشرة اقترب الرجل المهيب الجليل من الزبير، وقال: ها أنت في حضرة الملك، فماذا تريد منه؟

بدا على الرجل أنه امرؤ شديد خطير وأنه ليس سهلا، وهذا كان أمرا يتضح لأي امرئ يراه، والزبير لم يكن استثناء.

فورا قال الملك: اجلبوا كرسيا لضيفنا.

عندها تحرك حارسان، جلب أحدهما كرسيا جلس عليه الزبير بينما صب الآخر قهوة ضيفها له.

شرب الزبير من القهوة، ثم قال: مولاي، أنا الزبير، شيخ قبائل الكثبة كلها، وحفيد شيخها السابق الشيخ عامر.

تنهد الملك ثم قال: هذا عظيم. جدك الشيخ عامر كان صديقي العزيز، ومن أعظم الأوفياء لآل الضياغم، وقد مات ميتة عظيمة، ميتة أبطال يتمناها أي رجل حقيقي.

فرح الزبير بكلام الملك، لكن شاب فرحته الحزن؛ إذ تذكر رحيل جده وماذا حدث له.

بعدها أكمل الملك: أما أنت - أيها الشيخ – فقد أفرحتني كثيرا وبرّدت قلبي بعد ما فعلته بملك الهيجاء وجنوده، لا سيما في مجزرة الطويل.

تعاظمت فرحة الزبير أضعافا، فأعظم رجل في العالم بالنسبة له، يمدحه ويثني عليه وأمام الجميع.

لكن الزبير كان حاسما فقال فورا: مولاي، أريد أن أحادثك كثيرا، ومحادثتك أمر لا يمل منه على الإطلاق. لكن أعلم أنك تأخذ أقصى احتياطاتك، وليس أمامي وقت كثير لأخبرك بما في جعبتي.

"حسن" قال الملك. وأضاف: أخبرني ما تريد.

عندها أخبر الزبير الملك بأن لديه خطة لتحرير البقاء ودحر أعدائها، ثم طفق يشرح له خطوات الخطة بذكر أدق تفصيل.

وبينما هو يفعل ذلك نظر جميع الحاضرين بذهول إلى الزبير، فخطته اتسمت بالصعوبة، بل إنها ربما وصلت حد الجنون والتهور.

لكن واحدا فقط لم يشعر بالذهول مما سمعه، وهو – للعجب – الملك.

بعد مدة ليست بقصيرة انتهى الزبير من ذكر خطوات خطته. عندها نظر الجميع إلى الملك وهم بالطبع موقنون بأنه سيرفض الخطة غير المنطقية.

أطرق الملك قليلا، ثم قال: أنا موافق على خطتك.

اندهش الجميع ولم يصدقوا أنفسهم، لا سيما الرجل الذي يجلس قريبا من الملك، إذ فتح عينيه على أقصى اتساعهما.

ثم قال الملك: أحضر الأشخاص الذين أخبرتني عنهم وعد إلينا.

والزبير قد ذكر في خطته عدة أشخاص بنى خطته على إيجادهم وجلبهم للملك للحصول على مساعدتهم.

انتشرت الفرحة كالفيضان العارم في الزبير، وابتسم ثم قال: أفديك بروحي، يا مولاي.

ثم أضاف مبتسما: نحن كلنا فداك، وفدى البقاء.

ثم انحنى للملك، ثم استوى من انحناءته، وقال: ائذن لي يا مولاي، بالرحيل للبدء بتنفيذ الخطة.

فقال الملك: آذن لك.

نظر الزبير إلى الرجل الذي جلس بالقرب من الملك، والذي منذ قدوم الزبير لم يتوقف عن إرسال نظرات حادة إليه، سافر معها قليل من الغضب وكثير من عدم الرضا وعدم الإعجاب بالزبير وبخطته.

بذكائه، خمن الزبير أن هذا الرجل بجلوسه على تلك المسافة المقربة من الملك لا بد وأنه رجل غال عليه، وعلى الأرجح هو ابنه.

قال الزبير: هل لي أن أسأل السيد الذي يجلس قريبا منك عن هويته؟

زادت نظرات الرجل حدة وشراسة، ونظر إليه الجميع ومنهم الملك ينتظرون منه أن يعرف عن نفسه، إلا أنه امتنع عن ذلك والتزم الصمت والتحديق بالزبير، ولما طال الوقت وهو على هذا الحال، قال الملك: هذا ابني الأمير ريان.

صدق تخمين الزبير، الذي سرعان ما انحنى ثم استوى، وقال: تشرفت بلقاء مولاي الأمير.

ونظر هو والآخرون إلى الأمير ينتظرون ردا منه، ولو مجاملة مصطنعة للضيف، لكنه ظل على حاله وامتنع عن الرد على الرجل الذي لم يطقه منذ النظرة الأولى.

ابتسم الزبير بثقة ولم يكترث كثيرا بما حدث، فهو ليس بتلك الهشاشة، ثم عزم على الرحيل، ولكن ألقى نظرة على الرجل الخطير الذي كان واقفا طيلة الوقت، وقد كان قوي البنية متوسط الطول ذا لحية بيضاء خفيفة وشارب أبيض خفيف وشعر أبيض خفيف على جانبي رأسه، بينما التهم الصَّلَعُ أعلى رأسه.

فقال الزبير –والفضول يستفزه-: بعد إذن مولاي، هلا تعرفني بنفسك، سيدي؟

نظر الرجل الخطير إلى الملك ثم إلى الزبير، ثم قال بنبرة حازمة: أنا القائد جاسم، قائد قوة حماية الملك.

فقال الزبير: سررت بلقائك، لطالما سمعت عنك وعما فعلته بكلاب مملكتي الهيجاء وياقوتة الذين حاولوا اقتحام جبال اليبس.

بعدها نظر الزبير إلى الملك وقال: سأعود –يا مولاي– في أقرب فرصة. دم بخير.

انحنى ثم استوى من انحناءته وغادر.

بعد أن غادر نظر الأمير الغاضب إلى أبيه، وقال: لا أرتاح لهذا الرجل، يبدو عليه الغرور والثقة الزائدة بالنفس.

تنهد بمرارة، ثم أضاف: يحادثك وكأنه يرى الملوك كل يوم، وهو لم ير في حياته سوى النوق والماشية.

أحس الملك بعاطفة سلبية قوية من ابنه تجاه الزبير؛ لذا قرر أن يتجنب الرد القاسي على ابنه حتى لا تزيد كراهيته للرجل، فقال بهدوء: ريان، من الآن وحتى آخر يوم في عمرك، لا تحكم على الرجال من مناظرهم أو أموالهم أو أصولهم، احكم عليهم من خلال أفعالهم. ما تراه غرورا وزهوا بالنفس ما هو إلا جرأة وسجية وشجاعة. هذا الرجل بعدد قليل من الرجال ودون أموال أذل أحد الملكين اللذين هزمانا أمر ذل. كونك أميرا وابن ملوك لا يعطيك الحق في أن تحتقر أي رجل في العالم. بالنهاية هذا الرجل هو أحد أفراد رعيتك ورعية أبيك. أنت لست أميرا فقط على الأغنياء والأثرياء وسكان القصور، أنت أمير للجائع والعاري والفقير والبدوي والقروي كذلك.

ازداد غضب الأمير من كلام أبيه؛ لأنه دافع عن الرجل الغريب الذي كرهه من اللحظة الأولى، ثم قال: ترفض خططي ومبادراتي طيلة تلك السنين الكثيرة، والآن تعتمد على رجل همجي من وسط الصحراء لا تعرف عنه شيئا!

استمر الملك يحادث ابنه بالمنطق، فقال: لم أسمع بخطة محكمة مثل خطته من قبل، حتى أنا لما حاولت التخطيط لتحرير أرضنا لم أصل لمثل ما وصل إليه! ما فعله الزبير منذ مقتل جده وللآن، وهزيمته للأعداء، ليس أمرا هينا ولا يفعله إلا رجل يأتي مرة واحدة في العمر!

قرر الأمير التزام الصمت بينما ما انفكت النار تشتعل في جوفه.

***

خرج الزبير من مقر الملك الهارب، ومعه المقاتلون أنفسهم الذين جلبوه إلى المقر وبالتأكيد معهم قائدهم.

قال القائد: سننام هنا اليوم، وسنبدأ رحلة العودة صباحا.

ثم قال أحد المقاتلين للزبير: اتبعني.

وبدأ بالمسير بينما تبعه الزبير، حتى وصلا حجرة محفورة بالصخر ودخلوها.

"ستنام هنا" قال المقاتل.

ثم أضاف: سأرسل لك خادما يلبي طلباتك منذ الآن وحتى الصباح.

أومأ الزبير مبديا تفهمه، بينما خرج المقاتل واستدعى ثلاثة مقاتلين وأخبرهم بأن يمضوا الليل يراقبون الزبير؛ خشية أية حركة غادرة منه.

جلس الزبير على السرير في الغرفة، ونظر في أرجائها. رغم أنها محفورة بالصخر، فقد اتسمت بالجمال والأناقة، كانت مفروشة بسجاد جميل، أما السرير فكان فخما، وكذا وجدت طاولة فخمة علتها قناديل ذهبية أضاءت الغرفة. وأطلت الغرفة إلى الخارج من خلال نافذة محفورة في الصخر.

لما رأى الزبير كل هذا أدرك أن الملك وضعه في غرفة مخصصة لكبار الزوار. وأيقن أمرا آخر كذلك وهو أن الملك كان غنيا رغم كل ما حدث له، ولا بد أنه صحب معه المال والذهب قبل هربه من قصوره ومجيئه إلى جبال اليبس.

استمتع الزبير بالجو الجبلي اللطيف، حيث نسمات الهواء العليلة تهب من النافذة.

وفجأة طرق الباب، وقال أحدهم: أتأذن لي بالدخول؟

"نعم" قال الزبير.

فدخل رجل شاب يلبس ملابس أنيقةً، ثم قال: سيدي، أنا سأخدمك الليلة. لا تتردد في أن تطلب مني ما تشاء مهما تأخر الوقت.

وقد حمل الخادم، إناءً مزخرفا بالذهب، وعليها طعام لذيذ وعصير لذيذ كذلك. وضع الخادم الإناء على الطاولة.

بعدها خرج الخادم وعاد بعد مدة قليلة وهو يحمل ثوبا أنيقا، وقال: هذا الثوب لتنام به، يا سيدي.

ثم قال: ائذن لي، يا سيدي. سأظل واقفا على باب الغرفة طيلة الليل. بإمكانك أن تناديني متى شئت. اسمي علاء.

ابتسم الزبير، وقال: حسن، يا علاء.

خرج علاء، فخلع الزبير ثوبه ولبس الثوب الذي أحضره الخادم، ثم بدأ يتناول الطعام، ولما انتهى استلقى على السرير، وهو يفكر بعمق، ويشعر بفرح عظيم بنجاح أهم خطوة في خطته، حتى أخذه النوم.

صباحا، طرق الباب، فاستيقظ الزبير وفتحه فوجد المقاتل الذي يصحبه دائما.

قال المقاتل: هيا، أيها الزبير، سنبدأ رحلة العودة.

غسل الزبير وجهه ويديه بماء من إناء في الغرفة، ثم نشف باستخدام منشفة فيها، ولبس ثوبه، وخرج، فوجد المقاتلين أنفسهم الذين جلبوه إلى الملك ومعهم قائدهم، وجميعهم يركبون خيولهم، ومعهم الجواد الذي ركبه الزبير في رحلة القدوم.

هم الزبير بركوب جواده، عندها أمسكه المقاتل - الذي يصحبه دوما - بحزم من يده، ورفع بيده الأخرى العصبة، وقال: هذه أولا.

لم يعارض الزبير، في حين ربط المقاتل العصبة حول رأسه على عينيه حتى لا يرى شيئا؛ فحديث الزبير مع الملك لا يعني أنهم باتوا يثقون به، وعليهم أخذ كل الاحتياطات اللازمة للحفاظ على حياة الملك، التي هي أهم شيء في البقاء كلها.

بعدما وضع المقاتل العصبة على عيني الزبير، ساعده على ركوب جواده، ثم ركب المقاتل جواده، وشرع الجميع يسيرون في رحلة العودة.

شابهت رحلة العودة رحلة القدوم كثيرا، إلا أنها امتازت بكثرة النزلات الحادة فيها، وبعدد قليل من الصعود. وكرحلة القدوم، لم يتوقفوا إلا لتناول الطعام أو النوم، وفي كل مرة أزاحوا عن الزبير العصبة.

ولما وصلوا أخفض نقطة في جبال اليبس، أزالوا العصبة عن عيني الزبير، ثم أكملوا الرحلة حتى وصلوا النزل الذي أقام فيه الزبير، وذلك في ليلة اليوم الخامس من بداية رحلة العودة.

وهناك خارج النزل، وجد الزبير ابن أخيه سهيلا، ومعه عدد من المقاتلين. اجتاحت الفرحة كلاً من الزبير وسهيل. ترجل الزبير، وركض أحدهما باتجاه الآخر، وركع الزبير على ركبتيه، واحتضن أحدهما الآخر. وضع الزبير يده على رأس سهيل، وقبله، ثم قال: حبيبي سهيل، كيف عاملوك؟

ابتسم سهيل ابتسامة بريئة وقال: بأحسن ما يمكن... طعامهم شهي جدا.

قال قائد المقاتلين: ستجد سلاحيك بغرفتك في النزل.

وقف الزبير، وقال: الملك يريد رؤيتي عندما أعود.

فرد القائد: نعم، لقد أخبرنا بذلك.

"كيف ألقاه؟" سأل الزبير.

فأجاب القائد: عد إلى هذا النزل، ونحن سنأتي إليك.

ثم رحل القائد ومقاتلوه واتجه الزبير وسهيل إلى غرفتهما في النزل.

***

وفي مساء اليوم نفسه، أتى الأمير عماد، إلى حجرة صديقه الأمير ريان.

دخل عليه وتبادل الاثنان التحايا.

جلس عماد على السرير، بينما جلس ريان على الكرسي في الحجرة.

"من هذا الرجل الذي أتى اليوم للقاء جلالة الملك؟" سأل عماد بفضول.

فأجاب ريان بصوت هادئ ملؤه الغضب والجفاف: وهل تعتقد أنني أعرفه؟ وهل يعرفه أحد أصلا؟ ربما هو الوحيد الذي سمع بنفسه...

قلل ريان كثيرا من قيمة الزبير، واستخف به، وأتبع: يقول إنه شيخ قبائل الكثبة.

"وماذا يريد؟!" سأل عماد فورا.

فأجاب ريان: عرض خطة على أبي لتحرير البقاء.

"وبم رد جلالة الملك؟" سأل عماد بترقب.

فابتسم ريان ابتسامة استهزاء، وأجاب: لقد وافق... هل تصدق هذ؟!

ثم ضرب ريان بكفيه على فخذيه بغضب، وصرخ: بدوي همجي متخلف، يأتي من عمق الصحراء، بخطة فاشلة لم أر أفشل منها... فيوافق أبي فورا. أما أنا فأمضيت كل هذه السنين أحبك الخطط، فلم أجد من أبي إلا الرفض، وأنا الأمير ابن الملوك!

أحس عماد بشيء في قلب ريان تجاه الزبير، وأحس بمبالغة كبيرة في كلامه.

ثم قال عماد: ريان، هل تهمك الغاية أم الوسيلة؟ سواء أكان الرجل بدويا أم من عقر المدن... المهم أن جلالة الملك سيتحرك أخيرا... ولعل خطة هذا الرجل تنجح، وعندها ستصبح ولي العهد... والملك يوما ما!

أطرق ريان مفكرا في كلام صديقه، ووجد فيه الكثير من المنطق.

وبعد مدة، قال ريان: ربما كلامك صحيح... أدعو الله أن تنجح هذه الخطة... وإلا فإنني سأجعل هذا المدعو الزبير يندم على اليوم الذي وُلد فيه.

***

قامت خطة الزبير – بعد تجميع الأشخاص المهمين لتنفيذها – على تجميع جيش كبير من المقاتلين الموالين للملك الهارب. ولما علم الملك بذلك، أيقن أنه لا بد وأن يستعد منذ الآن لتعيين قائد لكل هؤلاء المقاتلين. ولم يحتر كثيرا في اختيار القائد فوقع اختياره فورا على القائد جاسم.

ومن خلال خبرته الكبيرة ونظرته الثاقبة، علم الملك جيدا أن إناطة وظائف كثيرة بالمرء تشتت تركيز المرء وتضعف أداءه، وأن تقسيم الوظائف يفعل العكس تماما. لهذا قرر الملك أنه سيجعل القائد جاسما قائدا للجيش فقط، وسيعفيه من قيادة حراسه.

اجتمع الملك الهارب بالقائد جاسم وأخبره بقراره الجديد، ففرح القائد بهذا التشريف العظيم وبثقة الملك الكبيرة به. ثم أخبره الملك بأن يختار رجلا كفئا يثق به يكون قائدا جديدا لحرسه.

تفكر القائد جاسم جيدا، فقيادة حرس الملك مهمة صعبة للغاية وتتطلب رجلا يتسم بالقوة العظيمة والذكاء والخبرة. كما أنها تتطلب رجلا يستطيع التنبؤ بالمستقبل، ويشم رائحة أية مؤامرة للهجوم على الملك أو اغتياله. وأهم صفة تتطلبها هي الوفاء الأعمى والمطلق للملك.

تفكر القائد جاسم، ووقع اختياره في النهاية على ابنه عاصم الذي كان أحد حراس الملك الهارب. عاصم كان شابا إبان ذلك الزمان، وربما افتقد لكثير مما بحث عنه القائد جاسم بالأخص للخبرة، إلا أنه اتسم بأهم صفة للوظيفة الجديدة، وهي وفاؤه الأعمى للملك، لذا اختاره القائد جاسم.

توجه القائد جاسم إلى حيث يقيم ابنه عاصم، إلى حجرة محفورة بالصخر ولكن مفروشة بأثاث حديث وأنيق جلبه القائد لابنه من المنطقة المحيطة بجبال اليبس.

طرق القائد جاسم الباب، وحالما علم عاصم أنه أبوه أسرع لفتح الباب، وتبادل الاثنان التحايا، ثم قال عاصم: تفضل، يا سيدي.

فدخل أبوه، فقال عاصم: تفضل، سيدي، بالجلوس.

جلس القائد، وما لبث عاصم حتى أحضر دلة من القهوة صب منها في فنجان ثم ضيفه لجاسم، وهو يقول: تفضل، يا سيدي.

لقد احترم عاصم أباه كثيرا؛ والسبب الأهم لذلك هو أن أباه رباه تربية شديدة قاسية منذ صغره، لأنه أدرك أن مثل هذه الظروف القاسية لا مجال فيها للدلال والتهاون.

كل هذا جعل شخصية عاصم قوية جدا، بل إن كل من يعرفه قال إنه يشبه في قوته وقسوته وانضباطه أباه تماما، لكأنهما الرجل ذاته!

تحادث الاثنان حديثا عاديا لمدة قصيرة، ثم نظر الأب إلى ابنه الذي كان في الثلاثينيات من عمره، وكان طويل القامة قوي البنية مفتول العضلات، وكان له لحية وشارب أسودا اللون مهذبان، وشعر رأس أسود كثيف.

وقال الأب: لدي نبأ لك، يا عاصم.

ركز الابن جيدا، حتى قال الأب: لقد غدوتُ قائدا للمقاتلين الذين يخطط الزبير لجمعهم. وقد طلب مني الملك أن أختار رجلا كفئا أثق به يخلفني في قيادة الحرس الخاص به.

سكت القائد قليلا ثم أضاف: لقد تفكرت جيدا... ولم أجد خيرا منك لهذه المهمة.

ابتسم عاصم فورا من الفرحة، إلا أنه وأد ابتسامته في لحظة ولادتها، لأنه طيلة حياته اعتاد التصرف بطريقة رسمية مع القائد جاسم رغم أنه والده.

ثم رد عاصم: شكرا لك، يا سيدي. هذا فضل عظيم منك ومن مولاي الملك.

تنهد القائد جاسم ثم قال: هذه مهمة صعبة للغاية، وعليك أن تبذل قصارى جهدك، وألا تتهاون أبدا، فلا مجال للخطإ.

ثم أضاف: أتعرف ماذا تعني حراسة الملوك؟!

التزم عاصم الصمت، وهو يحدق بإمعان في والده.

ثم أكمل جاسم: إنها تعني ألا تثق بأحد أبدا... ولا حتى بأقرب المقربين من الملك حتى ابنه، لا تثق حتى بي أنا والدك!

"دائما – وفي كل لحظة – تذكر هذا جيدا" قال القائد وهو يضغط بكفه بقوة كبيرة على فخذ ابنه.

ثم أكملا الحديث في تفاصيل حراسة الملك...

الفصل الثالث

الرجل الغني

((14))

في مدينة الروضة شمالي البقاء، عاش ولد اسمه أمين وفتاة اسمها سمية، وقد عاشا في الحي نفسه. اعتاد أمين النزول إلى الحي واللعب مع أطفاله، ولما كان عمره ستة أعوام، بدأت سمية ذات الأعوام الأربعة تنزل إلى الحي للعب كذلك. تكونت الصداقة بين الأطفال جميعا، وبين أمين وسمية بالذات، وتعلق أحدهما بالآخر. ومضت الأيام وكبر الفتيان، حتى بلغا، وبات كلاهما يميز ما معنى الحب. ولما كبرت سمية أمرها أبوها بألا تعود للنزول إلى الحي، لأن سنها لا يسمح لها بالاختلاط بالذكور الذين بعمرها أو أكبر منها. ورغم ذلك، ظل أمين وسمية يرى أحدهما الآخر بين الفينة والآخر كلما مر أحدهما ببيت الآخر، أو مر أحدهما بالآخر وهما يسيران بالحي. ومع تتابع النظرات وتواليها، تحول تعلق الطفلين أحدهما بالآخر إلى حب جامح لا يستطيع الكون بأكمله ترويضه. وفي النهاية قرر أمين أنه لا بد وأن يحادث سمية.

توجه أمين ذو الثمانية عشر عاما ذات صباح إلى موضع قريب من بيت سمية، وجعل يراقبه. وفي الظهيرة خرجت سمية من البيت صحبة أختها. تبعهما أمين حتى باتتا بعيدتين عن دارهما. وهناك نادى أمين: سمية.

التفت سمية وأختها ورأتا أمينا. اجتاحهما الخوف والارتباك، وصاحبه فرحة مناقضة شعرت بها سمية.

فردت سمية بخجل وهي تنظر أرضا: أهلا، أمين.

فقال: أهلا بك.

ازدرد ريقه، ثم أضاف مرتبكا: هل لي أن أحادثك قليلا؟

نظر إلى أختها ثم أكمل: على انفراد.

نظرت سمية إلى أختها، وكأنها تطلب منها أن تتركهما وحدهما.

فقالت أختها: سيقتلنا أبي لو علم بذلك.

فردت سمية: لا تخافي، لن يستغرق الأمر وقتا طويلا.

ابتعدت أخت سمية عنها وعن أمين، ثم قال أمين: سمية، أريد أن أحادثك بأمر معين.

"تفضل" قالت سمية، وأكملت: لكن بسرعة أرجوك.

فقال أمين، وهو في قمة الارتباك: سمية، أنا... أنا... أنا أحبك.

احمرت وجنتاها، وتزاحم الارتباك والفرح بداخلها.

ثم أضاف أمين الذي بدأ يخفت ارتباكه: أنا متعلق بك منذ الصغر، ولما كبرنا تحول التعلق إلى حب. أنا رجل حقيقي ولا أريد التلاعب بك... أنا أريد أن أكمل حياتي معك.

ازداد احمرار وجنتيها، ونظرت في الأرض خجلا.

تسارعت دقات قلب أمين، ثم قال: ما رأيك؟

أرادت سمية أن ترد: "وأنا كذلك أعشقك، ومنذ زمن طويل"، لكن الخجل العظيم الذي غرقت فيه منعها.

أدرك أمين أنها لن ترد، فقرر أن يقول شيئا ليحرك ركود الموقف بينهما، فسأل: هل لي أن آراك غدا بالقرب من بيت العدناني؟!

والعدناني كان أحد أهل الحي الذي يسكنونه، وبيته كان بعيدا عن بيت سمية؛ ولذا اقترحه أمين، حتى لا يرى أبو سمية إياها وهي مع أمين هناك.

ظلت سمية تحدق في الأرض خجلا، ولكنها بعد حين استجمعت قوتها وقالت: حسن.

ثم مضت باتجاه أختها ورحلتا، بينما أمين ينظر إليهما، وهو فرح بموافقتها، مما عنى أنها تبادله المشاعر.

جعل الاثنان يلتقيان، وصرح أحدهما للآخر بالحب عديد المرات.

ولما بلغت سمية من العمر عشرين عاما، تقدم رجل لخطبتها فرفضه أبوها زياد. ولما علم أمين بتقدم رجل لخطبتها، قرر أن يخطبها خشية أن يأتي رجل آخر، فيخطفها من بين يديه. وفي إحدى لقاءاته بها أخبرها بأن يريد أن يطلبها للزواج.

شعرت سمية بالسعادة؛ لأن أمينا صارحها بأنه يريد التقدم لها، ولكنها في الوقت نفسه شعرت بالإحباط؛ لأنه كان فقيرا جدا، ومن المستحيل أن يوافق أبوها على تزويجها إياه.

لقد كان زياد ذا مال كثير، بل كان أغنى رجل في الحي كله. وقد رفض تزويج أي من بناته للفقراء، ولكن في الوقت نفسه حتى لو تقدم رجل غني لخطبة إحدى بناته، ما كان يجبرها على الزواج منه، بل اشترط موافقتها على ذلك، وذلك احتراما لتقاليد عشيرته الكبيرة، التي عابت أن يفرض الرجل على ابنته الزواج من رجل ما عنوة. وقد كان زياد رجلا تقليديا تهمه سمعته ولم

يكن ليخالف تقاليد عائلته. وقد تقدم لخطبة أخت سمية الكبيرة ستة رجال، رفضهم زياد جميعا لأنهم فقراء، حتى أتى رجل سابع غني وافقت عليه أخت سمية، فوافق زياد على زواجهما.

أخبرت سمية أمينا بكل هذا، وأنه من المستحيل أن يوافق عليه أبوها.

وهكذا انتقل الإحباط الذي بداخلها كأنه عدوى إلى أمين، وبات كلاهما يئن ويعاني منه.

تفكر أمين في كل هذا الكلام جيدا، وبتمعن. وبعد تفكر عميق، توصل إلى الحل، وهو أن يصير غنيا، وقد آمن بذكائه وبقدرته على ذلك، وأيقن أن الحظ لا بد أن يرضخ له؛ لأن الحب بينه وبين سمية أقوى من أي شيء في الكون.

وبعد أيام، التقى سمية من جديد.

قال أمين: سمية، لقد وجدت حلا لمعضلتنا.

فردت بلهفة: وما هي؟ أرجوك أخبرني، وأرحني.

فأجاب: سمية، أعدك بأن أصير غنيا، وأن أعود لخطبتك بعد ذلك، وبالتأكيد سيوافق أبوك حينئذ.

لم تصدق سمية ما يقول، وأحست أنه شيء مستحيل؛ فهو فقير جدا، وأبوها غني جدا، ومن المستحيل أن يصل أمين لمقدار غنى والدها، وحتى لو افتُرضَ ذلك جدلا، فذلك يحتاج سنوات طويلة وربما عمرا بأكمله.

شعرت سمية بالإحباط، ونظرت بيأس إلى الأرض.

فقال أمين: أرجوك، لا تستسلمي. أعدك بأنني سأنجح.

ثم أضاف: سمية، لا تقبلي الزواج من أي رجل يتقدم لك. أنت أخبرتني أن أباك لا يمكن وأن يجبرك على الزواج. أريدك أن تظلي ترفضي كل من يتقدم إليك حتى أرجع لك. وأعدك بأنني سأعود وبأنني لن أتأخر كثيرا... أرجوك، اصبري... من أجلي... ومن أجلنا.

شعرت سمية بارتياح نوعا ما من كلامه، ثم قالت: حسنٌ، أعدك أنني سأصبر، حتى لو انتظرت مدى العمر من أجلك، حتى لو باغتتني المنية وأنا لما أتزوج بعد.

***

استمر أمين بالتفكير بعمق وروية وتركيز فيما سيفعله، ليتمكن من إقناع زياد بأن يقبل تزويجه من سمية.

وبعد كل هذا التفكير، توصل إلى أنه يجب أن يبدأ رحلة البحث عن الثراء. وثق أنه سينجح؛ فمنذ صغره امتاز بالذكاء والفطنة، وهو أمر علمه جيدا كما علمه كل من حوله. وقد امتاز بالتفاؤل، وآمن دوما أن الحظ يبتسم للعظماء الذين يبذلون جهودا كبيرة لتحقيق أحلامهم.

بدأ بتنفيذ خطته، وأولى خطواته كانت الاستعانة بأخيه الصغير وابن عمه؛ لأنهم سيقبلون العمل معه بأقل مردود ممكن، بل حتى لو لم يعد عليهم الأمر بأي مردود.

خطته استندت إلى أن يجوب شتى أنحاء مملكة البقاء وكذلك مملكتي ياقوتة والهيجاء، رغم المساحة الشاسعة لهذه المناطق. وقد تقاسم هو وأخوه وابن عمه هذه المناطق، بحيث يذهب كل منهم إلى عدد معين منها. وعندما يصل كل واحد منهم منطقة ما، فإنه يسأل أهلها ماذا تملك وماذا تحتاج من البضائع، ثم يسجل كل هذا.

وبعد مرور أربع سنوات كاملة على هذا الحال، بات لدى أمين سجل كامل يحتوي ما تملكه كل مدينة - بل كل قرية حتى – من البضائع وما تحتاجه، من أقصى شرق الممالك الثلاث إلى أقصى غربها ومن أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها.

ولقد قرر أمين مسبقا أن يمضي كل هذه الأعوام في تسجيل ما تحتاجه وما تمتلكه القرى والمدن. فرغم أنها مدة طويلة، ويستصعب أي تاجر أن يسخرها فقط للبحث عن حاجات القرى وما تملكه، وأن يجازف بهذه المدة من حياته في شيء غير مضمون ودون مردود، إلا أن أمينا أيقن جيدا أن الصبر زاد العظماء، وأنه من الأمور الضرورية لصناعة الأساطير من البشر.

لم يكن أمين فقيرا معدما، بل امتلك رأسَ مالٍ صغيراً. وفي البداية استخدمه لشراء البضائع وإرسالها إلى المناطق التي تحتاجها وفق السجل الذي معه. ومع مرور الوقت ومع الصبر العظيم، طفق رأس ماله يزيد شيئا فشيئا. وكلما زاد ماله وظف عاملا جديدا إضافة إلى أخيه وابن عمه. وظل رأس المال يكبر ويكبر، من خلال ذكاء أمين. ومع مرور الوقت، جعل أمين يصير مشهورا شيئا فشيئا. وبعد مرور تسع سنوات منذ قراره بالبحث عن الثراء وبدئه في تنفيذ خطته، غدا أشهر تاجر وأغنى تاجر في البقاء كلها، بل في البقاء والهيجاء وياقوتة معا.

لقد حقق معجزة خيالية تاريخية في فترة قياسية. ما فعله كان أسطوريا بل شيئا من الخيال، وأثار إعجاب ودهشة أهل الممالك الثلاث جميعا.

***

اشترى أمين أكبر قصر في مدينة الروضة. وقد تكون من غرف كثيرة، وساحات كثيرة واسعة أطلت على الهواء الطلق. وقد كان مبنيا من الحجارة البيضاء الثمينة، وامتلأ بالأعمدة. وقد لُبست الجدران والأرضية والأسقفة برخام جميل مزين بأحلى الألوان. وامتلأ بالأبنية إسطوانية الشكل التي انتهت بالأعلى بالقباب التي تسحر الألباب.

لقد أراد أمين هذا القصر لمناسبة معينة، إذ حان الوقت لإيفائه بوعده لسمية. توجه أمين إلى دار سمية والتقى والدها، حيث حضر كثير من أقربائها. وحمل أمين معه كثيرا من الصناديق التي امتلأت بالذهب والحلي واللباس.

كان أبو سمية على علم مسبق بنية أمين التقدم لطلب يد سمية، وهو عرف أمينا جيدا؛ فمن لا يعرف أغنى رجل في الممالك الثلاث؟! الرجل الذي كان قبل سنوات نكرة بالنسبة لأبي سمية، رغم أنهما عاشا في الحي نفسه!

لم يستطع أبو سمية أن يقاوم كل هذا، فقد ارتجف قلبه بقوة وهو يرى منظر لمعان الذهب، أجمل منظر بالنسبة له. وبسرعة وفرحة استشار ابنته سمية بخصوص قبولها بالزواج من أمين، وهو يرجو أن توافق ليفوز بالذهب، وقد وافقت فورا ودون تردد، مما زاد فرحة الأب الذي لم يعلم بالحب الدفين الذي عمره سنوات كثيرة بين أمين وابنته.

وبعد أيام، أقيم حفل الزفاف الذي لم يشهد له أحد في البقاء كلها مثيلا. أتى أمين - وهو يلبس ثوبا جميلا فريدا - على رأس موكب يتكون من العشرات إلى دار سمية، التي لبست فستانا لم ير مثله أحد قط من أهل البقاء، وتزينت بعقد وحلقين من الماس، وأحاطت الأساور الذهبية المرصعة بالماس يديها. واصطحبها من هناك باتجاه قصره الجديد الفريد. وأثناء سير الموكب، جعل بعض خدم أمين يرمون الزهور بشتى ألوانها على الناس الذين شاهدوا الموكب مذهولين. بينما وجد في الموكب عدد من الطبالين الذين جعلوا يدقون بأنغام فريدة على دفوفهم.

وصل العريسان إلى قصرهما، وأقيمت هنالك الولائم التي أكل منها معظم أهل الروضة. واستمر ذلك ما يقرب الأسبوعين، حيث أتى الناس باستمرار لتناول ما لذ وطاب من الطعام والشراب والحلويات، والاستماع للأصوات العذبة للمغنين والمغنيات والطبالين والعازفين الذين ملؤوا القصر. فرح الجميع، حتى قيل: إن رجلا واحدا أطعم كل أهل الروضة!

وأكبر الفرحين – بالطبع – كان أمينا وزوجه سمية، إذ قال لها بابتسامة عريضة: لقد أوفيت بوعدي لك، وعدت بكل هذا المال فقط من أجلك.

وردت هي بابتسامة أعرض: وأنا أوفيت بوعدي لك، وانتظرتك كل تلك السنين ولم أوافق على أحد غيرك، يا أغلى شيء على قلبي.

***

عاش أمين مع سمية حياة أسطورية فردية؛ لأنها امتلأت سعادة ندر أن يتمتع بمثلها أغلب الناس. وكانت سمية تعتني بأي شيء يخص أمينا، مهما صغر، اعتنت بأدق التفاصيل وأصغرها. منذ اليوم الأول لزواجهما اعتادت أن تستيقظ قبل الفجر، وأن تنظف غرفتهما –بنفسها- ولكن بهدوء تام حتى لا يستيقظ زوجها، واعتادت أن تجهز له كل يوم ثيابا وحذائين لم يستخدمهما في اليوم السابق، حتى يجدهما فورا حال استيقاظه، كما اعتادت أن تعد له كل يوم صباحا طبقا جديدا من الفطور، إضافة لطبق من الفاكهة التي تتنوع مع كل يوم، وطبقا من الحلوى الجديدة. لقد استطاعت أن تجعل أي خادمة من خادماتها – وما أكثرهن!- تفعل ذلك، غير أنها أرادت أن يتم ذلك بأفضل وجه، وأن تشعر زوجها أن الاهتمام يأتي منها هي لا غيرها. اعتادت بعد ذلك الجلوس على كرسي في الغرفة تنظر إلى زوجها، وتتأمل فيه إلى حين استيقاظه. وفور استيقاظه يجدها في أجمل هيئة وأحلى لباس، وهي تبتسم له وتقول: صباح الخير. فيمتلئ قلبه سرورا برؤية

أكثر من يحب في العالم. ثم تقوم وتقبله وتحضنه، وبعدها يقوم هو ليغسل وجهه، ويعود ليجلس، فيجد ألذ الطعام الذي تشاركه فيه زوجته، وقد اعتادت أن تدسّ فتطعمه بيديها بين الحين والآخر، وهذا أمر أسعده كثيرا. وبعد وقت عندما يعتزم الخروج يجد لباسه وحذاءه بانتظاره، فيحمد الله على الزوجة التي لا مثيل لها، وقبل أن يغادر تسأله ماذا يحب أن يتغدى اليوم وأي حلوى يحب أن يتذوق، وأي عصير يحب أن يشرب! فيبتسم ويجيبها عن كل هذا، وهو يحمد الله على هذه الهدية العظيمة. وفي الليل يتكرر الأمر مع العشاء، وما لذ وطاب من الحلوى والفاكهة والشراب الذي يتنوع مع كل يوم ولا يتكرر إلا بعد مرور أيام كثيرة. ولقد حرصت سمية على ألا تغضب زوجها على الإطلاق، وحتى مع أتفه خطإ، اعتادت أن تعتذر له أشد اعتذار فورا وتحرص على أنه تقبله. ولم يطلب قط منها طلبا إلا ونفذته. ووسط هذه العناية الجنونية منها به، ظن أمين في كثير من الأحيان أن لديها وسواسا براحته وسعادته، وكثيرا جدا ما طلب منها ألا تقسو على نفسها من أجله، ودوما ما جاوبته بابتسامتها الرقيقة البريئة، وبأن قسوتها على نفسها من أجله يملأ قلبها بالفرح والسرور.

ذات يوم نظر الزوج السعيد إلى وجه زوجته الجميل، وقال وهو يبتسم: أنا أسعد رجل في العالم، لا تتصورين مدى سعادتي بكِ!

ثم أمسك بيدها الناعمة، وأضاف: لا يهمني أي شيء في هذا العالم سواكِ. لقد رزقني الله كما هائلا من المال، لا أظن أحدا في هذه البلاد يمتلك مثله، كل من أقابلهم وأعرفهم يتمنون عُشر هذا المال، ويظنون أن من يمتلكه أسعد الأنام. لكن كل هذا المال الجم لا يعني شيئا بجانبك. أنا أكثر الناس حظا في هذا العالم، لأنك لي، ولأنني لكِ.

ملأ السرور قلب سمية، التي ابتسمت ابتسامة بريئة ساحرة، وردت: لو عشت معك – يا حبيبي – في كوخ كل حياتي، لكنت أسعد البشر. أنت حياتي كلها.

زادت ابتسامتها اتساعا وبانت غمازاتها الساحرة وهي تقول: أحبك حبا جنونيا لم يحبه أحد لأحد آخر في التاريخ كله. حتى في أكثر القصص والأشعار مبالغة، لا يوجد حب يضاهي حبي لك.

ربما يبدو هذا الكلام مبالغة من كليهما، ولا يصدق! وربما يبدو كلامهما عن عدم اهتمامهما بالمال نفاقا وكذبا! لكن كلاهما عنى جيدا الكلام الذي قاله، واستعد للتضحية بكل شيء مهما عظم من أجل الآخر.

***

تعرف أمين وسمية، على رجل ثري من رجال الروضة اسمه عابد، وبات صديقهما.

وذات يوم أتى لزيارتهما، في قصر أمين.

تبادل الثلاثة التحايا، وجالس عابد الزوجين.

وطفقوا يتحدثون، ثم أحضر الخدم الفاكهة والعصير، ليشرب منها ويأكل الثلاثة.

وطفقت سمية كعادتها، تعتني بزوجها فتقشر له الفاكهة وتقدمها له؛ ما أثار دهشة عابد الذي لم ير زوجين يعشق أحدهما الآخر، كسمية وأمين.

وقال عابد: أنا مستغرب من أمر معين، يا أمين.

فرد أمين بأدبه وهدوئه وصوته المنخفض: وما هو؟

فأجاب عابد: أنا مستغرب من أدبك وهدوئك، وانخفاض صوتك عند الحديث... والأغرب أن سمية تشاركك الأمور ذاتها... برأيي أناس باتوا أغنياء جدا مثلكما، يجب أن يكونوا حيويين متحمسين... وربما حتى مغرورين... أنا مستغرب للغاية من تواضعكما.

ابتسم أمين، وأجاب بأدبه: هل تحسب أن الغنى سيغيرني؟! أنا وسمية كنا هكذا قبل أن نغدو غنيين، وسنظل هكذا إلى الأبد، ولن يغيرنا شيء تافه كلون الذهب.

نظر أمين إلى زوجه وهو يبتسم، فبادلته الابتسام، وأومأت برأسها مؤكدة اتفاقها معه.

تعجب عابد، كيف أن رجلا بمثل هذا الثراء يحتقر المال؛ فهو لا يدري أن المال – بالنسبة لأمين- شكل مجرد وسيلة لا غاية، فقد أراده كي يتمكن من الزواج بسمية.

ثم قال عابد: وأستغرب من قلة إنفاقكما لما لديكما من مال.

فقال أمين بهدوئه: الحياة علمتني أن المال نعمة من الله، إن لم نشكره عليها، وإن تكبرنا عليها، أو بذرنا، فسيضيع كل ما أملك.

ومن جديد تعجب عابد من الكلام، وأخذ يفكر بأنه لو امتلك مالا مثل أمين، لبذر واشترى كل ما يجول في باله. صحيح أنه ثري جدا، بيد أن أمينا كان غنيا لدرجة كبيرة تجعل مال عابد الجم مجرد قروش حقيرة بالنسبة لثروته.

***

عاش أمين وسمية حياة سعيدة، حتى إنه شاع في البقاء أنهم أسعد زوجين فيها، وترسخت هذه القناعة لدى كثيرين من أهل المملكة.

ولم ينغص عليهما حياتهما - لا سيما أمين - إلا ما حدث لاحقا، حين احتلت البقاء.

فلما انقض الضبعان ملكا ياقوتة والهيجاء على البقاء وتقاسماها، حزن أمين حزنا عظيما، وحزن على ما حدث لملكها وآله، من قتل وتمثيل ومطاردة من تبقى حيا منهم في كل البسيطة. لقد أحب أمين البقاء حبا جما، وحقد على المملكتين العدوتين؛ وقرر أن يتوقف عن التجارة فيهما، واكتفى بالتجارة فيما تبقى من أراضي البقاء، وسحب كل أمواله من ياقوتة والهيجاء.

وانتشر عنه في كل البقاء حبه الشديد لها، وأنه فعل كل هذا فقط لأنه رجل وطني أحب بلده بجنون.

وكذلك سمية تألمت كثيرا مما حدث للبقاء، أقدس شيء على قلبها، وتمنت لو تتحرر البقاء يوما، وينتقم أهلها من أعدائها.

***

((15))

***العام 476.**

أعاد الزبير سهيلا إلى أمه سالما، موفيا بوعده لها بحمايته. وبعد أن حصل على موافقة الملك الهارب على خطته، حان الآن موعد تنفيذ الخطوة الثانية من الخطة.

اتجه الزبير نحو مدينة الروضة، بالتحديد إلى أكبر قصر فيها، حيث يسكن أمين.

لما وصل هناك أخبر أحد الحراس على باب القصر أنه يريد أن يلتقي بأمين، وأنه شيخ قبائل الكثبة.

غاب الحارس قليلا إذ توجه لإخبار حاجب القصر بذلك، ثم أتى الأخير ورحب بالزبير وسمح له بدخول القصر.

أمين – رغم غناه العظيم – اتسم بتواضع شديد؛ وذلك يعود لأنه كان رجلا فقيرا عاديا قبل أن يحوز كل هذه الأموال، وأيضا هو لم يكن من شخصيات الحكم والسياسة التي تحرص على أن تعزل نفسها عن الناس وألا تختلط بهم خشية أية ضربة غادرة.

صحب الحاجب الزبير، حتى وصلا إلى إحدى باحات القصر الخلابة، حيث وجدا أمينا هناك واقفا.

وبينما سار الزبير من بوابة القصر حتى تلك الباحة، بهر بجمال ما رآه، شيء لم ير له مثيلا قط، ولم يخطر على خياله الواسع أنه يمكن أن يوجد شيء مثل هذا.

كان القصر أرضيته وجدرانه وسقفه من الرخام الثمين، وامتلأ بالتحف والجرار المصنوعة من الخزف والأثاث المصنوع من الخشب الفاخر والمزخرف أجمل زخرفة، وكذلك من الذهب الخالص. وهذه التحف والجرار والأثاث الذهبي، لم يكن له مثيل في البقاء كلها حتى في قصر الكثبة.

سر الزبير لما رأى أمينا، الذي ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: أهلا وسهلا، بالشيخ. لكم تشرفني زيارة شيخ الكثبة البطل إلي شخصيا!

وقد قصد أمين بالبطولة ما فعله الزبير بجيش الهيجاء.

ابتسم الزبير، وسلم على أمين، وقال: بل الشرف لي بلقائك، يا أمين.

كان أمين وسيما، متوسط الطول، أزرق العينين، وغطى شعر أشقر خفيف رأسه، بينما خلا وجهه من الشعر.

"تفضل بالجلوس" قال أمين.

فجلس الزبير، ثم جلس أمين.

انتشر في القصر خدم كثيرون ملؤوا المكان ولبسوا ثيابا أنيقة، رغم كونهم خدما، مما دلل للزبير على الرفاهية الهائلة التي عاش بها أمين.

وفور جلوس الزبير، ضيفه أحدهم قهوة، ثم ضيف أمينا.

"أهلا بك" قال أمين من جديد.

فرد الزبير: أهلا بأمين.

تحادث الاثنان قليلا، وتساءل كل منهم عما حدث للآخر في السنوات الأخيرة، وظل الخدم يحضرون ما لذ وطاب من الفاكهة والحلوى والشراب لأمين وضيفه.

وظلا يتحادثان ومر الوقت، حتى قال الزبير: يا أمين. هنالك أمر جلل أريد أن أحادثك فيه.

فقال أمين: دعنا نتحدث به لاحقا بعد أن ترتاح.

رد الزبير: بل الآن، أرجوك. إنه لا يحتمل التأجيل.

"تفضل، إذاً" قال أمين.

بدأ الزبير بشرح خطته لتحرير البقاء لأمين، وذكرها كاملة بأدق تفصيل. وذكر أنه سيجمع عدة أشخاص هامين لتنفيذ الخطة.

ثم أخبره الزبير أنه نجح بتنفيذ أول خطوة بالخطة عندما التقى بالملك الهارب.

مع كل خطوة بالخطة ذكرها الزبير، زاد ذهول أمين، لكن عندما ذكر الزبير أمر الملك، وصل ذهول أمين أقصاه، ففتح فاه مدهوشا، وقال: ماذا؟... قابلت الملك الهارب؟!

لم يصدق أمين نفسه، الملك الهارب كان أسطورة ولم يظهر رغم مرور السنين لدرجة أن أمينا ككثيرين، بدأ يساوره الشك أن الملك الهارب قد مات أو ألمت به مصيبة ما.

"نعم" قال الزبير مع ابتسامة عريضة، وأكمل: ولقد أخبرته عنك وعن بقية الأشخاص الذين أحتاجهم لتنفيذ الخطة.

ثم أضاف: يا أمين، أنت أهم رجل بعد الملك ممن أبحث عنهم. نحن بأمس الحاجة إليه. سأكلمك بصراحة، نحن بحاجة ماسة للمال، لكميات كبيرة منه. وأنت ستكون مصدر هذا المال.

تنهد الزبير، ثم أضاف: ما قولك؟ أستساعدنا؟

انضم إلى إعجاب أمين بقسمات الزبير الجادة، إعجابه بفطنته وشجاعته وطموحه. لقد ارتاح للزبير كثيرا وابتهج بخطته أشد ابتهاج.

نظر أمين إلى عيني الزبير حيث لمع الطموح واضحا، وقال: بالتأكيد أنا معكم.

ابتهج الزبير بدوره بموافقة أمين. فالأخير ماله لا غنى عنه في تنفيذ الخطة، وقد وثق به الزبير أكمل ثقة؛ لأنه رفض الاستمرار بالاتجار مع المملكتين العدوتين بعد الحرب المقيتة.

أقام الزبير عدة أيام في ضيافة أمين في قصره الفاخر، استمتع خلالها بما لذ وطاب من الولائم والطعام والشراب، ثم اتجه لتنفيذ الخطوة الثالثة في خطته.

***

الفصل الرابع

الرجل القوي

((16))

وقعت مدينة الفيحاء وسط مملكة البقاء، إلى الغرب من العاصمة المعتزة. وهي من أقدم المدن تاريخيا في المملكة، وما جاورها من ممالك. وفي عهد الملوك الضياغم اكتظت الفيحاء بالسكان إلى حد غير طبيعي، فامتلأت بالبنيان وانتشرت فيها الزقق الضيقة وكذا الفقر المدقع، وشاع الفساد والسرقة والشر فيها، وتعاظم الظلم في أرجائها.

ولطالما حاول ملوك الضياغم السيطرة عليها، ونشر العدل والأمن فيها، ولكنهم لطالما فشلوا في ذلك.

كان لا بد أن يأتي الحل من داخل الفيحاء نفسها، وهذا ما حدث من خلال أحد أبنائها المغيرة.

المغيرة اتسم منذ صغره بالشجاعة وحب الخير وخدمة الناس، ولكن اجتمع مع ذلك في قلبه الطموح العظيم ورغبته في إثبات نفسه. ولما غدا شابا قرر أن يحل معضلة الظلم المنتشرة في المدينة.

وقد قرر أن يتخذ قرية شبه مجهولة في ضواحي الفيحاء مركزا له. ثم بدأ دعوة سرية في الفيحاء، دعا فيها شباب المدينة للانضمام إليه. وكلما وافق أحدهم، أرسله إلى القرية التي اتخذها مركزا له. وظل الشبان يتجمعون هناك، ولما امتلك المغيرة عددا كافيا من المقاتلين، جعل يغير في الفيحاء على المجرمين والسارقين، وبدأ بمحاربة الجريمة فيها. وأخذ صيته ينتشر في الفيحاء.

اتسم المغيرة بقوة جسدية كبيرة، ولم يكن أحد يستطيع أن يقارعه في القتال. واتسم كذلك بقوة شخصيته، وقسوته في الحق.

ومع مرور الوقت، ظل يحارب الجريمة، وظل صيته يزداد حتى عرفه كل أهل الفيحاء. وبالنهاية، نجح تقريبا في القضاء على الجريمة قضاء كاملا.

ولهذا أعجب به كل أهل المدينة. ورغم أنه فعل ذلك لأنه يحب الخير، إلا أن اتصافه بالطموح ومحبة إثبات نفسه، جعلاه يطلب من أهل المدينة جميعا أن يبايعوه عمدة للفيحاء، وقد وافقوا على ذلك دون أدنى اعتراض.

ومع مرور الوقت، أصبح لديه عدد كبير من الجنود، حتى بات كأنه يمتلك جيشا تحت إمرته. وبات معروفا في أنحاء البقاء كلها. ورغم كل ما حققه، فقد ظل يطمح للمزيد.

***

المغيرة منذ صغره كان فظا باردا جامدا، وامتازت تعابير وجهه بالجمود ولم تُظهر ما في قلبه. وهو يشبه في كثير من هذه الأمور الزبير. ففي اليوم الذي نصب فيه المغيرة عمدة على الفيحاء، اجتاحت الفرحة أهله وإياه، بيد أن الفرحة التي في قلبه لم تظهر جلية على محياه، وبدا عليه البرود والجمود.

"مبارك، يا أعظم رجال الفيحاء" قال أخوه مسعود وهو فرحان، ويكاد وجهه يتشقق ابتساما.

فما كان من المغيرة إلا أن قال – وببرود مستفز قد يصل حد الفظاظة-: شكرا.

لم يكن ذلك تكبرا أو غرورا، وإنما بسبب طبيعة شخصيته.

ورغم اعتياد مسعود على طبع أخيه، استغرب أنه حتى في هذه اللحظات التي قد لا تتكرر، ظل أخوه يتصرف التصرف نفسه.

ومضى الجميع يرقصون ويغنون ويهتفون، بمن في ذلك أم المغيرة وأخواته ومسعود – أخيه الوحيد من الذكور-. بينما التزم المغيرة بالهدوء. الأمر الذي زاد من استغراب مسعود، الذي تساءل عن كمية القسوة في قلب أخيه.

***

وفي اليوم التالي لتنصيبه عمدة الفيحاء، توجه المغيرة لزيارة معلمه في الصغر، الأقطش. فالأخير كان أعز الناس على قلب المغيرة، ولم يكن ليفوت لقاءه وشكره، في مثل هذه المناسبة العظيمة.

والأقطش هذا يكبر المغيرة بثلاثين عاما، وقد عرفه الأخير منذ نعومة أظفاره. فوسط الجريمة والفقر الذي عاشت فيه الفيحاء كلها، وبينما كان المغيرة فتى صغيرا يعاني ويلات هذه المدينة، فلا يجد إلا القليل من الطعام والشراب واللباس، ودون تعليم، ظهر الأقطش في الحي الذي يسكنه المغيرة، وتبرع لتعليم أطفال الحي كله، النافع من العلوم والتي علم منها الكثير. فجمع كل أطفال الحي وبدأ بتعليمهم أفضل تعليم، وكل ذلك دون أي مقابل. ومما علمهم إياه ضرورة ألا يصيروا مجرمين أو لصوص أو حثالة، ككثير من أهل مدينتهم، بل وأن يسعوا - إذا أتيحت الفرصة لهم يوما ما - إلى محاربة الجريمة والسرقة والفساد، وتطهير الفيحاء من كل هذا. تأثر الطفل المغيرة بكل هذا، وكان كلام الأقطش الدافع الأبرز له، الذي خلق لديه رغبة جامحة في انتشال الفيحاء من الانحطاط إلى بر الأمان.

طرق المغيرة باب دار الأقطش، ففتحه الأخير له. كان في الخمسين من عمره، وقد فقد كثيرا من بصره.

"كيف حالك، يا أستاذ؟" سأل المغيرة بصوته القاسي.

"بخير، يا حبيبي وتلميذي النجيب" قال الأقطش.

ثم احتضن الرجلان أحدهما الآخر بحرارة.

ثم مشيا في الدار البسيطة جدا، التي تظهر فقر الأقطش وزهده جليا. ثم جلس الأقطش وتبعه المغيرة، على البسط في الدار.

ثم قال الأقطش: لقد سمعت أنك بويعت عمدة على الفيحاء كلها! فهنئيا لك، يا بني!

"شكرا" رد المغيرة من جديد ببروده وفظاظته اللذين لا يستطيع تغييرهما، حتى مع أغلى الناس على قلبه.

فقال الأقطش: ما تزال امرأ قاسيا، أيها المغيرة... المغيرة الطفل الذي عانى الأمرين، وآذته الحياة، لم تستطع كل هذا الأفراح أن تغيره.

تنهد الأقطش بعمق، ثم قال: أتدري، أيها المغيرة؟... أنت أعظم رجل قابلته في حياتي.

فابتسم المغيرة، وفرح؛ لأن الأقطش هو من قال ذلك، وهو أعظم رجل في حياة المغيرة.

ثم قال الأقطش: ولكن الأهم من تنصيبك عمدة، وغيره من الأمور، هو أنك أنقذت الفيحاء من براثن الظلم والجريمة... لذا عليك أن تحافظ عليها هكذا – بل وأفضل- مدى حياتك.

أومأ المغيرة برأسه، مظهرا تفهمه لكلام الأقطش، الذي انحفر عميقا في رأسه.

***

بالقرب من الفيحاء، وجدت مدينة أخرى هي الأمينية. وفي عهد المغيرة، كان عمدتها هو منيباً. عرف منيب بالثراء الفاحش. وقد اعتاد على إرسال القوافل التجارية إلى شتى الأنحاء. وفي إحدى المرات، انطلقت قافلة له يقودها ابنه الأكبر حمدان. وأثناء مسير القافلة أغار عليها قطاع طرق يقودهم رجل اسمه جازي. فنهبوا القافلة وقتلوا أغلب من فيها، ومنهم حمدان. ولما علم منيب بكل هذا، حزن حزنا عظيما وتألم ألما لم يشعر به طيلة حياته رغم كبر سنه. لم يكن السبب الرئيس لحزنه ما ضاع من مال وبضائع وحتى عمال وخيول، ولكن مقتل ابنه الغالي حمدان.

شعر منيب بغيظ هائل لا يمكن احتواؤه، وبات هاجسه الأول والأخير أن ينتقم من جازي. وقد أعلن في كل البقاء، أن من يأتيه برأس جازي، سيعطيه جائزة لم يسمع بها إنس ولا جان، ولم ير مثلها أحد منهم.

لقد اتسم منيب بالثراء الشديد، لكنه علم جيدا أنه لا يملك القوة الكافية لقتال جازي الذي امتلك عددا كبيرا من المقاتلين، والذي شاع أنه لا يوجد في كل البقاء من يضاهيه في قوته الجسدية. لذلك أيقن منيب أن القصاص منه لا بد وأن يأتي من طرف آخر.

وانتشر الخبر في البقاء بسرعة، حتى أوصله أحد أتباع المغيرة إليه، حين أخبره بكل ما حدث.

تحمس المغيرة للغاية، وتوقع بحدسه أن الجائزة لا بد وأنها مبلغ مهول من المال؛ لأن منيباً ثري جدا.

ولأن المغيرة طموح، فقد قرر أن يأتي برأس جازي لمنيب، لأنه يريد المال ليحقق مزيدا من الطموحات.

***

كلما مر الوقت، ازدادت حماسة المغيرة لاقتناص رأس جازي، ومن ورائه اقتناص الجائزة التي وعد بها منيب.

ومنذ قرر المغيرة أنه سيسعى لذلك، جعل يفكر بعمق وتركيز في خطة محكمة لهزيمة جازي وقتله، وقد أمضى في التفكير وقتا طويلا؛ فغريمه اتسم بالقوة الشديدة، ومجرد قتاله فيه صعوبة بالغة ومخاطرة كبيرة، فكيف بقتله؟! وفي النهاية المطاف توصل إلى خطة محكمة ذكية لفعل ذلك.

قرر المغيرة الذهاب لزيارة منيب، فقد أراد أن يتعرف عليه أكثر، وأن يتأكد أن مسألة الجائزة أمر جدي، وليس مجرد كلام ناس عابر، ذكَرَه أحدهم كذبا فانتشر في كل مكان.

توجه المغيرة مع بعض مقاتليه إلى مدينة الأمينية، ثم إلى منزل منيب الذي كان أشبه بالقصر منه إلى منزل عادي، ثم طلب لقاء منيب فاستضافه الأخير.

انبهر المغيرة من شدة جمال المنزل، وبالذات إلى أثاثه الثمين، والذي تكون معظمه من الخزف والخشب الثمين، وكان الأثاث مزخرفا بأجمل الأشكال وأدق فن.

اصطحب الخادم المغيرة ورجلينِ آخرينِ إلى إحدى الغرف في القصر.

لم تتسم الغرفة بالكبر، لكن كانت جميلة جدا، وفيها كراسيّ كثيرة مصنوعة من الخشب الثمين، وامتلأت بالجرار والتحف الخزفية.

دخل المغيرة الغرفة، فرأى رجلا مسنا هو منيب يجلس على كرسي فاخر. ولكن رأى المغيرة شخصا آخر أثار فيه العجب، ولم يتوقعه على الإطلاق. فبجوار منيب وُجِدَ كرسي آخر، جلست عليه امرأة شديدة البياض حتى إنها تكاد تكون أبيض من الثلج، وقد انتشر في وجهها النمش الأحمر الجميل الذي أضفى عليها جمالا إضافيا. وقد امتلكت نهدين ضخمين جدا نافرين. كانت ممتلئة القوام مكتنزة الجسد في نحو مثير وجميل، وكانت تعابير وجهها مثيرة للغاية، وكانت صهباء الشعر، في نحو أبرز بياض بشرتها، وعيناها كانتا رماديتا اللون تسلبان الألباب. وكانت انحناءات جسدها كاملة مثيرة للغاية. أحدث جمالها وإثارتها فعله بالمغيرة، الذي اهتاج لرؤيتها؛ إذ لم يسبق له أن رأى شيئا مثيرا كهذا، وتمنى الفارس الفحل لو أنها له.

"أهلا بك" قال منيب.

أراد المغيرة أن يظل ينظر إلى المرأة لكنه خشي أن يكتشف منيب ولعه بها.

رد المغيرة -بعد أن أشاح بنظره عنها-: مرحبا بك.

ثم اختلس نظرة نحوها ثم أشاح بنظره. فالرجل الذي عرف بشدة قساوته وفظاظته بات في تلك اللحظات هشا ضعيف كأنه كرة مصنوعة من القش تتقاذفها رياح جمال تلك المرأة وإثارتها!

فقال منيب: أنا منيب، عمدة الأمينية.

ثم أشار إلى المرأة وقالت: وهذه ابنتي حورية، وهي ثاني أهم شخص بعدي في المدينة كلها.

مما أثار استغراب المغيرة أيضا يوم رأى حورية – عدا عن جمالها وإثارتها غير المحدودين – هو كيف تجلس امرأة بجوار عمدة مدينة في البقاء، في حين اعتاد أهل البقاء كلها أن تتحجب النساء عن ملاقاة الرجال الغرباء في ذلك الزمان.

لكن ما لم يعرفه هو أن حورية أكثر من يحب أبوها، وقد رباها أن تكون قوية مَثَلُها كمثل الرجال منذ صغرها، ومنذ طفولتها اعتاد العمدة أن يُجلسها معه دوما، وكلما حضر رجل أو رجال للقائه، مهما بلغوا من مكانة ومنصب. وقد اتسمت منذ صغرها بقوة الشخصية، ولما رباها أبوها بهذه الطريقة، قويت شخصيتها أكثر وأكثر، حتى باتت تضاهي الرجال بالقوة والثبات.

نظر المغيرة إلى حورية وأراد لو تدوم النظرة أبد الدهر، ثم قال: أهلا بسيدتي.

فقالت حورية بصوت واثق قوي لا يهتز: أهلا بك أيها المغيرة، حللت أهلا ووطئت سهلا.

دهش المغيرة من ثقتها!

أما حورية بذكائها وفطنتها، فقد علمت أنها فتنت الرجل الذي أكثر من النظر إليها.

بعدها نظر إلى منيب، ثم قال: لقد سمعت أنك حضرت جائزة ضخمة - لم ير مثلها أحد - لمن يأتيك برأس جازي. أهذا صحيح؟

ضيف أحد الخادمين الواقفين المغيرة فنجانا من القهوة، فطفق يشرب منها.

قال منيب: نعم، هذا صحيح. الجائزة أمر عظيم لدرجة أن أحدا لم يتجرأ أن يحلم به.

سر المغيرة من كلام منيب، وابتسم، ثم قال: حسن، إذاً، أمهلني عدة شهور، وسآتيك برأس جازي إلى هذه الغرفة.

فقال منيب: هو ذا، أنا بالانتظار.

ثم قالت حورية: إذا أتيتنا برأسه، فسيكون ذلك معروفا لن ننساه أبدا.

ارتبك المغيرة وازدرد ريقه، لكنه استجمع قواه، ثم قال: اطمئني، سيحدث ما تريدينه.

ومن الغرائب في تلك الغرفة أيضا، والتي لم يُعْمِ المغيرةَ عنها إثارة حورية، أنه وُجِد في الغرفة رجل يبدو خطيرا جدا يقف بجوار حورية ويضع يده اليمنى فوق اليسرى خلف ظهره، وقد وقف هناك في وضعية التأهب كأنه مستعد لأي شيء قد يحدث فجأة. وقد كان نحيلا طويلا جدا، ذا نظرات قاسية جادة، شعره أسود كثيف، وله شعر وجه خفيف، وفي خده الأيسر ندب صغير.

ظل الحاضرون في الغرفة يتحادثون، والمغيرة يسترق النظرات إلى حورية، ويحاول متعمدا أن يوجه الحديث إليها بين الحين والآخر. ومر الوقت فاستأذن المغيرة وغادر مع الرجلين اللذين اصطحبهما إلى الغرفة.

وبعد أن غادر المغيرة، وبينما أحد الرجلين على يمينه والآخر على يساره، قال لهما: لقد أضرمت ابنته النار في قلبي.

"انسها، يا مولاي" قال أحدهم.

فغضب المغيرة، وقال: ويحك! لم تقول مثل هذا؟!

فرد الرجل: منيب يحبها حبا جنونيا، ويربيها على أن تكون العمدة القادم للمدينة، وهي قوية جدا، وتفوق في قوتها وشدتها الرجال. وبسبب كل هذا لم يجرؤ أحد قط على التقدم لخطبتها، حتى ملوك الضياغم لا يجرؤون على مثل هذا.

"دعك منها، يا مولاي... هذه المرأة لا يتزوجها إلا الملوك" قال الرجل.

فبدأ المغيرة يشعر بحسرة شديدة؛ لأنه تمنى حورية من كل قلبه.

***

حورية تميزت منذ صغرها بجمالها الشديد، فتميزت بوجه شديد الحُسن، إلا أن الأجمل والأجمل هو جسدها المثير المغري شبه الكامل في صفاته. كما تميزت بقوة شخصية – لا مثيل لها- وخشيها الجميع حتى الرجال، بمن فيهم أخوها حمدان. كل هذا جعلها واثقة بنفسها أتم ثقة منذ صغرها، الأمر الذي تحول لاحقا إلى غرور واستعلاء، لا سيما مع الطريقة التي تعمد أبوها تربيتها من خلالها، أنها الأهم بين الجميع.

وذات مرة وبينما كان عمرها عشرون عاما، دخلت على حجرتها جاريتها زمردة. تميزت زمردة بأنها أقرب الناس من حورية، بعد أبيها. ورغم ذلك لم تعتبرها حورية صديقتها، ولا حتى رفيقتها، اعتبرتها مجرد وسيلة للتسلية، وكيل المديح لحورية، فزمردة دوما ما تغزلت بها وجمالها وجمال جسدها، وقوة شخصيتها.

"مرحبا، مولاتي" قالت زمردة.

فلم ترد عليها حورية الترحيب، وإنما قالت بجفاف واستعلاء، وهي تشير إلى كرسي في الغرفة: اجلسي هنا، أين كنتِ طيلة اليوم؟

لقد اتصفت حورية باستعلائها على كل من حولها، فهي الأجمل والأقوى، وثاني أهم شخص في الأمينية بعد أبيها العمدة، لذلك احتقرت الجميع وتكبرت على الجميع.

"اعذريني، يا مولاتي الجميلة" قالت زمردة، وأكملت: لقد طلب مني سيدي منيب عدة أشياء، انشغلت بعملها.

فقالت حورية: لقد سمعت أن أبي سيبتاع أمة جديدة من جارنا أبي مسعود؟ وسمعت أنها جميلة جدا، فهل هذا صحيح؟

ابتسمت زمردة، وقالت: نعم، هي جميلة، لكنها لا تشكل أي شيء أمام رمش واحد من رموشك... أنتِ أجمل امرأة في البسيطة كلها، وكل الرجال – على بكرة أبيهم – يرغبون بك.

فرحت حورية؛ فقد سمعت تماما ما أرادت سماعه، وابتسمت ابتسامة خفيفة سرعان ما أخفتها؛ لأنها لم ترد لجاريتها –الوضيعة مقارنة بها حسب ظنها - أن تظن أن حورية تكترث كثيرا لرأيها.

ثم قالت زمردة: متى سيأتي اليوم الذي أراك فيه عروسا؟

ضحكت حورية، ثم قالت: لا يهم متى سيأتي. المهم أنه آت لا محالة، فالكل يرغبني. من سيتزوجني سيكون أسعد رجل في العالم، لكنني سأذل أي رجل، حتى لو كان أقسى رجل في الكون، بجسدي وجمالي.

***

تضايق المغيرة كثيرا من كلام صاحبه، الذي دعاه لنسيان حورية. لطالما شعر المغيرة أنه رجل عظيم جدا، بل من أعظم الرجال، فقد اتسم بصفات لا مثيل لها، وحقق إنجازات في حياته لا يحققها إلا الأبطال وكل ذلك رغم ظروفه الصعبة والمزرية في صغره. وقد عزز نظرته هذه لنفسه، معاملة كل من حوله له بتعظيم وتوقير بعد كل ما فعله في الفيحاء. لهذا كله ساءه كلام صاحبه كثيرا، فقد دخل في صراع نفسي هل هو عظيم كما نظر دوما إلى نفسه أم لا؟! لأول مرة في حياته أحس بضعف وباختلال في احترامه لنفسه. وقد ازداد هذا الصراع ضراوة كلما تذكر جاذبية حورية وسحرها وثقتها بنفسها.

كان لا بد من شخص يثق به يخبره بالحقيقة ويجيب عن تساؤلاته، ومن خير من الأقطش ليفعل ذلك؟!

منذ شبابه عاش الأقطش في قمة الفقر والكدح. وبعد سنوات من تنصيب المغيرة قائدا للفيحاء بأكملها، غدا رجلا ثريا ميسور الحال، فعرض على الأقطش أن يعطيه المال الكثير، لكن الأخير رفض، فألح المغيرة كثيرا ولفترة طويلة، لكنه استسلم في النهاية بعد أن وجد رفض الأقطش سدا منيعا لا يمكن هدمه، فقد أخبره أنه زاهد في الحياة وفي المال، وأن شهوات الدنيا كلها لا تؤثر به.

توجه المغيرة إلى الحي الذي ولد فيه وعاش فيه طفولته، وبالتحديد إلى دار صغيرة جدا سكنها الأقطش. ولما مر بالحي، تجمع الناس لتحيته، فحياهم جميعا من أصغرهم إلى أكبرهم، ومن أقلهم منزلة إلى أعظمهم، بتواضعه المعهود عنه.

ثم طرق على باب دار الأقطش، فسمع صوت أقدام وعصا تضرب الأرض تتجه ببطء نحو الباب، ثم فُتِح الباب.

وجد المغيرة رجلا عجوزا يربط عصبة على عينيه وحول رأسه، أصلع يخلو وجهه نهائيا من الشعر وتنتشر في كل أرجائه التجاعيد. كان طويلا منحني الظهر نحيلا جدا.

كان هذا هو الأقطش الذي ظل نظره يضعف مع مرور السنين الكثيرة حتى أصيب بالعمى، أما نحوله فسببه قلة أكله وشربه، الذي كان دافعه زهده في كل شيء منذ صغره.

"كيف حالك، يا أستاذي؟" قال المغيرة.

"بأتم حال، أيها المغيرة." أجاب الأقطش، وأضاف: طمني أيها البطل، عنك.

لقد برع ومنذ زمن طويل في تحميس المغيرة ورفع معنوياته هو وسائر الأطفال الذين علمهم، ولذلك خاطبه بالبطل.

التزم المغيرة الصمت، فعلم الأقطش بحكمته أن هنالك خطبا ما.

هز رأسه وقال: أنت لست على ما يرام. ثم وضع يده على كتف طالبه النجيب، وقال: ادخل، ودعنا نتحادث.

دخل المغيرة وتبعه العجوز بعصاه وخطواته البطيئة.

وبعد مدة وصل العجوز وقال: اجلس، يا بني.

فقال المغيرة: لا يصح أن أجلس قبلك، يا معلمي.

فقال الأقطش: قلت لك: اجلس.

فجلس المغيرة، ثم ببطء شديد تحسس الأقطش الحائط وهو يحاول أن ينزل ويجلس، فنهض المغيرة يريد مساعدته، فنهره الأقطش: منذ سنوات كثيرة، يتكرر كل هذا. إني أخبرك دوما أنني أحب الاعتماد على نفسي فقط.

عاد المغيرة إلى جلسته بينما تحسس الأقطش الحائط بيده، في حين أمسك – بإحكام - عصاه بيده الثانية، ونزل تدريجيا إلى أن جلس على الفراش على الأرض، ثم أسند ظهره إلى الحائط وأسند عصاه كذلك إلى الحائط.

ثم قال: ما الخطب؟

ظل المغيرة ملتزما الصمت، فقال الأقطش: لا تخجل، أخبرني بأي شيء.

بدأ المغيرة بالحديث، وأخبر الأقطش كل شيء، أخبره عن منيب ومقتل ابنه وعن الجائزة وعن ابنته التي أضرمت النار في قلبه.

ثم قال المغيرة: المشكلة الحقيقية بدأت عندما أخبرني واحد من أقرب المقربين لي أنني لست ندا لحورية وأن أنساها، وأن الملوك هم فقط من يستطيعون الزواج منها.

تنهد بعمق وشجن ثم أضاف: لطالما وثقت أتم ثقة بنفسي وبأنني رجل عظيم، لكن بعد أن أخبرني صديقي بما أخبرني به، لأول مرة بدأت أشكك في نفسي... دخلتُ في دوامة من الشك هل أنا رجل عظيم ند لحورية... أم...

تلبك ونظر في الأرض ضعفا، وخجلا من معلمه، ثم أضاف بصوت خفيض حزين: أم إنني أقل منها ولست ندا لها؟!

التزم الاثنان الصمت لمدة، وبعدها قال الأقطش بصوته الهادئ الواثق، لكأنه نهر تسير فيه قطرات الحكمة الواحدة تلو الأخرى: ابتداء، أنا مستغرب من أمر، يا حبيبي وابني المغيرة... إن كنت تبحث عن شريكة للحياة، عن زوجة وأم لأولادك، فأولوليتك أن تكون البحث عن الخلق والطيبة والخير بداخلها... لا أن تكون الأولوية البحث عن الانحناءات والإثارة والجسد المغري والوجه الحسن كما تفعل أنت... البحث عن الجمال ليس عيبا، بل هي فطرة الإنسان، لكن العيب أن تجعله الأولوية وأن تقدمه على الخلق والطبع.

أحس المغيرة بضيق وخجل.

سكت الأقطش لمدة، ثم أضاف بهدوء: ولكن هذا ليس مشكلتنا الآن، لقد وجب علي أن أقدم هذه النصيحة لك منذ زمن بعيد، لا الآن بعد أن سكنت المرأة قلبك ولن تغادره أبدا.

ثم قال الأقطش: المرء عليه أن يعرف قيمته الحقيقية، فإن كان عظيما، فعليه أن يعرف أنه كذلك دون غرور، وإن كان بسيطا قليل الحيلة، فعليه أن يعرف أنه كذلك دون ذل.

ثم وضع كفه على فخذ المغيرة الذي كان ينظر في الأرض خجلا وضعفا، وقال: وأنت أيها المغيرة، رجل عظيم للغاية، وأكبر دليل على ذلك أنك نقي من الداخل وتفضل مصلحة الناس على مصلحتك، وأنا أعرف هذا جيدا منذ كنتَ طفلا صغيرا. وما يؤكد عظمتك أنك شجاع وجريء وقوي، وأنك حررت مدينة يسكنها الآلاف من الفساد والظلم اللذين أقاما فيها عقودا كثيرة. كما قلتُ مسبقا، هذا لا يعني أن تصير مغرورا، وأن تتكبر على البشر، لكنه يعني أنك يجب أن تعرف قدر نفسك، وأن تثق بها.

ثم أضاف: أيها المغيرة، عليك أن تثق بنفسك مهما علا قدر من أمامك. أهم رأي في العالم عنك هو وجهة نظر قلبك عنك. الأهم أن تكون راضيا عن نفسك... لا تتملق أحدا، لا تنافق أحدا... لا تغير من مبادئك ولا ترتكب الأخطاء فقط من أجل إرضاء الآخرين.

ابتسم ثم قال: أنت أعظم رجل قابلته في حياتي، حتى ملوك الضياغم جميعهم لو ولد واحدهم في ظروفك ما استطاع تحقيق ما حققته، وما استطاع تحرير الفيحاء كما حررتها.

عليك أن ترى أنك الأفضل حتى لو رأى الآخرون غير ذلك. لم أقابل امرأة في حياتي – رغم أنني رأيت كثيرا من فاحشات الجمال وعظيمات الذكاء والخلق- وأحسست أنها أعظم من ابني المغيرة.

ليس عليك أن تتساءل وتحتار إن كنت ندا لحورية هذه... العكس هو الصحيح، حورية عليها أن تتساءل إن كانت ندا للمغيرة، الرجل العظيم.

دمعت عينا المغيرة، وانكب على معلمه يحتضنه، فابتسم الأقطش وبعد مدة أحاط بذراعيه المغيرة، وبادله الأحضان.

***

((18))

وضع المغيرة خطة محكمة للنيل من جازي، وبعد ما يزيد على ستة أشهر من إعلان منيب عن الجائزة، شرع المغيرة في تنفيذ خطته. كان هنالك مدينة اسمها البادئة قريبة من كل من الفيحاء والأمينية. وقد اتفق المغيرة مع عمدتها على تنفيذ خطة معينة، وهي إرسال قافلة ضخمة، محملة بالذهب والحلي والبضائع الثمينة والنساء باتجاه الغرب. وقد طلب المغيرة من عمدة البادئة أن يعلن عن هذه القافلة في شتى الأنحاء، حتى يسمع عنها كل أهل البقاء وبالذات جازي. وبالفعل نفذ عمدة البادئة طلب المغيرة. وقد حرص الأخير أن تسلك هذه القافلة الطريق نفسه الذي سلكته قافلة حمدان ابن منيب، عندما أغار عليها جازي وقتل حمدان؛ حتى يزيد الفرصة لإغارة جازي عليها ويوقعه في الفخ.

دائما، أغار جازي على أية قافلة ضخمة في ناحية الفيحاء وما أحاط بها؛ لأن ذلك يعود عليه بربح كبير دفعة واحدة؛ لذلك حرص كل سكان تلك المناطق على أن يرسلوا قوافل صغيرة؛ ليقللوا فرص إغارة جازي عليها، وكذلك ليقللوا خسائرهم إذا ما حدث وأغار عليها هو ورجاله.

ولهذا كله حرص المغيرة، على أن تكون قافلته المزعومة ضخمة جدا، وأن يُشيع عنها أنها ممتلئة بالكنوز والنساء، حتى يضمن أن يغير عليها جازي.

جمع المغيرة عددا كبيرا من مقاتليه وقسمهم إلى ثلاث فرق، وقاد بنفسه إحداها. وقد ظلت كل فرقة تراقب القافلة المنطلقة من البادئة عن بعد، وقد تحركت الفرق الثلاث بحيث تكون بعيدة عن بعضها.

وكان جميع الرجال في القافلة من مقاتلي المغيرة، ومن أشدهم قوة، وقد تنكروا بزي غير زيهم، فلم يعلم أحد بهويتهم الحقيقية، وظنوهم مجرد تجار عاديين من سكان البادئة.

وبعد ما يقرب الأسبوعين من انطلاق القافلة من البادئة، وأثناء مرورها بمنطقة قريبة من المنطقة التي أغار فيها جازي على قافلة حمدان بن منيب، انطلق مجموعة من قطاع الطرق نحوها. لقد صدق حدس المغيرة، فها هو جازي ينقاد نحو حتفه بقدميه.

لقد توقع المغيرة أنه لا بد وأن يكون المهاجمون هم جازي ورجاله، فكل قطاع الطرق في تلك المنطقة تحديدا كانوا من أتباع جازي.

عندها اتجهت الفرق الثلاث بسرعة نحو قطاع الطرق واشتبكوا معهم، وكذلك استل المقاتلون الأشداء في القافلة سيوفهم وبدؤوا بقتال قطاع الطرق، ومنهم من جعل يرمي السهام لتصطاد قطاع الطرق الواحد تلو الآخر.

وهكذا جزع قطاع الطرق وارتبكوا.

وقد اشتد القتل في قطاع الطرق، لا سيما من قبل المغيرة، الذي كان أقوى الحاضرين في ساحة الوغى. وأثناء الاشتباك، اقترب المغيرة من أحد قطاع الطرق، فضرب سيفه بسيفه حتى أزاحه بعيدا، ثم ضرب ذراع غريمه فجرحها. بعد ذلك أمسك بغريمه من ذراعه المجروحة ووضع سيفه على عنقه، وصرخ: أي هؤلاء جازي؟

فصرخ قاطع الطريق المتألم: لا أعلم.

فجرح المغيرة عنقه بسيفه جرحا صغيرا بات يسيل منه الدم غزيرا، فجزع قاطع الطريق وامتلأ جوفه رعبا.

عندها كرر المغيرة سؤاله، فأجاب قاطع الطريق صاغرا، وهو يشير إلى أحد المقاتلين: هو ذاك.

قطع المغيرة رأس قاطع الطريق، وركب جواده، واتجه نحو المقاتل الذي أُخبر عنه، وبينما هو يفعل ذلك، صرخ المغيرة: جازي.

فالتفت إليه جازي، فتأكد المغيرة أنه هو.

اقترب المغيرة من جازي، وكلاهما على جواده، وجعل أحدهما يضرب سيف الآخر بسيفه، وبعد عدة ضربات كان المغيرة أقوى فيها، أيقن جازي أنه أقل قوة من غريمه، ففر من أرض المعركة، فأي قاطع طريق لا تشكل الكرامة والشجاعة شيئا له مقابل الحياة.

تبعه المغيرة حتى ابتعدا عن ساحة الوغى. وتمكن المغيرة من اللحاق به، فتبادلا الضربات بالسيوف، ثم نزل المغيرة عن جواده بسرعة، بينما ظل جازي على حصانه، وظلا يتبادلان الضربات. بعدها نزل جازي عن جواده لأنه أحس أن ذلك سيسهل عليه مقاتلة المغيرة. وبدأت معركة شرسة بين أقوى مقاتلين في منطقة الفيحاء وما حولها.

وقد استلم المغيرة زمام المبادرة، فضرب بسيفه يقصد بطن جازي، لكن الأخير تراجع للخلف، ثم ضرب يقصد ذراع المغيرة اليمنى، فتفادى الأخير الضربة، فضرب جازي يقصد ذراع غريمه اليسرى، لكن المغيرة تفاداها، وهو يتحرك برشاقة رغم ضخامة جسمه الممتلئ بالعضلات. وفورا تقدم المغيرة نحو جازي وطعنه في بطنه. ركع جازي على ركبتيه، وعندها غرس المغيرة سيفه كاملا في بطنه.

بعدها وبدون رحمة أو تردد، قطع المغيرة رأسه، وأخذه ولفه بقطعة قماش صحبها معه على حصانه. ثم ركب جواده، وعاد إلى ساحة المعركة.

وظل المغيرة ومقاتلوه يقتنصون أرواح خصومهم. صحيح أن هدفه الرئيس تمثل في الحصول على رأس جازي وقد نجح في ذلك، لكنه أراد أن يخلص الأنام من شرور قطاع الطرق هؤلاء إلى الأبد.

وهكذا استمر التقتيل في قطاع الطرق، فلم يبق منهم إلا قلة قليلة فرت من ساحة المعركة.

لقد أيقن المغيرة بأنه من شبه المستحيل أن يذهب هو ويجد جازيا؛ فهو أشبه بحبة رمل في صحراء شاسعة؛ فهو قاطع طريق لا يسكن مكانا محددا، ولطالما حرص جيدا ألا يعرف أحد أين يقطن.

لهذا، قرر المغيرة أن يرمي له الطعم، فيخرج من جحره.

الزمان والمكان من أهم عناصر نجاح أية خطة، هذا ما أدركه المغيرة وهو يُحكم وضع خطوات خطته.

بالنسبة للزمان، فلم يبدأ المغيرة بتنفيذ خطته فور علمه بجائزة منيب؛ لأن هذا سيجعل جازيا يشك أن هنالك ما يدبر له. وبالنسبة للمكان، فقد حرص المغيرة ألا تنطلق القافلة من الأمينية مدينة منيب، ولا من الفيحاء مدينته، لأن ذلك قد يثير الشك في نفس جازي، بأن أمرا ما يحاك له. لذا أطلق المغيرة القافلة من مدينة ثالثة هي البادئة.

***

توجه المغيرة ومعه رأس جازي إلى الأمينية تحديدا إلى دار منيب، وهو يكاد يتشقق من الداخل؛ بسبب اللهفة والشوق للجائزة اللغز، والفضول لمعرفة كنهها.

وصل هناك ودخل إلى الغرفة إياها التي قابل فيها منيبا المرة السابقة. وكالعادة جلست بجوار منيب حورية، ووقف بجوارهما الرجل الذي يبدو خطيرا.

"مرحبا" قال المغيرة وهو يدخل الغرفة.

"أهلا بك" رد منيب.

جلس المغيرة، ووقف على يمينه أحد مقاتليه، وعلى يساره واحد آخر منهم.

سر منيب حالما رأى المغيرة؛ فقد أدرك أن مجيئه يعني أنه حقق ما طلبه منه.

قال منيب: هل أتيتنا بما طلبنا؟

أومأ المغيرة برأسه موافقا، ثم قام من كرسيه ووضع قطعة من القماش بداخلها شيء أمام منيب وحورية، ثم نظر إلى حورية، وكأنه يحذرها بنظراته بأن ما ستراه مفزع.

ابتسمت حورية ابتسامة ملؤها الإغراء، وقالت بثقة: لا تخش علي، أرني ما معك.

عندها فك المغيرة قطعة القماش المربوطة بإحكام، فظهر رأس جازي جليا، وهو يمتلئ بالدماء.

توقع المغيرة أن يخيف المنظر حورية، لكن المفاجأة التي صدمته، أنها لم يرتعش لها جفن، بل نظرت بثقة وابتسمت ابتسامة واسعة، لكأنها رجل شديد البأس خاض آلاف المعارك!

قالت وهي تبتسم: بوركت أيها الصنديد، هذا معروف لن ننساه ما حيينا.

فرح المغيرة كثيرا بكلمات المرأة، التي أخفى إعجابه الضخم بها.

وفي الوقت نفسه، كان منيب يبتسم ابتسامة عريضة؛ فقد اقتص من قاتل ابنه.

قال منيب: بارك الله فيك، أيها المغيرة.

ترك المغيرة الرأس مستقرة على أرضية الغرفة، ثم عاد إلى كرسيه، ونظر إلى منيب، وهو ينتظر منه أن يعطيه الجائزة المزعومة.

قال منيب: لقد وعدتك بجائزة لم يجرؤ أن يحلم بها أحد من الإنس والجان، وها أنا أفي بوعدك. جائزتك هنا في الغرفة أمامك، أيها المغيرة.

استغرب المغيرة من كلام منيب، فهو لم ير أية جائزة في الغرفة، وجعل يقلب ناظريه فيها يمينا ويسارا وإلى الأعلى والأسفل، لعله لم ينتبه إلى شيء محدد، لم يجد صندوقا مليئا بالذهب، ولا صندوقا مليئا بالماس أو الحلي، ولا جواري لم تخطر على بال بشر، بل ولا حتى جارية واحدة.

بدأ المغيرة يغضب ويفقد أعصابه؛ إذ حسب أن منيبا يسخر منه.

حدق المغيرة في منيب، وقال بنبرة غاضبة، وعيناه تكادان تغادران محجريهما: أنا لا أرى أية جائزة هنا.

ابتسم منيب، ثم أشار إلى حورية، وقال: حورية هي جائزتك.

فتح المغيرة فاه مشدوها، ولم يصدق ما سمعه، وفرح فرحا هو الأعظم بحياته، فحورية أهم من كل المال الذي تمناه يوم سمع بالجائزة أول مرة، بل إنه لو ملك مال العالمين كله، لبادله مقابل حورية. ورغم أنها أمامه وباتت له، فقد تاق لها وللعيش معها، فهو أدرك جيدا أن يوما واحدا معها يفوق عمرا مع غيرها.

سرعان ما ابتسم ونظر إلى حورية فوجدها تبتسم ابتسامة عريضة مثيرة.

"ولكن" قال منيب، وأكمل: حورية أغلى شيء على قلبي، ولي شرطان كي أعطيك إياها.

المغيرة استعد أن يقبل الشرطين قبل أن يسمع بهما، لكنه قال: ما هما؟

"الأول: أن تعاملها كند لك، وكأنها عمدة الفيحاء مثلك، وأن تجلس معك في كل مجالسك، مهما حضرها من رجال كثيرين ومهما علت منزلتهم، وأن تشاورها في أي أمر تتخذه، فهذا كله طبقته على نفسي، عندما عاملتها طيلة هذه السنين الكثيرة على أنها ند لي" قال منيب.

"وما الثاني؟" سأل المغيرة.

فأجاب منيب: أريد لكل حاشيتها من خدمها وجواريها والرجال الذين ينفذون طلباتها أن يذهبوا معها وأن يرتحلوا معها أي مكان ترحل إليه.

ثم أشار إلى الرجل الخطير الواقف بجوار حورية: هذا الرجل اسمه عكرمة، وهو أكثر رجل أثق به في العالم، وأريده أن يذهب مع حورية إلى مدينتك ودارك، وأن يظل معها في أي مجلس ومتى طلبته، فهو أقدر رجل على حمايتها.

لقد كان عكرمة قويا شديد البأس، وعرف بأنه أشد رجال قومه، وكان فطنا قاسيا، لا هينا، ولا يمكن خداعه بسهولة.

نظر المغيرة بامتعاض إلى عكرمة؛ فلم يعجبه أن يأتي رجل آخر إلى بيته ليحرس المرأة التي ستغدو زوجته، وشعر بالإساءة من منيب، فكيف لا يأتمنه على حماية زوجته؟!

وكذلك لم يعجبه أن تشاركه امرأة في إدارة مدينة الفيحاء وحكمها، وخشي من كلام الناس عن هذا.

ولكنه رغم كل هذا، استعد لقبول المستحيل من أجلها، فأنى لرجل أن يرفض كل هذا الجمال؟!

"حسن" قال المغيرة، وأكمل: أنا موافق.

فرد منيب: مبارك.

ونظر المغيرة إلى من ستغدو زوجته بابتسامتها التي كادت تفطر قلبه، ونظرت حورية إلى من سيغدو زوجها.

***

قبل أن تنتقل حورية إلى الفيحاء، لتعيش مع زوجها، تحادثت مع جاريتها زمردة.

قالت زمردة: هذا الرجل يبدو فحلا.

فابتسمت حورية ابتسامتها المثيرة.

وأضافت زمردة: إنه قوي وذو شأن في مدينته وفي كل البقاع.

فزادت فرحة حورية، التي أحست أنها ستتزوج رجلا يقترب ولو قليلا – في عظمته – من عظمتها!

سكتت زمردة، ثم قالت: ولكن ألا تخشين أنه بقوته وشدته، سيسطر عليك، ويُفقدكِ المكانة التي تتمتعين بها عند والدك؟!

ضحكت حورية ضحكة قمة في الإثارة والاستهزاء، ثم قالت: أنا سأضع هذا الرجل كالخاتم في إصبعي... بل سأستعبده... تأكدي من هذا جيدا... منذ المرة الأولى التي رأيتها به، لاحظت نظراته المشتاقة لي، ومنذ تلك اللحظة، عرفت أنني سأمتلكه من خلال جمالي.

***

عاش المغيرة بسعادة مع حورية. في البداية ظل يجامعها. لكن مع مرور الوقت جعلت تحرمه من نفسها أحيانا، وتمنحه نفسها أحيانا أخر. ورغم ذلك لم يستطع أن يقاوم انحناءات جسدها ولا تعابيرها المثيرة. وبهذا باتت تتحكم به، في البداية كانت تحضر أي اجتماع له أو أي استقبال يستقبل فيه أحدا، ومع مرور الوقت وبعد أن باتت تحرمه جسدها مرة وتعطيه إياه مرة، باتت هي من يتخذ القرارات وعمدة الفيحاء الحقيقي. تألم مما حدث، وعلم أن ما حدث خطأ لكنه استسلم وسلم نفسه لها؛ لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن المرأة الأكثر إثارة في العالم!

لقد اتسم طيلة عمره بالتواضع، حتى بعد أن حرر الفيحاء ثم غدا عمدة لها، ولم يحتقر الناس حتى أكثرهم ضعفا وذلا، وظل يعاملهم باحترام ولطف، وظل يزور حيه الفقير الذي ولد فيه، بل وعرض المال على جل أهل الحي، وقدمه لمن قبل منهم ذلك. ومما زاد آلامه من حورية، هو غرورها وتكبرها على من حولها، بمن في ذلك خدمه وحتى أصدقاؤه وجنوده والمقربون منه، بل إنها حتى تعالت على أمه وأخيه وأخواته، الذين لم يحب أحدا كما أحبهم. كانت تتأمر على الجميع بطريقة مهينة، وتوبخ الجميع وتصرخ على الجميع على أتفه الأسباب، كل ذلك ضايقه لكنه من جديد لم يجرؤ على مواجهتها على الإطلاق، رغم شكاوى أمه وإخوانه المتواصلة!

كانت نفسه في حيرتها طائرا يحلق في سماء عالية، وكلما اقترب ذلك الطير من اليابسة يريد أن يهبط عليها وأن يستقر عاد من جديد للطيران. قرر في مرات كثيرة أن يتركها إلى الأبد، وبعد أن تستقر نفسه على ذلك لمدة قصيرة يجد نفسه يختار العودة إليها؛ فمن المجنون الذي يترك مثل هذه المرأة التي لا مثيل لها؟!

لم يعرف الرجل ماذا يختار، وأراد شخصا يشير عليه بالصواب، بل حتى استعد لأن يختار عنه ذلك الشخص؟!

توجه المغيرة إلى دار الأقطش وتكرر ما يحدث دوما في كل زيارة يزورها لها، حتى وصل الاثنان إلى محور الحديث، وأخبره المغيرة بسبب حيرته وطلب منه أن يشير عليه بما يجب فعله.

استاء الأقطش كثيرا من كلام تلميذه النجيب، ولأول مرة أحس أنه ليس بنجيب وأنه يفعل أمرا لهو خطأ بيّن. واسود وجهه اسودادا عظيما، ثم قال الرجل الأعمى بحزم: ما هذا، أيها المغيرة؟! أنا لا أصدق أنك المغيرة... هل أنت رجل آخر يستغل أنني أعمى وينتحل شخصيته؟!

زاد كلامه آلام المغيرة أضعافا؛ فقد وجد قسوة لم يعهدها من الرجل الذي أرسل تجاهه دوما الحنان والعطف!

تنهد الأقطش، ثم أضاف بغضب: المغيرة الذي أعرفه رجل...

اسود وجه المغيرة.

سكت الاثنان حتى قال الأقطش بعد مدة بنبرة تحمل غضبا أكبر: المغيرة الذي أعرفه لا يرضى أن تذله جيوش، أبآخر المطاف تذله امرأة وتتحكم به؟!

قال الأقطش السؤال الأخير بامتعاض ملؤه المرارة، بينما طفق المغيرة يتقطع من الداخل من كلام معلمه وحبيبه.

"اسمع، أيها المغيرة." قال الأقطش، وأكمل: اترك هذه المرأة فورا. افهمني جيدا... بقاؤك معها لن يؤدي إلا إلى هلاكك... هذا أمر مؤكد أراه ببصيرتي، كما كنت أرى الشمس في كبد السماء بعينيّ ذات يوم.

حزن المغيرة؛ لأن هذا الخيار هو الأبعد عن قلبه، فقال بمرارة: كيف؟!!! كيف أكون مجنونا وأضحي بأجمل النساء وأكثرهن جمالا وإثارة؟!

قال هذا وهو يغمض عينيه ويتذكر جسدها وجمالها.

ثم أضاف: أنت لم ترها... لو رأيتها ما قلت ما قلته!

"نعم، لم أرها" قال الأقطش وأضاف: ولن أراها، وهذا ما يجعلني قويا تجاهها، ولا أنغوي بإغوائها مثلك.

أتدري ما سر حكمتي وقوتي التي لطالما وجدتها بي طيلة تلك السنين؟!

أني لم أكترث يوما بأي من متاع الدنيا... لم أكترث بالمال... لم أكترث بالسلطة... لم أكترث بالنساء... كنت - رغم أنني أرى في أيامي القديمة بعينيّ – لا أرى كل هذا بقلبي.

ثم قال: حتى أجمل النساء لم أكترث بهن. هل تظن أنها المرأة الوحيدة في هذا الكون؟! لقد رأيتُ نساء فاحشات الجمال، بديعات الجسد، كن قمة في الإثارة والإغواء بالتصرفات والكلام، لكنني لم أكترث لهن، فقط اكترثت لرضا الله ونفسي عني.

وأنا هنا لا أزكي نفسي على الله، لكنني أخبرك أن المرء يمكنه - إذا امتلك قلبا قويا - أن يكسر أي متعة باطلة من متاع الدنيا.

ثم وضع كفه على فخذ تلميذه، وقال: وأنت هكذا يجب أن تكون، قويا كعهدك السابق لا تكترث بأي شيء من شهوات الكون، عليك أن تنظر إلى البشر بقلبك لا بعينيك. هذه المرأة شريرة، بل إن الشر يسكن قلبها. هذه المرأة منحها الله الجمال والأنوثة، ولكنها استغلت كل هذا لاستعباد الرجال، وهذا أمر يتضح أنها تبدع فيه مع سبق الإصرار والترصد.

ثم أحكم قبضته على فخذ المغيرة، وقال: أرجوك، يا بني... اتركها... لا تجعل نهاية المغيرة قاهر اللصوص والمجرمين والفاسدين... الرجل الذي حرر أعظم مدينة وأكبر مدينة... الرجل الذي يفوق بعظمته الملوك... لا تجعل نهاية ذلك المغيرة على يد امرأة تغويه بجسدها.

يا الله، كم أثارت هذه الكلمات الشجن في نفس المغيرة، وصاحبه قافلة سريعة من الحزن غزت قلبه.

رحل المغيرة من دار الأقطش، وظل يتفكر في كلامه وفي المسألة شهورا كثيرة جدا، وهو يتعذب ويتألم ألما عظيما. وقرر أن يطلقها وينصت لكلام معلمه. ولما اتجه لفعل ذلك نظر إلى جسدها وتعابيرها المثيرة، ثم أنصت لصوتها الذي يغوي المتصوفين، فانهار فورا، وقرر أن يظل معها للأبد.

"أن أكون عبدا لكِ ولجسدكِ، خير من حرية وكرامة وعزة ولو مع نساء الأرض أجمعين" هكذا فكر.

***

أثناء الحرب المقيتة، ظل جيش ياقوتة يتوغل غربا في أراضي البقاء، وظل يحتل المناطق الواحدة تلو الأخرى ويقتل ويأسر ويعذب وينكل. ظل هذا مستمرا حتى وصل عند مدينة الفيحاء. أخبر الملكَ خلدونا ملكَ ياقوتة، مستشاروه باستحالة احتلالها؛ فقد علموا جيدا قوة أهلها وشدة بأسهم، وصعوبة السيطرة على مدينة مزدحمة بالبنيان والسكان والأزقة والحارات متراصة البيوت.

لكنّ الملك خلدوناً بعناده وحقده على البقاء وكل مدنها وطمعه فيها، أصر على احتلال الفيحاء.

في البداية حاصرها أشهرا طويلة، ضَيَّق فيها على أهلها، طمعا في أن يستسلموا له أو على الأقل أن يخرجوا من المدينة، فيسهل القضاء عليهم. لكن أهلها بقيادة عمدتهم القوي المغيرة صمدوا وثبتوا.

عندها قرر الملك خلدون أن يدخل إليها، رغم تحذيرات مستشاريه. فأمر عددا كبيرا من أرتال جيشه باقتحامها. فلما دخلوها عانوا في أزقتها، وبسبب أهلها القساة الذين عجنتهم الحياة بقسوتها، فاتبعوا أسلوب حرب العصابات، وكانوا يضربون بأعداد قليلة من المقاتلين جنود ياقوتة الكثر ثم يهربون، وكثيرا ما أطلقوا السهام عليهم فاغتالوهم، وأكثروا من الهجمات في الليل، وفاجؤوا جنود ياقوتة، فأهل الفيحاء حفظوها زقاقا زقاقا وحارة حارة، على العكس من جنود ياقوتة الذين لم يكن لهم في المدينة ناقة ولا جمل.

وفي النهاية لم يستطع جيش ياقوتة احتلال الفيحاء، التي وقفت أمامهم حصنا منيعا؛ بسبب قوة أهلها، ولا سيما مع قوة عمدتها المغيرة.

عندها قرر الملك خلدون أن يتوقف، رغم أن ذلك نغص عليه عيشه. فقرر أن يعرض على المغيرة أن يخفض الضرائب على الفيحاء إلى الثلث، مقارنة بما أخذه الملك من سائر أراضي البقاء التي احتلها. وكذلك عرض على المغيرة أن تتمتع الفيحاء بحكم ذاتي، فلا يتدخل الملك بشؤونها الداخلية، لكنها ستظل تابعة لمملكة ياقوتة. وإذا لم يرضَ المغيرة بذلك، فيسظل الملك يحاصر الفيحاء أبد الدهر.

تفكر المغيرة جيدا، وفي نهاية المطاف وافق؛ فأحيانا تجبر الظروف المرء على المر؛ ليتهرب من الأمر. فبعد سقوط مملكة البقاء لم يعد للفيحاء نصير، وقد رأى المغيرة أن الموافقة خير من استمرار حصار المدينة، وما سينجم عن ذلك من ضنك العيش.

ورغم موافقته على عرض الملك خلدون، استاء المغيرة كثيرا من هذا الاتفاق المذل، وقد عرف هذا عنه في كل البقاء، كما عرف عنه حبه الشديد للبقاء وحزنه على سقوطها بيد أعدائها.

***

((19))

***العام 476.**

بعد أن أنهى الزبير أولى خطوتين في خطته، حان موعد الخطوة الثالثة. لقد احتاج رجلا قويا لتنفيذ خطته، وهذا الرجل هو المغيرة.

توجه الزبير إلى الفيحاء، ووصل دار المغيرة.

"أهلا بك" قال المغيرة.

كان المغيرة متوسط الطول، عريض المنكبين، ضخم العضلات، قوي الجسد، وذا تعابير وجه قاسية وحادة، وعينين قاسيتين، وعلا الشعر الأسود الكثيف رأسه، بينما غطى شعر أسود خفيف جانبي رأسه، وكان له شارب أسود خفيف، وغطى شعر أسود خفيف ذقنه.

ابتسم الزبير ورد: مرحبا، يا عمدة الفيحاء.

ثم أضاف: اسمي الزبير، وأنا شيخ قبائل الكثبة، وقد أتيت أحادثك في موضوع.

ابتسم المغيرة، فقد سمع بما فعله الزبير بجيش الهيجاء وكيف أدبهم، ثم قال: تفضل بالدخول.

فدخل الزبير.

ثم قال المغيرة: ارتح الآن قليلا، فلا بد وأنك قد سافرت مسافة طويلة، وفي الليل سنتحادث.

ثم أشار المغيرة إلى أحد خدمه، فقدم إليه، فقال له: خذ ضيفنا إلى غرفة نوم الضيوف، وأكرم ضيافته، ونفذ أي أمر يطلبه.

فأومأ الخادم برأسه موافقا، وفعل ما طلبه سيده.

وفي الليل بعد أن ارتاح الزبير، أرسل المغيرة خادما يطلبه.

فذهب الزبير مع الخادم الذي قاده إلى غرفة واسعة، اعتاد المغيرة وزوجه أن يستقبلوا فيها الناس، وأن يعقدوا فيها الاجتماعات.

حالما دخل الزبير الغرفة، استغرب من جلوس امرأة بجوار المغيرة؛ فهو لم يكن يعلم أن حورية اعتادت أن تكون ندا لزوجها، كأنها عمدة آخر للفيحاء، بل في حقيقة الأمر كانت العمدة الحقيقي لها.

لكن ما أذهل الزبير أكثر وأكثر، هو شدة جمال جسدها وشكلها، وإثارة انحناءاتها وتعابير وجهها. لم يكن الزبير وحده من انتبه لكل هذا عندما رآها، فكل رجل يرى حورية يصيبه الشعور والأفكار نفسها.

وبجوارها وقف رجل بدا خطيرا، هو عكرمة، الذي لزم دوما حورية ولم يفارقها.

"تفضل بالجلوس" قالت حورية.

فجلس الزبير بكرسي بجوار المغيرة.

كانت الغرفة متوسطة من حيث جمال البناء، واحتوت كراسي وطاولات مصنوعة من الخشب المزخرف. وانتشرت السيوف والخناجر المعلقة على جدران الغرفة هنا وهناك.

ثم قالت حورية: نأمل أن استضافتنا لاقت بمقامك.

ابتسم الزبير، ثم قال: بالتأكيد، سيدتي.

بعدها ضيف أحد الخادمين الواقفين الزبير كأسا من العصير، شرع يشرب منه.

قال المغيرة: أهلا بك.

ثم أضاف: أنا متشوق لسماع ما تريد أن تحادثنا به.

فجعل الزبير يشرح له ولحورية خطته خطوة خطوة، من أولها إلى آخرها.

فانبهر المغيرة وحورية مما سمعاه.

ثم قال الزبير: لقد حصلت على موافقة الملك قصي وأمين، والآن أطمح للحصول على موافقتك.

انبهر المغيرة وزوجه حالما سمعا كلمات الزبير، فكأي إنسان يسكن البقاء ساورتهم الشكوك أن الملك الهارب مجرد أسطورة، وأنه غالبا قد مات أو على الأقل لن يرجع ملكا ولو كان حيا.

فقال المغيرة باستغراب: هل فعلا قابلت الملك الهارب؟

ابتسم الزبير ورد: بالطبع، وقد أخبرته عنك.

ففرح المغيرة بهذا، وبدت عليه ابتسامة واسعة.

طفق الزبير يقلب نظرات جدية بين المغيرة وحورية، ثم قال: أيها المغيرة، إذا وفقت، فالملك سيعفيك وكل الفيحاء من الضرائب إعفاء كاملا، وسيلقبك أميرا على الفيحاء. وبالطبع لا تنس أنك ستساهم في تحرير البقاء، التي أعلم مدى عشقك لها.

ذهل المغيرة وحورية مما سمعاه، فلم يتوقعا مثل هذا العرض السخي.

الزبير احتاج المغيرة لتنفيذ خطته؛ وذلك لأسباب كثيرة وهامة، أهمها قوة المغيرة وامتلاكه لعدد كبير من المقاتلين الأشداء الأقوياء. وقد استعد لفعل أي شيء لإقناعه بالموافقة.

صحيح أن المغيرة أحب البقاء كثيرا، لكن الزبير – بذكائه الكبير – علم أنه لا بد من تقديم مزايا للمغيرة حتى يقنعه. فبعد أن خفض ملك ياقوتة الضرائب على الفيحاء إلى الثلث، وبعد أن منحها حكما ذاتيا، توجب تقديم شيء أكبر للمغيرة حتى يقتنع.

وكذلك – بذكائه- توقع الزبير شخصية المغيرة، وأنه مختلف عن رجل مثل أمين. فأمين سيفعل أي شيء من أجل البقاء دون مردود على خلاف المغيرة.

ساد صمت في الغرفة، ثم قالت حورية: دعني أتحادث مع المغيرة، وسنخبرك بقرارنا.

أعجب الزبير بشخصية حورية القوية، ففي ذلك الزمان وذلك المكان، لم يكن من العادي أن تشارك المرأة بالحكم، لا بل أن تكون هي الحاكم الحقيقي.

أكمل الزبير ما تبقى من العصير، ثم استأذن للمغادرة، فأذن له المغيرة.

وبعد مدة، عاد المغيرة وطلبه إلى الغرفة نفسها.

جلس الزبير على الكرسي نفسه.

ثم قالت حورية: نحن موافقون.

نظر إليها المغيرة بالانزعاج نفسه، الذي أحس به كلما تدخلت في إدارة الفيحاء، لكنه كالعادة لم يستعد للتخلي عنها.

ثم قال المغيرة مؤكدا: نعم، نحن موافقون.

ابتسم الزبير ابتسامة عريضة؛ فخطته باتت على شفا نجاح كامل.

***

الفصل الخامس

الرجل المحبوب

((20))

كان الهيثم قائدا لجيش البقاء إبان حكم الملك هزبر عم الملك الهارب قصي. امتاز الهيثم بالشجاعة وشدة البأس، وعرف في كل أنحاء البقاء وأحبه جل أهلها. ومما امتاز به ثقته العميقة بنفسه، حتى إن كل من حوله استمد الثقة منه، ومنهم الملك هزبر وسائر آله ومنهم الملك الهارب قصي.

قبل الحرب المقيتة، أقام القائد الهيثم في المعتزة عاصمة البقاء، في قصر فخم. إذ عاش فيه مع زوجته سوسن، وثلاثة من أبنائه الذكور وابنتيه. وأصغر أفراد العائلة كان سليما.

وبعد اغتيال الملك هزبر وآله، تتالت الأحداث، حتى أمر القائد هيثم بجمع كل ما تبقى من جيش البقاء غربا، وتوجيهه نحو الشرق؛ للتفرغ لقتال جيش الملك خلدون ملك ياقوتة. كما طلب الهيثم من الملك قصي – المتوج حديثا آنذاك – الهرب غربا؛ وذلك لأن الهيثم تيقن بنسبة كبيرة بأن جيشه سيهزم في الحرب القادمة.

لقد سحب الهيثم الجيش المتعسكر غربا على الحدود مع الهيجاء نحو الشرق، لأنه أراد التركيز على مقاتلة ملك ياقوتة، فقد توقع أن أهل غرب البقاء سيتمكنون من إعاقة تقدم ملك الهيجاء، لا سيما مع وجود صحراء الكثبة هناك، والتي يستحيل حتى على الجن احتلالها، لصعوبة تضاريسها ومناخها وقوة أهلها وشدة بأسهم.

وبالتالي وقعت الحرب التي باتت تعرف لاحقا بالحرب المقيتة، ودارت المعركة بين جيش ياقوتة وجيش البقاء. وقد فاق عدد جنود جيش ياقوتة عدد جنود البقاء بكثير؛ فقد فقد جيش البقاء ما يقرب من نصفه في المعارك التي دارت بعد هجوم جيش ياقوتة من الشرق وجيش الهيجاء من الغرب، لا سيما مع عنصري المفاجأة والمباغتة اللذين ميزا هذه الهجمات. وأيضا شعر كثير من جنود البقاء بالتعب الشديد، بالذات أولئك الذين سحبهم الهيثم من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق بسرعة كبيرة فأنهكهم السفر، كما أنهم تركوا كثيرا من سلاحهم ودروعهم ومجانيقهم؛ ليتحركوا تحركا أسرعَ، وبالتالي ليصلوا الشرق في أقرب فرصة.

وقد لبس مقاتلو ياقوتة زيهم المعروف المتكون من اللون الأبيض في معظمه، ويتخلله زخرفة باللون البرتقالي المائل للحمرة. في حين لبس مقاتلو البقاء زيهم المعروف عنهم المتكون من اللون البنفسجي في معظمه ويتخلله اللون الأسود.

وقد اصطحب الهيثم معه إلى الحرب ابنيه الكبيرين، اللذين كانت أعمارهما عشرين عاما وثمانية عشر عاما، ولم يصطحب معه ابنه الأصغر سليما؛ لأنه كان ذا ثمانية أعوام فقط إبان الحرب المقيتة.

فرغم تيقن الهيثم من الهزيمة، فقد أصر على اصطحاب ابنيه؛ فالقائد الحقيقي يضحي بأبنائه أولا وقبل غيرهم.

بعد الهيثم، كان أهم من في جيش البقاء، عشرة من العمداء، من بينهم ثلاثة أسماؤهم بهاء وصلاح ومعتصم. وامتاز هؤلاء العشرة بالقوة العظيمة، وقد عرفوا في شتى أنحاء البقاء.

وقعت الحرب، واشتبك جيشا ياقوتة والبقاء، ومع مرور الوقت وقع القتل الكثير في صفوف جيش البقاء، وباتت الكفة تميل ميلا بائنا باتجاه كفة جيش ياقوتة، وصدق حدس الهيثم، إذ انتصر جيش ياقوتة انتصارا مؤزرا. وفي أثناء المعركة ورغم تفوق عدوه، فقد ظل الهيثم يقاتل حتى اللحظة الأخيرة. ففي أثناء المعركة، كان الهيثم مترجلا، وتوغل في صفوف جيش ياقوتة وجعل يُقتّل جنوده، حتى قتل عدد كبيرا جدا منهم وحده، مما أبهر أفراد الجيشين. وبينما هو يفعل ذلك طُعن في أحد رجليه، ولكنه ظل يتوغل، ثم جرحوا إحدى يديه، ورغم ذلك ظل يتوغل ويتوغل، ثم قطع أحدهم رجله، فركع على ركبيته ولكنه ظل ممسكا بسيفه ويقاتل وهو ثابت على ركبتيه، ونجح في قتل جندي وهو على هذا الحال، لكن الشجاعة أحيانا تودي بصاحبها، فقد انتهى المطاف به بأن قتله جنود ياقوتة. وأثناء توغله هذا قتل ما يزيد على خمسة عشر فارسا بمفرده، وهو أمر عظيم جدا لدرجة أنه يقارب الخيال.

ولاحقا لما علم أهل البقاء بكل هذا، أصبح في نظرهم أسطورة وبطلا قوميا لكل البقاء. لا سيما مع تضحيته بابنيه اللذين قتلا أيضا في الحرب. وبهذا غدا أكثر رجل محبوب في البقاء، حتى أكثر من الملك الهارب قصي!

أما العمداء العشرة الذين ولوه في الأهمية في الجيش فقد قتل منهم سبعة، ولم يبق سوى بهاء وصلاح ومعتصم، الذين قاتلوا بشراسة حتى اللحظة الأخيرة، حين فروا بحياتهم مع كل هذا التقتيل في جيش البقاء، وهذا الفرار أسكن شعورا بالعار في قلوبهم لم يفارقهم مدى حياتهم.

وهكذا طحن جيش ياقوتة جيش البقاء، وقتل ما يقرب من نصفه في حين انقسم النصف الثاني بين جريح وفارّ.

***

وبهذا لم يتبقَ من عائلة الهيثم، سوى أرملته سوسن، وابنه سليم ذي الثمانية أعوام، وابنتيه. وبعد الحرب المقيتة، ومقتل الهيثم، هربت سوسن بأبنائها الثلاثة، خوفا من بطش ملكي ياقوتة والهيجاء ومرض قلبيهما.

استقرت سوسن ومن تبقى من عائلتها في قرية صغيرة نائية تقع حول مدينة اسمها الغراء في جنوب البقاء. وقد خافت كثيرا على ابنها سليم؛ فهو أهم ما تبقى بحياتها بعد كل ما خسرته. ولهذا دللته كثيرا، وجعلته يعتزل الناس حتى لا يعلم أحد بمكان وجوده. وقد نجحت في ذلك؛ فقد علم كل أهل البقاء بوجود ابنٍ للهيثم، لم يزل على قيد الحياة، لكن جلهم لم يعرف بمكان وجوده.

ومع مرور الأيام، وزيادة عمر سليم، امتاز بالضعف؛ وذلك لأنه تربى على يدي امرأة دون وجود رجل في حياته، لا سيما مع تدليلها المفرط له، وأيضا لاعتزاله الناس.

ولأن أول قدوة لأغلب البشر هو والد كل واحد منهم، نظر سليم إلى الحياة وإلى المستقبل من خلال والده. وبما أن الهيثم كان رجلا عظيما جدا، طمح سليم لأن يصبح مثله وأن يحقق مثل الذي حققه وربما أكثر، لم لا؟! وبعد أن كبر سليم – بعد أن ظلت أمه تحدثه باستمرار عن بطولات أبيه – بدأ الفتى يحلم ويطمح.

وذات يوم، وبينما جلس سليم وسوسن في كوخهما البائس، قال سليم بصوته الناعم الرقيق: أمي، أنا أشعر بملل شديد.

عبست الأم وهي تسمع هذه الكلمات، وردت: لم، يا بني؟! هل أصابك أي مكروه؟!

"لا" أجاب بصوته الناعم، وأضاف: لكنني سئمت هذه الحياة التي نعيشها، سئمت الفقر والبؤس... والجبن... نعم، إلامَ سنظل نعيش هنا هاربين جبناء؟! كيف أفعل هذا وأنا ابن القائد العظيم الهيثم؟! أنا رجل ولست امرأة تخاف القتال!

"سليم" قالت سوسن بحزم، وأضافت بالحزم نفسه: إياك أن تكرر هذا الكلام، أبوك كان شجاعا نعم، لكن إلى أين قادته شجاعته؟! وإلى أين قادتنا نحن؟! كل ما نحن فيه بسبب تلك الشجاعة. عليك أن تكون واقعيا وترضى بما نحن فيه؛ لأنك إذا طمعت فسيسوء وضعك أكثر وأكثر، وغالبا ستلاقي حتفك.

فقال الصبي بصوت رقيق: لكن –يا أمي – أنا دوما ما أحلم بالمدن الكبيرة، أحاول أن أتصور شكلها، وأشكال أهلها، وما بها من أشياء. مخيلتي تعذبني، لأنها تشوق قلبي لمعرفة كل هذا. أريد العيش في مدينة كبيرة، في بيت مريح... لا أريد أن أظل في هذا الكوخ البائس.

صرخت سوسن بحزم وغضب: كفى، يا سليم.

فنظر الصبي - الذي اتسم بالضعف والخوف من أمه - إلى الأرض.

صحيح أنها لطالما غمرته في بحر من الحنان والدلال، لكنها دوما أغرقته في محيط من القسوة والصد كلما تبادر إلى ذهنه – ولو طيف فكرة بسيطة - بأن يخرج من هذه القرية النائية أو أن يصرح للناس بأنه ابن القائد الهيثم.

اقتربت أمه منه، وركعت على ركبتيها، بينما أمسكت كفيه بكفيها، ثم قالت: سليم، أعداؤنا يريدون سلب حياتك، ولو وجدوك، فلن يتوانوا في قتلك.

ثم شدت على كفيه، وقالت بحنية: أنا الوحيدة التي أستطيع ان أحميك... فثق بي. سنظل هنا إلى الأبد، أو حتى تحدث معجزة وتتحرر البقاء، رغم أن ذلك لن يحدث أبدا.

ثم أضافت: ثق بي، يا بني. أنا فقط من سيقودك لبر الأمان. كل ما نحن فيه بسبب طموحات والدك. لقد علمتني الحياة أن القناعة والواقعية هما سبيلا النجاة.

ثم نهضت وقبلت رأسه بنعومة، وهي تهمس: ثق بي.

واحتضنته.

لم يقتنع الفتى الطموح على الإطلاق بكلام أمه؛ لكنه آثر الصمت؛ لأنه كان يخاف منها.

ولاحقا تكرر مثل هذا الحوار كثيرا، لكن سوسن دائما ما قتلت طموحات ابنها بحزم، حتى رضخ سليم في النهاية لأمر أمه؛ لأنه كان ضعيفا ولأن أمه وحدها التي حمته دائما، ولأنه خاف من الحياة ولم يستطع أن يواجهها وحده!

***

***العام 476.**

بعد أن ضمن الزبير موافقة أول ثلاثة أشخاص مهمين لخطته على المشاركة بها، ظل هنالك شخص واحد فقط هام لخطته. وللمفاجأة، كان هذا الشخص هو سليما ابن القائد الهيثم. لقد أراده الزبير؛ لأنه محبوب من أهل البقاء؛ نظرا لمحبتهم لأبيه.

وبالتالي يمكن للزبير استخدامه لشحذ همم الناس، في القتال أثناء الثورة، وفي الانضمام لصفوف الثوار.

كجل أهل البقاء، سبق للزبير السماع عن وجود ابن للقائد الهيثم، ما زال على قيد الحياة، وأنه يسكن في إحدى القرى الصغيرة النائية ناحية مدينة الغراء.

توجه الزبير إلى الغراء، بالتحديد إلى أشهر المطاعم والمقاهي فيها، وجعل يسأل عن مكان وجود سليم، فوجد أن الكل هناك يواجهونه بالوجوم والغضب، ويخبرونه أنهم لا يعلمون بمكان وجوده، وكانوا ينهون الموضوع بسرعة، ويطلبون منه ألا يعاود السؤال عنه. ثم توجه إلى القرى المحيطة بالغراء، ومن جديد طفق يسأل عن مكان وجود سليم، فقوبل بردات الفعل نفسها. لقد خشوا جميعا على سليم من غدر براثن ملكي ياقوتة والهيجاء.

ولما وجد الزبير الوضع هكذا، قرر اللجوء للمال لحل المشكلة، فقرر تخصيص مئتي درهم ذهبي لمن يدله على مكان وجود سليم. لقد كان هذا المبلغ كبيرا في ذلك الزمان والمكان، وقد أيقن الزبير أنه لا بد وأن ينجح من خلال هذا المبلغ، في إقناع أحد الناس بإخباره عن مكان سليم.

وطفق الزبير يدور في مطاعم الغراء وما أحاط بها من قرى ومقاهيها، يخبر الناس عن المبلغ الكبير الذي خصصه لمن يدله على مكان سليم.

وقد صدق حدس الزبير، فبعد ما يقرب الأسبوعين فقط، أتاه أحد سكان القرى المحيطة بالغراء، وأخبره بمكان وجود سليم، ورجاه أن لا يؤذيه، وأخبره أنه لم يعلمه بمكانه إلا لحاجته الماسة للمال بسبب مرض ابنه.

طمأنه الزبير بأنه لن يؤذي سليما بل يريد مساعدته، ثم رحل باتجاه المكان الذي أخبره عنه.

كان المكان عبارة عن قرية نائية قريبة من الغراء. وصل الزبير إلى القرية بناء على وصف الرجل الذي أخذ المئتي درهم، ثم وصل إلى بيت سليم الذي دله الرجل عليه كذلك.

طرق على الباب، فخرج له شاب في ربيع العمر. كان وسيما أبيض اللون، حليق الوجه، ذا شعر رأس كثيف وناعم ينسدل على خديه.

"أهلا" قال سليم، وأضاف بصوته الناعم: كيف لي أن أساعدك؟

بدت نعومة سليم ورقته جلية، لا سيما لشخص بخبرة الزبير وفراسته.

اقتربت أم سليم سوسن من الباب، لتستمع إلى الحوار، فلطالما خشيت أن يأتي يوم يبحث فيه أحدهم عن ابنها.

"مرحبا" قال الزبير، ثم أضاف: هل أنت سليم؟

تسارعت دقات قلب سليم، وتسارعت دقات قلب أمه أضعافا، واجتاحها الخوف والجزع، فأدخلت ابنها إلى داخل الدار، وأغلقت الباب فورا، ثم صرخت: لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم، ارحل فورا قبل أن أوذيك.

لم يتأثر الزبير بكلامها إطلاقا، ثم قال بصوت عال: أم سليم، أنا صديق ولست عدوا. أنا شيخ قبائل الكثبة، وكسائر أهل البقاء أنا متيم بالقائد الهيثم – رحمه الله -. وقد أرسلني إليكم الملك قصي لأساعد سليماً وإياكم.

زاد ارتباك سوسن عندما سمعت هذا الكلام، ولكن على العكس منها، تحمس سليم، وأراد أن يستمع للمزيد من هذا الغريب.

توجه سليم ليفتح له الباب، فنهته أمه، فقال لها: لا تخافي، أنا رجل ولا أهاب أحدا.

فنهته من جديد، لكنه أصر وفتح الباب، بينما زاد رعبها وخوفها، وجعلت ترتجف.

قال سليم للزبير: تفضل بالدخول.

فدخل الزبير، ثم قال: مرحبا بكم.

ثم قال لسوسن: لا تخافي، أنا صديق كما أخبرتك وسأرمي سيفي أرضا حتى تطمئني.

فنزع سيفه من الحزام الذي على خصره ورماه أرضا.

ثم قال: سيدتي، وسليم، اسمي الزبير شيخ قبائل الكثبة، ولقد التقيت بالملك الهارب، وأخبرته بخطتي لتحرير البقاء، وأخبرته بأني بحاجة إليك - يا سليم – لتنفيذها، وقد أرسلني هنا.

تفاجأ سليم وسوسن؛ بعدما أخبرهما بأنه التقى الملك الهارب.

دارهما كانت بسيطة جدا مصنوعة من الطين المتشقق، ووجد فيها أبسطة قليلة استخدمها سليم وعائلته للجلوس وللنوم عليها كذلك.

سكت قليلا، ثم أكمل: الهيثم هو أكثر رجل محبوب في البقاء، وهو رمز للقوة والشجاعة. الآن نريد أن نقود ثورة ضد ياقوتة والهيجاء، ووجودك قائدا في الثورة ضروري، لتذكر الناس بالهيثم وتشحذ هممهم وتشجعهم.

ابتسم سليم ابتسامة عريضة، لكن على العكس منه عبست أمه عبوسا منفرا، وركضت بسرعة وأمسكت سكينا حادة، ووقفت أمام ابنها، ومدت يديها يمينا وشمالا ويمينها تمسك بالسكين، ثم قالت بصوت حاد مخيف عال، وهي ترتجف: اسمعني جيدا، لا يوجد أحد هنا اسمه سليم. ارحل قبل أن أطعنك الآن، وأنهي حياتك.

لقد رفضت الفكرة رفضا قاطعا؛ لأن سليما وحيدها من الذكور، وقد خشيت أن يتكرر معه ما حدث مع أبيه وأخويه.

لم يتأثر الزبير على الإطلاق بتهديدات سوسن؛ فقد امتاز بالشدة وقوة القلب، وقال بصوت بارد واثق: سيدتي، لا داعي لكل هذا. أنا بمثابة والد لسليم أو على الأقل أخ كبير. أعدك بأن سليما سيصير قائدا كبيرا في جيش الثورة، ثم رجلا مهما ذا منصب عال في مملكة البقاء بعد تحريرها.

اجتاحت السعادة قلب سليم، بينما سمع هذه الكلمات.

أكمل الزبير: سيأتي إلى المعارك، لكن وعزة الله وجلالته، وعزة ابن أخي سهيل - أغلى شيء على قلبي - لن يشارك سليم في القتال. فقط سيقف مع القادة؛ لأن وجوده سيحفز المقاتلين، وسأسخر له من أتباعي الخاصين من مقاتلي صحراء الكثبة، فرقة تحرسه بل وتمنعه من المشاركة بالقتال.

تحمس سليم حماسة عظيمة، وفرح أكبر فرحة في عمره، ثم قال لأمه: أماه، سأذهب. لا يمكن أن أرفض مثل هذا، أبي الهيثم لم يكن ليرضى لي أن أرفض هذا.

عندها تيقن الزبير بأن من أمامه هو ابن القائد الهيثم بلحمه وشحمه.

رمت سوسن السكين من يدها، ثم جعلت تبكي بحرقة، وأنشأ صوتها يتهدج من شدة ألمها، وجعلت تصرخ وهي على هذا الحال: لقد خسرت أحبابي ذات يوم، ولا أريد أن أخسرهم من جديد. لن تذهب – يا سليم – لن تذهب.

احتضن الشاب أمه، وضمها إلى صدره بقوة، بينما أرخت يديها جانبا: لا تخافي، يا أمي، أنا متأكد أن هذا الرجل والملك قصيا، لن يخذلاني وسيبذلان كل شيء لحمايتي.

أحاطت الأم ابنها بذراعيها، ثم قالت بصوتها المتهدج: لن تذهب، يا سليم. لن تذهب.

وما فتئت تبكي بحرقة، حتى ملأت دموعها ثوب ابنها الذي قال: لا تخافي، حتى لو خسرنا الحرب، فلن يطالني أحد، بوجود الفرقة المخصصة لحمايتي كما أخبرنا الزبير.

احتضنت الأم والابن أحدهما الآخر، وما فتئ سليم يقنع أمه حتى اقتنعت في النهاية، وبهذا ابتهج قلب الزبير؛ لأن أخيرا حصل على الأشخاص الضروريين لخطته جميعهم.

***

الفصل السادس

الحرب الأولى

((22))

وهكذا نجح الزبير في الحصول على موافقة كل الأشخاص الضروريين لإنجاح خطته. فقد حصل على موافقة الملك الهارب وبالتالي على الشرعية، وعلى موافقة أمين وبالتالي على المال، وعلى موافقة المغيرة وبالتالي على القوة، وعلى موافقة سليم وبالتالي على الروح المعنوية.

قامت خطته بعد تجميع هؤلاء، على الثورة ضد المملكتين المحتلتين. فقد قرر بالبداية الثورة ضد ياقوتة شرقا، وبعد الانتصار الثورة ضد الهيجاء غربا. وقد خطط لدعوة الناس سريا إلى الثورة، وجمع أكبر عدد من أبناء البقاء، ثم الفتك بالمملكتين المحتلتين.

توجه إلى المنطقة المحيطة بجبال اليبس، تحديدا إلى النزل نفسه الذي نزل فيه في المرات السابقة، وهناك أتاه رجال الملك الهارب أنفسهم الذين يأتونه كل مرة. ورغم اتفاقه مع الملك الهارب على الخطة وأنهما أصبحا في صف واحد، أصر المقاتلون على السرية ذاتها والخطوات ذاتها في نقل الزبير للقاء الملك. فوضعوا عصبة من القماش على عينيه، ثم أخذوه إلى الملك قصي.

التقى الزبير بالملك وأعلمه بنجاحه في الحصول على موافقة الأشخاص المهمين لخطته جميعهم؛ ففرح الملك وأثنى عليه وشكره، وطلب منه أن يستدعي الرجال المهمين لتنفيذ الخطة إلى جبال اليبس؛ لأن الملك أراد أن يلتقيهم والزبير في جلسة واحدة، وأن يتعارفوا جميعا قبل أن يتعاونوا معا في تنفيذ الخطة الخطيرة.

أرسل الزبير رسائل إلى أمين والمغيرة وسليم، أعلمهم فيها برغبة الملك الهارب لقاءهم، وطلب منهم أن يأتوا إلى جبال اليبس، وأخبرهم أنهم قد يقيمون هناك مدة ليست بالقليلة، وأنبأهم بمكان النزل الذي اعتاد النزول به، كلما أراد زيارة الملك.

أتى أمين ثم المغيرة ثم سليم، وكل واحد منهم نزل في النزل نفسه، وكان مقاتلو الملك يتوجهون هناك ويصطحبون الضيف بالطريقة نفسها التي اعتادوا اصطحاب الزبير بها، وهي أن يضعوا عصبة على أعين كل ضيف وألا يزيلوها إلا عندما يصلون أعلى جبال اليبس.

في البداية أتى أمين، ولكنه لم يكن وحده، فقد أتت معه زوجه سمية. أعلم مقاتلو قوة الحماية الزبير بمقدمه، فخرج لاستقباله.

المقاتلون الذين أتَوا بأمين ساعدوه في الترجل عن جواده، ثم أزالوا العصبة عن عينيه. ثم ساعد أمين زوجته سمية على الترجل وأزال العصبة عن عينيها.

الزبير راقب كل هذا، إذ رأى سمية ذات العينين الزرقاوين والبشرة التي فاقت الثلج في بياضها، وعاكسها في تناقض جميل وتصارع يسر النظر، شعرها الذي فاق الليل في سواده، وقد كانت نحيلة طويلة، جميلة الوجه.

وضعت سمية كفيها على كتفي زوجها أمين، وقالت بنعومة وحنان فائضين: هل أنت بخير؟! لقد خفت عليك طيلة الرحلة.

وبالفعل شعرت سمية بالخوف من القدوم إلى هذا المكان المجهول، ووسط كل هذه الاحترازات من مقاتلي الملك الهارب.

ابتسم أمين، وأمسك كفها وقبلها، ثم قال: أنا بأتم خير، لا تخافي علي. المهم، كيف حالك أنتِ؟

"أنا بخير" ردت سمية بصوتها الناعم، ثم جعلت تنفض بيديها الغبار والتراب من على لباس زوجها، وتعدل له هندامه الذي تغير موضعه جراء السفر.

انذهل الزبير؛ إذ لم يسبق له أن رأى امرأة بهذا الجمال وبهذه النعومة، ولم يسبق أن رأى امرأة تملك صفات تقارب هذه الصفات، وتدلل زوجها كل هذا الدلال، وتعتني به أقصى عناية. لطالما اعتقد الناس - ومنهم الزبير- أن أمينا محظوظ لأنه يمتلك أموالا لا تحصى، لكن الزبير أدرك في ذلك اليوم أن أمينا محظوظ لسبب آخر، وهو امتلاكه تلك الزوجة الرائعة التي لا مثيل لها.

اقترب الزبير من أمين، ومد ذراعيه جانبا ثم أحاط بهما أمينا، واحتضنه، فاحتضنه أمين.

"أهلا بك بيننا" قال الزبير.

فرد أمين: مرحبا بالزبير.

ابتعد الرجلان أحدهما عن الآخر، ثم قال الزبير: لقد انتظرناك بفارغ الصبر.

ابتسم أمين، ثم نظر إلى سمية، وقال للزبير: هذه زوجتي سمية.

ارتبك الزبير غير المعتاد على التعامل مع النساء، وقال بارتباك: أهلا بك، سيدتي.

ابتسمت سمية، وردت: مرحبا أيها الزبير، لقد سمعت عنك كثيرا.

ابتسم الزبير، ثم قال: تفضلا من هنا.

وقادهما إلى الغرفة التي سيقيمان فيها، وأخبرهما أنه حالما يريد الملك لقاءهما فسيستدعيهما.

بعد عدة أيام وصلت حورية وزوجها المغيرة إلى جبال اليبس، ضمن الإجراءات ذاتها التي اتُّبِعَت مع أمين، من حرص على السرية، ومن العصب حول الأعين.

وحالما وصلا أعلم الزبير فخرج للقائهما.

ساعد مقاتلو الحماية المغيرة على الترجل عن جواده، ثم أزالوا العصبة عن عينيه، ثم ساعد المغيرة حورية على الترجل، وأزال العصبة عن عينيها.

اقترب الزبير منهما، وحالما رآياه، قالت حورية: كيف حالك، أيها الزبير؟

غضب المغيرة؛ لأنها تحدثت قبله، كعادته في كل مرة يحدث فيها هذا، لكنه أتقن إخفاء غضبه كالعادة.

ثم قال للزبير: كيف حالك؟

ابتسم الزبير فرحا، وقال: أهلا بكما، لقد اشتقنا لكما.

وطفقوا يتحادثون ثم اصطحبهما إلى حيث سيقيمان، وأخبرهما أنه سيستدعيهما لاحقا للقاء الملك.

وأخيرا، وبعد أيام وصل سليم ضمن الاحترازات نفسها، ومن جديد استقبله الزبير بالأحضان بالطريقة ذاتها، واصطحبه إلى الغرفة التي سيقيم فيها، وأنبأه أنه سيستدعيه لاحقا للقاء الملك.

أقام جميع الزوار فرحين مستبشرين بلقاء الملك قصي، اللقاء الذي لم يكن هنالك شيء أعظم شرفا منه في البقاء كلها. وبعد عدة أيام –أكرم فيها الملك وفادتهم جميعا-، وذات ليلة حان موعد اللقاء، فأرسل الزبير في طلبهم جميعا.

تجمعوا كلهم على باب الغرفة التي اعتاد الملك الهارب لقاء الناس فيها، والتي سبق له أن التقى فيها الزبير مرات عدة.

بعدها أدخلهم الزبير إلى الغرفة، ووقفوا جميعا أمام الملك الذي جلس على عرشه. وفي الغرفة وُجد الأمير ريان، والقائد جاسم، وابنه القائد عاصم وعدد كبير من الحرس، إضافة لعدد كبير من الخدم.

في البداية تقدم الزبير، وانحنى وقال: مرحبا، يا مولاي.

فرد الملك، وهو يمسك رأس الضيغم: أهلا بك وبضيوفي.

ثم استوى الزبير من انحناءته، وانحنى من جديد نحو الأمير، وهو يقول: تحيتي، يا مولاي.

وبينما جلس الأمير على كرسي بجوار أبيه، بدا الغضب والامتعاض واضحين عليه، ولم يرد على الزبير؛ مما أثار استغراب كل من في الحجرة.

بعدها استدرك الزبير المسألة، واستوى من انحناءته، وقال وهو يشير إلى أمين: هذا أمين أغنى رجل في البقاء، بل في الممالك الثلاث كلها.

ثم أشار إلى زوجته سمية، وقال: وهذه زوجته سمية.

تقدم أمين وسمية، وانحنيا إجلالا للملك، وقال الاثنان: مرحبا، يا مولاي.

فقال الملك: أهلا بكما.

ثم تنحيا جانبا.

وبعدها أشار الزبير إلى المغيرة، وقال: وهذا المغيرة عمدة الفيحاء، وواحد من أقوى رجال البقاء.

فابتسم المغيرة من ثناء الزبير عليه.

بعدها أشار الزبير إلى حورية وعرف الملك بها.

تقدم الزوجان وانحنيا، وحيّا الملك فرد عليهما التحية، ثم تنحيا جانبا.

بعدها أشار الزبير إلى سليم، وقال: وهذا الشاب هو سليم ابن القائد الخالد الهيثم.

عندما دمعت عينا الملك؛ إذ تذكر القائد الباسل الذي ضحى من أجل البقاء، فوقف احتراما لذكرى القائد، ثم قال لسليم: اقترب مني، يا بني.

فشعر سليم كعادته بخجل عظيم، لا سيما أنه هذه المرة يحادث أهم رجل في البقاء كلها، ونظر في الأرض خجلا دون حراك.

وبعد مدة توجه إليه الزبير ووضع كفه على كتفه، وشجعه: هيا، يا سليم، نفذ أمر الملك.

عندها وبينما سليم يطأطئ رأسه، جعل يقترب من الملك، ثم وقف وانحنى له، ثم أكمل طريقه نحوه، ولما غدا قريبا منه، احتضنه الملك بقوة وضمه إليه؛ لكي يشتم رائحة صديقه الهيثم.

وفي لحظات اقتراب سليم من الملك، زاد تركيز جاسم، وتهيأ لأي شيء من الممكن أن يحدث فجأة، فهذه كانت عادته، أن يخشى على الملك حتى من أقرب المقربين له، وحتى من الأشخاص الذين لا يبدو عليهم أنهم يشكلون خطرا.

ولاحظ القائد عاصم تصرفات أبيه التي حرص الابن أن يتعلم منها ويقلدها.

كان خدم الملك قد وضعوا طاولة فاخرة طويلة في الغرفة، وقد علاها ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وحولها كراسيّ فاخرة.

دعا الملك ضيوفه للجلوس حول الطاولة، ثم جلس على رأس الطاولة، ووقف خلفه وعلى يمينه القائد جاسم. بينما جلس البقية على الكراسي. ثم دعاهم الملك ليبدؤوا بالأكل والشرب، فبدأ هو بنفسه، ثم تبعوه.

وجعل الخدم يستجيبون لطلبات الملك وضيوفه.

وجعل الجميع يتبادلون الحديث ويتعرف بعضهم على بعض، وأبدوا جميعا للملك شرفهم العظيم بلقائه شخصيا، وأبدى هو سعادته بلقائهم وافتخاره باحتواء مملكته على أمثالهم، وركز على الإثناء على الهيثم، مما أسر قلب سليم كثيرا. أما الأمير ريان، فقد التزم الصمت طيلة الجلسة، وامتنع عن الأكل والشرب، وبدا الغضب جليا عليه، مما أثار حفيظة الحضور جميعا، واستغرابهم.

وبينما هم يتحادثون، نظر الملك إلى الزبير، ثم قال: علينا ألا ننسى أن نشكر الزبير على مجهوده وتخطيطه وبراعته في إحكام هذه الخطة، والأهم على حبه للبقاء.

ابتسموا جميعا ونظروا إلى الزبير بإعجاب، ثم قال أمين: بالتأكيد، الزبير يستحق الثناء، فخطته ستعيد لنا البقاء.

ثم أكدت سمية على كلام زوجها: هذا صحيح، لولاه لاندفن الأمل بتحرير بلادنا إلى الأبد.

ثم قالت حورية: إنه من أعظم الرجال في هذه البلاد.

فأكد زوجها المغيرة كلامها: كلامك صحيح، لم يسبق أن رأيت رجلا بهذه القوة والحنكة.

ولم يتبق أحد لم يثن عليه سوى سليم، فقال بخجل: شكرا، أيها الزبير.

فرح الزبير بكلامهم جميعا، وكانت تلك إحدى أجمل لحظات حياته.

الاستثناء الوحيد، هو الأمير ريان، الذي اشتعل قلبه غضبا وغيرة من كلام أبيه.

بعدها أكمل الجمع حديثهم وأكلهم وشربهم.

***

كانت الفيحاء أقرب مكان يتمتع بالحرية على ياقوتة يمكن لأهل البقاء الوصول إليه. ووقع بالقرب منها معسكر ضخم لجيش ياقوتة احتوى على ربع جيشها.

وقد قامت خطة الزبير لتحرير البقاء على قاعدتين، القاعدة الأولى تجميع الثوار في الفيحاء، وعندما يغدو عددهم كبيرا جدا، خطط لأن يهجموا على معسكر ياقوتة الضخم. والقاعدة الثانية أن تثور - في اليوم نفسه للهجوم على المعسكر – سائر مدن وقرى البقاء المحتلة ضد ياقوتة والهيجاء.

لهذا طلب الزبير من المغيرة، أن يعلن أنه سيقيم مهرجانا لمدة شهر صيفَ كلِّ سنةٍ في الفيحاء، وأن المهرجان سيخصص للبيع والشراء، وسيعج بالمهرجين والمغنين والشعراء والخطباء، وأن يدعو الناس من شتى الممالك لزيارة المهرجان. وبالفعل نفذ المغيرة طلب الزبير وفعل كل هذا.

بعدها أرسل الملك وحلفاؤه الثلاثة الزبير والمغيرة وأمين، رجالهم في شتى أنحاء البقاء سواء الأراضي المحتلة منها أو الأراضي المحررة. وشرعوا يدعون الرجال سرا إلى المشاركة في ثورة لتحرير البقاء كاملة، وأخبروهم أن الملك الهارب ما زال على قيد الحياة وأنه سيقود الثورة بنفسه.

وكلما قبل أحدهم المشاركة في الثورة، طلبوا منه إما الذهاب إلى الفيحاء والانتظار هناك لحين الهجوم على المعسكر، أو أن يظل في مدينته أو قريته المحتلة وأن يساهم في الثورة ضد جنود ياقوتة والهيجاء.

صحيح أن الزبير اختار المغيرة ضمن منفذي خطته، لقوته الشديدة وكثرة أتباعه، لكنه اختاره أيضا؛ لأنه احتاج لتجميع الناس في الفيحاء أقرب مناطق البقاء على معسكر ياقوتة.

***

احتاج كل هؤلاء المقاتلين الذين عزموا على الاشتراك بالثورة، مالا للإنفاق عليهم سلاحِهم وخيولهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم ودروعهم وتُرُسهم ومرتباتهم. وهذه الأموال حصل عليها الزبير من أمين الذي امتلك مبلغا هائلا من المال.

ولهذا كله؛ شكل أمين حجرَ زاوية في خطة الزبير، الذي أدرك مدى أهمية حياة أمين.

وذات يوم توجه الزبير إلى غرفة أمين في جبال اليبس، وتبادلا التحايا، ثم جلسا يتحادثان، وجلست معهم سمية زوجة أمين.

وبعد مدة قال الزبير: أريد أن أحادثك بأمر معين على حدة، يا أمين.

ثم نظر إلى سمية نظرة سريعة، ثم عاود النظر إلى أمين.

ابتسم أمين، وقال بصوته الهادئ: أرجوك، تحدث أمام سمية، فأنا وإياها امرؤ واحد، ولا أتخذ قراراً إلا بإعلامها وموافقتها.

لقد علم الزبير أن أمينا لا بد وأنه أراد المشاركة في القتال في الثورة المرتقبة؛ بسبب حبه الجم للبقاء، لذلك أراد أن يثنيه عن هذه الفكرة مبكرا.

قال الزبير بحزم: أمين، أثناء الثورة، أريدك أن تظل هنا في جبال اليبس وألا تشارك في القتال.

عبس أمين، ثم قال - بغضب على غير عادته - : هذا غير مقبول، أيها الزبير. هل تظنني امرأة لأخشى الوغى؟!

فقال الزبير: سأتحدث معك بصراحة. مساهمتك بمالك أهم بأضعاف مضاعفة من مساهمتك في القتال. نحن بحاجة لأموالك، ويجب أن تظل حيا حتى نستفيد منها.

فقال أمين العابس: لا، لن أقبل.

عندها قالت سمية بصوتها الحنون: أمين، أرجوك، استمع للزبير، فكلامه صحيح ومنطقي.

قال أمين: مستحيل، لن أتوانى في التضحية بحياتي لأجل البقاء.

عندها وجد الزبير نفسه أمام الخيار الأخير لإقناع أمين، فقال: إذا فلتقبل بحل وسط بيني وبينك.

"وما هو؟" سأل أمين.

أجاب الزبير: تأتي معنا إلى ساحة القتال، وتشاهد المعركة عن بعد، بينما يحرسك عدد كبير من المقاتلين، لكن دون أن تشارك بالقتال.

نظرت سمية ببراءة إلى زوجها وقالت بصوتها الناعم: إن هذا لعين العقل.

أطرق أمين – الذي لا يستطيع رفض طلب لحبيبته سمية - قليلا وفكر بعمق، ثم قال ناظرا إلى الأرض: حسن، أنا موافق.

***

ظل المقاتلون والمتطوعون يتجمعون في مدينة الفيحاء، واقترب موعد الهجمة المخطط لها على معسكر ياقوتة القريب.

كان على الملك الهارب أن يعين قائدا للجيش المتجمع في الفيحاء، وقد اختار جاسما قائد قواته، قائدا للمقاتلين المتجمعين هناك.

انتقل الملك الهارب والقائد جاسم وقائد الحرس عاصم إلى الفيحاء، وكذلك انتقل إليها الزبير وأمين وسليم. وأثناء هذا كله، تعمد الملك وأتباعه تغيير لباسهم، ولبسوا ألبسة متعددة الألوان غير موحدة، كما أن الملك وجاسما ظلا متلثمين طيلة السفر.

وبعد تجمع عدد هائل من المقاتلين في الفيحاء، حان موعد الهجوم. وضع الزبير خطة الهجوم. ونصت على إحاطة المقاتلين بالمعسكر من جميع الجهات، بحيث يهجمون على المعسكر من جهة ويبقون على مسافة بعيدة نسبيا من الجهة الثانية. وقد خطط لأن يتم الهجوم ليلا، وهذا ما حصل.

وفي إحدى الليالي، تهيأ مقاتلو البقاء للمعركة.

وخرج الملك وريان والزبير والمغيرة وأمين وسليم مع المقاتلين.

توجه الزبير إلى سليم الذي أحاط به ثلاثون مقاتلا من فرقة الزنوج لحمايته. فعدد كبير من مقاتلي الكثبة وكل فرقة الزنوج، تجمعوا ككثير من أهل البقاء في الفيحاء.

انبهر سليم من منظر أعضاء فرقة الزنوج، مفتولي العضلات، طويلي القامة، عريضي المناكب، والذين ظهرت عليهم علامات القوة والبأس الشديدين.

قال الزبير لسليم: سليم - كما وعدتك ووعدت والدتك - سأحافظ على حياتك، أريدك أن تبقى هنا وألا تخاطر بحياتك.

ثم وضع الزبير يديه على كتفي سليم، وقال: أنت ابني، وعزيز علي، ومنذ رأيتك أحسست بمشاعر الأبوة والمحبة تجاهك.

وأكمل: يجب أن تظل حيا لتبث الثقة في صفوف المقاتلين.

اعتاد الزبير أن يحادث سليما باستمرار، ولطالما أخبره أنه يشعر بأنه ابنه، وفي تلك الليلة تحديدا حادثه مرارا وتكرارا طالبا منه ألا يتهور ويشارك في القتال. وطلب مرارا وتكرار من مقاتلي فرقة الزنوج المنوطين بحراسته، أن يمنعوا حتى الرياح من الاقتراب منه.

وفي تلك الليلة كذلك، توجه الزبير إلى أمين، وقال: أمين، تذكر اتفاقنا جيدا. أنت حيا أهم لنا منك ميتا... لا يمكن لخطتنا أن تنجح... لا يمكن للبقاء أن تعود، إذا فقدناك. إياك أن تتهور وتشارك بالقتال.

أومأ أمين برأسه، مع أن الحزن ملأ قلبه؛ لأنه أراد من كل ذرة في قلبه أن يشارك في القتال، وأن يضحي بحياته في سبيل بلده البقاء.

كذلك أوكل الزبير إلى ثلاثين من فرقة الزنوج حراسة أمين، وأن يمنعوا حتى الرياح من الاقتراب منه.

وحانت اللحظة المنتظرة. تقدم الزبير المقاتلين، وصرخ: يا أهل البقاء، اليوم بينكم ملككم الملك قصي.

فصرخ المقاتلون: يحيا الملك...

وكرروا ذلك.

ثم صرخ الزبير: وبينكم سليم ابن القائد الأسطوري الهيثم.

فهتف المقاتلون: يحيا الهيثم...

وكرروا ذلك.

ثم صرخ الزبير: اليوم، مصير البقاء بأيديكم، فلا ترحموا عدوكم.

وقد لبس مقاتلو البقاء لباسا بنفسجيا في معظمه ويتخلله اللون الأسود. أما مقاتلو بدو الكثبة فلبسوا لباسهم الأبيض في معظمه ويتخلله اللون الأحمر. وأما الزبير وبيدق وسائر أعضاء فرقة الزنوج لبسوا زيهم الأسود في معظمه والذي يتخلله اللون الأبيض. وقبل هذه الحرب، قرب بيدق منه ومن الزبير اثنين هما الأقوى بعد بيدق في كل فرقة الزنوج. الأول اسمه هلال والثاني اسمه الأقرط. وبات بيدق وهلال والأقرط يصاحبون الزبير في أي مكان يذهب إليه، وعرف الثلاثة بالنسور السوداء؛ وذلك لأنهم شابهوا النسور في قوتها وشدتها وجديتها وحدة نظراتها، كما أن لباسهم الأسود في معظمه والذي يتخلله اللون الأبيض، شابه النسور السوداء في معظمها عدا عن كون رأسها باللون الأبيض.

بعدها انطلق الزبير وخلفه الجمع باتجاه معسكر ياقوتة من جهة معينة. ووصلوا المعسكر وشرعوا يقتلون جنود ياقوتة الواحد تلو الآخر. الزبير والأمير ريان وجاسم والمغيرة وقيس والداهية، شربت سيوفهم من دماء جنود ياقوتة، وأظهروا قوة في القتال أبهرت الجميع. فدب الذعر في جنود ياقوتة، وقد ظنوا أن ثوار البقاء هاجموهم من جهة واحدة، فطفق بعضهم يهرب باتجاه الجهة المقابلة، ولكن للمفاجأة وجدوا هناك ثوارا آخرين بانتظارهم جعلوا يصطادونهم واحدا تلو الآخر بأسهمهم، وبعدما مر الوقت، هجم هؤلاء الثوار أيضا على معسكر ياقوتة، وهكذا باتت الهجمات تأتي من كل اتجاه.

ومر الوقت حتى أباد مقاتلو البقاء جنود ياقوتة على بكرة أبيهم، فحتى الجرحى والأسرى تم قتلهم؛ لإيصال رسالة قوية ومرعبة لملك ياقوتة ومقاتليه.

تألق الزبير الذي استخدم أسلوب القتال بالسيف والخنجر معا، بينما ظل يحيط به أفراد فرقة الزنوج من كل ناحية، وكل هذا تكرر في كل الحروب التي خاضها لاحقا. أما الأمير ريان، فقد تألق هو الآخر، وقد اعتمد في قتاله على الإمساك بمقبض سيفه من خلال كفيه الاثنتين، وتوجيه الضربات القاسمة لأعدائه. وقد أبدع المغيرة، الذي كان يقاتل بإمساك السيف بيد واحدة، وتميز بقوة ذراعه اليمنى، فكانت ضرباته كأنها زلازل تنهال على خصومه.

وهكذا قضى مقاتلو البقاء على ربع جيش ياقوتة عندما غدروا بهم، كما غدر جيش ياقوتة بالبقاء في الحرب المقيتة.

***

المعسكر الذي دمره ثوار البقاء، وضعه ملك ياقوتة منذ اللحظة التي انتهى فيها زحفه في أراضي البقاء وحرص على أن يكون عدد الجنود فيه ضخما؛ فلطالما خشي أن تحدث ثورة ذات يوم. وبالفعل أتى اليوم الذي خشيه ملك ياقوتة، وقامت الثورة، ففي الليلة نفسها التي دمر فيها ثوار البقاء معسكر ياقوتة، ثارت كل مدن وقرى ومناطق البقاء المحتلة من قبل مملكة ياقوتة، وجعل الناس يقتلون جنود ياقوتة، حتى أبادوهم على بكرة أبيهم. فما منعهم من فعل مثل هذا مسبقا، هو خشيتهم من وصول قوات كبيرة من مقاتلي ياقوتة من ذلك المعسكر الضخم الذي دمره الملك الهارب.

***

حالما انتصر مقاتلو البقاء انتصارهم الساحق على ياقوتة، أقاموا معسكرا لهم إلى الشرق من الفيحاء، حيث نصبوا خيامهم. وذلك لأنهم احتاجوا مكانا فسيحا يتحركون فيه بسهولة، ويتدربون ويتهيؤون على النحو الذي يناسبهم، فمدينة الفيحاء، ضيقة الشوارع مملوءة بالزقق الضيقة، والبيوت التي يزاحم بعضها بعضا، ومكتظة بالسكان.

وبعد أيام من تدمير معسكر ياقوتة، وتحرير مدن البقاء الواحدة تلو الأخرى، التقى الملك قصي بالزبير، في معسكر مقاتلي البقاء، في خيمة الملك. كانا – كسائر أهل البقاء – فرحين كثيرا. وظلا يتبادلان الحديث والضحكات.

وضمن حديثهما نظر الملك بتمعن إلى الزبير، وانتبه الزبير إلى نظرات الملك، وساد صمت مهيب في الغرفة، انتهى بقول الملك: أتدري، أيها الزبير؟

"ماذا، يا مولاي؟" رد الزبير.

فأجاب الملك: منذ مقتل أهلي، واحتلال البقاء، كل ليلة وأنا على وسادة النوم، اعتدت أن أدعو الله، أن يمدني بجيش ينتقم لي من قتلة أهلي، ويعيد إلي ملكي الضائع.

تنهد ثم نظر بعيدا عن الزبير، ثم أكمل: ظننت أنه سيرسل لي جيشا جرارا من البشر... أو ربما من الملائكة.

ثم نظر إلى الزبير بنظرات ملؤها التعظيم والتبجيل له، وقال: لكن أتدري ماذا كان الجيش؟

فرد الزبير: ماذا، يا مولاي؟

فأجاب الملك: كان أنت!

هذا الكلام كان أجمل ما سمعه الزبير في حياته؛ فقد أحب الملك بعمق وجنون. لذا فرح فرحا عظيما.

ثم قال للملك: أنت أعظم رجل قابلته في حياتي.

ثم ارتجف صوته وهو يقول: أنت أبي... لا سيما بعد أن فقدت والدي الحقيقي وجدي.

وتلك من اللحظات النادرة جدا في حياة الزبير التي ارتبك فيها، فقد اتسم بالقسوة الشديدة.

قام الزبير واتجه نحو الملك، وحضن أحدهما الآخر بعمق وحرارة شديدين.

***

بينما الملك الهارب جالس ليلا في خيمته في المعسكر، استأذن قائد الحرس عاصم للدخول عليه.

"من هناك؟" سأل الملك.

فأجاب عاصم: أنا القائد عاصم، أتأذن لي بالدخول، يا مولاي؟

فرد الملك: بالطبع، تفضل.

دخل القائد عاصم الغرفة، وانحنى للملك قائلا: تحيتي، يا مولاي.

ثم أضاف: مولاي، منذ الصباح، أتى ثلاثة رجال مسنين يريدون مقابلتك، فمنعناهم عن ذلك، لكنهم أصروا على لقائك، ثم جلسوا على الأرض ، وقالوا إنهم لن يرحلوا إلى أن يلقوك، وإنه لن يردهم شيء عن ذلك سوى الموت!

تعجب الملك ثم تساءل مستغربا: أولم يخبروك ماذا يريدون؟

فقال القائد: إنهم يزعمون أنهم آخر ثلاثة عمداء في جيش مملكة البقاء السابق... إنه طبعا أمر لا يصدق، إما إنهم عجزة خرفون أو إنهم محتالون.

تسارعت أنفاس الملك، ولم يصدق ما سمعه.

"أيعقل أنهم ما يزالون أحياء؟!" تساءل الملك بتعجب، فلطالما سمع أن العمداء بهاء وصلاح والمعتصم هم وحدهم من ظلوا أحياء من جيش البقاء، بعد أن فروا من الحرب ضد مملكة ياقوتة.

لكنه لطالما ظن أنها مجرد إشاعات أو أساطير يروج لها الحكاؤون في البقاء وهم يروون شجون مملكتهم التي انهارت.

بسرعة صرخ الملك: أدخلهم علي بسرعة.

استغرب القائد عاصم، وتوجه مسرعا لينفذ أمر الملك.

في حين ذهب الملك ونادى ابنه الأمير ريانا، وتوجها معا وسط حراسة مشددة إلى أكبر خيمة في المعسكر، والتي خصصت للتخطيط للمعارك.

وبعد مدة دخل القائد عاصم، ومعه ثلاثة رجال مسنين، لكن أجسادهم – رغم تقدم العمر – كانت قوية البنية مشدودة العضلات، توحي بهيئة عسكرية فذة وبقوة جسدية لا مثيل لها. كانوا جميعا ذوي لحى وشوارب كثيفة، وكان شعرهم كلهم رماديا من تقدم العمر.

نظر الثلاثة إلى الأرض بخجل وبشعور بالعار، وهم بين يدي الملك.

لم يصدق الأخير عينيه.

ساد صمت عظيم في الغرفة حتى قال الملك متعجبا: هل أنتم فعلا من تزعمون؟!

تبادل الثلاثة استراق نظرات خاطفة نحو الملك، ثم عادوا ينظرون إلى الأرض بخجلهم وشعورهم بالعار.

كان أحدهم يتقدمهم بخطوتين ويتوسطهم.

بعدها انحنى الثلاثة على ركبهم، وهم ما زالوا ينظرون إلى الأرض، حتى قال أوسطهم الذي تقدمهم بخطوات قليلة: مولاي، نعم، أنا العميد بهاء.

ثم أشار إلى الرجل على يمينه وقال: وهذا العميد المعتصم.

ثم أشار إلى الرجل الثالث، وقال: وهذا العميد صلاح.

قال كل هذه الكلمات وهو ينظر إلى الأرض.

احمرت عينا الملك وجحظتا، وبرزت العروق في رقبته، وأحس جميع من بالغرفة أنه في قمة غضبه، وأن شيئا سيئا جدا سيحدث قريبا.

ساد صمت في الغرفة توقفت معه القلوب والأنفاس بسبب غضب الملك، حتى قال: كيف فعلتم ما فعلتموه؟!

صمت قليلا ثم صرخ: ألا تخجلون من أنفسكم؟! ألا تشعرون بالعار؟! الهيثم يضحي بنفسه وبأولاده، وكذلك سائر العمداء، وأنتم تفرون من أرض المعركة كالنساء! بئس الرجال أنتم!

ثم أعرض بوجهه عنهم.

جعل العمداء الثلاثة يبكون بشدة وتسيل دموعهم غزيرة كأنهم أطفال رضع رغم أنهم مسنون.

استغرب جميع الحاضرين مما يحدث، كان مشهدا منفرا ومزعجا للغاية، وهابوا غضب الملك العارم، حتى ابنه الأمير ريان.

وبعد حين وبينما هم يبكون، قال العميد بهاء وصوته يتهدج: يا مولاي، منذ فررنا من ساحة الحرب، والعار يتجمع في قلوبنا تجمع المياه في الوديان، حتى استحال سيولا طفحت وسالت سريعة. مولاي، نحن نشعر بالذل والعار، نتمنى ليلَ نهارَ أننا لم نولد، نتمنى في كل لحظة أن يخطفنا الموت حتى يريحنا من عارنا.

مولاي، أرجوك، ارحمنا. نرجوك، سامحنا واسمح لنا أن نشارك في الثورة، ونقسم لك بالله أننا لن نرجع حتى ننتصر أو نموت فدى البقاء وفداك.

مولاي، إما أن تفعل ذلك...

ثم زاد بكاؤه وتهدج صوته، وأكمل: ... أو أن تأمر بقتلنا جميعا وتريحنا من الذل والعار.

بينما الملك معرض بوجهه وبينما سمع هذه الكلمات، وقد أحاط به صوت البكاء من كل جهة، دمعت عيناه حزنا وشفقة عليهم وحنينا لهم.

فمسح عينيه بسرعة؛ لأنه منذ صغره – وقد تربى في عائلة ملكية - أدرك أنه لا يجوز لأي ملك أن يظهر ضعيفا لمن حوله.

بعدها عاد ينظر إليهم، ثم قام من كرسيه وتوجه نحوهم.

ابنه الأمير ريان تأثر كثيرا بما حدث وجعلت الدموع تسيل من عينيه، لكنه أتقن عدم إظهار أي صوت. وتعجب كثيرا من القسوة التي أظهرها أبوه، وأدرك أن مهمة المَلِكِ ليست شيئا هينا.

وحتى القائد عاصم تأثر كثيرا بما حدث، مثله كمثل سائر من في الغرفة.

وصل الملك إليهم، وتسارعت دقات القلوب في الغرفة، ففي لحظة إما سيسامحهم، وإما سيحكم بإنهاء حياتهم.

نظر إليهم بعينيه الجاحظتين المحمرتين، بينما ظلوا ينظرون إلى الأرض خجلا، ولكنهم توقفوا عن البكاء إجلالا واحتراما له.

مضى وقت كان كأنه دهر، حتى قال الملك: يمكنكم القتال معنا.

عندها نهض العميد بهاء، وحضن الملك بقوة بينما أرخى الأخير ذراعيه جانبا لكنه بعد حين حضن العميد بقوة، ثم نهض المعتصم فحضن هو والملك أحدهما الآخر، ثم كرر الملك ذلك مع صلاح بعد نهوضه.

وهكذا عفا الملك عن العمداء الثلاثة وسط فرحتهم العظيمة هم والملك وسائر الحاضرين.

***

كان العمداء الثلاثة قد سمعوا مسبقا بالزبير، وأنه وراء كل هذه الأحداث الجسام. وقد شعروا بالفضول والحماسة وأرادوا مقابلة هذا الرجل؛ فطلبوا من الملك الهارب أن يجمعهم به.

ولبى الملك طلبهم، فبعد يومين من مقدمهم، أرسل في طلب الزبير ليحضر إلى الخيمة الكبيرة في المعسكر، المخصصة للتخطيط للمعارك. وبالفعل نفذ الزبير طلب الملك ودخل عليه بينما جالس ابنه الأمير ريانا، والعمداء الثلاثة.

حيا الزبير الملك وانحنى له ثم حيا الجالسين.

وبعدها جلس بعد أن أذن له الملك بذلك.

وتحادث الجمع حتى قال الملك: هؤلاء العمداء الثلاثة الوحيدون المتبقون من جيش البقاء بعد الحرب المقيتة، وقد أتوا ليعينونا في الثورة.

ثم أشار الملك إلى الزبير، وقال: وهذا هو الزبير العقل الداهية المدبر لكل ثورة البقاء.

فرح الزبير بإطراء الملك، وابتسم ابتسامة خفيفة للعمداء الثلاثة، ورغم جلالة منظرهم وكبر أعمارهم وأنهم من أهم عشرة رجال في تاريخ البقاء في العقدين الأخيرين، لم يظهر عليه تأثر كبير عندما رآهم.

فقال بثباته وزانته المعهودين: أهلا بكم معنا.

تعجب العمداء الثلاثة؛ فخلال أعوامهم الكثيرة، لم يشاهدوا رجلا بمثل هذا الثبات وشدة البأس، لا سيما وأنه في منتصف العمر.

فرد المعتصم: مرحبا، أيها الزبير.

وحيا بهاء وصلاح بدورهما الزبير.

ثم قال بهاء: لقد سمعنا عنك كثيرا... يقال إنك رجل لم يمر مثيله على البقاء منذ مئات الأعوام. نحن نريد القتال معك لخدمة بلدنا البقاء.

فرح الزبير بإطراء بهاء، وبأنه سيسخر وصلاحا والمعتصم قوتهم الهائلة في خدمة خطته لتحرير البقاء.

ثم قال بهدوء: لطالما أحسست أن خطتي ينقصها شيء ما لتكون كاملة، والآن أدرك أنكم أنتم ما كان ينقصها.

ابتسم العمداء الثلاثة من إطراء الزبير. بينما استاء ريان من كل هذا الحوار.

وظل الحاضرون يتبادلون الحديث، ويتناولون مما ضيفه إياهم الخدم من شراب وطعام، حتى وقت متأخر من الليل.

***

إبان الحرب المقيتة، حكم مملكة ياقوتة الملك خلدون. وقد نجح مع نهاية الحرب من توسيع مملكته بضم أجزاء شاسعة من البقاء إليها. ولكنه توفي بعد سنوات، واستلم الحكم ابنه الملك حازم.

أقام الملك حازم كسائر من سبقوه في بهيرة عاصمة ياقوتة والتي توسطتها. وقد كان له ابنان فقط، وهما إيهاب وسامح.

وإبان ثورة البقاء التي قادها الملك الهارب وخطط لها الزبير، كان إيهاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاما، في حين كان سامح يصغره بعام واحد. وإبان الثورة كذا، أقام الأميران في مدينة بحران.

لقد وقعت هذه المدينة في الشمال الغربي لمملكة ياقوتة، وكانت مدينة ساحلية إذ أطلت على شاطئ بحر اسمه البحر الرمادي.

وقد امتازت بأنها أفضل مكان للاستجمام والاستمتاع في ياقوتة كلها؛ بسبب جوها العليل، وإطلالتها على المناظر الخلابة على البحر الرمادي، وامتلائها بالشجر والخَضَار، إضافة لتميزها بجمال عمرانها، وبترف أهلها.

لكل هذا، أحب الأخوان الأميران الإقامة في هذه المدينة، وألحا على والدهما بأن يسمح لهما أن يقيما فيها معظم الوقت، وقد وافق؛ فقد أحبهما أكثر من أي شيء آخر؛ لأنهما وحيداه من الذكور.

وبهذا اعتادا على الإقامة فيها معظم السنة، بينما زارا والدهما وزارا أفراد عائلتهما في بهيرة بين الحين والآخر، وكذا زارهما أبوهما في بحران بين الحين والآخر.

***

بعد اندلاع ثورة البقاء، والقضاء على المعسكر الضخم، وثورة الناس في المدن والقرى المحتلة ضد جنود ياقوتة، انضم المقاتلون الذين أشعلوا الثورة في المناطق المحتلة إلى جيش الثورة الرئيس الذي قضى على معسكر ياقوتة الضخم. وبهذا بات الجيش يضم عددا هائلا من المقاتلين.

توقع الجميع أن يزحف جيش الثورة شرقا باتجاه بهيرة عاصمة ياقوتة. لكن على عكس المتوقع، اتجه الجيش نحو الشمال الشرقي نحو مدينة بحران.

وفي طريقهم إلى هناك، خاضوا عدة معارك ضد جنود ياقوتة الذين إما حاولوا اعتراض مسيرة جيش الثورة، أو أقاموا في معسكرات صغيرة على الطريق إلى بحران.

وفي هذه المعارك، أبدع الزبير والمغيرة والقائد جاسم والأمير ريان. لكن الأكثر إبداعا في كل جيش الثورة، كان العمداء الثلاثة صلاحا وبهاءً والمعتصم. فقد أبدوا شجاعة وقوة وبراعة في القتال، فاقوا فيها الجميع دون استثناء.

***

وصل ثوار البقاء إلى مدينة بحران خلال ثلاثة أيام فقط، وحاصروها من كل جانب. ورغم أن الملك حازما لما علم بنبإ محاصرتهم لبحران، أرسل قوة كبيرة باتجاهها، إلا أن تلك القوة لم تتمكن من الوصول في الوقت المناسب بسبب بعد بحران عن بهيرة عاصمة ياقوتة. لا سيما بعد تدمير معسكر ياقوتة الغربي من قبل الثوار، والذي كان قريبا جدا من بحران.

أحيطت بحران بسور شكل حاجزا أمام الثوار لاقتحامها.

حاصر الثوار المدينة ستة أيام وقد انتظروا خروج مقاتلي بحران لقتالهم مما سيسهل مهمتهم لا سيما وأن عددهم يفوق بعشرات الأضعاف عدد مقاتلي بحران، ولكن ذلك لم يحدث. فالأمير إيهاب الابن الأكبر للملك حازم، والذي كان يحكم بحران آنذاك، كان يبلغ من العمر سبعة عشر عاما فقط! وقد احتل الخوف قلبه عندما حاصر الثوار بحران، وأرسل عشرات الرسائل لوالده بواسطة الحمام الزاجل يطلب منه مساعدته من خلالها لكن دون فائدة. ورغم أن بعض مستشاريه وبعض كبار القادة في بحران أشاروا عليه بالخروج للقاء الثوار؛ فقد أحجم عن ذلك من شدة الخوف، وتمنى أن يحميه السور المحيط بمدينته، أو لعل معجزة ربانية تحدث فتنجيه من الهلاك، وقد تحدث معجزة ما توصل جيش أبيه لنجدته.

ولما يئس الثوار من خروج الأمير ومقاتليه إليهم، قرروا اقتحام بحران.

وكما اعتاد الزبير دوما قبل كل معركة، اتجه إلى سليم للحديث معه.

"إياك أن تهجم مع الثوار على بحران" قال الزبير.

ثم قال: قيمتك وأنت حي أهم بكثير من مشاركتك بالقتال.

وأضاف: أنت ابني، يا سليم. وثاني من أحب في هذا العالم بعد ابن أخي سهيل. لمّا يرزقني الله بأولاد بعد، لكنكما ولداي.

بالفعل كانت هذه مشاعر الزبير الحقيقية الصادقة دون مبالغة أو تهويل.

فرح سليم كثيرا بما سمعه؛ فقد أحب الزبير كثيرا وشعر بمشاعر البنوة تجاهه. فلطالما شعر بفراغ كبير بعد مقتل أبيه القائد الهيثم، ولطالما دعا الله أن يسد له هذا الفراغ، وقد استجاب الله لدعوته بأن جعل الزبير يحبه كابن له.

وكالعادة أمر الزبير حراس سليم من فرقة الزنوج بأن يحموه بعيونهم.

وكالعادة كذلك اتجه الزبير إلى أمين، وقال له: أمين، مهما حدث، مهما شاهدت اختلاط الحابل بالنابل، مهما اشتعلت الحماسة بداخلك، إياك أن تتهور وتشارك في القتال... أنت حيّا أهم منك بكثير ميتا.

امتعض أمين من كلام الزبير؛ لأنه كعادته تمنى أن يفتدي البقاء بروحه، ولكنه أذعن لكلماته؛ لأنه أدرك أن ذلك ضروري لتنفيذ خطة الزبير لتحرير البقاء.

وكما فعل مع حراس سليم، أمر الزبير حراس أمين من فرقة الزنوج أن يحموه بعيونهم.

لقد كان سور بحران قليل الارتفاع يسهل اقتحامه، كما أن الفارق الشاسع بين عدد مقاتلي البقاء ومقاتلي بحران، جعل الزبير يقرر أن يضحي بأي عدد من مقاتليه في سبيل اقتحام بحران.

هجم الثوار على بحران وبدأ الرماة المتجمعون أعلى سورها يرمونهم بالسهام، واصطادوا عددا كبيرا من الثوار، لكن الثوار لم يتراجعوا حتى وصلوا السور، فاستخدموا جذعا ضخما من الخشب لكسر بوابة بحران الضخمة السميكة محكمة الإغلاق. في حين جعل كثير منهم يسندون سلالم خشبية على جدران بحران ويتسلقونها للوصول إلى أعلى السور. وضمن هؤلاء المهاجمين كان الزبير والمغيرة والأمير ريان والعمداء الثلاثة بهاء وصلاح والمعتصم والقائد جاسم؛ فلم يكونوا ليوفروا حياتهم ويحرموا البقاء من تضحياتهم في سبيلها.

وفي النهاية نجح عدد من الثوار في الوصول إلى أعلى السور وبدؤوا يقتلون رماة بحران حتى قتلوهم جميعا. وهذا سهل مهمة الثوار الذين في الأسفل فتمكنوا من كسر بوابة بحران باستخدام الجذع الخشبي.

اقتحم الثوار بحران، وجعلوا يقتلون كل مقاتل يجدونه فيها دون رحمة، فهذه تعليمات قائدهم العسكري جاسم، بناء على توصيات الزبير للملك الهارب؛ فكل خطوة في الثورة كانت بتخطيط الزبير المحنك وتدبيره.

ومع هذا العنف والقتل، وأخذاً بعين الاعتبار كثرة عدد الثوار مقارنة بمقاتلي بحران، دب الرعب في قلوب مقاتلي المدينة، فزاد القتل فيهم، وبدأت هزيمتهم تتجلى.

وأثناء المعركة اقترب الزبير والمغيرة والقائد جاسم والأمير ريان والعمداء الثلاثة بعضهم من بعض. وقد كانوا أقوى من في المعركة ومن الطرفين. وأثناء القتال وبينما الزبير يقاتل أحد المقاتلين، اقترب منه مقاتل آخر، واجتمعا عليه. ولكنه كان أقوى منهما، وجعل يوجه الضربات لكليهما بقوة شديدة، بينما تفادى ضرباتهما برشاقة عالية. وقد تعاظم الغيظ في نفسي المقاتلين، وطفقا يبذلان أقصى الجهد، وأثناء قتالهما مع الزبير، ضرب أحدهما بسيفه بقوة شديدة يقصد وجه الزبير. تراجع الزبير للخلف، وأرجع وجهه للخلف محاولا تفادي الضربة، لكن طرف السيف نجح في ضرب وجهه حتى جرح خده الأيمن من أعلاه إلى أسفله، وشرع الدم يسيل غزيرا أحمرَ قاتما من الجرح. فتعاظم الغضب في صدر الزبير حتى بلغ أوجه، ووصلت الحماسة فيه أقصاها، فصرخ بكل قوته حتى دب الرعب في قلبي المُقَاتِلَين، وضرب الزبير بسيفه سيف المقاتل، فأزاحه

جانبا، ثم أمسك الزبير مقبض سيفه بكفيه الاثنتين، وغرز سيفه في بطن المقاتل الذي جرحه حتى خرج من ظهره. وفي هذه الأثناء، ضرب المقاتل الآخر بسيفه يقصد رأس الزبير، لكن الأخير تفادها، ثم ضرب عنق غريمه بخنجره – الذي استله بسرعة خاطفة - فشقه.

كل هذا حدث أمام المغيرة أشد الناس قوة في البقاء كلها – حسب وجهة نظر الكثيرين-، فتفاجأ جدا من قوة الزبير وشدته، رغم الجرح الذي سيترك ندبا على وجهه أبد الدهر.

"والله إن الزبير لمثلي في القوة أو... حتى قد يكون أقوى" صارح المغيرة نفسه.

واستمرت المعركة، واتجه الثوار إلى القصر حيث يقيم الأميران إيهاب وسامح، وجعلوا يقاتلون المقاتلين وحرس الأميرين هناك، فلم يذروا منهم أحدا حيا، وظلوا يبحثون عن الأميرين مدة طويلة، حتى نجحوا في النهاية في أسرهما حيين؛ فهذه توصيات الزبير، وأهم نقطة في خطته: أن يُقبض على الأميرين حيين، وألا يقتلا مهما كلف الأمر.

بعد انتهاء المعركة بنصر الثوار الساحق، كان العمداء الثلاثة بهاء وصلاح والمعتصم والمغيرة والقائد جاسما والزبير قريبين بعضهم من بعض.

وحينئذ ما زال الدم يسيل من الجرح في وجه الزبير أحمر قاتماً غزيرا، حتى سال على ثوبه وملأه، ورغم ذلك جعل يهنئ الثوار الذين حوله ويثني عليهم.

وفجأة هنأ أحد الثوار المارين، فأمسكه الثائر من كتفيه، وصرخ: أنت وحش، ولست إنسانا، أيها الزبير.

ابتسم الزبير ابتسامة خفيفة، رغم الجرح والدم النازف منه بغزارة، ثم صرخ قائلا للثائر: بوركت، وبوركت البقاء.

تفأجأ العمداء الثلاثة، والقائد جاسم، والمغيرة، والأمير ريان، مما رأوه من ثبات الزبير رغم ما حدث، حتى إن المغيرة أنشأ يفكر: "كيف يضحك هكذا رغم الندب الذي سيبقى على وجهه وسيشوهه أبد الدهر؟!"

اقترب المغيرة من الزبير، وتبادلا التهنئة والثناء حتى سأل المغيرة متعجبا: يبدو أنك لم تتأثر بأن المعركة ستترك على وجهك ندبا لن يبرأ أبدا؟!

قال الزبير: هذا الندب لا شيء.

ثم تنهد وأضاف: في قلبي ندوب أكبر بكثير، وقد تعودت على الندوب.

زاد تعجب المغيرة من إجابة الزبير، وعرف أن الأخير إنسان مختلف عن البقية.

***

بعد القبض على الأميرين، وبعد احتلال بحران من قبل الثوار، وبناء على توصيات الزبير، أمر قائد الثوار جاسم بجمع من يمكن جمعهم من أهل بحران أمام قصر الأميرين. وحضر الملك

الهارب إذ جلس على كرسي عظيم، وحضر ابنه الأمير ريان، وكذا الزبير والمغيرة وأمين وسليم والعمداء الثلاثة.

وجِيء بالأميرين إيهاب وسامح، وقد كانا أشقرين ذَوَي عيون زرقاء. كان لإيهاب شعر وجه مهذب أشقر اللون، في حين خلا وجه أخيه من أي شعر.

الأميران اليافعان افتقدا للخبرة وللشجاعة؛ واجتاحهما الرعب.

وقد زاد الطين بلة، عندما أمر القائد جاسم بإحضار كل من أُسر من مقاتلي بحران، ثم أمر بوضعهم أمام الناس جمعا بعد جمع، وبقطع رؤوسهم جميعا.

وتمت عمليات الإعدام، بربط رأس كل أسير وذراعيه بحبال غليظة، على قطع خشب توضع على الأرض، ثم قطع رؤوسهم بسيوف حادة.

تكرر المشهد المرعب أمام الحضور، واجتاح الخوف قلوب أهل بحران، بينما كلا الأميرين قاربت روحه على مغادرة جسده رعبا.

بعد أن انتهوا من إعدام الأسرى جميعا دون ترك أي منهم، أمر القائد جاسم بإحضار الأمير إيهاب، وبعد ذلك أمر بقطع رأسه.

جعل الأمير يرتجف بطريقة جنونية، ويرجو القائد، لكن دون جدوى، فقطعت رأسه وسال الدم أحمر قاتما أمام الجميع. وأحس أخوه الصغير الأمير سامح برعب، لو تقاسمه أهل البسيطة جميعا ما احتمله واحد منهم، وجعل يرتجف هو الآخر ارتجافا جنونيا، بينما استعد لمصافحة عزرائيل؛ إذ ظن أنه التالي بعد أخيه.

وقد ظن ذلك أيضا الحاضرون من أهل بحران، لكن للعجب، لم يأمر القائد جاسم بقطع رأس الأمير الصغير بل تركه حيا.

لقد أراد الزبير من كل هذا، بث الرعب في أهل ياقوتة، لا سيما في قلب ملكها حازم، وبالتالي إجباره على الرضا بطلبات الزبير لاحقا. لقد اتسم أهل البقاء بالمروءة والأخلاق، لكنهم اجتنبوها في تعاملهم مع أسرى ياقوتة وأميريها؛ لأن جيش ياقوتة من ابتدأ الأمر بجرائمه المتتابعة ضد البقاء، والبادئ أظلم، وقد وجب الانتقام.

بعدها أرسل الملك الهارب إلى ملك ياقوتة حازم رسالة، مفادها أنه يجب عليه أن يوقع معاهدة معه، ينسحب فيها من أراضي البقاء التي تحتلها ياقوتة، بل يجب أن ينسحب إلى حدود أبعد من حدود البقاء قبل الحرب المقيتة. وأعلمه فيها أنه إن لم يوقع المعاهدة خلال أسبوعين، فسيقتلون ابنه الأصغر.

وبالفعل، حدث ما توقعه ملك البقاء ومؤيدوه؛ إذ وافق الملك حازم على مطالبهم، ووقع المعاهدة، وسحب مقاتليه كلهم من أراضي البقاء التي يحتلها، وعسكر جيشه على الحدود الغربية مع البقاء، بل وأعطى البقاء أراضي أكثر مما كنت تملكه قبل الحرب المقيتة، تنفيذا لأوامر الملك

الهارب. وبعد ذلك، نفذ الملك الهارب وعده، وأرسل الأمير سامحاً الصغير إلى أبيه. وهكذا أدب ملك البقاء وثوارها ملك ياقوتة وأهلها شر تأديب، وانتقموا منهم شر انتقام، وهكذا أيضا تحررت الأجزاء الشرقية من البقاء، أخيرا بعد سنوات قاسية كثيرة.

طيلة السنوات الكثيرة التي سبقت الثورة، درس الزبير أعداء البقاء جيدا، حتى توصل لأفضل خطة ممكنة للانتصار عليهم. لقد عرف جيدا أنه بعد أن يتم القضاء على معسكر ياقوتة شرق البقاء، سيكون من الجنون الزحف شرقا باتجاه بهيرة عاصمة ياقوتة كما يتوقع الجميع. وذلك لأن جيش الثوار سيكون مفتقدا للتدريب والتنظيم والانسجام، على العكس تماما من جيش ياقوتة. كما أن جيش الثوار يجب أن ينتصر دون أن يتكبد خسائر كثيرة؛ فلاحقا سيزحف غربا باتجاه جيش الهيجاء، في الوقت الذي سيفتقد فيه عنصر المفاجأة الذي امتلكه عندما هاجم جيش ياقوتة.

لذلك كان لا بد له من إيجاد خطة بديلة. ومن دراسته لملك ياقوتة، بحث عن أكبر نقاط ضعفه، فوجد أنها ابناه الأميران، اللذان كانا وحيداه، وقد أشيع عن ملك ياقوتة أنهما أكثر من يحب في العالم كله.

بعد تأكد الانتصار على ملك ياقوتة، التقى الزبير بأعز أصدقائه قيس.

قيس البدوي الذي كان حبيس بادية قاسية منذ الصغر، والذي لم يألف معاشرة الملوك، لم يصدق أنه في يوم ما، تمكن بدوي مثله من مصاحبة الملوك، وتمكن من تركيع ملك – أي ملك ياقوتة -على ركبتيه.

"لا أصدق ما يحدث أمام عيني" قال قيس، وأضاف: أنت أسطورة أيها الزبير!... أنت أسطورة لا مثيل لها!

***

((25))

بعد احتلال الثوار لبحران، أقام كبار الثوار كالملك الهارب والأمير ريان، والزبير والمغيرة وسليم وأمين في القصر الذي كان يقيم فيه الأميران أمير وسامح. أما بقية الثوار فقد أقاموا في مناطق مختلفة من المدينة.

وأما القصر فقد كان جميلا جدا، فاخرا جدا، يسر الناظرين، مبنيا من الحجارة الزرقاء الداكنة الثمينة، وغطى أرضيته وسقفه وجدرانه الرخام الفاخر ذو اللون الأزرق الداكن، وانتشرت التحف الذهبية والكراسي والطاولات الذهبية في كل أرجائه.

وبعد توقيع ملك ياقوتة على المعاهدة مع الملك الهارب، وبينما الثوار جميعا ومن بينهم الزبير ما زالوا يقيمون في بحران، جلس الزبير في إحدى غرف القصر.

فإذا بباب الغرفة يُطرق.

قام الزبير ففتحه، فإذا به بضيف لم يتوقعه أبدا.

قالت حورية: مرحبا.

بعد تدمير الثوار لمعسكر ياقوتة شرق البقاء، وبدء زحفهم نحو بحران، أصرت حورية على الالتحاق بمعسكر الثوار، فما كان للمغيرة – كعادته معها – سوى أن يوافق على طلبها. فقد اعتبرت نفسها جزءا ضروريا لنجاح خطة تحرير البقاء. وهكذا التحقت بمعسكر الثوار، وكلما وقعت معركة، ظلت في مؤخرة المعسكر؛ حفاظا على حياتها؛ فهي لا تستطيع القتال. وظلت تسير مع الثوار كلما ساروا إلى أن احتلوا بحران، فدخلتها معهم.

وكأي رجل يراها، أذهل الزبير من شدة جمالها ومدى إثارتها.

ورغم شدته المعهودة عليه، ارتبك، لكنه سرعان ما قال: أهلا بك.

ابتسمت ابتسامة مثيرة، ثم قالت: هل لي أن أحادثك قليلا؟

فقال الزبير: بالطبع...

ثم أضاف: تفضلي بالدخول.

وتساءل ما الذي تريده منه.

فتح الباب، فدخلتْ إلى الغرفة ثم تبعها.

ثم قال لها وهو يشير إلى كرسي في الغرفة: تفضلي بالجلوس.

فجلست، بينما ظل واقفا احتراما لها؛ فرغم أنه رجل من البادية لم يعتد مخالطة النساء إلا أنه وقر النساء واحترمهن أشد احترام، لا سيما إن كن بمنزلة حورية.

ابتسمتْ ابتسامة مثيرة من جديد، ثم قالت: لا عليك، اجلس.

تفاجأ من جرأتها ومبادرتها بالحديث، فنساء عهده لم يعتدن التصرف هكذا!

جلس على السرير الذي في الغرفة.

من جديد ابتسمت ابتسامة مثيرة واسعة، كشفت عن أسنانها ناصعة البياض المصفوفة كحبات لؤلؤ في عقد، ثم قالت: كيف حالك؟

من جديد، استغرب من جرأتها ومبادرتها بقيادة دفة الحديث، وظل يستغرب كل مرة بادرت فيها حورية لما تبقى من الحديث بينهما.

"أنا بأتم خير" قال.

ثم أضاف: في حقيقة الأمر، أنا في قمة السعادة... لا سيما بعد نصرنا وتحقيقنا ما حققناه.

ولأول مرة بادر بالحديث وقال: وأنتِ، كيف حالك؟

ازدادت ابتسامتها اتساعا، كأنها كانت تنتظر السؤال، ثم أجابت: أنا أسعد منك، أيها الزبير.

قالت اسمه بنعومة ودلال وإثارة لم ير مثيلا لهم في حياته، مما جعله يرتبك من جديد.

ثم أكملت: ما حققناه أمر من الخيال لم يتوقعه أحد قط.

وليكسر الارتباك، وكذلك ليوفي ضيفته حقها، قام وسكب عصيرا من إبريق في كأس.

"تفضلي" قال وهو يعرض الكأس عليها.

وبينما حافظت على ابتسامتها، أخذت الكأس من يده، وطفقت تشرب ببطء.

ظل واقفا من جديد، فقالت له: اجلس.

فجلس.

ثم قالت: كم استغرقك التخطيط لكل هذا؟

أجاب: سنوات... تنهد ثم أضاف: سنوات كثيرة.

"لا عليك، الإنسان مهما عانى فبالنهاية بعد تحقيق مراده ينسى كل معاناته" قالت.

استغرب من كلامها؛ فهو لم يتوقع حكمة كهذه من امرأة كل ما يفكر به المرء وهو يحادثها، هو إثارتها الطاغية التي تنبعث منها واضحة.

"صحيح" ردَّ.

ثم قالت: في حقيقة الأمر، لقد أتيت، أيها الزبير، لأشكرك على كل هذا. لولاك ما تحقق أي جزء من هذا الحلم الذي حلمناه جميعا، نحن أهلَ البقاء، لسنوات كثيرة.

"شكرا" قالت بصوت ملؤه الإثارة والغَنْج.

رد الزبير المرتبك من جديد: العفو.

شربت من العصير، ثم قالت: أنا لم أقابل قط رجلا مثلك. لم أر رجل بمثل هذا الذكاء، وبمثل هذه القوة، وبمثل هذه الشخصية والإصرار من قبل، والأدهى أنك تجمع كل هذه الصفات معا.

زاد ارتباكه، وسكت قليلا، ثم استجمع قوته وقال: شكرا... لك... هذا واجبي تجاه وطني.

ابتسمت من جديد ابتسامة قمة في الإثارة، ثم وضعت الكأس جانبا، وقامت، فقام الزبير.

ثم قالت: ائذن لي.

فقال: تفضلي.

سارت باتجاه الباب، فأسرع وفتحه لها، فخرجت ثم التفت، وقالت: مع السلامة.

فرد: مع السلامة.

رحلت، بينما أغلق الباب وعاد إلى الغرفة، وجلس على السرير.

جعل الزبير المرتبك، يتفكر في كل ما حدث، ولماذا جاءته ولماذا أخبرته بكل هذا.

منذ بداية الحديث حاول تجنب النظر إليها؛ احتراما لصديقه المغيرة وتفاديا للنظر إلى امرأة تحادثه، مما عُد سوء خلق في ذلك العصر والمكان. ولكن مع مرور الوقت، لم يستطع وهو يسمع صوتها الرقيق الممتلئ بالدلال والإثارة، سوى أن يوزع نظراته على وجهها وجسدها الجميلين. وظل كذلك طيلة حديثه معها. وفي الواقع، لم يكن وحده من يفعل ذلك، فالغالبية العظمى من الرجال فعلوا الشيء نفسه عندما حادثوها، فقد كانت واحدة في الألف!

وبعد رحيلها، احتل الزبير شعور عارم بالذنب؛ لأنه أحس أنه أساء بطريقة أو بأخرى لصديقه المغيرة، الذي لولا مساعدته الحاسمة، ما تحققت وما نجحت خطة الزبير. وتمنى لو أنه يستطيع أن يعتذر له بأية طريقة.

***

أتم ملك ياقوتة الانسحاب من أراضي البقاء، بل إنه انسحب من بعض الأراضي التي لم تتبع لملوك البقاء قبل الحرب المقيتة، وهذا بناء على الاتفاق مع الملك الهارب.

وهذا أفرح كل من شاركوا بالثورة من أقل مشارك فيها إلى أعظم مشارك، لا سيما الملك الهارب، خاصة بعد تحرير المعتزة عاصمة البقاء، إذ ذهب الملك إليها ودخل القصر الذي عاش فيه في صغره. منظره وهو يدخله ويسير في رحابه الواسعة اقترب من منظر رجل يرى الجنة!

وقد صحب الملكُ الهاربُ إلى قصره، إضافة إلى عائلتِه وابنِه الأميرِ ريانٍ كلا من: الزبير والمغيرة وزوجه وأمين وزوجه وجاسم وابنه عاصم، وسليم. وجعلهم الملك يقيمون فيه تكريما لهم على الحدث العظيم، الذي لم يكن لينجز لو غاب أي منهم.

ولفرحة الملك الهارب العظيم، زاد ثناؤه على الزبير وشكره له، حتى ظن الزبير أن الملك لا يفعل شيئا سوى شكره.

وأثنى الملك كذلك على العمداء الثلاثة بهاء وصلاح والمعتصم، ونشر رسالة شكر لهم في المملكة كلها.

"ولكن لماذا لم يعين أحدهم قائدا عاما على الجيش بدلا من جاسم، رغم أن كل واحد منهم أقوى منه جسديا، وأخبر منه في القيادة والتخطيط والأمور العسكرية؟!" سؤال تبادر لذهن الكثيرين من أهل البقاء.

والإجابة هي أن الملك ظل واضعا في ذهنه أنهم – ورغم كل ما قدموه سواء قبل سنوات كثيرة أو في الثورة - ذات يوم هربوا من ساحة الوغى وفضلوا أرواحهم على مصلحة البقاء. شكل ذلك نقطة سوداء على لوح إنجازاتهم الأبيض، غفرها الملك لكنه لم ينسها.

العمداء الثلاثة كانوا الأقوى في القتال في الثورة، حتى أقوى من الزبير والمغيرة! وكانوا أقوى بفارق كبير مقارنة بغيرهم. لهذا كله عرفهم أهل البقاء جميعا، ولقبوهم "الثلاثة الأقوياء".

***

ذات صباح جلس الزبير يتناول الفطور في ركن أمام غرفته في قصر الملك الهارب، حيث كانت الكراسي الثمينة المطلية حوافها بالذهب، وطاولة ثمينة عليها الكثير مما لذ وطاب من الطعام والشراب، وقد أحاطت به الجميل من الشجر والورد من كل ناحية، وقد أطل ذلك الركن على فناء القصر حيث تحرك الخدم والحرس في كل اتجاه، وأطل على السماء كذلك. وقد وقف حول الزبير عدد كبير من الخدم الذين خصصهم الملك الهارب لخدمته.

وبينما الزبير على حاله هذا، أتى أمين.

سر الزبير حالما رآه.

قال أمين: أتأذن لي أن أجالسك؟

سر الزبير، كما حدث له كلما حادثه أمين بأدبه المعهود.

ابتسم الزبير وقال: بالتأكيد، تفضل، يا صديقي.

جلس أمين، فقال الزبير: تفضل بالأكل.

فرد أمين بأدبه المعتاد: لا، شكرا لك.

فأصر الزبير: قلت لك: كل، يا رجل.

فبدأ أمين يأكل ويشرب وواصل الزبير أكله وشربه.

وجعلا يتحادثان، وسأل أحدهما الآخر عن حاله وحال أهله، حتى قال أمين بصوته الهادئ: أيها الزبير، أريد أن أخبرك شيئا.

فسأل الزبير: وما هو؟

فأجاب أمين: أريد أن أبدي لك إعجابي العظيم بك.

سر الزبير كثيرا، بينما أكمل أمين: أنا لم أر قط رجلا مثلك.

سكت قليلا ثم أكمل: لقد حققت كثيرا من أحلام أهل البقاء، وقريبا ستحقق كل أحلامهم بلا استثناء.

زاد سرور الزبير، بينما أكمل أمين: أنت أعز صديق لي...

ارتبك وسكت قليلا ثم أكمل: وأنا مستعد لأن أفديك بروحي.

لقد صدق أمين فيما قاله؛ فبالفعل أحب الزبير حبا لا حدود له رغم صغر مدة معرفته به.

بلغ سرور الزبير أقصاه بهذه الكلمات، وأيقن أنه اكتسب صديقا لا مثيل له.

ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: شكرا لك، يا أمين، أنت لا تعلم مدى سروري بكلامك.

نظر بإمعان إلى أمين وأكمل: وأنا أعدك أنني سأفديك بروحي إذا تطلب الأمر.

فرح أمين بكلام الزبير فرحا جما، وأكمل الاثنان جلستهما معا...

***

الفصل السابع

الحرب الثانية

((26))

كم ليلة - طيلة هذه السنوات الكثيرة – تألم الزبير، وحرمه الأرق من النوم، وهو يتذكر مشهد مقتل جده، وهو يتوق للانتقام من ملك الهيجاء، وهو يشعر بالخزي والعار والندم؛ لأنه ترك جده يُقتل بينما فر من أرض المعركة!

كم كابوس - تكرر مرارا في ليالي لا تعد ولا تحصى- عن مشهد مقتل جده، وكم كابوس أتاه عن معاتبة جده له وسؤاله له كيف تركه يُذبح دون أن يسانده! تلك الكوابيس امتلأت بالدم الذي يسيل من جسد جده، وملأت جوف الزبير رعبا رغم شدة قوته وبأسه!

امتلأت أيامه كلها بالتنغيص والألم؛ ولهذا كله وجب الانتقام، وبات الهاجس الأول الذي يشغل باله.

لم يكن تحرير الأجزاء الشرقية من البقاء ومحاربة ياقوتة النهاية، بل كان ذلك محطة في خطة الزبير، فقد كان لا بد من تحرير الغرب ومقاتلة الهيجاء.

لكن هذه المرة لم يكن الأمر وطنيا فحسب للزبير، بل شخصيا كذلك.

"إذا اشتعلت النار بداخله رغبة في الانتقام، لماذا إذاً بدأ بمحاربة ياقوتة قبل الهيجاء؟!"

هو لم يرد أن يقول الناس إنه يفضل مصلحته على مصلحة البقاء، ويفكر بنفسه أكثر منها، وعوضا عن الاتجاه شرقا لتحرير العاصمة المعتزة يتجه غربا لأسباب شخصية.

بالنسبة للحرب مع الهيجاء، افتقد ثوار البقاء عنصر المفاجأة الذي صب في مصلحتهم عندما قاتلوا ياقوتة؛ فلا بد وأن ملك الهيجاء علم - بعد ما حدث - أن الثوار سيقاتلونه عاجلا أم آجلا.

لهذا أدرك الزبير أنه لا بد من الصبر، لا سيما وأن الثوار يفتقدون الانسجام والتدريب والتنظيم الموجودين عند جيش الهيجاء.

لذلك بنى خطته على تأجيل قتال ملك الهيجاء ستة أشهر، بحيث يتدرب الثوار في هذه الفترة الطويلة جدا تدريبا كافيا، يستحيلون به جيشا نظاميا قويا منسقا منسجما.

***

خطة مثل الخطة التي وضعها الزبير، لا تحدث إلا مرة واحدة كل مئة عام أو حتى أكثر، وحتى إن حدثت فنسبة نجاحها قليلة كثيرا.

وعندما تضع خطة مثل هذه، فعليك أن تكون في أقصى درجات الحذر والترقب؛ لأن أي خطإ - مهما صغر - سيعني الفشل المدوي، وسيتبعها انتقام مدو وعقاب أليم من أعدائك.

كل هذا أدركه الزبير جيدا، لذا حاول دوما أن يتنبأ بالأمور قبل وقوعها وحاول أن يفكر بطريقة أعدائه حتى يعرف ردود أفعالهم، فهو أدرك جيدا أن أعداءه ليسوا تماثيل تتلقى اللكمات وتظل ساكنة، بل هم كائنات حية ترد على أي شيء يحدث تجاهها.

فخلال الستة أشهر التي تلت الحرب مع ياقوتة، أمر الملك قصي بوضع الحشائش الكثيرة والكثيفة على كامل امتداد الحدود الطويلة جدا مع ياقوتة، وهدد بأنه سيحرقها إذا ما حاول جنود ياقوتة الهجوم في أية وقت، كما أمر الملك بحفر الخنادق على الحدود مع ياقوتة، وأمر كذلك بمنع دخول أي أحد نهائيا منها إلى البقاء؛ خشية تسرب خلايا من الجواسيس والمقاتلين وتمركزهم داخل البقاء.

ورغم أن ذلك سيؤثر على حياة الناس في البقاء ومصالحهم وتجارتهم، لكن إبان تلك الفترة لم يكن كل ذلك مهما.

وكل هذه الإجراءات أوعز بها الزبير للملك، فقد خطط الأول لكل هذا منذ سنين بعيدة. وذلك لأنه أراد إرسال الغالبية العظمى من الثوار غربا لمقاتلة ملك الهيجاء، وأراد إبقاء قلة قليلة فقط مع حدود ياقوتة شرقا؛ فقد احتاج كل جندي ممكن لهزيمة جيش الهيجاء. وقد توقع الزبير – رغم عدم وجود قرينة ملموسة – أنه حين يتوجه الثوار غربا فسينقض جيش ياقوتة في أية لحظة من الشرق.

***

بعد ما يزيد على الستة أشهر من التدريب المضني المكثف لثوار البقاء، حانت لحظة الحسم. توجه المقاتلون غربا باتجاه الهيجاء، ومنهم الغالبية العظمى من المقاتلين الذين تمركزوا شرقا على الحدود مع ياقوتة. ولم يبقِ الملك سوى عدد قليل جدا، ليضرموا النار في الحشائش على الحدود، وليحاولوا تأخير جنود ياقوتة إذا ما حاولوا الغدر بالبقاء.

وتعمد الزبير أن يأتي الثوار من منطقة صحراء الكثبة على الحدود بين البقاء والهيجاء. لقد رمى الزبير من ذلك إلى إرسال رسالة لملك الهيجاء، أنه هو وراء كل هذا، ليقوي انتقامه المنشود أكثر وأكثر. كما أنه أراد الاستفادة من معرفته - وبدو الكثبة - بتلك المناطق التي لطالما استعصت على ملك الهيجاء، ولأن الزبير أراد أن يكون ظهر الجيش لأماكن سكنى أفراد قبائل الكثبة، حتى يتلقى أي دعم قد يحتاجه من الباقين في ديار القبائل.

عسكر المقاتلون في الكثبة بالقرب من أرض قبيلة الأسد، بوجود الملك الهارب وابنه الأمير ريان والزبير والمغيرة وأمين وسليم والأقوياء الثلاثة. توجه الزبير بعد أن استقرت القوات إلى خيمة الملك الهارب، ودخل عليه وحياه فرد الملك عليه التحية.

دخل خادم الملك، وضيف الملك كأس قهوة، ثم ضيف الزبير مثله.

طفق الملك يشرب، ثم طفق الزبير.

نظر الزبير إلى الملك، وقال: لي طلب عندك، يا مولاي.

فقال الملك: طلبك منفذ أيا كان، أيها الزبير.

فرح الزبير بكلام الملك الذي دل على محبته وثقته به، وقال: لقد حننت إلى دياري، وأريد أن أستأذنك لأغادر المعسكر وأزورهم.

ابتسم الملك، ثم قال مبتسما: وهل يحتاج مثل هذا إلى استئذان؟!

بادله الزبير الابتسام، ثم قال: شكرا، يا مولاي.

صب الخادم المزيد من القهوة للملك الذي شرع يشرب، ثم قال للزبير: وأنا لي طلب عندك، أيها الزبير.

استحى الزبير من كلام الملك، وقال فورا: طلباتك أوامر منفذة، يا مولاي.

فقال الملك: أريد أن آتي معك إلى دياركم أزورك وأهلك.

عبس الزبير، وحزن كثيرا، ونظر خجلا في الأرض ووجهه أسود، والتزم الصمت.

عرف الملك ما سبب كل هذا، فقبيلة الزبير كلها عاشت إبان فترة القائد عامر ثراء فاحشا، ثم انتقلت إلى الفقر المدقع، والزبير خجل أن يرى الملك مثل هذا الفقر، فينظر إليه نظرة ازدراء أو احتقار.

قال الملك بصوت هادئ: بني...

تفاجأ الزبير من مناداة الملك له بهذه الكلمة! وعانق خجله فرح عظيم، ونظر إلى الملك الذي أكمل: صحيح أنني ملك عاش فترة طويلة في الرخاء والغنى اللذين لا مثيل لهما لدى بقية الناس. لكنني لا أحكم على أرض أو قبيلة، من خلال مالهم أو ممتلكاتهم، بل أحكم عليهم بما في صدورهم، بشجاعتهم وإقدامهم ومروءتهم. وكفى فخرا للأسد أن لديهم رجلا مثل القائد العظيم عامر، ومثل الثائر الباسل...

سكت الملك، ثم أضاف: مثل الثائر الباسل الزبير.

زادت المفاجأة والفرحة في فؤاد الزبير من كلام الملك، وابتسم ابتسامة عريضة وتلاشى الخجل، ثم قال: زيارتك تشرفنا، مولاي.

فبادله الملك الابتسام، ثم قال: عندما تعتزم الرحيل، أعلمني.

"أمرك، مولاي" رد الزبير.

غادر الزبير وبعد ساعات عاد إلى الملك، وأنبأه عزمه الرحيل.

خرج الملك والزبير من الخيمة، وركب الملك جواده، وقال: هيا، أيها الزبير.

استغرب الزبير، فلا أحد من حراس الملك اعتلى جواده ليصطحبهما.

سأل الزبير متعجبا: ألن يصحبنا حرسك، يا مولاي؟!

ابتسم الملك، وأجاب مبتسما: أنت ابني، أيها الزبير. أنت تماما كابني ريان، ولا تقل منزلتك عندي عن منزلته... إن لم أثق بك وبقومك، فبمن سأثق؟!

فرح الزبير فرحة عارمة، وابتسم ابتسامة عريضة ثم ركب جواده.

كان القائد جاسم والقائد عاصم، ألحا إلحاحا شديدا على الملك بوجوب ذهاب الحرس معه إلى أرض الأسد؛ فالحرس لا يصح أن يفارقوه في أي مكان يذهب إليه أيا كان. ولكن الملك رفض رفضا قاطعا، وغلظا في إلحاحهما، حتى بلغ بالملك أن نهرهما بعنف.

انطلق الفارسان نحو أرض الأسد حتى وصلاها، فخرج أهلها يرحبون أحر ترحيب بالزبير قائدهم العظيم، فرحب بهم ترحيبا مماثلا، وفرح فرحا عظيما برؤية أهله، ولكن فرحته تضاعفت أضعافا عندما رأى سهيلا أعز الناس على قلبه.

سهيل كان قد نما وكبر.

ترجل الزبير عن جواده، واحتضن سهيلا بعمق، وبادله الشاب الأحضان، ثم قبله الزبير، وسأل: كيف حالك، يا عزيزي؟

فأجاب: بأتم حال... لقد اشتقنا إليك.

فابتسم الزبير، وأجاب: وأنا اشتقت لكم شوق صحرائنا للغيث.

بالتأكيد لم يعرف الناس من هو الرجل المسن الذي اصطحبه الزبير إلى أرضهم.

وبينما ساد هرج ومرج بين القوم فرحا بعودة قائدهم ورمزهم، قال الزبير بصوت عالٍ: يا قوم...

فسكتوا جميعا وأنصتوا، وأكمل: لقد اصطحبت معي اليوم، رجلا هو أعظم رجل في بلادنا، بل في البسيطة كلها.

نظر الجميع بفضول إلى الرجل العجوز، ثم قال الزبير: أقدم لكم، جلالة الملك قصي.

"آآآآآآآه" قال أكثرهم، بينما اجتاحت المفاجأة وعدم التصديق وجوههم جميعا. فهؤلاء أهل الصحراء، الذين عانوا الأمرين بعد الحرب المقيتة، ها هو أعظم رجال البقاء يزورهم، الرجل الذي ظن جل الناس أنه مات منذ زمن بعيد.

انحنى الجميع احتراما للملك، ومنهم الزبير.

فقال الملك: مرحبا بكم، يا شعبي العظيم.

فاستقاموا جميعا، وبدؤوا يرحبون بالملك فرادى وجماعات.

فقال الملك: أنتم قبيلة عظيمة، بل من أعظم أهل مملكتي. وقائدكم رجل عظيم... عظيم جدا. وعندما نحرر مملكتنا سيكون لكم شأن عظيم فيها.

احتلت الفرحة العارمة قلوبهم جميعا بمن فيهم الزبير، فرحة كادت تنسيهم سنوات الشقاء والضنك والمعاناة.

ركب الزبير جواده، وقال: ائذنوا لي أن آخذ الملك في جولة في أرضنا.

فأفسح القوم المجال للفارسين، وقادا جواديهما، بينما أرى الزبير الملك أرجاء أرض قبيلة الأسد. وبعد هذه الجولة وصل الفارسان دار الزبير، فترجل الفارسان، ثم قال الزبير: هذه داري، يا مولاي.

ثم أشار بيده إلى الدار، وقال: تفضل.

فتح الزبير باب الدار، ودخل الملك أولا ثم تبعه الزبير، حتى وصلا مجلس الضيوف، وهناك اسود وجه الزبير خجلا من تواضع المجلس.

لاحظ الملك ذلك وسرعان ما قال: أيها الزبير، ما بالك؟! هل نسيت كلامي في خيمتي ذلك اليوم؟! ألم أخبرك أنني أحكم على ما في داخل الناس لا على ما يملكونه؟!

عندها تلاشى خجل الزبير، وابيض وجهه، وقال وهو يشير إلى الأبسطة: تفضل، يا مولاي.

فجلس الملك، بينما ضيفه الزبير كأس قهوة، فطفق الملك يشرب، بينما ظل الزبير واقفا حتى أذن له الملك: اجلس، أيها الزبير.

اتسم الملك بتواضع مهول أثار استعجاب الزبير، فقد جلس على البساط البسيط رغم أنه أعظم أهل مملكة البقاء مترامية الأطراف.

فجلس الزبير وصب قهوة في كأس وطفق يشرب بدوره.

بعد مدة قال الملك: أنتم تعيشون حياة صعبة جدا، على عكس حياتكم إبان الشيخ الراجل جدك.

ثم شد بيده على فخذ الزبير، وقال: لكن لا تخف... كل هذا سينتهي قريبا... بفضلك أنت...

فرد الزبير: لا، يا مولاي. بل بفضلك أنت... أنا مجرد جندي واحد في جيش فيه الألوف.

تبادل الرجلان الحديث لمدة طويلة، حتى طرق باب دار الزبير.

خرج الزبير ليرى من على الباب، بينما ظل الملك جالسا بالداخل، وبعد مدة سمع الملك الزبير وهو يصرخ: قلتُ لك ارحل.

ثم عاد الزبير غاضبا إلى مجلس الضيوف.

"اعذرني، يا مولاي، على صراخي" قال الزبير.

"ما الذي حدث؟!" سأل الملك متعجبا.

فأجاب الزبير: لا شيء، يا مولاي. أمر تافه، فلا تشغل بالك.

فأصر الملك بحدة: قلت لك: ماذا حدث؟

عبس الزبير، ثم قال: ابن أخي يريد شيئا بإلحاح وقد رفضته.

فقال الملك: ابن أخيك، ذلك الذي احتضنته بعمق عندما دخلنا دار القبيلة؟!

قال الزبير: نعم.

ساد الصمت لمدة حتى قال الملك: طيلة سنيني الكثيرة، لم أشاهد رجلا يحتضن أحدا بمثل هذا العمق والمحبة. حتى الآباء... حتى الأمهات، لم أشاهد أحدا منهم يحضن ابنا له كما احتضنته... هذا الشاب هو أغلى أهل الأرض على قلبك.

"نعم، هو كذلك" قال الزبير.

فقال الملك: لكنك منعته من مقابلتي، رغم أنه طلب منك ذلك! أليس كذلك؟

استغرب الزبير كم كان الملك نبيها، وكيف عرف ما دار بينه وبين سهيل.

ثم قال الزبير: بلى، يا مولاي.

فقال الملك: اذهب واجلبه.

استغرب الزبير من جديد من تواضع الملك، ثم قال: أحقا، يا مولاي؟

"هل عهدتني أمازح الناس؟!" استنكر الملك، وأضاف: لقد أخبرتك أنت وعائلتك عائلتي، وابن أخيك حفيدي بما أنك ابني.

ابتسم الزبير ابتسامة عريضة، وانشرح صدره، وأسرع لإحضار سهيل الذي لا يحب أن يرفض له طلبا.

بعد مدة عاد الزبير مع سهيل الذي كاد يطير من الفرحة.

التزم الشاب الصمت من شدة الخجل.

قال الملك: اقترب، يا بني.

فاقترب منه سهيل ببطء وهو ينظر في الأرض خجلا، ولما دنا كثيرا من الملك احتضنه الملك بعمق وشدة، ثم قال: اجلسا.

فجلس الزبير ثم سهيل ووجهاهما يشعان فرحا.

وبعدها طفق الثلاثة يتحادثون، وشكلت تلك أسعد لحظات في حياة سهيل حتى تلك اللحظة؛ لأنه تميز عن كل شباب البقاء - على اتساعهما – بأمر لن يحظى به أحدهم أبدا.

ولما حل المساء، اتجه الفارسان نحو المعسكر، وظلا يتحادثان طيلة الطريق.

ومما تحادثا به، أن الزبير سأل الملك: يا مولاي، لي طلب عندك. واعذرني على كثرة طلباتي.

فقال الملك: أبشر.

فرد الزبير: أريد أن أجتمع بجلالتك وبسمو الأمير ريان وبالعمداء بهاء وصلاح والمعتصم وبالمغيرة وجاسم.

احتل قلبَ الملك الفضولُ، وقال: حسن، لك ذلك...

***

وصل الفارسان المعسكر، وفي صباح اليوم التالي جمع الملك في الخيمة الكبيرة المخصصة للتخطيط للمعارك، ابنه الأمير ريانا والأقوياء الثلاثة والمغيرة وجاسما، وهؤلاء هم من طلبهم الزبير، ثم أرسل في طلب الأخير.

دخل الزبير الخيمة فوجدهم جميعا، ألقى عليهم التحية فردوا عليه بحرارة، إلا الأمير ريانا التزم الصمت، ولاحظ الجميع ومنهم الزبير ذلك.

بعد مدة من الحديث، قال الملك: أحبائي، الزبير طلب أن أجمعكم به لأنه يريد أن يحادثنا في أمر ما. فلننصت جيدا إليه.

نظر الجميع إلى الزبير الذي تنهد ثم قال: يا قوم، أنتم تعلمون مدى ولائي للبقاء، وملكها... ولا يمكن أن أبدي مصلحتي على مصلحة المملكة أو الملك اللذين أفديهما بروحي. لكن لي رجاء لكم.

فقال العميد بهاء: تفضل، أيها الشاب المغوار. اطلب ما تشاء.

فقال الزبير: ملك الهيجاء الحالي، ميمون، شارك في الحرب التي قتل فيها جدي، والتي قادها والده الملك هزيم.

والملك هزيم كان قد مات في اللحظات التي تحدث فيها الزبير.

فأكمل الزبير: ويجب أن أنتقم لجدي بنفسي، وأن أمحو عار الهزيمة بانتصار يشفي غليلي وغليل قبيلتي وقبائل الكثبة بأسرها. وهذا الأمر يتأتى بقتلي للملك ميمون، ويجب أن أقتله بيدي هاتين.

قال جملته الأخيرة وهو يمد كفيه للأمام، ويقلب أنظاره بينهما.

ثم أكمل: ما أريده منكم أن تحاولوا قدر الإمكان أن تتركوا ميمونا لي، وألا يقتله أي منكم أو من أتباعكم إذا أتيحت له الفرصة، وأريد أن تعمموا هذا على كل الثوار... فبئس الرجل الذي يرضى أن يأتي ثأره بيد رجل آخر.

صمت كل الحاضرين إعجابا بشجاعة الزبير وقوته وشدته، عدا الأمير الذي لم يعجبه الكلام.

وبعد مدة، قال الملك: لك هذا، أيها الزبير... ولا أعتقد أن أحدا من الحاضرين لديه أي مانع.

بدا الغضب واضحا على محيا الأمير، بينما تبادل الجميع النظرات.

ثم قال العميد المعتصم: لا مانع لدينا، فالزبير يمكنه أن يطلب حتى أعيننا. وأعتقد أن رفيقيّ لا يمانعان.

فأومأ العميدان بهاء وصلاح برأسيهما موافقين.

ثم قال المغيرة: أيها الزبير، لك ما تشاء.

وأومأ جاسم برأسه موافقا.

اطمأن الزبير لكلامهم جميعا، حتى نغص صفو ذهنه كلام الأمير الذي قال بنبرة حادة وبغضب: ومن أنت لتطلب مثل هذا من ملك وقادة عظام؟! وكيف تشترط علينا مثل هذا؟! أنت مجرد قائد في الجيش، فكيف تملي على ملك وأمير وعمداء ما تريد؟!

في كل فرصة سانحة، تعمد الأمير توجيه لكمة للزبير، وقد كان هذا واضحا للجميع.

رغم أن الملك اعتاد القسوة مع ابنه في مثل هذه المواقف، إلا أنه ارتأى في تلك اللحظة أن يحادث ابنه بهدوء بالغ؛ لأنه أدرك أنه إذا وبخه في تلك اللحظة، فلن يحصد سوى إشعال نار الغيرة والكره في قلب ابنه تجاه الزبير.

فقال الملك بهدوء: بني، لا أعتقد أن الزبير يفكر بالطريقة التي ذكرتَها. هو لا يعتبر نفسه أعلى مني أو من سواي. وقد قال طلبه بطريقه لبقة تضمنت في كل طياتها الأدب والاستئذان. وبسبب هذا الرجل نحن الآن على بعد خطوات لتحرير البقاء، الأمر الذي حلمنا به لسنين طويلة. وسأعود أنا ملكا بسببه، ويوما ما ستغدو أنت ملكا بسببه.

الرجل يستحق منا أن نكرمه ونشكره بشتى الطرق، وما طلبه ليس بالكثير، فملك الهيجاء لم يؤذ أيا من الجالسين كما آذى الزبير، والزبير أولى برأسه منا.

وليكن هذا أول هدية نرد بها جميل الزبير له، ولو بعضا منه.

اتسعت عينا الأمير غضبا، وقرر التزام الصمت؛ لأنه لم يمتلك من الردود ما يحاجج به كلام أبيه المنطقي.

***

كالعادة كان قيس من أكثر من يراهم الزبير، وقد تحادثا باستمرار. وحدث أن التقى قيس بالزبير، قبل خمسة أيام من الحرب ضد الهيجاء، فوجده متوترا، ورأى عينيه المنتفختين من قلة النوم، فقال: أخيرا سنثأر لشيخنا جدك. أخيرا، أيها الزبير، ستنطفئ النار التي في قلبك. لكن في هذه الأيام عليك أن تضرمها أقصى إضرام؛ حتى تحرق بها الملك الظالم.

ولكنه سرعان ما أضاف: لكن في الوقت ذاته عليك أن تنام جيدا، وأن ترتاح، فما تعتزم فعله يحتاج قوة جسدية هائلة.

إلا أن الزبير وعلى العكس من نصيحة صديقه قيس، لم ينم ولو هنيهة واحدة في الليلة التي سبقت الحرب ضد جيش الهيجاء. فالخوف من الفشل في الثأر من الملك ميمون أو من أن يقتله مقاتل آخر غير الزبير منعه من النوم. وظل قلقا طيلة الليل من أن يضعفه السهر، فلا يتمكن من الاقتصاص لجده. لكن رغم التعب الجسدي الشديد، نهض صبيحة اليوم التالي ليتهيأ للحرب؛ فالإرادة ونار الانتقام بداخله محوا كل أثر للتعب الجسدي، وأحس في تلك اللحظات أنها أكثر لحظات في حياته على الإطلاق من حيث قوته الجسدية.

سار جيش البقاء للقاء جيش الهيجاء، في وقت أيقن فيه الزبير بالنصر لأسباب كثيرة، أهمها الحافز لدى ثوار البقاء، لا سيما أن هذا هو خيارهم الوحيد لإعادة مملكتهم، على العكس من جيش الهيجاء الذي يقاتل من أجل أرض ليست جزءا من بلاده أصلا.

وبعد اتفاق الزبير مع الملك قصي على ترك الملك ميمون للأول لقتله، تم التعميم على كل مقاتلي البقاء – ومنهم مقاتلو الكثبة وفرقة الزنوج – بذلك.

قاد جيشَ الهيجاء ملكُهم ميمون، بينما قاد جيشَ البقاء الملكُ قصي، وحضر ابنه الأمير ريان، والعمداء الثلاثة صلاح والمعتصم وبهاء، والمغيرة، وجاسم والزبير. وضم الجيش سليما وأمينا اللذين اعتزما عدم المشاركة في القتال تنفيذا لأوامر الزبير، وأحاط كلا منهما عدد لا بأس به من فرقة الزنوج لحماية حياتهما.

لبس مقاتلو الهيجاء لباسهم المعروف عنهم الأسود في معظمه ويتخلله اللون الذهبي، وحملوا الترس. أما الفرقة الذهبية والملك ميمون فلبسوا لباسا خاصا يتكون في معظمه من اللون الذهبي ويتخلله اللون الأسود، وقد صنعت ترسهم ومقابض سيوفهم وأغمادها من الذهب الخالص. أما جنود البقاء، فقد لبسوا زيهم المعروف البنفسجي في معظمه ويتخلله اللون الأسود.

الملك ميمون كان طويلا جدا عريض المنكبين مفتول العضلات، أزرق العينين، بينما غطى شعر أشقر خفيف رأسه، وكان له لحية وشارب أشقران خفيفان، كل هذا جعل الرجل قمة في الوسامة.

كان الزبير متقدما في صفوف جيش البقاء، وكالعادة أمامه بيدق وخلفه وعلى جانبيه هلال والأقرط، وخلفه جل مقاتلي فرقة الزنوج. وقد طلب من هؤلاء جميعا أن يظلوا معه طيلة المعركة، وأخبرهم أنه لا بد وأن يقتل الملك ميمونا بيديه، وألا يفعل ذلك أحد آخر.

أرض المعركة، أحاطت بها الجبال، وقد حضّر الزبير عددا كبيرا من فرسان الكثبة الذين يمتازون بحدة النظر ومن مسافات بعيدة جدا، وأمرهم أن يتمركزوا على هذه الجبال المحيطة بأرض المعركة، وأوصاهم أنه في خلال الحرب، عليهم أن يطلقوا السهام النارية الكثيرة المتلاحقة بالاتجاه الذي يذهب إليه الملك ميمون؛ حتى يعرف الزبير أين ذهب غريمه.

في تلك اللحظات العصيبة المثيرة، نظر الزبير إلى الملك ميمون، نظرات ملؤها الحرقة والغضب، والنار تشتعل بداخله، ثم نظر إلى الملك قصي، وكأنه يسأله هل سينفذ وعده بألا يقتل أحد الملك ميمونا إلا الزبير، فأومأ الملك برأسه إليه ليطمئنه أنه منفذ وعده.

أشار الملك قصي لمقاتليه، فانطلقوا بسرعة نحو عدوهم، وحدث الأمر ذاته في الطرف الآخر، بعدما أشار الملك ميمون بيده لمقاتليه. ولما اقترب المقاتلون بعضهم من بعض، بدأ الرماة من كل جيش يطلقون السهام الغزيرة المتلاحقة على أعدائهم، فسقط القتلى من الطرفين. ثم اشتبك الجيشان وجعل بعضهم يقتل بعضا. لكن القتلى من طرف الهيجاء كانوا أكثر بكثير، فمقاتلو البقاء أكثر بكثير، وتاريخيا هم أقوى، وقد دُربوا تدريبا مكثفا قاسيا في الفترة التي سبقت الحرب. كذلك طبيعة المنطقة القاسية ومناخها الحارق، كانا أمرين صعبين جدا على جنود الهيجاء، على العكس من مقاتلي الكثبة الذين شكلوا جزءا كبيرة من جيش البقاء. ومع مرور الوقت ازداد قتل الثوار لجنود الهيجاء، حتى باتت دماؤهم حناء حمراء محت لون رمال الصحراء الذهبي وحلت بحمرتها مكانه. من طرف الثوار كان العمداء الثلاثة هم الأقوى وبفارق كبير، ثم يليهم الزبير والمغيرة والأمير ريان، وهؤلاء جميعا أظهروا قوة شديدة أرهبت أعداءهم وزرعت الرعب بينما جعلت سيوفهم ترسل هؤلاء إلى الحياة الآخرة. ملك الهيجاء ميمون أبلى بدوره بلاء لا بأس به، بينما أحاط حرسه الملكي به من كل جانب.

وأثناء المعركة نفذ المقاتلون حادو النظر الذين زرعهم الزبير على الجبال المحيطة بالمعركة أمره، وظلوا يطلقون السهام النارية باتجاه الملك ميمون كلما ذهب إلى مكان. وظل الزبير يتعقبه وكأن همه الوحيد قتل الملك، في حين ترك مهمة تحرير البقاء للملك قصي والآخرين.

وبعد حين اقترب الزبير من الملك ميمون. وهنا جعل بيدق وهلال والأقرط يقاتلون حراس الملك ميمون، في حين ركض الزبير نحو الملك، فضرب بسيفه يقصد الملك الذي صد ضربة الزبير بسيفه، ثم ضرب الزبير من جديد فصد الملك الضربة بترسه، ثم ضرب الزبير مرة ثالثة فتفاداها الملك بالعودة للخلف. وفجأة انطلق عدد كبير من حرس ميمون نحو الزبير، ولما لاحظ بيدق المتنبه جدا ذلك، أمر هلالا والأقرط باللحاق به لحماية الزبير فتقدموا الزبير، ووقفوا سدا منيعا ضد حرس ميمون. استغل الملك ميمون الفرصة ولاذ بالفرار من ذلك الموقع، بينما صرخ الزبير: إني قاتلك اليوم، مهما حدث... مهما حدث... يا ميمون.

جعل حرس ميمون المهاجمون يقاتلون الزبير والنسور السوداء، بينما هرب الملك مع عدد من حرسه.

واستمرت المعركة ومضى الوقت، وزاد انتصار الثوار وقتلهم لمقاتلي الهيجاء أكثر وأكثر، وازدادت الرمال حُمْرة.

وفي النهاية قرر الملك ميمون أن يلوذ بالفرار، بعد أن أيقن أن العودة في المعركة مستحيلة، وطفق يبتعد مع عدد من حرسه عن أرض المعركة، عندها شرع المقاتلون المتمركزون على الجبال يطلقون السهام النارية بالاتجاه الذي ذهب إليه. تنبه الزبير لذلك، وامتطى جواده، وفعل مثله تماما النسور السوداء، وانطلقوا جميعا باتجاه الملك، ولحقهم عدد من أفراد فرقة الزنوج على خيولهم.

اقترب الزبير ومن معه من الملك ومن معه، وبدأ النسور السوداء– وكل واحد منهم على جواده – يطلقون السهام التي اصطادت حراس الملك، وتعمدوا ألا يصيبوا ميمونا بأي منها؛ لأن الزبير وحده من يحق له أن يقتله.

تساقط حرس الملك الواحد تلو الآخر، فلم يتبق منهم إلا ستة. ولما اقترب الزبير ومن معه كثيرا من الملك والحرس الستة، أمر كبير حرس الملك من معه بالتوجه لمقاتلة الزبير وأتباعه لتأخيرهم والحيلولة دون اغتيالهم للملك. واتجه كبيرهم معهم نحو الزبير ومقاتلي الزنوج، وبينما الزبير على جواده، اتجه كبير حرس الملك بسرعة نحوه فضرب بسيفه يقصد رأس الزبير، فصد الأخير الضربة بسيفه، ثم ضرب بقوة هائلة لم يستطع معها كبير الحرس سوى أن يصد الضربة بترسه، ثم ضرب الزبير بقوته الهائلة من جديد فصد كبير الحرس الضربة بسيفه، قبل أن يضرب الزبيربسيفه برشاقة وسرعة بالغتين، غارسا إياه في بطن غريمه الذي خر قتيلا. في هذه الأثناء اشتبك مقاتلو الزنوج مع حرس الملك الذي بدأ يبتعد كثيرا لائذا بالفرار، فصرخ بيدق: مولاي، انطلق نحو الوغد، ونحن سنتكفل بهؤلاء.

انطلق الزبير مسرعا على جواده يلاحق الملك ميمونا الذي حاول جهد استطاعته أن يفر بروحه. ومع مرور الوقت اقترب الزبير أكثر وأكثر من غريمه، حتى تمكن في النهاية من اللحاق به، فاقترب منه كثيرا، حتى كاد جواد الزبير يلاصق جواده، عندها ضرب الملك يقصد رأسه الزبير، فتفادى الزبير الضربة بأن أخفض رأسه، ثم وبسرعة بالغة وبمرونة عالية، رمى بنفسه من على جواده نحو الملك، وأحاط به بذراعيه ودفع بنفسه وبالملك نحو الأرض. سقط الزبير والملك اللذان كانا يقودان جواديهما بسرعة هائلة على الأرض حيث الرمال الحارقة، والتفا عدة مرات قبل أن يتوقفا، عندها نهض الزبير وجلس على ركبتيه فوق الملك الذي استلقى أرضا، وجعل يضرب الملك لكمات سريعة قوية جدا، فسال الدم من منخري الملك، الذي غافل الزبير، فضربه ضربة قوية أزاحت الزبير جانبا. في تلك الأثناء كان كلا الجوادين قد توقف بانتظار راكبه. وقف الملك بسرعة، وركض نحو جواده، بينما لحقه الزبير بسرعة. أحضر الملك ترسه الذي ثبته مسبقا على سرج جواده واستل سيفه بسرعة، في حين استل الزبير سيفه واقترب من الملك. صرخ الملك بصوت عال واستجمع قواه، وضرب بسيفه يقصد الزبير الذي تلافى الضربة.

تكرر الأمر من جديد، عندما حاول الملك ضرب الزبير بسيفه، لكن الأخير تلافى الضربة. بعدها أحكم الزبير قبضته اليمنى على مقبض سيفه، وهاجم الملك بقوة وسرعة لكن الأخير صد الضربة بترسه، فأتبعها الزبير بضربة أخرى من خنجره فورا، صدها الملك بترسه، فتكرر الأمر مرة ثالثة حين ضرب الزبير بسيفه بقوة لكن الملك صد الضربة بترسه. وفجأة باغت الملك الزبير وضربه بترسه على بطنه. كان الترس ثقيلا جدا، وتألم الزبير أشد ألم، وتسارعت أنفاسه، ووضع ركبته اليسرى على الأرض وبسط كفه الأيسر على الأرض بينما وجه بيده اليمنى سيفه نحو الأرض، ليسند جسده به. أيقن الزبير أنه لا وقت للألم والضعف، وأن هذه اللحظات النادرة قد لا تتكرر لاقتناص روح أحد قتلة جده، فاستجمع قواه، ونهض من جديد. ولأن الزبير يعرف أنه حتى في القتال على المرء أن يستخدم عقله قبل جسده، أدرك أن هزيمة الملك ميمون تكون بالتخلص من ترسه، لذا باغت خصمه وهاجمه بسرعة وضرب بسيفه عضد الملك اليسرى، وجرحها فسال الدم منها غزيرا مما أجبر الملك على أن يرمي ترسه.

وبينما تألم الملك من جرح عضده، وجعل يتنفس بسرعة بالغة، والعرق يسيل من جبينه وجسده كالشلال، قال الزبير: عشت بالجحيم طيلة هذه السنين بسببك، والآن سأرسلك إلى الجحيم إلى أبد الأبدين.

ثم ركض نحو الملك بسرعة، فضرب بسيفه ضربة صدها الملك بسيفه، فضرب الزبير من جديد بسيفه ضربة صدها الملك بسيفه. كان الملك منهكا جدا، فهو ليس معتادا على مناخ الصحراء الحارق – على العكس من الزبير – كما أن جرح يده أضعفه كثيرا. بعدها ضرب الزبير بسيفه فغرسه في بطن الملك ميمون. ركع الملك على ركبتيه وهو يسند جسده بسيفه الذي أمسك مقبضه بكفيه الاثنين، لكنه سرعان ما ترك سيفه، واستلقى على ظهره على الرمال الذهبية الحارقة، التي امتزجت بلونها الذهبي مع لون لباسه الذهبي. ركع الزبير على ركبتيه فوق الملك الذي تنفس بسرعة بالغة، بينما سال الدم غزيرا من جرح بطنه وجرح عضده، ثم أمسك الزبير بخنجره بيديه الاثنتين وغرسه بقوة في صدر الملك وهو يقول: هذه من أجل جدي.

بعدها توقف الملك عن التنفس وعن الحركة نهائيا، ليحصل بذلك الزبير على انتقامه أخيرا، والذي انتظره سنين كثيرة.

***

وأخيرا بعد ليالي الأرق الكثيرة، وأيام المعاناة التي لا تعد، انزاح الحمل الضخم عن صدر الزبير، وآن له أن يرتاح ويعيش هانئ البال.

توالى الإثناء تلو الآخر من الناس على الزبير، ابتداء من الملك قصي، مرورا بصديقه قيس الذي قال له: مبارك أيها الزبير، أخيرا ثأرت لجدك ولنا وللكثبة... أنت رجل عظيم ومهما وضعت نصب عينيك فستحققه.

وبعد مقتل الملك ميمون على يد الزبير، سارع وجهاء مملكة الهيجاء لمبايعة أخيه الصغير أنيس ملكا على البلاد.

وبعد هزيمة الثوار لجيش الهيجاء، وبناء على توصيات الزبير، وقع الملك قصي معاهدة مع الملك الجديد أنيس، تنسحب بموجبها الهيجاء انسحابا كاملا من أراضي البقاء مع إعطاء مساحات إضافية لمملكة البقاء من أراضي الهيجاء لم تكن البقاء تملكها قبل الحرب المقيتة! وكل ذلك مقابل ألا يتوغل جيش البقاء المتعطش أكثر في أراضي الهيجاء.

وبهذا امتدت البقاء شرقا في أراضي ياقوتة وغربا في أراضي الهيجاء، وباتت مساحتها أكبر مما كانت عليه قبل الحرب المقيتة.

***

الفصل الثامن

المملكة الجديدة

((28))

في المعتزة عاصمة البقاء، في قصر الضيغم أهم قصور آل الضياغم، اجتمع الملك الهارب قصي وآله وأهمهم زوجته الملكة رقية وابنه الأمير ريان وابنته الأميرة هدى، وكثير من الحضور بغية إعلان تحرير مملكة البقاء، وتنصيب قصي ملكا عليها. حضر الحفل الزبير والمغيرة وحورية زوجه وأمين وزوجه سمية وسليم وأمه وأختاه. أقيم الحفل في أكبر قاعات القصر، حيث امتلأت القاعة أرضيتها وسقفها وجدرانها بالرخام بنفسجي اللون المزين بشتى الزخارف متنوعة الألوان، وأحيط سقف القاعة بالذهب الذي زينه واتخذ أشكالا فنية جميلة. ونزل من السقف ثرية ذهبية عملاقة أضاءت شموعها القاعة، وأحاطت بها ثريات ذهبية أخرى بأحجام مختلفة. وفي نهاية القاعة وُجد كرسي العرش المصنوع من الخشب الفخم وقد علت حوافه الذهب، وعلى يمينه كرسي آخر مماثل لكنه أصغر خصص لولي العهد الأمير ريان. وامتلأت القاعة بالطاولات الفخمة التي علاها ما لذ من الطعام والشراب والحلوى والفاكهة، وجلس على الكراسي المحيطة به الحضور. وانتشرت أعلام دولة الضياغم البنفسجية اللون في معظمها، وتحوي رأس أسد في رمز لآل الضياغم، في كل أنحاء القاعة. هذه الفخامة وهذا البذخ هما وحدهما ما كانا مناسبين لمناسبة إعلان تحرير البقاء، المناسبة التي انتظرها كل الحاضرون بل كل مواطن وفي من مواطني البقاء طيلة هذه السنين الكثيرة جدا.

نهض عن إحدى الطاولات رجل مسن تظهر عليه علامات الجلال وفخامة اللباس والأصل والحسب، وهو ابن خال الملك قصي، ومشى إلى حيث كرسيا العرش ووقف أمامهما. وفي تلك الأثناء انشغل كل من في القاعة بالحديث، وكان صوت حديثهم العالي كأنه صوت هدير نهر جار. فقال الرجل، وقد كان متحدثا بارعا وجريئا: يا قوم.

فبدأ صوت الهدير بالانخفاض، فكرر الرجل بصوت أعلى: يا قوم، أنصتوا إلي وانتبهوا.

فانتبه الجميع إليه، وعم الصمت في القاعة الكبيرة الجليلة.

ثم قال الرجل، وهو يقلب نظره يمينا ويسارا بين الحاضرين: جلالة الملكِ قصيا، جلالة الملكة رقية، سمو الأمير ريانًا، الحضور الكرام، أهل البقاء كلهم، أهلا بكم جميعا في قصر الضيغم، في هذا اليوم المبارك، الذي أدعو الله أن تستمر حياتنا بمثل سعادته وخيره.

لقد كانت مملكة البقاء أعظم مملكة في البسيطة كلها، ومضرب الأمثال في كل حدب وصوب بخيرها، وطيبة أهلها، وعدل ملوكها، وسعادة مواطنيها، والبذخ الذي عاش به جميعهم. والأهم كانت مضرب المثل بالمحبة التي انتشرت بين أهلها جميعا.

ولكن التاريخ علمنا أن الغيرة والطمع هي من سمات البشرية، وللأسف، ولغدر الزمان لقد استشريا في قلوب أعدائنا شرقا وغربا، وفي ليلة غادرة وضحاها، انقض علينا الأعداء من كل حدب وصوب، واحتلوا مملكتنا واغتصبوها ومزقوها شر ممزق، وغدروا بآل الضياغم الكرام الذين لطالما أكرموا شعبهم أيما إكرام.

وقد ظن كل أعدائنا، وكثير من ضعاف النفوس من أحبائنا أن البقاء انتهت للأبد، وأن الضياغم انتهوا للأبد. لكن كل مواطن حقيقي وفي صادق من أهل البقاء، ظل متمسكا بالأمل حتى آخر لحظة، وظل يدعو الله حتى آخر لحظة، ومرت السنوات الكثيرة، والليالي السوداء الطويلة، حتى أشرقت الشمس أخيرا، واستجاب الله لدعائنا جميعا، وها هي البقاء تتحرر وتعود لأيدي أهلها، لتقهر أعداءها وتهزمهم شر هزيمة وتذلهم أمر إذلال.

ونحن اليوم هنا نعلن تحرير مملكتنا وقيام مملكة البقاء من جديد.

أيها الحضور الكرام، قفوا تحية للملك قصي، فقد حانت لحظة تتويجه.

عندها وقف الملك الهارب، ووقف كل من في القاعة، وتوجه الملك نحو ابن خاله.

وقد اقترب أحد الجنود ومعه وسادة من الحرير لونها بنفسجي يعلوها تاج فضي مزين بالألماس.

بعد أن اقترب قصي، أخذ ابن خاله التاج ووضعه على رأسه، ثم قال: أنا أعلن قصيا من آل الضياغم ملكا على البقاء.

فصفق الجميع بينما سار الملك قصي والابتسامة عريضة على محياه وجلس على كرسي العرش.

ثم قال ابن خاله: والآن حيوا الأمير ريانا.

وعندها بدأ الأمير ريان يسير نحو ابن خال أبيه.

وفي الوقت نفسه، اقترب أحد الجنود وهو يحمل وسادة بنفسجية أخرى عليها تاج فضي مرصع بالألماس لكنه أصغر من تاج الملك قصي.

فلما اقترب الأمير، أخذ الرجل المسن التاج ووضعه على رأس ريان، وهو يقول: وها أنا أعلن الأمير ريانا وليا لعهد مملكة البقاء.

فبدأ الجميع بالتصفيق، بينما سار ريان نحو الكرسي الذي بجوار كرسي الملك وجلس عليه. ظهرت علامات الفرح طاغية جدا على وجه الأمير الذي عرف بعبوسه في أغلب الأحيان.

ثم تحرك ابن خال الملك وتوجه إلى إحدى الطاولات وجلس على كرسي يحيط بها؛ ليخلو المشهد للملك قصي والأمير ريان وهما يجلسان على كرسيي العرش، بينما وقف كل من في القاعة.

ثم قال الملك بصوت عال: اجلسوا، يا قوم.

وبعد أن جلسوا قال بصوت عال: حللتم أهلا، ووطئتم سهلا. أهلا بكم في بيتي الذي هو بيتكم، في هذه المناسبة المباركة. فليبارك الله لنا جميعا هذه المناسبة الرائعة بتحرير بلادنا وقهر أعدائنا.

ليس لدي الكثير لأضيفه على ما قاله ابن خالي العزيز. أنا اليوم غدوت ملكا عليكم، وأعدكم أن أسير على خطى من خلفتهم من آل الضياغم، أعدكم بالعدل والرخاء والسعادة، سأجعل البقاء مضرب المثل من جديد برغد العيش، بل أعدكم بأن تكون أفضل مما كانت عليه في عهد أسلافي.

سكت الملك لمدة، ثم أضاف بصوت عال: ولكن يا قوم، لقد تعلمت في حياتي هذه أن أشكر من لهم فضل علي. وهذه الحرب كان لها أبطال عظام ضحوا بأرواحهم وأهاليهم وأموالهم فدائي وفداء البقاء، فلا بد وأن نخلد ذكرهم في حفل ميلاد مملكتنا هذا. أبدأ بالمغيرة، الأمير المغوار الصنديد الذي لا مثيل له في الشجاعة والقتال. ثم أذكر أمينا الرجل الذي لم نسمع عن أحد يمتلك ما يملكه من مال، حتى في حكايا الأطفال، ورغم ذلك ضحى بماله الغزير فداء البقاء دون من أو أذى. وكذلك كان لدينا ابن الأسطورة القائد الراحل الهيثم، الشاب الشجاع سليم.

فحيوهم جميعا أفضل تحية.

بدأ الجميع بالتصفيق الحار لكل هؤلاء، الذين ارتسمت علامات السرور على محياهم ومحيا أزواجهم وعائلاتهم، فأي تكريم أفضل من إثناء ملك البلاد عليهم في أهم حفل في تاريخ البقاء، حفل تحريرها.

وبينما استمر التصفيق، أشار الملك بيده، وهو يقول: انتظروا، يا قوم... انتظروا.

فسكت الجميع.

فأكمل الملك: ولكن هنالك رجل هو أعظم رجل في هذه الحرب على الإطلاق. رجل لن تذكر البقاء من هنا ولقيام الساعة إلا وذكر معها. رجل أرسله الله لنا من السماوات العليا، كان معجزة لبى بها الله دعاء النساء المظلومات والأطفال الذين ذاقوا اليتم بسبب تلك الحرب المقيتة القذرة. أريدكم أن تخصوا بالشكر البطل الباسل، الزبير... وأنا الآن أعلنه الوزير الأول في المملكة، وهذا أعلى منصب فيها بعد منصب الملك ومنصب ولي العهد.

عندها وقف الجميع بلا استثناء بمن فيهم الملك وحتى الأمير ريان، وبدؤوا بالتصفيق الحار للزبير.

شكلت تلك أسعد لحظات حياة الزبيرحتى ذلك الوقت. لم يتصور كل هذا التكريم، وأن يخلد اسمه في كتب التاريخ بهذه الطريقة، وأن الملك سيكافئه بأن يجعله الرجل الثالث في المملكة.

بعدها هدأ الناس، ثم بايعوا الملك وولي العهد والزبير وزيرا أولَ.

ثم تناولوا ما لذ من الطعام والشراب، وتبادلوا الكلمات والضحكات، وتحولت القاعة مركزا للفرحة والسعادة، بينما أثنى الجميع على المغيرة وأمين وسليم والأقوياء الثلاثة والقائد جاسم، والأهم على الزبير الذي سمع في ذلك اليوم من الثناء ما لم يسمعه رجل من قبل في تاريخ البقاء كلها.

***

استمر الحفل حتى المساء، حين غادر الحضور جميعا القاعة. وبينما الزبير في غرفته في القصر، أتاه أحد الجنود يخبره أن الملك قصيا يود لقاءه في غرفة النوم الخاصة به.

فرح الزبير فرحة عارمة؛ فبالفعل أضحى بالنسبة للملك كابنه تماما وها هو يدعوه كأنه أحد أفراد عائلته إلى غرفة النوم الخاصة به.

توجه الزبير إلى هناك واستأذن الحارسين الواقفين على باب الغرفة، ودخل إليها.

كانت كسائر غرف القصر ينتشر في كل أرجائها الرخام البنفسجي المزين بألوان متنوعة، وقد كانت واسعة، فيها سرير كبير جدا، وفي الغرفة وجدت طاولة عريضة أحاطت بها كراسي كثيرة، وكلها مصنوعة من الخشب الثمين. وقد تدلى من سقف الغرفة ثرية ذهبية ضخمة أضاءت شموعها الغرفة، وفي الغرفة كذلك رأى الزبير ثريات أخرى مشابهة لكن أصغر حجما. وانتشر هنا وهناك المرايا المزخرفة حوافها بأجمل الزخارف. وقد انتشر الذهب والفضة والألماس في كل أرجاء الغرفة وعلا الأثاث والمرايا وحوافهم. لم يشهد الزبير مكانا مثل هذا قط، وهاله ما رآه!

جلس الملك على كرسي عريض، وبجواره على الكرسي نفسه ابنته الأميرة هدى وهو يمسك بيدها بينما تدفع بجسدها نحو جسد والدها. وعلى كرسي آخر جلست الملكة رقية، وعلى آخر جلس الأمير ريان. وقد لبسوا جميعا لباسا أنيقا فاخرا، وفاحت رائحة عطورهم زكية جميلة في أرجاء الغرفة. ووقف في الغرفة جارية تلبس هي الأخرى لباسا أنيقا.

وقد فرحوا جميعا أكبر فرحة، فها هم يعودون لأقصى القمة، بعد أن ذاقوا ذل أدنى القاع في جبال اليبس.

في اليوم السابق، جالست الملكة رقية زوجها الملك، وأخبرته: أتدري، يا قصي؟

"ماذا؟" سأل الملك.

فأجابت: أشعر بشعور غريب تجاه الزبير، لم أشعر به تجاه أحد آخر من غير أولادي... أشعر أنه ابني تماما كريان وهدى، ولا تختلف مكانته في قلبي قيد أنملة عن مكانتهم...

فرد الملك: أتعلمين شيئا؟ أنا أحس بالأمر ذاته تجاه الزبير.

فقالت: ما رأيك أن ندعوه غدا إلى غرفتنا، ونجتمع به وأولادنا وحدنا، حتى نشعره بهذا الأمر؟

فرد الملك: ما أجملها من مشورة، لك ذلك.

وعودة إلى يوم استدعى الملك الزبير إلى غرفته، إذ خاطب الملك الزبير: أهلا، بابني الزبير. تفضل بالجلوس.

فرح الزبير بما ناداه به الملك، وسرعان ما جلس على كرسي آخر مما أحاط بالطاولة.

صبت الجارية القهوة في فنجان للزبير، الذي أمسكه وطفق يشرب.

"هل تعلم كم أنت عظيم، أيها الزبير؟!" قال الملك مبتسما.

فعلت محيا الزبير ابتسامة عريضة، في حين أكمل الملك: الشكر لك، أيها الزبير، على تحقيق أحلامنا... الشكر لك يا بني.

فقال الزبير: بل ألف شكر لك، يا مولاي. فأنت لست ملك البقاء فحسب، أنت البقاء نفسها... إن كنت أنا قد حققت الحلم – ولا أزكي نفسي– فأنت هو الحلم نفسه.

لقد أخجلتني اليوم – يا مولاي – بفائض كرمك، وإن هذا لأسعد يوم في حياتي على الإطلاق، ولا أحسب أنه سيأتي علي يوم أسعد فيه أكثر من هذا... لا أعلم إن استحققت فعلا هذا التكريم!

فرد الملك: بل هذا قليل تجاه ما فعلتَه، لقد حققتَ لنا كل أحلامنا، وبصورة أجمل مما تخيلنا. أنت تستحق أكثر من هذا بكثير، وأنت بالفعل ثالث أعلى الرجال منزلة في المملكة بعدي وبعد ابني.

نظر الملك إلى ابنه، ثم أكمل: اليوم غدوتُ ملكا بسببك... ويوما ما سيغدو ريان ملكا بسببك أنت أيضا.

الملك بكلامه هذا عاتب ابنه عتابا غير مباشر، لكأنه يقول له: هذا الزبير الذي لطالما عاملته بالسوء، والذي أضمرت في صدرك الكره تجاهه، ها هو يحقق أحلامنا وأحلامك.

فهم ريان رسالة والده، ونظر في الأرض خجلا من الزبير.

"أيها الزبير" قالت الملكة، وأكملت: شكرا جزيلا... لقد خلصتنا من آلامنا ومن الكوابيس التي دمرت حياتنا. شكرا لأنك ثأرت لنا وحررت بلادنا وأعدت لنا ملكنا.

أنت ابني، أيها الزبير. أنت مني كريان وهدى تماما. أرجوك، أريدك أن تناديني أمي منذ اليوم وإلى أبد الأبدين.

تفاجأ الزبير من كل هذا، وقال فورا والخجل يعتريه: لا، يا مولاتي. أولا، لا يصح أن ترجيني لأفعل أي شيء، بل أنت تأمرينني أمرا. ثانيا، أنا لا أستطيع أنا أناديك أمي، فهذا شرف لا أستحقه.

فقالت الملكة فورا: أرجوك، نادني أمي.

سر الزبير كثيرا، ورد: أمرك، يا مولاتي... يا أمي.

نظرت الأميرة الفتية هدى بإعجاب إلى الفارس المغوار الذي بات موضع إعجاب لرجال المملكة، فكيف بنسائها اللاتي غدا رجل أحلامهن؟!

وظلوا جميعا جالسين يتبادلون الأحاديث والإثناءات والفرح منتشر بينهم، وبالفعل كانوا تماما عائلة واحدة، وأحس الزبير أنه يجلس مع أهله، وأحسوا هم بدورهم أنهم يجلسون مع واحد منهم.

وشاركوا جميعا في الحديث إلا ريانا الذي ظل يقلب نظره بين الأرض وأجزاء الغرفة، ويجتنب النظر إلى الزبير.

وبعد مدة استأذن الزبير من الملك، وغادر الغرفة.

وبينما هو يسير بالخارج متجها نحو غرفته، سمع صوت ريان يقول: أيها الزبير، انتظر.

التف الزبير، ونظر مستغربا إلى ريان الذي اقترب منه ثم نظر إلى الأرض، وحاول أن يقول: أنا...

لكنه ارتبك والتزم الصمت، ثم استجمع قواه وقال خجلا وهو ينظر إلى الأرض: أيها الزبير، أنا... أنا...

ثم تخلى الأمير عن كبريائه العظيم الذي عرف عنه، وقال مخاطبا من اعتبره من ألد أعدائه ذات يوم: أنا آسف.

ثم أضاف مرتبكا: أتمنى أن تسامحني، أيها الزبير. بالفعل أنا سأغدو ملكا ذات يوم... بسببك أنت. وبالفعل أنت السبب في تحقيق كل أحلامي... أريد أن... أريد أن نكون أصدقاء... بل حتى إخوة... لقد لعب الشيطان بي، واستسلمت له، وعاملتك بالشر والسوء، ولكنك لطالما بادلتني بالخير والطيبة!

ابتسم الزبير ابتسامة طيبة دلت على مدى الفرحة في قلبه مما حدث، بل إن هذا أسعده أكثر من تكريم الملك له أمام العشرات من أرقى أهل المملكة.

ثم قال: أنت ولي العهد، وأنت أمير... وملك في المستقبل... ليس عليك أن تعتذر، بل على الناس العاديين – وأنا منهم – أن يقبلوا أفعالك أيا كانت، وألا ينزعجوا أو يغضبوا منها أبدا... وهذا هو شعوري تجاهك منذ اللحظة الأولى... المحبة والأخوة.

ابتسم الأمير، ورفع رأسه وتبادل النظرات مع الزبير، ثم احتضن الرجلان أحدهما الآخر بحرارة لا تحدث إلا بين أخوين حقيقين من الأب والأم نفسهما.

***

بعد الحرب الثانية ضد جيش الهيجاء، عادت قبائل الكثبة فورا إلى ديارهم القديمة في صحراء الكثبة والتي تحررت كاملة. تلك الديار امتازت بجمال البناء والفخامة رغم كونها في الصحراء. وبعد حفل تتويج الملك قصي بمدة، استأذنه الزبير – الوزير الأول – بأن يزور ديار قبيلته في الكثبة، فوافق الملك.

توجه الزبير هناك والتقى أهله ومنهم سهيل، وسائر قبيلته، وقد فرحوا جميعا برؤيته، وتلقى أحر الإثناءات والإطراءات والتعظيمات كذلك، بعد كل ما فعله.

سر الزبير بهذا الاستقبال الحار سرورا عظيما، وسرعان ما أرسل في طلب شيوخ قبائل الكثبة الخاضعين له جميعهم.

بدأ قادة القبائل وكبار أهلها بالقدوم إلى أراضي قبيلة الأسد، وجعل الزبير يستقبلهم بحفاوة لا مثيل لها، وأكرم ضيافتهم في ديار قبيلة الأسد.

وظل الزبير يولم لهم ما لذ وطاب من الطعام، ويقدم لهم ما تشتهيه النفس من الشراب، لأيام كثيرة. كما أنه أرسل لكل قائد قبيلة الكثير من المال والهدايا والخدم، فقد أصبح الزبير يمتلك كثيرا من المال، بعد تحرير البقاء وما تبعه من تنصيبه وزيرا أول، وقربه الشديد من الملك.

وبعد أن اجتمع قادة القبائل جميعهم، دعاهم الزبير ودعا أفراد قبيلته إلى بناء كبير في أرض قبيلة الأسد، معد لاستقبال الضيوف والاجتماعات. احتوى البناء قاعة ضخمة اتسعت لعدد هائل من الحضور، ووجدت فيها كراسي فخمة مصنوعة من الخشب الباهظ، وكان بناؤها من الداخل والخارج جميلا. وهذا أمر أثار العجب، لأناس يسكنون الصحراء، لكن الأسد منذ أيام الشيخ عامر امتازوا بثراء فاحش، فاق ثراء كثير من أثرياء المدن.

تبادل الحاضرون التحايا والسلام وكثيرا من الحديث، وهم يستمتعون بما يضيفه الخدم لهم.

وبعد مدة، قال الزبير: يا قوم.

فأنصت الجميع للرجل الذي ملأ قلوبهم – بلا استثناء – مهابة وتوقيرا.

أكمل الزبير: إني فخور بكم منذ بداية الثورة الخالدة لتحرير البقاء، والتي بدأت بكم واعتمدت عليكم وانتهت بنجاح بكم... إني فخور أعظم فخر أنني واحد منكم... وما زاد فخري حتى بلغ عنان السماء، أنكم قبلتم بي - أنا أخيكم – سيدا لكم، ولا أزكي نفسي على أحد منكم.

كان الزبير داهية، وأجاد جيدا كسب قلوب الجماهير ومن يهتم بأن يتبعوه، وقد أسعد كلَّ الحاضرين كلامُه.

قال أحد قادة القبائل: بل أنت خيرنا، أيها الزبير، بل وخير رجال البقاء أجمعها.

فطفق عدد من الحاضرين يثنون على الرجل ويؤكدون كلامه.

ثم قال الزبير: بوركتم، يا إخوتي... بالفعل كنتم أشد من السباع في الحرب، وبيضتم وجهي أمام الملك، وأمام الكون كله... أنتم – أهلَ الكثبة – أعظم أهل البقاء على الإطلاق وأشجعهم، وإن لكم للفضل الأكبر في تحريرها، وكل هذا الكلام يشهد به القاصي والداني، وأولهم جلالة الملك قصي نفسه.

وإني – يا قوم – أشهدكم وأعدكم – ولست بالرجل الذي يخلف وعده – أنني سأفرحكم وسأسعدكم، من خلال كوني الوزير الأول في المملكة، ومن خلال قربي من الملك. فأبشروا برغد في العيش، وحياة سعيدة ليس لغيركم مثلها. أبشروا لكم ولنسائكم وأولادكم بأكثر مما اشتهته أنفسكم، أو لاح في مخيلتكم ذات يوم.

فسُرّ الحاضرون جميعا، واشتركوا جميعا بعلامات الفرح العارمة التي ظهرت واضحة على وجوههم جميعا بلا استثناء، وزادت في تلك اللحظات محبتهم للزبير أضعافا مضاعفة.

تنهد الزبير، ثم قال: ولأنني رجل يفي بوعوده – كما ذكرت قبل ثوانٍ – ولأنني لا أرضى أن أعيش وقد نكثت وعدا حتى لو طال عمره، فإن هنالك وعدا علي منذ زمن بعيد، وعلي أن أنفذه.

فقال قائد قبيلة: قل – يا مولانا – ونحن معك في أي شيء.

"نعم، نحن معك" قال أحد الحاضرين، وطفق آخرون يؤكدون ذلك.

قال الزبير: لقد وعدت أعز الناس على قلبي – سهيلا – بأمر.

نظر إلى سهيل الذي جلس بجواره، ثم أعاد نظره إلى الحاضرين وأكمل: لقد وعدته أن يصير شيخ الكثبة أكلمها عندما يكبر... والآن سأنفذ وعدي ذلك، وها أنا أتنازل عن قيادة قبائل الكثبة، وأعلن سهيلا شيخا على قبائل الكثبة أكملها من أعظم رجل فيها إلى أبسط واحد من أهلها.

صُدم الحاضرون، وأولهم سهيل، مما سمعوه، واجتاحتهم دهشة عظيمة.

استاء قيس والداهية كثيرا مما سمعاه، لمحبتهما العظيمة للزبير، ولأنهما آمنا إيمانا عظيما أنه أفضل من يمكن أن يقود بدو الكثبة، وأن كونه الشيخ في مصلحتهم. لكنهما في تلك اللحظات المتوترة آثرا أن يلتزما الصمت؛ لأنهما يعلمان مصير من يجادل الزبير في أمر كهذا.

سهيل الذي كان في تلك الأثناء في العشرينات من عمره، نظر برهبة في عمه الزبير، ثم قال بخوف: أنا أرفض ذلك، يا عمي.

ثم قال قائد قبيلة: لا يمكن أن يحدث ذلك أيها الزبير... بقاؤك شيخا لنا لمصلحة الكثبة.

ثم قال قائد قبيلة آخر: سهيل رجل عظيم، لكن ليس في البقاء كلها من هو مثلك أو ند لك، أيها الزبير. لماذا لا تظل أنت الشيخ، في حين يتعلم منك سهيل؟! ويوما ما – بعد عمر طويل لك – سيصبح هو الشيخ، وسيكون حينئذ قائدا صنديدا مثلك الآن.

بدأ قادة القبائل الآخرون، وعدد من كبار قبيلة الأسد وكبار القبائل الأخرى، يتحدثون بكلام مماثل، ويحاولون جهد قدراتهم أن يثنوا الزبير عن قراره.

غضب الزبير غضبا عظيما، واحمرت عيناه، وظهر الفارس الغضوب واغتال بسرعة فائقة الرجل الحاني الحليم الذي تحدث قبل لحظات مع القوم.

ثم صرخ: هذا أمر... هذا ليس اقتراحا أشاوركم فيه... منذ متى يعصي بدوي حر أمر شيخه؟! ومن أعطاكم الصلاحية لتقولوا إنني يجب أن أبقى الشيخ، وإن سهيلا ليس بالرجل المناسب؟!

جمدت الدماء في عروق جميع الحاضرين، واحتل الخوف صدورهم، واتسعت عيونهم وهي تنظر إلى الأسد الهصور الذي أكمل: أنا لن أظل شيخا للكثبة، ومنذ هذه اللحظة سهيل هو الشيخ.

ثم أشار بأصابعه، وهو يقول: من لديه كلام غير ذلك، فليقله، وسيأتي الجواب عليه من حسامي.

التزم كل الحاضرون الصمت في ذلك المشهد المهيب المخيف.

سهيل كان منذ بدء غضب الزبير، يبكي بحزن شديد، حزنا على أنه سيحل محل رجل أحلامه وقدوته.

نظر الزبير إلى سهيل، وقال بغضب: امسح دموعك، أنت رجل.

فنفذ سهيل الأمر، وتوقف عن البكاء.

وفجأة قال الزبير بحنية وهدوء ناقض تماما ما اعتراه من غضب قبل لحظات: أنا الزبير، أبايعك الآن – يا سهيل – شيخا على الكثبة كاملة.

احتضن سهيل والزبير أحدهما الآخر.

ثم بدأ الحاضرون بمبايعة سهيل واحدا واحدا، حتى بايعوه جميعا.

***

بعد زمن ليس بطويل، بدأ الزبير بتنفيذ وعوده لمن ساعدوه في الثورة وفي إنجاحها. وقد طلب من الملك عدة طلبات، وافق الأخير عليها جميعا. فأعلن الملك المغيرة أميرا على مدينة الفيحاء، ومنحها حكما ذاتيا فيما يخص الشؤون الداخلية، وأعفاها من الضرائب إعفاء كاملا. وكذلك خصص الملك نصف عشر بيت مال الدولة لأمين لمدة عشر سنوات قادمة تكريما له. شكل ذلك مبلغا هائلا جدا، لكن أمينا استحق كل هذا التكريم وأكثر بنظر الزبير والملك. أما سليم، فقد أعاد الملك له قصر والده الهيثم ليسكن فيه هو وأمه وأختاه. ولاحقا أعلن الملك أمينا وسليما والزبير أمراءَ، ولم يكتف بذلك بل منح لقب الإمارة لعوائلهم وعوائل المغيرة، فبات المغيرة وأمين وسليم وحورية وسمية والزبير يعرفون جميعا لدى العامة بأمراء الثورة.

كل هذه الطلبات تمت بإيعاز من الزبير. مما أفرح أمراء الثورة فرحة عارمة. وجعل الزبير ينطلق جوادا سريعا في مضمار محبتهم له في قلوبهم.

***

بعد مدة أرسل الملك قصي في طلب الوزير الأول الزبير. أتى الزبير إلى قاعة في قصر الضيغم، حيث جلس الملك في نهاية القاعة بينما امتلأت القاعة بالحرس والخدم. حيا الزبير الملك الذي جلس على كرسي المُلك، ثم جلس على أحد الكراسي الفاخرة التي انتشرت يمينا ويسارا على جانبي الملك. وضع أحد الخدم صحنا كبيرا من الفاكهة الشهية على طاولة صغيرة أمام الزبير، كما وضع كأسا كبيرة من العصير اللذيذ أمامه. وكان أمام الملك طاولة مماثلة عليها صحن وكأس مماثلين.

تناول الملك تفاحة وقضمها، ثم قال للزبير: تناول مما أمامك.

فشرع الزبير يقشر برتقالة. لم تعد الرسميات تحجز بين الزبير والملك، فقد باتا بالفعل أباً وابنا.

ثم قال الملك: أيها الزبير، إنني لأشعر –وشعوري بالعادة لا يخطئ– أنني لم أكرمك بما فيه الكفاية، وأن سائر أمراء الثورة كرموا أكثر منك، رغم أنك الأهم والأجدى بالتكريم، فأنت صاحب فكرة الثورة، وأنت العنصر الأهم في إنجاحها. وأرى أنك آثرتهم على نفسهم في طلباتك مني لتكريمهم، في حين نسيت نفسك.

أيها الزبير، أخبرني بأي شيء يمكنني أن أفعله لمكافأتك.

ابتسم الزبير فرحا بكلام الملك، وقال بهدوئه ورزانته المعهودين: مولاي، لقد أكرمتني أفضل تكريم، فقد عينتني الوزير الأول، وأمددتني بالمال أنا وقومي. مولاي، أنا وأهل الكثبة لا يهمنا شيء ما دام الملك وأهله بأتم حال.

أعجب الملك بتواضع الزبير وقناعته، لكنه قال: أيها الزبير، هذا أمر لن أقبل به. عليك أن تخبرني كيف أكرمك أكثر فأكثر.

فقال الزبير: يا مولاي، أنا أرفض أي وجه من أوجه التكريم، فقد حصلت على حاجتي وأكثر.

عندها عبس الملك، ثم قال: أيها الزبير، أنا مصر على طلبي، أتمنى منك ألا تتعبني وأنا في هذا العمر في هذا الجدال. أخبرني ماذا تريد، وكيف أسعدك أنت وأهلك.

ومع إصرار الملك، لم يعد أمام الزبير بد. تنهد ثم قال: يا مولاي، إنني أرجو أن تكرم قبائل الكثبة لا سيما قبيلتي الأم قبيلة الأسد، وأن تعطيهم مناصب متقدمة في الجيش والدولة وبأعداد كبيرة.

ثم نظر الزبير إلى الأرض خجلا – على غير عادته – ثم قال: يا مولاي، أنا لا أحب أن أطلب من أحد أي شيء، لا سيما ممن هم غالون جدا على قلبي مثلك.

ابتسم الملك، وقال: لا عليك، يا بني. أنت ابني، وليس على الابن حرج فيما يطلب من أبيه.

فرح الزبير كثيرا بكلام الملك، واعتباره له ابنا له.

في حين أكمل الملك: لك ما طلبت... وعلاوة على ذلك سيكون لكم مبلغ كبير من المال، ليس لسواكم مثله.

نظر الملك بتمعن إلى الزبير، وأشار إليه بأصبعه وهو يقول: أنتم أهل الكثبة، السبب في إنجاح الثورة، ويجب أن تكونوا ثاني أعز الناس بعد الضياغم في المملكة برمتها.

ابتهج الزبير أشد ابتهاج بهذا الكلام، وشعر بالفخر البالغ، وشعر قومه – أهل الكثبة – بشعور مماثل، عندما علموا لاحقا بكلام الملك هذا.

ومنذ تلك اللحظة حقق الملك وعده للزبير، وبدأ أهل الكثبة ينخرطون في الجيش والدولة بأعداد كبيرة، واحتلوا أعلى المناصب على الإطلاق فيهما، وخصص الملك لهم مبلغا كبيرا هائلا من الأموال من بيت مال الدولة.

***

بعد أن منح الملك أمراء الثورة ما منحهم إياه من التكريم والألقاب، بناء على طلبات الزبير، أتى أمين وزوجته سمية لزيارة الزبير وشكره على معروفه.

لقد أقام الزبير منذ تعيينه وزيرا أول في المملكة، في قصر الضيغم، القصر نفسه الذي أقام فيه الملك وآله. وقد خُصص للزبير جناح كامل في القصر اشتمل على غرفة نوم، وعدد كبير من الغرف، منها ما كان لاستقبال الضيوف، ومنها ما كان مجالس خاصة لجلوس الزبير وراحته، وقد اشتمل الجناح، على شرفات كثيرة أطلت على باحة القصر عظيمة الاتساع، وقد أطلت هذه الشرفات - في منظر جميل - على السماء.

ولما علم الزبير بقدوم أمين وسمية لزيارته، استقبلهم في أكبر شرفات جناحه في القصر، حيث وُجدت هنالك مجموعة من الآرائك المصنوعة من الخشب البني الفاخر المنحوت والمزخرف بجمال وإبداع، وقد علاها فراش مريح فاخر، وعدد من الوسائد الفاخرة المريحة، وقد تلونت هذه الفراش والوسائد بألوان متنوعة زاهية وجميلة، وأمام الآرائك طاولات كثيرة مليئة بالفاكهة الشهية وما لذ من الطعام والشراب.

وقد حملت سمية صرة صغيرة.

حالما رأى الزبير أمينا، احتضن الرجلان أحدهما الآخر بحرارة بالغة، لا يفعل مثلها إلا الإخوة.

وبعد العناق الحار، تبادل الرجلان التحية.

ثم نظر الزبير إلى سمية، وقال: كيف حال سيدتي؟

"بخير، أيها الزبير" قالت سمية مبتسمة، ثم سألت: وأنت كيف حالك؟

"بأحسن حال" قال الزبير، ثم أضاف: تفضلا بالجلوس.

فجلس أمين وسمية أحدهما بجانب الآخر على إحدى الآرائك، ثم جلس الزبير على آريكة أخرى.

وسرعان ما صب أحد الخدم الكثيرين الواقفين، القهوة للضيفين ثم صبها للزبير، وأنشؤوا جميعا يشربون.

ثم قال أمين بهدوئه وأدبه الجم: لقد اشتقنا لك – أيها الزبير – كثيرا.

"بالفعل، لقد اشتقنا لك شوقا بالغا" قالت سمية.

فرح الزبير الذي رد: ليس كشوقي إليكم.

قال أمين: أريد أن أشكرك شكرا جزيلا، أيها الزبير.

فسأل الزبير: علامَ؟

أجاب أمين: على كل شيء... من البداية وحتى النهاية... وأرى أن خيرك سيستمر وسيأتي من قبلك المزيد والمزيد. شكرا لك، على تحرير البقاء، وهذا هو الأهم... وشكرا لك على ما طالنا جميعا من خير والذي منبعه اقتراحاتك على الملك.

قال الزبير: هذا واجبي، يا أمين. وأنتم تستحقون أكثر من ذلك بكثير.

ابتسمت سمية ووضعت يدها على فخذ زوجها، وقد تقاربا كثيرا وتراصت أجسادهما أحدها على الآخر. ومن جديد، وكالمرات الكثيرة التي سبقت، احتار الزبير واندهش؛ بسبب طريقة تعامل سمية مع أمين، ومقدار المحبة والمودة بينهما.

ثم قال أمين: أنت أعظم صديق لي، وأقرب الناس على قلبي.

ابتهج الزبير أكثر وأكثر، وقال: وأنت لا تعلم ما عظم منزلتك عندي.

ثم أمسكت سمية الصرة التي معها، وفتحتها، وأخرجت منها خنجرا ذهبيا مقبضه وغمده بأكملهما ومرصعا بالألماس.

هال الزبير منظر الخنجر، الذي لم يشهد خنجرا –بل سلاحا – بمثل روعته وفخامته وجماله، لا سيما مع الدقة والحرفية التي صنع بها ورصع من خلالها بالألماس.

ثم قالت سمية: أنا لم أر قط أحدا أشجع منك وأكثر منك مروءة ولا أطيب قلبا... لقد أسعدت مئات الألوف في البقاء بمجهودك ومثابرتك... وكما أهديتنا عشرات الهدايا التي سيظل فضلها علينا أبد الدهر... أنت بدورك تستحق هدية، رغم أن ما سأقدمه لك شيء بسيط، مقابل ما قدمته لنا جميعا ولأهل البقاء أجمعهم.

أمسكت الخنجر، ثم وضعته على كفيها بعد أن بسطتهما، وقالت: هذا الخنجر من بلاد الرملاء، كنت وزوجي هناك في رحلة من إحدى رحلاته التجارية، فاستقبلنا ملك الرملاء، وأكرمنا، وأصر أن يهدينا هذا الخنجر، وهو أثمن ما نملكه. هو شيء بسيط وحقير مقارنة بما فعلتَه، ولكن أتمنى أن تقبله.

ثم قامت ومدت يديها المبسوطتين وعليها الخنجر باتجاه الزبير.

والرملاء هذه مملكة بعيدة جدا عن البقاء، عرف أهلها بالثراء الشديد، وملوكها عرفوا بالبذخ الشديد، مما فسر روعة الخنجر وجمال صنعه.

زاد تفاجؤ الزبير، ثم نهض وأخذ الخنجر من كفيها.

أحكم قبضته حول الخنجر وظل واقفا وهو يقلب ناظره بين الخنجر الساحر وسمية، ثم شرع يقلبه ويتفحصه بإمعان بنظراته التي التهمت الهدية!

بعد مدة جلست سمية، ثم جلس الزبير.

نظر إليها وهو ما زال ممسكا بالخنجر، وقال: هدية عظيمة!

لم يُجِدِ الزبير التعامل مع النساء؛ لأنه بدوي اعتاد قسوة البادية وترحال أهلها، لذلك لم يستطع التعبير عن فرحته لسمية التعبير الحقيقي.

ظل يحدق في الخنجر، ثم أكمل حديثه مع ضيفيه...

***

ومرت الأيام، وأتى المغيرة لزيارة الزبير. خرج الزبير لاستقبال ضيفه، واستقبله في إحدى شرُفَ جناحه في قصر الضيغم.

حالما التقى الرجلان، احتضن أحدهما الآخر، والزبير يضع على خصره الخنجر الذهبي الذي أهدته إياه سمية.

كلاهما كان رجلا مهيبا يحترمه الجميع، وقد تبادل الرجلان مشاعر الاحترام هذه بينهما كذلك.

رحب الزبير بضيفه وجلس الرجلان، وضيف الخادم المغيرة ثم الزبير، وطفقا يشربان ويأكلان.

تحادث الرجلان في مواضيع مختلفة، ثم قال المغيرة: أيها الزبير، أريد أن أؤكد لك مدى شكري على كل ما فعلته.

تنهد المغيرة ثم قال: لطالما ظننتُ أنني أعظم رجل في البقاء... لكنني بعد أن عرفتك جيدا أيقنت أن هنالك من هو أقوى وأعظم... أدركت أنني أقل منك بكثير...

شبك المغيرة يديه، ثم قال: أنت قدوة لكل الرجال في قوتك وعظمتك... لكن الأهم هو أنك تفي بوعودك، صادق، عظيم المروءة... وعدتني قبل سنوات طويلة بأمر بدا صعبا، أن تجعلني أميرا على الفيحاء، وأن تمنحها الحكم الذاتي... وبعد سنين كثيرة أوفيت بوعدك، كما تفعل دائما ومع الجميع.

ابتهج الزبير، وقال: لا تستسمن ذا ورم... وأنت رجل عظيم جدا وقوي جدا كذلك، ولا تقل عني.

فقال المغيرة: من الواضح أنك تتسم بالتواضع إلى جانب كل تلك الصفات!

وأكمل الرجلان حديثهما وكلاهما سعيد؛ لأنه يمتلك صديقا عظيما يشهد شهادة عظيمة له.

***

المغيرة لم يأت وحده إلى قصر الضيغم بل صحبه أحدهم، هذا ما عرفه الزبير في اليوم التالي لزيارة المغيرة له. فقد أتت حورية إلى الزبير يصحبها عكرمة، الذي إن فارقها ظلها فلن يفارقها!

أتى أحد خدم الزبير إلى إحدى غرف جناح الزبير في قصر الضيغم، وأعلمه بمقدم حورية. تفاجأ الزبير كثيرا، وتذكر لقاءه بها بعد الحرب الأولى ضد ياقوتة، وخشي أن يتكرر الأمر. لكنه سرعان ما خرج لاستقبالها، بعد أن جعل أحد خدمه يرشدها إلى إحدى شرفات الجناح حيث الكراسي والطاولات الفخمة والهواء العليل والمنظر السار للقلوب. أتى الزبير فوجد حورية جالسة، وعلى مسافة ليست بقريبة ولا ببعيدة، وقف عكرمة وهو يضع يديه الاثنتين خلف ظهره، وهو ينظر بنظرات قاسية جدا حادة، ويكاد لا يحرك عيونه ولا أي جزء من جسده، لكأنه تمثال.

وقف الزبير أمام حورية، وشعر بارتباك كبير، والتزم الصمت وهو ينظر إلى جسدها المكتنز المغري!

ابتسمت إحدى ابتساماتها المثيرة، وبعد حين قالت وهي تبتسم الابتسامة ذاتها: ألا ترحب بضيوفك؟! ثم رققت صوتها وقالت بغنوج شديد ودلع هائل: أيها الزبير.

زاد ارتباكه، لكن سرعان ما استجمع قواه، وقال: أهلا بك، حللت أهلا ووطئت سهلا.

وظل واقفا، فقالت بعد مدة: اجلس.

فجلس.

عندها ضيف أحد الخدم حورية فنجانا من القهوة، وقرب منها طاولة عليها ما لذ من الفاكهة والحلوى، ثم اتجه إلى عكرمة ليضيفه فنجانا من القهوة، فمد الفنجان تجاهه، لكن عكرمة – ذلك الرجل الذي أثار حفيظة كل من رآه – ظل على حاله تلك كالصنم وهو يضع يديه خلف ظهره، فنظر الزبير إليه باستغراب، وأحس أن هذا الرجل امرؤ خطير جدا وليس بالهين. ظل الخادم مادا يده بالفنجان إلى عكرمة مدة طويلة، حتى ضحكت حورية بصوت غنوج يثير حتى الصخر، ثم قالت: لن يقبلها منك، فدعه.

فتركه الخادم، ثم توجه إلى الزبير، وضيّفه فنجان القهوة فأخذه منه.

أخذت ترتشف من القهوة ثم أخذ بدوره يفعل الأمر ذاته.

ثم قالت بصوت ناعم: كيف حالك؟ وكيف حال أهل باديتك؟

نظر إليها، لكنه سرعان ما أشاح بنظره عنها، ثم أجاب: بخير، وأهلي بخير.

ثم قالت بابتسامة وبإيماءة مثيرة: يبدو أن الصحراء لا يخرج منها إلا الأسود... وهذا يفسر أمورا كثيرة بخصوصك.

صوتها المغري وإيماءاتها المثيرة ظلت مستمرة حتى نهاية الحوار، الذي تخللته ضحكاتها المغرية بين الحين والآخر.

شعر بخجل عظيم من كلامها، وظل يتجنب النظر إليها.

ثم قالت: أيها الزبير... هل تعلم أنك أنك أعظم رجل في الممالك الثلاث؟!

ثم قالت بقمة الأنوثة والدلال: هل تعلم هذا؟

عندها هزمت الزبير رغبة عارمة في النظر إليها، فاستسلم لذلك، ونظر إلى حورية وتفحصها من أعلاها إلى أسفلها، ثم ثبت نظره عليها، وهو يتساءل كيف لمخلوق أن يمتاز بكل هذا الإغواء.

"بالتأكيد أنت تعلم هذا" قالت بالصوت ذاته والطريقة ذاتها.

ثم قالت وهو ما زال ينظر إليها: أريد أن أخبرك أمرا هاما... فركز معي.

تذكر دائما أنني مستعدة لفعل أي شيء تريده، أيا كان، مهما بدا مستحيلا.

اتسعت عيناه مندهشا مما قالته، لكنه التزم الصمت.

"شكرا من جديد، أيها الزبير" قالت.

فقال بعد مدة: العفو.

ثم قالت: علي أن أرحل الآن، مع السلامة.

فقال: مع السلامة.

نهضت فنهض فورا، وظل واقفا.

ثم طفقت تغادر المكان، وفورا تحرك الصنم الميت الذي كان واقفا، ومشى عكرمة خلفها.

ظل الزبير ينظر إليها حتى اختفت عن نظره، عندها انطلق فورا إلى غرفة نومه، وأغلق الباب على نفسه.

جلس على سريره، ووضع كوعيه فوق ركبتيه، وأرخى رأسه على كفيه، وهو مطأطئ إياه، ناظرا بألم في الأرض.

بدأ يفكر بجمالها وجاذبيتها اللذين لا يقاومان، لكنه لام نفسها وفكر:" كيف لا أقاوم هذا، والمغيرة صديقي وحبيبي وأخي، وأنا الذي قاومت الملوك والأمراء؟!"

لقد شعر في تلك اللحظات شعورا هائلا بالذنب، لأنه أحس أنه خان واحدا من أعز أصدقائه وأكثر الرجال قوة وشهامة وشجاعة في البسيطة، والذي لولاه ما تحقق حلم الزبير وكل أهل البقاء. وزاد شعوره بالذنب وهو يتذكر كيف استسلم لصوتها وثبت نظره على جسدها.

وفكر أثناء هذا: "لماذا تفعل كل هذا؟! وماذا تريد؟! ويا ترى هل تفعل هذا مع رجال آخرين غيري والمغيرة؟! وهل يدري المغيرة عما يجري حوله؟!"

وفي تلك اللحظات العصيبة، قرر أنه لا بد وأن يحذر جيدا في تعامله مع هذه المرأة.

***

منذ انتصار البقاء وإعلان المملكة وإقامة الزبير في قصر الضيغم، اعتاد سليم على زيارة الزبير في قصره، فاعتاد أن يأتيه مرة كل أسبوع وأحيانا مرتين؛ إذ إن قصر سليم لم يبعد كثيرا عن قصير الضيغم. اعتبر الزبير سليما ابنه، واعتبر الأخير الزبير أباه. وبعد استقرار الأمور في المملكة الجديدة، لم يكتف الزبير بمنح سليم القصر، بل أعطاه مبلغا ضخما من المال، كما خصص له بداية كل شهر مبلغا كبيرا من المال. فعاش سليم وأمه وأخواته في رغد وسعادة وهناء.

وفي إحدى الزيارات، أتى سليم لزيارة أبيه، فاحتضن الزبير وسليم أحدهما الآخر بقوة، وقد اعتادا هذا في كل مرة يلتقيان فيها.

"كيف حالك، يا أبي؟" سرعان ما قال سليم.

فرد الأب: بخير، يا بني.

وهكذا كان دائما حوارهما فسليم يناديه ب "أبي"، والزبير يناديه ب "بني",

وعلى خلاف اغلب الزوار، اعتاد الزبير استقبال سليم في إحدى غرفة جناحه، وأحيانا في غرفة النوم الخاصة به بدلا من إحدى الشرفات.

ولم يسعد الزبير بلقاء أحد، كما سعد بلقاء سهيل ابنه أخيه، ثم سليم.

جلس الاثنان في أكبر غرف القصر، حيث انتشرت الكراسي الفخمة هنا وهناك، وتدلت من السقف ثرية ضخمة، وتزينت الحيطان بالزخارف والسيوف والخناجر النادرة.

تحادث الرجلان، حتى قال سليم: شكرا، يا أبي... ألف شكر على كل شيء.

عبس الزبير، وقال: بني، كم مرة أخبرتك ألا تظل تكرر هذا الكلام... أنت تكرره في كل زيارة، مما يشعرني بوجود حاجز بيننا، هل سمعت يوما عن ابن يشكر أباه كلما رآه؟!

فقال سليم: ولكنك لست أي أب! أنت أعظم أب في التاريخ!

ابتهج الزبير أيما ابتهاج من كلام سليم الذي أحبه الأول كثيرا.

ثم أضاف سليم: لقد جعلتني أسعد الناس في كل البقاء على اتساعها، من خلال كل ما منحتني إياه. وأهم من المال والقصر... هو أنك أبي...

ارتجف صوت سليم ونظر في الأرض ثم أضاف بارتباك: أنا أحبك حتى أكثر من أبي الراحل، وأكثر من أمي وأي أحد.

قال جملته الأخيرة بخجل عظيم؛ فقد اتسم بشدة الاستحياء وبالضعف، لا سيما مع طريقة تربية أمه له منذ نعومة أظفاره.

فنظر إليه الزبير بحنية يندر أن تعانق نظراته، وقال: أنت وسهيل ابن أخي، أعز اثنين على قلبي في هذا الكون، يا بني.

***

وهكذا عاش الملك وعاش أمراء الثورة جميعا، حياة سعيدة مليئة بالرغد والرخاء والفخر، ومحبة الشعب العارمة لهم؛ لأنهم فعلوا المستحيل وحلم العقود بتحرير البقاء. وقد ربطت الملكَ وأمراء الثورة، بالزبير علاقاتُ المحبة والإخوة، فالزبير والأمير ريان وأمين والمغيرة إخوة والزبير ابن للملك والملكة، وأب لسليم، وقد أحبه كل أفراد عوائلهم بلا استثناء. هذه الصداقة والمحبة والمشاعر العائلية كانت تاريخية لا مثيل لها ربما في التاريخ كله!

بالنسبة للجميع ومنهم الملك وأمراء الثورة، الزبير كان بطلا، ومحبتهم له جعلته يشعر بفرحة عارمة؛ لأن هذه المحبة أتت من هؤلاء الذين هم رجال ونساء قمة في العظمة.

***

ثبت الملك جاسما قائدا للجيش، وثبت ابن جاسم عاصما قائدا للحرس الملكي.

ومر عامان وبعدها اتخذ الملك قرارا بخصوص ابنه الأمير ريان.

تناول الملك وزوجته وابنه وابنته الفطور، في غرفة نومه صبيحة يوم مشمس عليل الجو. وبعد أن أنهوا الإفطار طلب الملك أن يحادث ريانا وحدهما، فغادرت الملكة والأميرة الغرفة.

كان الملك والأمير يجلسان عندما قال الملك: كما تعلم يا ريان، لطالما اعتاد ملوك الضياغم على إرسال ولاة عهدهم، بل وعدد من الأمراء إلى مدن بعيدة يحكمونها وحدهم، وذلك لتعليمهم الاعتماد على أنفسهم، وإكسابهم الثقة الكافية بأنفسهم، وجعلهم أقوياء صلبين، مما يمكنهم من الحكم بحكمة وبراعة عندما يستلمون الملك والحكم. وقد أرسلني عمي الملك هزبر، إلى عدة مناطق لإدارتها، إبان فترة حكمه.

في هذه اللحظات زاد تركيز ريان مع أبيه الذي أكمل: ولهذا كله، قررت إرسالك إلى مدينة بحران. ستكون أميرا على المدينة بل على كامل المنطقة الشرقية من مملكتنا.

نظر الملك بحنية الأب إلى ابنه، ثم أكمل: أريدك أن تثري خزينة الدولة وأن تجعل الأناس في المنطقة الشرقية أثرياء جدا... هذا تحدٍ ليس بالسهل، لكنني أثق بك – يا بني – ومتأكد من أنك ستنجح في هذه المهمة أتم الثقة، فقد أبديت شجاعة وفروسية لا مثيل لها في حربي التحرير.

و"حربا التحرير" هو اللقب الذي استخدمه كل أهل البقاء، للحربين اللتين قادهما الملك قصي ضد ياقوتة والهيجاء.

ابتسم الأمير لإثناء أبيه عليه، وفرح جدا بقرار والده تسليمه المنطقة الشرقية بأكملها.

وقد تعمد الملك قصي إرسال ابنه إلى هذه المدينة بالذات، فقد كانت هذه المدينة التي أطلت على البحر الرمادي، بالغة الجمال، كثيرة الرفاهية، وقد أراد الملك أن يعوض ابنه عن سنوات الحرمان والهرب والاختباء في جبال اليبس، لا سيما وأنه عامله فيها بقسوة بالغة متعمدة.

وبينما ابتسم ريان ابتسامة عريضة، قال: أمرك، يا مولاي. اعتبر الأمر منتهيا، سأحقق لك كل شيء طلبته. سأثبت لك أنني أهل للحكم، وسأجعل أهل المنطقة الشرقية أثرياء مرفهين كما طلبت.

وهكذا مضى ريان إلى بحران واعتبر ذلك تحديا وأراد أن يثبت للجميع - والأهم لنفسه – أنه ناجح ومتمكن وقوي.

وقد سعى للحصول على المال وإثراء خزينة الدولة، لكن المشكلة أن المملكتين العدوتين لا يمكن تطوير التجارة معهما كثيرا، بعد كل ما حدث وما سُفك من الدماء. والمشكلة الكبرى أن

الممالك الأخرى كلها كانت بعيدة عن البقاء كثيرا، وتحتاج أشهرا عدة من السفر. لكن إصرار ريان على إثبات نفسه جعله يفعل المستحيل ويتوجه إلى هذه الممالك، فرغم بعدها الشديد أصر على زيارتها والاتجار معها. أحاط بالبقاء جنوبا بحر الأشرعة وهو بحر كبير، وأقرب مملكة إلى البقاء في هذا البحر هي مملكة الودعاء. أما شمالا فيقع البحر الرمادي وهو أضخم من بحر الأشرعة بكثير، وفي أقصى شماله تقع سلطنة القَدْمَاء وهي أضخم دولة سمع بها أهل البقاء. كما يقع في البحر الرمادي جزيرة الأنوار الصغيرة. وقد قرر الأمير ريان زيارة هذه المناطق الثلاث فراسل ملك كل منها، وأعلمه نيته زيارة مملكة كل واحد منهم، لتطوير العلاقات التجارية بين البقاء وبين المملكة المعنية، ولمعرفة ما ينقص تلك الممالك من البضائع المتوفرة في البقاء، ولمعرفة ما لدى كل مملكة منها من بضائع تنقص أهل البقاء. فما وجد من ملوك هذه الممالك سوى الترحيب والتشجيع والحث على زيارتهم.

***

بعد ما يزيد على العام بشهرين تقريبا، أتت الزبير فكرة رغب بإعلام الملك بها. توجه إلى غرفة النوم الخاصة بالملك، فوجده جالسا على الكراسي الثمينة في الغرفة، وبجواره الملكة.

فقال الزبير وهو ينظر إلى الملك: تحيتي، يا مولاي.

فقال الملك: أهلا بالغالي.

ثم نظر الزبير إلى الملكة وقال: كيف حالك، يا أمي؟

فقالت: بأتم خير، وكيف حالك، يا بني؟

فرد: أنا بخير، أماه.

وقد اعتاد منذ إعلان المملكة مناداتها ب "أمي" وهي اعتادت مناداته ب "بني".

تحادث الزبير والملك والملكة، وسأل الملك والملكة عن حال الزبير وآخر أخبار أهله والكثبة، في حين بادلهم الزبير السؤال عن حال الأمير والأميرة وسائر أفراد العائلة المالكة.

مضى وقت إلى أن قال الزبير: أريد أن أحادثك في مسألة معينة، يا مولاي.

ابتسمت الملكة، وقالت برزانة: أنا سأغادر؛ لترتاحوا وأنتم تتحادثون.

فقال الزبير فورا: لا، أمي. ابقي معنا.

فردت: أنا لا أحب أن أتدخل في أمور الحكم.

فرد الزبير: وجودك ليس تدخلا؛ فلا شيء نخفيه عنك على الإطلاق.

فقالت: من تدخل فيما لا يعينيه لقي ما لا يرضيه، أيها الزبير.

قامت الملكة وغادرت الغرفة.

قال الملك: تفضل، أيها الزبير. حادثني بالأمر.

فقال الزبير: مولاي، المرء الشهم يشكر من أحسن إليه. وكونك أكثر أهل البقاء شهامة، أراك أكثرهم جدارة بشكر من يحسن إليك.

"من تقصد، أيها الزبير؟!" سأل الملك بتعجب وفضول.

فأجاب الزبير: لقد انصب تركيزك وتركيزي بعد نهاية الحرب وإعلان قيام المملكة، على تكريم أمراء الثورة. ولكنني نسيت أناسا كان لهم دور بارز جدا في الثورة، لا يقل عن أمرائها، بل ربما يزيد.

تنهد الزبير ثم أضاف: مولاي، لم لا نكرم الأقوياء الثلاثة، وجاسما وعاصما؟! بعد ما أدوه في الحرب، هم يستحقون أفضل تكريم.

"أحسنت، أيها الزبير" قال الملك المسرور بكلام جليسه فورا، وأكمل: إنها لخير مشورة. ولكن كيف نحقق ذلك؟

فأجاب الزبير: مولاي، أرى أن نرفعهم جميعا إلى رتبة عميد أول، بعد أن نستحدث هذه الرتبة لتكون بين رتبتك قائدا عاما للجيش ورتبة العمداء العاديين. وهذه الرتبة الجديدة لا يشاركهم فيها أحد من سائر أفراد الجيش. وأرى أن يتم كل هذا بحضور كبار أهل المملكة وعلى رأسهم جلالتك وسمو الأمير ريان، ومن أمكن من أفراد العائلة المالكة، ووزراء الدولة، وكبار أهل المملكة وأعيانها.

فرد الملك بابتسامة عريضة: بوركت، أيها الزبير. لا أدري من أين تأتيك هذه الأفكار الجهنمية؟! هل تحادث الجن أم ماذا؟!

ضحك الزبير على مزاح الملك.

ثم قال: وأرى أن نعطيهم مكافآت مالية ضخمة، وأن نمنح كلا منهم منزلا فخما جدا خاصا به.

"لك ذلك، يا بني" قال الملك.

تأثر الزبير بكلام الملك وتنهد.

ثم قال الملك: ولكن للأسف هنالك شيء واحد سينغص احتفالنا.

"وما هو؟" سأل الزبير على الفور.

فأجاب الملك: للأسف ريان لن يستطيع الحضور.

عبس الزبير عبوسا عظيما، وتساءل: لماذا، يا مولاي؟

فأجاب الملك: ريان الآن عائد من رحلته إلى مملكة الودعاء، وهو يحتاج ما يقرب الأسبوع للعودة. بعد ذلك سيمضي ما يقرب الشهر والنصف في البقاء، ثم سيسافر شمالا نحو مملكة

القدماء، وسفره هذا يحتاج ثلاثة أشهر، وسيظل هنالك تسعة أشهر. ولا نريد - في الشهر والنصف الذي سيمضيه هنا – أن نرهقه بالسفر والترحال بين بحران والمعتزة.

فقال الزبير فورا: ولكن، يا مولاي، هو سيقيم في البقاء شهرا ونصف!

فرد الملك: نعم، ولكنه يحتاج ما يقرب الأسبوعين من السفر للقدوم إلى العاصمة، وأسبوعين للعودة إلى بحران، وبالتالي لن يتبقى له سوى أسبوعين للراحة قبل الرحلة الطويلة المتعبة. ونحن أهل يابسة ولسنا أهل بحر معتادين على السفرفيه. فدعه يرتاح.. ولا أظنه يستطيع تأجيل رحلته إلى القدماء، فقد سمعت أن ملكها أعد ما أعده من مراسم لاستقبال ريان. ولا تنسى حماسة ريان لزيارة القدماء لأنه يريد إثبات نفسه بأية طريقة.

فقال الزبير: ولكن لا بد وأن يحضر، فلا أريد أن يستاء الأقوياء الثلاثة أو جاسم من عدم مجيئة.

فقال الملك: لماذا أنت مصر كل هذا الإصرار؟! لا عليك، سأطلب منه أن يرسل كلمة تلقيها أنت نيابة عنه.

سكت الزبير لمدة ثم سأل: ولكن هل لي بطلب خاص لي، يا مولاي؟

فأجاب الملك فورا: بالتأكيد، أيها الزبير! أي طلب تطلبه مجاب، وأنت أصلا تُقِلّ في الطلبات رغم أنك تستحق أكثر بكثير مما عندك.

فقال الزبير: ألف شكر، يا مولاي... هل من الممكن أن يحضر كبار أهل الكثبة حفل التكريم، وأن يتم تكريم قادة قبائل الكثبة بأوسمة خاصة تمنحهم شرفا لن ينسوه ما عاشوا؟!

فرد الملك: بالتأكيد، لك ذلك، والمزيد إن أحببت...

ثم قال: أنت في قلبي مباشرة بعد ابني وزوجتي وابنتي.

نظر الزبير إلى الملك بتركيز، وقال: ما أعظم هذه المحبة، يا مولاي!

فقال الملك: نظم الأمر، وأخبرني بالترتيبات.

***

في اليوم نفسه توجه الزبير إلى مقر القائد جاسم والقائد عاصم في أعلى القصر. وقد كان لهما مركز في منطقة في طرف القصر، خصص لإدارة الجيش والحرس الملكي، وقد اختلف تصميم المركز عن سائر القصر، فلم يكن مبلطا بالرخام البنفسجي، ولكن غطى الأرضية والسقف والجدران خشب ثمين جدا، محفورة فيه الزخارف بفنية عالية وإتقان وحرفية لا مثيل لهما.

وقد خصص لجاسم غرفة خاصة به، وكذلك لعاصم، وقد احتوت كل طاولة علتها الخرائط وحجارة صغيرة تماثل أشكال الجنود والخيول والخيام، للتخطيط للحروب في حالة القائد جاسم، وللتخطيط لحراسة الملك في حالة القائد عاصم.

وصل الزبير إلى غرفة القائد جاسم، وتبادل الرجلان التحايا الحارة، وضيف خادم القائد جاسم الزبير وقائده كأسين من الشاي. جلس جاسم خلف مكتبه في حين جلس الزبير على أحد الكراسي الخشبية الثمينة المزخرفة والمحفورة بحرفية والمنتشرة في الغرفة.

وتبادل الرجلان الحديث حتى قال الزبير: هلا تنادي القائد عاصما، أريد أن أخبركما معا بأمر معين.

أرسل القائد جاسم أحد جنوده في طلب ابنه عاصم، وسرعان ما أتى قائد الحرس الملكي، وتبادل بدوره والزبير التحايا الحارة.

وطفق الثلاثة يتحادثون، حتى قال جاسم: لقد شوقتنا، أيها الزبير. ما الأمر الذي تريد محادثتنا به؟!

ابتسم الزبير؛ وبشرهما قائلا: لقد اقترحت على جلالة الملك تكريمكما إضافة إلى الأقوياء الثلاثة، وذلك باستحداث رتبة جديدة هي عميد أول، تقع بين رتبة الملك ورتبة العميد، ولا يشارككم فيها أحد. فأنتم تستحقون أفضل تكريم، وقد أديتم دورا عظيما هائلا في الثورة، لولاه ما تمت ولا نجحت...

سكت الزبير، ليشعل الشوق والفضول في صدري الرجلين، ولما لاحظ نظراتهما المترقبة ازدرد ريقه، ثم أكمل: وقد وافق الملك على هذا...

اجتاح السرور قلبي الرجلين بينما ظهرت علامات الفرحة واضحة على محياهما، وأكمل الزبير: سنقيم حفلا مهيبا، في القصر هنا، يحضره جلالة الملك، وكبار قادة الجيش وكبار أهل المملكة ووزراؤها، وفيه سيتم ترفيعكم وتكريمكم.

ابتسم القائد جاسم ابتسامة عريضة، وقال: لك الشكر الكامل، أيها الزبير. كلما تفضلت علينا، أتبعت فضلك بفضل أعظم. لا أعرف بدونك كيف كان سيمسي حالنا! لك الحمد والشكر الجزيل، أيها البطل العظيم.

ابتسم الزبير ابتسامة خفيفة، وقال: هذا أمر ضئيل جدا، مقارنة بما فعلتموه في الحرب، وقد وجب أن يحدث مثل هذا التكريم منذ أمد بعيد، فسامحاني على التأخر.

فقال عاصم: يعجبني تواضعك، أيها الزبير. لم أر رجلا تتعانق فيه العظمة والتواضع مثلما يتعانقان فيك. ألف شكر لك. قائد عظيم ووفي، يقال إنك ابن الملك الثاني، ولكنني أراك تحبه أكثر من محبة ابنه الحقيقي له.

وأكمل الرجال الثلاثة حديثهم.

***

بعد أقل من أسبوع، أعلم الزبير الملك بكل ترتيبات حفل التكريم. وقد أصدر الديوان الملكي مرسوما أعلن فيه عن حفل التكريم وموعده وموقعه. وقد تم إرسال الدعوات إلى الحضور وعلى

رأسهم الأقوياء الثلاثة، والقائد جاسم والقائد عاصم، وقادة قبائل الكثبة. وقد تم تحديد ما عرف ب "الساحة الجنوبية" موقعا لحفل التكريم، وهي ساحة كبيرة جدا واسعة جدا، تقع جنوبي قصر الضيغم، وهذه الساحة مفتوحة على الهواء الطلق، وتحوي مدرجا كبيرا جدا، مبنيا من الحجر الأبيض جميل المنظر، وأمامها منصة ضخمة مرتفعة عن الأرض بمسافة كبيرة، خصصت لجلوس الملك والأمراء وكبار حاشيته. وقد خصصت هذه القاعة منذ بناء قصر الضيغم للخطابات والاحتفالات الملكية الكبيرة.

ولأن الأمير ريانا لن يحضر التكريم، أرسل لوالده كلمة كتبها خصيصا للحفل، وطلب أن يلقيها الزبير نيابة عنه.

***

في صباح يوم التكريم توجه الزبير إلى غرفة الملك، فوجد الملك والملكة جالسين. ألقى عليهما التحية فرداها عليه.

جلس الزبير وطفق الثلاثة يتحادثون، حتى قالت الملكة كعادتها: سأذهب الآن، لتتحادثوا براحة عن تكريم اليوم.

"لماذا – يا مولاتي- تصرين دوما على المغادرة؟" سأل الزبير والتعجب جلي على وجهه، وأضاف: كما أخبرك دوما، لا شيء نخفيه عنك.

ابتسمت الملكة وقالت بصوتها الرزين: وأنا دوما أخبرك أن من يتدخل فيما لا يعنيه يلقَ ما لا يرضيه.

قامت الملكة وغادرت الغرفة.

بعدها قال الملك: هذا يوم عظيم.

ابتسم الزبير بطيبة ومحبة، وبادله الملك الابتسام بطيبة ومحبة أكبر.

ثم قال الملك: أريد أن نجتمع الأسبوع المقبل مع كل الوزراء لمناقشة ميزانية الدولة.

"أمر مولاي" قال الزبير.

حك الملك ذقنه بيده، وقال: أتمنى أن يكون الحفل م...

نهض الزبير بسرعة وركض نحو الملك، ثم وضع كفه على فم الملك، الذي لم يفهم ولم يستوعب ما الذي يجري. قلبه الزبير بقوة هائلة والكرسي أرضا، حتى بات ظهر الملك على الأرض، ثم ركع الزبير على ركبتيه فوق الملك، في هذه الأثناء كلها حاول الملك أن يصرخ لكنه لم يستطع لأن الزبير أحكم قبضته على فمه. ولما بات ملقى على الأرض، جعل يحاول دفع الزبير بيديه لكنه فشل بذلك؛ لأن الزبيرفاقه بكثير بالقوة الجسدية، ثم أضاف الملك إلى ذلك تحريكه أرجله بأقصى سرعة يستطيعها، لكنه فشل في إبعاد الزبير. وبينما الزبير يغطي فم الملك، استل الخنجر

الذهبي الذي أهدته إياه سمية، وطعن الملك ثلاث طعنات في قلبه الذي أحب الزبير ابناً له وكريان تماما، وأتبعها بطعنتين في بطنه. اجتاحت الملك صدمة وتفاجؤ هما الاكبر بحياته. وبينما الزبير يطعنه، اتسعت عيناه أقصى اتساع وبرزتا بروزا عظيما حتى بدا كأنهما ستغادران رأسه! وتسارع العرق شلالات على وجهه وسائر جسده. آلمه قلبه في تلك اللحظات أكبر ألم في حياته، حزنا من ابنه الزبير ومن خيانته له، حتى أكثر من الألم الذي شعر به عند مقتل كل أهله على يد ملك ياقوتة ذات يوم، اليوم الذي سُلِبَ فيه ملكُ البقاء، بل والبقاء كلها. وبينما الملك ما زال حيا، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، والدم الغزير يجري سريعا من قلبه وبطنه ومن فمه ومنخريه، ابتسم الزبير ابتسامة صفراء قذرة ملؤها الشماتة والخبث، لعلها أقذر ابتسامة في تاريخ البشرية، وقال وهي تعلو وجهه: خسئت أن تكون الملك وأنا موجود.

قالها ويعلو وجهه تعابير شيطانية قاسية وعبوس عظيم، وهذا حال وجهه منذ بدأ عملية الاغتيال. اتسمت طعناته الخمسة للملك، بالقوة الشديدة، والعنف البالغ، والسرعة الهائلة.

لفظ الملك أنفاسه الأخيرة، وترجل الفارس الأسطوري أخيرا وغادر الحياة، وهكذا قتل الزبير الملك، قتل أباه، وقتل معه المحبة والوفاء والعشرة، قتل التاريخ واللحظات الجميلة والذكريات الخالدة، قتل الإنجازات المشتركة، قتل الأسطورة التي قدسها طيلة عمره، أسطورةَ الملك الهارب التي كذبها نسبة هائلة من أهل البقاء، في حين آمن بها الزبير إيمانا مطلقا، قتل الرجل الذي حقق معه المستحيل وحرر معه مملكة ظنها الجميع ذهبت بلا عودة، قتل الزبير البنوة التي بداخله، والأهم من هذا كله قتل الزبير المروءة التي بداخله.

بعد عملية الاغتيال التي تمت بسرعة البرق، لم ينتظر الزبير كثيرا، ففورا سحب الزبير جثة الملك وأخفاها خلف السرير، ثم أحضر لحاف السرير ومسح به الدم الذي انتشر على أرضية الغرفة، ثم مسح قدر استطاعته الدم الذي أتى على يديه ولباسه، وفورا خرج مسرعا ووقف هنالك على باب غرفة الملك حارسان، أحدهما على يمين الباب والآخر على يساره. الزبير، رغم أنه حتى في تلك اللحظات العصيبة جدا اتسم بالهدوء والثقة اللذين عرف بهما دوما، إلا إنه مثل أمام الحارسين أنه مرتبك متلبك هلع، وقال وهو هكذا: الملك أصابه مكروه! إنه لا يتنفس!

اندفع الحارسان بسرعة إلى الداخل، واندفع الزبير بسرعة خلفهما، فأصبح أحدهما في المقدمة، يليه الآخر، فالزبير.

قال الحارس الذي في المقدمة بعد أنْ لم ير الملك: أين الملك؟!

في هذه الأثناء كان الزبير قد استل خنجره الذهبي، فوضع كفه من الخلف حول فم الحارس الأقرب عليه، وجز عنقه.

وبينما الحارس المغدور يسقط أرضا، صرخ الحارس الثاني غير مصدق: أيها الوغد الخائن!

واستل سيفه وهجم على الزبير وضرب بسيفه يقصده. تحرك الزبير جانبا وتفادى الضربة، ثم تبادل المقاتلان الضربات بسيفيهما وخنجر الزبير، قبل أن يضرب الزبير صدر الحارس بسيفه ليشقه فيسقط صريعا على الأرض.

ومن جديد لم ينتظر الزبير، ففورا خرج من الغرفة، وبينما هو على بابها أشار لرجلين كانا قد اصطحباه، وقد لبسا زي الحرس الملكي!

وقف الرجلان على يمين باب الغرفة ويساره، والزبير أوصاهما مسبقا ألا يسمحا لأحد بدخول الغرفة نهائيا حتى زوجة الملك وعائلته وسائر أقربائه، وأي أحد من كبار الدولة، وأن يخبروا أي امرئ يريد الدخول أن الملك يعاني وعكة صحية وطلب ألا يراه أحد.

أعطى أحد الحارسين الزبير صرة كان يحملها، فأخذها الزبير ودخل الغرفة، وأخفى الجثث الثلاثة أسفل السرير، ثم أخفى آثار الدم في الغرفة. بعدها فتح الصرة المغلقة، فأخرج منها قربة ماء كبيرة، غسل من خلالها الدماء التي علت جسده، ولما فرغ من ذلك، نزع ثيابه وأخرج ثيابا من الصرة ولبسها، وكل هذا حتى لا يرى أحد أي دماء لو ظل لابسا ثيابه القديمة!

***

((31))

وجب أن تتم الأمور بأقصى سرعة، لذا بعد تنفيذه للاغتيال، توجه الزبير مباشرة إلى مقر قائد الحرس عاصم في طرف القصر.

دخل على غرفة عاصم، وابتسم ابتسامة بريئة، وسأل: كيف حالك، أيها القائد العظيم؟

جلس عاصم خلف مكتبه، وحالما رأى الزبير نهض وتوجه إليه، وبادله الابتسام، وقال: أنا بخير، كيف أمور الزبير؟

ثم مد يده فصافحه الزبير، وهو يقول: أنا بخير، يا عاصم.

بعدها دعا عاصم الزبير للجلوس، فجلس أمام المكتب، بينما جلس عاصم خلف مكتبه.

"كيف حال أهلك؟" سأل الزبير ببرود وهدوء.

فرد عاصم: بأتم حال.

فقال الزبير بالبرود ذاته: الطقس اليوم جميل جدا، لكأنه يتحضر للتكريم العظيم.

ابتسم الزبير بينما ضحك عاصم.

لقد كان الزبير يتصرف كما لو أنه لتوه فقط ذبح حَمَلا صغيرا، أو حتى ذبابة حقيرة، وليس كما لو أنه قتل ملكا أسطوريا يحكم مملكة شاسعة! فهذا ما ميز الزبير، الثقة المطلقة بالنفس، وقوة الأعصاب وهدوء القلب.

"ولكن للأسف، هنالك ما سينغص حفل التكريم" قال الزبير.

"ما هو؟" سأل عاصم بفضول وبسرعة.

فأجاب الزبير: للأسف الملك اعتذر عن حضور الحفل... لقد ذهبت إليه قبل قليل، فأخبرني أنه يعاني من وعكة صحية، وأنه لن يحضر التكريم، وطلب مني أن أنوب عنه في التكريم ومنح المكرمين ما اتُّفِقَ عليه.

نهض عاصم فجأة، وقال خائفا على الملك: هل أصاب الملك مكروه؟! يجب أن أذهب فورا إليه.

فقال الزبير بهدوء قاتل هو يشير بيده لعاصم بأن يجلس: لا... لا... لا تخف، يا عاصم. الوعكة ليست بشديدة، لكن كما تعلم الملك مسن، ومثل هذه الوعكات التي قد يحتملها الشباب، لا يمكن لرجل مسن أن يحتملها. وقد أرسلت حالما خرجت من عنده إلى أطبائه الخاصين ولا بد وأنهم الآن عنده.

فقال عاصم فورا: يجب أن أذهب إليه فورا.

"لا" قال الزبير، وأضاف بالهدوء ذاته: الملك أخبرني أنه لا يريد أن يزعجه أحد في غرفته؛ لأنه يريد أن يرتاح. وطلب مني ألا يدخل عليه أحد، بمن في ذلك جلالة الملكة وسمو الأميرة، وأي أحد حتى أنا.

ثم أضاف بخبث: لقد أصررت على البقاء بجواره، وليذهب الحفل إلى الجحيم، لكنه رفض ذلك كليا وأخبرني أن الحفل يجب أن يتم!

هدأ عاصم قليلا بعد كلام الزبير، وصدقه في كل كلمة قالها؛ فالزبير بات منذ زمن بعيدا قريبا جدا من الملك كابنه الأمير تماما، وربما أكثر!

جلس عاصم، وبعدها قال الزبير بخبث أكبر: مهما بلغت حلاوة الحياة، لا بد وأن ينغصها شيء ما! نحن نعد لهذا الحفل منذ زمن، وأردناه أن يكون كاملا، والآن لن يحضره أهم شخص في المملكة، وفي قلوبنا جميعا! أخاف أن يظن من سنكرمهم وبالأخص الأقوياء الثلاثة والقائد جاسما أن الملك – لسبب ما – تعمد عدم المجيء.

فقال عاصم ببراءة قد تصل حد السذاجة مطمئنا جليسه: لا... لا... لا أظن ذلك. فالكل يعرف أن جلالة الملك لا يفعل مثل هذه التصرفات، وحتى لو غضب أو استاء من أحدهم، فإنه يواجهه مباشرة، ولا يلجأ لمثل هذه الأساليب الملتوية. كما أنه لم يحدث شيء بين والدي أو الأقوياء الثلاثة من جهة وجلالته من جهة، حتى يظن أحدهم أن الملك تعمد التغيب عن الحفل.

تنهد عاصم، ثم قال: وبإمكانك بعد الحفل، أن تقترح على جلالة الملك، أن يرسل رسالة لكل واحد منهم، يعلمهم فيها أسفه على عدم الحضور، ويبين فيها سبب ذلك.

فقال الزبير بقمة الخبث: ما أعظم فكرتك! كيف لم تخطر على بالي؟!

ثم أضاف: علي أن أذهب الآن للاستعداد للحفل... أراك قريبا.

تبادل الرجلان عبارات السلام، وغادر الزبير المكان. وامتنع عاصم عن الذهاب لحفل التكريم؛ لأن الملك سيظل بالقصر، وعاصم منوط به حماية الملك.

***

كان يوما صيفيا يمتاز بطقس معتدل رائع كأغلب أيام صيف المعتزة، إذ أشرقت الشمس في كبد السماء، لكنها لم تكن حارقة بأشعتها وإنما أضفت جوا جميلا مناسبا لأي احتفال. بدأ الحضور بالتوافد على الساحة جنوبي قصر الضيغم لحضور حفل التكريم. وقد أسند الزبير مهمة تنظيم الحفل لداهية الكثبة. وكلما حضر أحد من الحضور، أرشده الداهية إلى مكان جلوسه المختار بعناية من قبل أن يبدأ الحفل.

تكونت الساحة من مدرج مبني من حجارة بيضاء نقية ثمينة تسر الناظرين، بحيث يرتفع كل صف من صفوف المدرج عن الصف الذي أمامه، وقد امتاز المدرج بالضخامة وأنه يسع عددا

هائلا من الحضور. وأمامه وجدت منصة مرتفعة عن سطح الأرض مصنوعة هي الأخرى من الحجارة البيضاء ذاتها، وتطل على المدرج، ولكنها لم ترتفع كثيرا عن سطح الأرض وإنما بعلو معقول، وقد فصل بينها وبين المدرج مسافة ليست بالقليلة ولا بالكبيرة. واحتوت المنصة كراسي حمراء كبيرة مصنوعة من القماش الفاخر، وعلا المنصة قوسان مطليان بالذهب الخالص.

وبعد أن وزع داهية الكثبة الحضور، جلس الأقوياء الثلاثة متجاورين وجلس على يمينهم مباشرة قيس وعلى يسارهم مباشرة سهيل، وخلفهم مباشرة جلس داهية الكثبة وعدد من شيوخ قبائل الكثبة. وكانت الغالبية العظمى من الحضور في المدرج من كبار قادة الكثبة وأقوى فرسانها، إضافة لعدد من وجهاء الجيش والدولة.

أما المنصة فجلس على الكرسي الرئيس فيها الزبير، وعلى يمينه مباشرة جلس قائد الجيش جاسم، وخلف الزبير على يمينه ويساره وقف هلال والأقرط – على الترتيب-، وعلى مسافة قريبة على يمينهما وقف بيدق، فهؤلاء ظِلُّ الزبير الذي لا يفارقه. وفي المنصة كذلك جلس كبار قادة الجيش إضافة لوزراء الدولة.

سأل جاسم الزبير متعجبا عن سبب غياب الملك، فكذب الزبير قائلا إن الملك يعاني من وعكة طفيفة، وانطلت الخدعة على جاسم.

وهكذا اكتمل الحضور، وزينوا المنصة والمدرج، حيث اتسم مشهدهما بالجمال والروعة والألق. وابتهج جميع الحضور بهذا الحفل الطيب.

تقدم أحد موظفي الدولة على المنصة، وقال بصوت عال في الحضور: والآن يلقي خطاب التكريم، الوزير الأول، فخامة الوزير الزبير.

عندها وقف الزبير من مقعده وتقدم إلى الأمام على المنصة. اتسم المشهد أمامه بالهيبة، وحتى خلفه كانت الهيبة أكبر بوجود قائد الجيش وكل هؤلاء الرجال من قادة الجيش والوزراء، لكن ذلك أبدا لم يؤثر في الزبير قيد أنملة.

وبدأ الزبير خطاب التكريم، إذ قال بصوت جهوري واثق قوي، بصوت عال صدح في كل أنحاء الساحة، وسمعه كل من في المدرج، بل وعدد ممن كانوا في أنحاء القصر القريبة: يا قوم، السلام عليكم.

فبدأ الحضور من خلف ومن أمامه يردون التحية عليه، فلما هدؤوا أكمل الزبير: حللتم أهلا، وطئتم سهلا. أنتم اليوم ضيوف الملك قصي الذي يرحب بكم في بيته الذي هو بيتكم. أهلا بكم في هذه الجَمْعَةِ المباركة، وهذا اليوم المبارك. وللأسف، كما عودتنا الحياة، كل شيء جميل لا بد وأن ينغصه ولو خدشا صغيرا. وللأسف، أصيب اليوم جلالة الملك بوعكة صحية بسيطة جدا، منعته من القدوم إلى الحفل، رغم توقه الشديد للقاء بأحبابه وأبنائه وإخوته، ورغم أنه يشعر بشرف عظيم، لأنه اليوم كان من المفترض أن يكرم بنفسه رجالا يتشرف أنهم جزء لا يتجزأ من مملكته. ولهذا، فإن الملك أرسل معي أشد الاعتذار منكم جميعا لا سيما ممن سيكرمون اليوم. وإن الملك

ليناشدكم أن تعذروه، وأن تتفهموا أن غيابه ليس بمقصود، وإنما هو اضطراري، وأنه سيعوضكم عن هذا الغياب بأمور لهي خير لكم فيما بعد. وقد وكلني جلالة الملك أن أتكفل بمهمة التكريم نيابة عنه في هذا اليوم الجليل.

حزن جاسم والأقوياء الثلاثة وكثير من الحاضرين لغياب الملك؛ فوجوده - بحد ذاته – أهم من التكريم نفسه.

وفي أثناء كل هذا الخطاب حرك الزبير يديه بثقة بالغة، وبثقة بالغة قلب ناظريه بين الحضور.

سكت الزبير لمدة ثم أكمل: كما تعلمون فإن مملكتنا مباركة، وأجمل ممالك هذه البسيطة، وجزء من جنة الله على هذه الأرض. وقبل الحرب المقيتة، لطالما شهدت مملكتنا الرخاء والعدل والثراء، والأهم المحبة بين أهلها بعضهم لبعض، وبين ملوكها وأهلها. ومن عادات البشر، أن أي شيء جميل وفريد ومميز، لا بد وأن يحسدوه، ولا بد وأن يسعوا لتدميره. وهذا ما دفع أعداءنا الضباع من المملكتين المجاورتين إلى الغدر بمملكتنا واحتلالها. لقد عشنا أياما سوداء قاتمة بعد الحرب المقيتة، من ملكنا المعظم إلى أقل واحد فينا. كلنا عانينا وكلنا ذقنا الأمرين، واستمر الأمر سنين كثيرة جدا، وأعداؤنا فرحون منتصرون ونحن حزينون مهزومون. ثم أتى يوم جميل بدأته أنا، ولا أزكي نفسي. ولم أكن وحدي، فلم أكن إلا حجر الأساس في ثورتنا المجيدة، التي أحاط بها وعلاها رجال عظماء أهمهم جلالة الملك وابنه سمو الأمير، ورجال أشداء هم أنتم، يا من تشرفوننا اليوم بحضوركم الكريم.

عندها بدأ الجميع بالتصفيق الحار لكلام الزبير، والحماسة تتدفق في عروقهم التي امتلأت بالدماء لشدة قوة كلام الزبير وروعته، حتى إن كثيرا من الحضور في المدرج وقفوا وهم يصفقون له.

ثم أكمل الزبير: وأتت الثورة، وكانت شمسا ساطعة جميلة – كشمس يومنا المبارك هذا – وبددت ظلمة الليالي التي أسكننا فيها أعداؤنا. فانقلبت الأمور، وانقلب السحر على الساحر، وملأت حياتنا سعادة ونصرا وعزة، وملأت حياة أعدائنا في مملكتي الغدر المجاورتين ذلا وهزيمة وعارا، ملأتها نكدا وسوادا لن يزولوا أبد الدهر. فقد عبثوا مع المملكة الخطأ، وعبثوا مع الرجال الخطأ...

وظل جاسم يومئ برأسه موافقا كلام الزبير.

ثم علّى الزبير نبرة صوته، وهو يقول: ولم يعرفوا أنه حتى الجن إذا عبثت مع رجال البقاء، فإنها ستدفع الثمن غاليا ولن يهدأ لها بال.

عندها جن جنون الحضور، ووقفوا جميعا بلا استثناء، حتى الأقوياء الثلاثة، والقائد جاسم، وجعل الجميع يصفقون بحرارة حتى كادت أيديهم تسيل منها الدماء، بل إن بعض الحضور بدأ بالتصفير، فالحماسة والروعة والبلاغة في كلام الزبير، الخطيب الواثق المفوه لا مثيل لها.

وبعد مدة ليست بالقصيرة، هدأ القوم، وطفقوا يجلسون، فلما جلسوا وهدؤوا جميعا، أكمل الزبير: وقد ساهم بدور بارز - لولاه لما نجحت الثورة على الإطلاق – رجال عظماء. وربما انشغلنا قليلا بعد تحرير البقاء وإعلان المملكة بأمور تنظيمية، أجلت تكريما يعد شيئا بسيطا جدا مقابل الجهود الجبارة التي أدوها إبان الثورة وقبلها وبعدها. اليوم نتشرف بحضور قائد الجيش والأقوياء الثلاثة بيننا. هؤلاء الرجال العظام الذين لم تشهد البشرية مثيلا لقوتهم العظيمة في القتال وشدة بأسهم، ولا لوفائهم وصدقهم، ولا لعملهم وإخلاصهم. هؤلاء الذين لولاهم لماتت الثورة في رحم مخيلة من فكر بها وخطط لها، لكن وجودهم بيننا هو من جعلها تبصر الحياة.

وأضاف الزبير وهو يشير بيده اليمنى بقوة، بصوت بطيء عال جدا واثق جدا لا تردد فيه: ولهذا كله، لا بد من تكريمهم.

وعندها زاد جاسم في تحريك رأسه تأييدا لكلام الزبير.

وأكمل الزبير وهو يشير بيده اليمنى بقوة أكبر، وبصوت أعلى وأكثر ثقة: واليوم سيلقون التكريم الذي يستحقونه.

وفجأة والزبير لم يكد ينطق الحرف الأخير، التف واستل خنجره الذهبي، وهجم بسرعة هائلة جنونية على القائد جاسم، وطعنه بخنجره في عنقه في الشريان السباتي، فبدأ الدم يفور غزيرا في كل مكان، كأنه عين تنبجس من باطن الأرض وتفور نحو السماء لتملأ كل ما يحيط بها، حتى ملأ الدم الأحمر القاتم ذراعي الزبير ولباسه، وعنق جاسم ولباسه وما أحاط به من كراسي وطاولات. لكن الزبير لم يتوقف وعاد وطعن جاسما في المكان ذاته ثلاث مرات. كانت سرعة الزبير في هذا كله جنونية جدا! أما جاسم فتعابير وجهه فتكاد لا يمكن وصفها، اتسعت عيناه أقصى اتساع، ولم يستطع في هذه الفترة القصيرة استيعاب ما حدث، وأنه يتعرض لخيانة من أكبر الخيانات في التاريخ.

وفي هذه الأثناء، لم يكن الزبير اللاعب الوحيد الذي يتحرك في اللعبة. لقد شكلت العبارة الأخيرة التي قالها في الخطاب الإشارة المتفق عليها بينه وبين أعوانه للبدء بتنفيذ مخططهم. وحالما انتهى من قولها وبدئه بعملية قتل جاسم، نهض قيس وساعده أحد قادة الكثبة الذين وراءه، واستلوا خناجرهم وبدؤوا يطعنون صلاحا بقوة وعنف وأكثر من مرة، وفي الوقت نفسه وبتناغم وتناسق وتزامن لا مثيل لهم، نهض سهيل وعاونه أحد قادة الكثبة من ورائه، وطفقوا يطعنون المعتصم بالطريقة نفسها، وبالتناغم والتناسق والتزامن عينهم نهض داهية الكثبة من وراء بهاء، وعاونه اثنان من قادة الكثبة الذين كانا يجلسان على يمينه ويساره وأنشؤوا يطعنون بهاء بالطريقة نفسها. في اللحظة التي بدأ فيها الزبير يطعن جاسما، اندهش الأقوياء الثلاثة دهشة لم تمر عليهم قط – رغم شدة بأسهم وقوة أجسادهم وأفئدتهم –. وهكذا قُتِلَ الأقوياء الثلاثة بغتة، كان منظر الدماء الغزيرة وهو يسيل من أجسادهم مفزعا مرعبا. صحيح أن الأقوياء الثلاثة كانوا الأقوى جسديا على الإطلاق في البقاء، بل ربما في الممالك الثلاث، صحيح أن قوتهم وشجاعتهم فاقت حتى تلك التي لدى الزبير ولدى أقوى فرسان البقاء كالمغيرة. لكن التاريخ لطالما علمنا أن الكثرة تغلب الشجاعة، وليست الكثرة وحدها ما يغلب الشجاعة، أليس الغدر بغالبها كذلك؟!

وفي هذه الأثناء كلها انطلق بيدق وهلال والأقرط بعد أن استلوا خناجرهم، وطفقوا يقتلون قادة الجيش الجالسين على المنصة الواحد تلو الآخر، وحالما فرغ الزبير من قتل جاسم، انضم إليهم في اغتيال قادة الجيش، وعاونهم عدد من قادة الجيش الذين هم أصلا من بدو الكثبة! معظم قادة الجيش الذين اغتيلوا هم من الكبار في العمر، الذين أوهنهم مَرُّ السنين، وجعلهم لقمة سائغة أمام الشباب الصارخ للزبير والنسور السوداء والقادة الموالين للزبير. وهكذا استمروا في اغتيالهم الواحد تلو الآخر، حتى انتهوا منهم جميعا، وعاون على قتلهم عنصر المفاجأة الذي وقف في صف الزبير ومن معه. وقد ركز الزبير عند التخطيط للمذبحة، على أن يكون قادة الجيش هم أول من يقتل على المنصة، وليس أقارب الملك والوزراء والحاشية، وذلك لأن القادة هم الأقوى جسديا بين هؤلاء جميعا، وإذا فرغوا منهم فستكون مهمة القضاء على الآخرين أسهل وأسرع بكثير. وهذا ما حدث، فحالما فرغ الزبير وفريقه من قتل قادة الجيش، بدؤوا بقتل أقارب الملك والوزراء – الذين اختارهم الزبير ذات يوم – وحاشية الملك. حاول كثير من هؤلاء الهرب من قبضة الزبير ومن معه، حتى إن بعضهم حاول رمي نفسه من على المنصة إلى أرضية الساحة، إلا أن الزبير ومن معه اتسموا بالقوة والسرعة والحزم، وقتلوا الجميع الواحد تلو الآخر.

وفي هذه الأثناء كلها، بدأت أغلبية الحضور على المدرج – والذين هم من بدو الكثبة – بقتل كل من حولهم ممن ليسوا منهم، حتى الذين استسلموا ولم يقاتلوا، لم تسلم حياتهم من أن تتذوق سيوف البدو وخناجرهم.

وحالما أجهز الزبير ومن معه على المنصة على جميع من فيها، رمى الزبير سيفه وخنجره من فوق المنصة ليسقطا على أرضية الساحة، ثم ركض بسرعة، وبلياقة عالية ورشاقة لا توصف، وقفز من على المنصة – رغم ارتفاعها عن الأرض - بقوة جبارة، حتى نزل على أرضية الساحة، فجلس لوهلة جلسة القرفصاء، لكنه سرعان ما أسند نفسه بكفه، ونهض وأمسك بسيفه وخنجره. وفي هذه الأثناء، كان اثنان من أعداء الزبير يتجهان نحوه، ضرب أحدهما بسيفه يقصد رأس الزبير، فتفادى الزبير الضربة ثم جرح عنق غريمه بسيفه، ثم هاجمه الثاني بسيفه فصد الزبير الضربة بسيفه، وتبادلا الضربات بسيوفهما مرة، قبل أن يطعنه الزبير بخنجره طعنة أجهزت عليه. وبعد أن قفز الزبير، قفز النسور السوداء بسرعة وقوة كبيرتين لكنهما لا تصلان لسرعة الزبير وقوته. وبدأ أعوانه على المنصة، يقفزون إلى أرضية الساحة. وهكذا انضم الزبير والنسور السوداء وموالوه ممن كانوا على المنصة إلى زملائهم المقاتلين في الساحة. وأخذ قيس وسهيل وداهية الكثبة والنسور السوداء وسائر بدو الكثبة يقتلون من حولهم دون رحمة، بقوة وعنف، لكن أقوى من على ساحة الوغى كان الزبير وبفارق كبير عمن يليه. اتسم بالقوة والسرعة وشدة البأس. وما ميز المشهد أيضا، هو كيف كان الزبير يحفز معاونيه بثقة وثبات؛ إذ جعل يخاطب من رآهم من مقاتليه ويحفزهم على القتال وقتل أعدائهم.

"حمدان، اقتل ذلك"

"يا هاني، لا ترحمهم"

"هيا، يا أسعد، أجهز عليهم جميعا"

هي من أمثلة العبارات الكثيرة، التي صرخ بها بأعلى صوته لتملأ جوف من خاطبهم بالحماسة التي اشتعلت كالنار في بدو الكثبة جميعا بسبب قائدهم.

وظل فريق الزبير يقتلون من في الساحة، فأجهزوا عليهم جميعا، في حين لم يخسروا سوى العدد اليسير من المقاتلين. ولما انتهوا ممن في الساحة، أمرهم الزبير صارخا بصوت عال جدا، وهو يلوح بيده بحماس وثقة باتجاه باقي أرجاء القصر: هيا، يا قوم، توجهوا إلى باقي أنحاء القصر. لا تذروا أحدا منهم على قيد الحياة. إياكم أن تجعلوا للرحمة منزلا في قلوبكم.

انطلق البدو مسرعين بقوة يركضون بسرعة نحو سائر أنحاء القصر، وكلما اقترب أحدهم من الزبير، دفعه الأخير بقوة بالاتجاه الذي يركض نحوه، وهو يصرخ بعبارات مثل:

"هيا..."

"فلتحيا الكثبة"

"أروهم من هم البدو"

"اليوم نحن الغالبون"

ثم بدأ بدوره يركض بسرعة هائلة نحو أجزاء القصر الأخرى، وهو يمسك بسيفه باليد اليمنى وبخنجره الذهبي باليسرى.

وجاس بدو الكثبة خلال أجزاء القصر المترامية، وكانوا أكثرية، وقتلوا كل من رأوهم، لم يكتفوا بالحرس والجنود، فلم يسلم منهم النساء ولا كبار السن ولا حتى صغار السن، وذاق طعم أسلحتهم نساء الملك والجواري والخدم والحاشية وأقارب الملك غير المقاتلين. وبدا المنظر كأنه موسم حصاد، ولكن ليس لزرع وإنما لأرواح بشر!

كان المنظر مرعبا مفزعا، حين انتشر القتل في كل مكان، هذا القصر الذي لطالما عرف الرخاء ورغد العيش، شهد في تلك اللحظات قتلا وذبحا، لم تشهدهما ساحات الحروب الكبرى في التاريخ. ذلك القصر الذي غطي أغلبه بالرخام بنفسجي اللون، بدا في تلك اللحظات المرعبة كأنه مغطى بالرخام الأحمر القاتم!

وخلال كل هذا كانت الملكة رقية والأميرة هدى وعدد من وصيفاتهن في إحدى شرفات القصر الكثيرة. وفجأة رأوا المقاتلين يأتون من كل مكان. اجتاح الرعب والخوف قلبي الملكة والأميرة اللتين لم تشهدا في حياتهما موقفا كهذا، وزادت هذه المشاعر عندما بدؤوا يرون المقاتلين يقتلون كل من أمامهم.

وطفقت الملكة والأميرة تركضان، والأم تصرخ على ابنتها: هدى، اهربي من هنا. انجي بحياتك، اختبئي في أي مكان. ولا تثقي بأي أحد.

اتجهت المرأتان بالاتجاه نفسه أولا، وبينما هما كذلك حاول أحد المقاتلين قتل الملكة، لكن أحد حراسها طعنه في ظهره من الخلف. في هذه الأثناء، كانت الملكة قد توقفت بينما استمرت الأميرة

بالجري، وفجأة وجدت كلتاهما نفسها دون الأخرى. أما الحارس الذي دافع عنهما، فسرعان ما قتله أحد مقاتلي الزبير، وفي هذه الأثناء ركضت الملكة بعيدا، واختبأت في إحدى غرف القصر، تحت السرير داخلها، وهي تدعو الله جهد دعائها وبأقصى إيمان ورجاء في حياتها بأن ينجيها – وأحباءَها- مما هي فيه. في تلك اللحظات خشيت على حياتها لكنها خشيت أكثر على حياة ابنتها، وأكثر وأكثر على حياة زوجها الملك، وتساءلت إن حل به مكروه. كل هذا القلق الهائل الذي خالط الخوف العظيم بداخلها، جعل تلك اللحظات أسوأ لحظات حياتها.

وبينما هي مختبئة، سمعت صوتا جهوريا قويا واثقا يقول: هيا، قاتلوا بشدة... قاتلوا حتى اللحظة الأخيرة.

لقد ميزت ذلك الصوت جيدا، فهو صوت المنقذ الذي بعثه الله استجابة لدعائها، فهو صوت ابنها، وليس الحديث هنا عن الأمير ريان، وإنما عن ابنها الآخر: الزبير!

"لقد أتى الزبير البطل لإنقاذي، الآن سينقذنا جميعا، وينتقم لنا من أعدائنا كما فعل في الثورة" فكرت المرأة البسيطة بسذاجة.

خرجت مسرعة من أسفل السرير، وركضت بأقصى سرعة، وهي سرعة بسيطة؛ لأنها امرأة مسنة. خرجت من الغرفة مسرعة، فوجدت الزبير واقفا في باحة القصر، والدماء تملأ ثيابه وذراعيه، وهو يمسك بسيفه وخنجره، ويتنفس بسرعة كبيرة وقوة عظيمة، وقد فتح منخريه وفمه على أقصى اتساعهما. ركضت نحوه، فتنبه لقدومها. كانت تلك اللحظات من أصعب لحظات عمره، صحيح أن ما كان يفعله في تلك اللحظات اتسم بالقسوة وعدم الرحمة، لكن حتى أشد الناس وأقساهم، هم بالنهاية بشر ولديهم مشاعر. لقد اعتبرها أما له، ولطالما أحبها من كل قلبه.

حزن كثيرا عندما رآها، فاقتربت منه وأمسكت بذراعيها ذراعيه، والفزع يشع من وجهها، وقالت: ماذا يحدث، يا بني؟! من هؤلاء الذين يهاجموننا؟!

ثم أضافت، وهي تضغط بذراعيها على ذراعيه: احمني، يا بني.

الأمر اختلف عن قتل الزبير للملك؛ فهو استعد منذ زمن بعيد لاغتياله، ولم يكن هنالك مجال لأن يغتاله أحد آخر، وهذا ما فسر قسوته وخبثه وشماتته، وهو يقتل الملك رغم حبه له. لكنه تمنى من كل قلبه أن لا يكون هو من سيقتل الملكة أو الأميرة هدى، فبإمكان أي أحد من مقاتليه أن ينجز المهمة. لكن الله وضعه في خيار صعب، وحانت لحظة الاختيار هل سيقتل أمه أم سيدعها؟! واختار الخيار الأصعب.

بينما تضغط الملكة على ذراعي ابنها، ارتجف الزبير، وتلك المرة الوحيدة في حياته على الإطلاق التي يرتجف فيها وهو يقاتل، وبينما هو كذلك طعن الابن أمه بخنجره الذهبي ثم سحبه.

هاله حجم الصدمة على وجه أمه، فاحتله ألم عظيم، وقال: أنا آسف، يا أمي... لا بد من تضحيات، وهذه إحداها.

وبينما الأم تفارق الحياة، قالت: لماذا، يا بني؟! ماذا فعلنا لك؟!

أي كلماتها أقسى عليه، عتابها له الذي دل على صدمتها، أم مناداتها له ببني حتى بعد أن غدر بها وخانها؟! حتى هو نفسه لم يعرف الجواب!

أمسك أمه بيديه وجعلا ينزلان أرضا معا، واحتضنها وهي على الأرض وفارقت الحياة وهما على هذا الحال، وظل ممسكا بها وهو مطأطئ الرأس والحزن يجتاح قلبه.

وبعد أن مضى زمن، سمع الزبير صوتا يعرفه جيدا يقول: قم، أيها الزبير... لا وقت لمثل هذا.

ثم أحس بيد قيس على كتفه، وهو يحاول إيقاظه مما هو فيه.

نظر إلى قيس الذي أضاف: هيا، أيها الزبير... علينا أن نكمل ما نحن فيه، لا مجال للتراجع الآن.

اقتنع بكلام صديقه، ووضع جثمان أمه بهدوء على الأرض، ونهض واندفع مع مقاتليه يقتلون كل من يرونهم أمامهم.

وبعد أن فارقت الأميرة هدى أمها، هربت مبتعدة، إلى أن تلقفها واحد من مقاتلي الزبير، فطعنها بخنجره، وقتلت الأميرة التي عرف عنها شدة براءتها، والخوف والرعب بداخلها يفوقان ما كان بداخل أمها بأضعاف مضاعفة.

واستمر الزبير ومقاتلوه يجوسون خلال أرجاء القصر حتى اقتربوا من مقر قيادة الجيش الحرس الملكي في طرف القصر. وكان عاصم وأتباعه من حرس الملك قد علموا بعد مدة من بدء المجزرة، أن هنالك خطبا ما يحدث في القصر، بعد أن سمعوا جلبة هنا وهناك، فطفقوا يقاتلون المهاجمين الذين لم يعرفوا من هم، وماذا يريدون.

منذ البداية أمر القائد عاصم، مقاتلي الحرس الملكي: اذهبوا جميعا وفورا، إلى غرفة الملك، حياته هي أولويتنا، وبعد ذلك سنحاول إيجاد الملكة والأميرة.

فشرعوا جميعا يتوجهون إلى هناك وهو مثلهم، وفي الطريق اصطدموا بمقاتلي الزبير الذين انتشروا بسرعة في أرجاء القصر جميعها، فتقاتل الطرفان وفي البداية كانت الغلبة لعاصم ومقاتليه، لكن بعد مدة عندما كثر مقاتلو الزبير بدأت الكفة تميل ناحيتهم؛ فأحد أهم ركائز خطة الزبير هو الاعتماد على وجود كثرة من مقاتليه في حفل التكريم تتجاوز وبكثير كل المقاتلين الذين سيدافعون عن الملك في القصر كاملا. وظل عاصم ومن معه يقاتلون مقاتلي الزبير، وبدؤوا يتساقطون الواحد تلو الآخر، ولم يستطيعوا بلوغ غرفة الملك. وخرج عاصم إلى إحدى باحات القصر، ومعه عدد من مقاتليه، واشتبكوا مع عدد أكبر منهم بكثير من مقاتلي الزبير. وفي هذه الأثناء كان الزبير قد وصل إلى هذا المكان، فلم يتبق من المقاتلين سوى عاصم والقلة القليلة جدا التي معه.

اقترب الزبير ومعه قيس وسهيل والداهية، وعندما رأى عاصم الزبير، توقف عن القتال وأمر من معه من المقاتلين بالتوقف، وصرخ سائلا الزبير: ما الذي يحدث، أيها الزبير؟! ما الذي يجري؟!

كان مقاتلو الزبير قد أحاطوا عاصما ومقاتليه على شكل حلقة، شكل عاصم ومن معه مركزها.

وحتى في تلك اللحظات الأخيرة القاسية، لم يتيقن عاصم بخيانة الزبير، وظل الشك يساوره.

اقترب الزبير من عاصم، وهو يمسك سيفه وخنجره، حتى بات على مسافة قريبة منه، وبات عاصم يشتم رائحة أنفاس الزبير التي فاحت غضبا وكراهية وحقدا.

قال الزبير بثقة وهدوء: لا شيء... لم يحدث شيء... فقط قتلت الملك والملكة والأميرة ووالدك...

ثم أحكم قبضته على الخنجر، ووضع يده اليسرى على كتف عاصم، وابتسم ابتسامة صفراء قذرة، وقال: والآن سأقتلك.

فطعن عاصما بخنجره الذهبي ثلاث طعنات في أعلى بطنه، وفي الطعنة الثالثة غرس الخنجر عميقا في بطن عاصم، ولفه بداخله.

بدأ الدم يسيل غزيرا من بطن عاصم ثم سال من فمه ومنخريه. وكان منذ بداية ما أخبره الزبير به قد فتح عينيه على أقصى اتساع غير مصدق ما يسمع.

وهكذا غادر الحياة وهو ينظر إلى ابتسامة الزبير القذرة، وهو يتذكر كلام أبيه القائد جاسم ذات يوم، عندما أخبره ألا يثق بأحد حتى ابن الملك الأمير ريان. لطالما كرر جاسم له هذا الكلام، لكن الحيلة انطلت على عاصم. تساءل كيف وثق بالزبير طيلة هذه السنوات؟! تساءل كيف كان الزبير آخر من يمكن أن يشك به، فقد اعتبره ابن الملك من لحمه ودمه، وفي لحظات كثيرة وثق به أكثر من الأمير ريان نفسه؟!

ندم في تلك اللحظات ندما عظيما جللا، وتألم ألما عارما، ليس على موته، بل لأنه السبب في مقتل الملك والآخرين.

الشيء الوحيد الأقسى عند حدوث الخيانة، من كونها أتت من أحب الأحباء الذين لطالما استعددت أن تفديهم بأرواحك، هو أنك ظللت مغفلا طيلة الوقت وسمحت لهم بخداعك برضاك وبكل سهولة. هذا هو آخر ما فكر به قائد الحرس الملكي.

ومنذ قتل الزبير الملك الهارب مرورا بكل من أجهز عليهم وانتهاء بعاصم، امتازت طعناته بأنها قوية عنيفة جدا مليئة بالغل والحقد والغضب الذي بداخله. وقد طلى خنجره بالسم؛ لأنه لم يرد ولو احتمالا صغيرا، لأن يظل أعداؤه على قيد الحياة لا سيما الملك الهارب.

***

((32))

العام 476*

" لقد مللت من تكرار هذه المسألة معك، أهذا آخر كلامك، يا دريد؟" هذا ما قاله الزبير لأخيه دريد، في آخر مرة يصر فيها عليه بأن يسمح بتنفيذ خطته الضخمة لتحرير البقاء.

ولكن أخاه رفض من جديد ومن جديد ومن جديد، ومع الضغوط الهائلة من الجميع وأكثرهم صديقه قيس، ولا سيما ضغط عقله عليه، بات الزبير يعيش في ضائقة وبات سجين الصراع في عقله، وتوجب فعل شيء للتخلص من هذا العذاب والصراع الداخليين.

وفي مساء أحد الأيام توجه الزبير إلى دار دريد، ودعاه إلى مأدبة عنده في عصر اليوم التالي، فوافق دريد.

وفي اليوم التالي أتى دريد لدار أخيه الذي استقبله بترحاب عارم.

وجلس الاثنان في غرفة الضيوف على الأبسطة المفروشة على الأرض، وتحادثا أحاديث عادية. ومنذ مقدم دريد علت علامات الحزن والكآبة وجه الزبير، فسأله دريد: ما الأمر، أيها الزبير؟! أحس أنك غير سعيد!

ارتبك الزبير، ثم استجمع قواه وأجاب بحزم: لا عليك، يا دريد. لا يوجد أي خطب.

وبعد مدة جلب الخادم إناء كبيرا مليئا بالرز واللحم، فدعا الزبير أخاه للبدء بالأكل ففعل ثم تبعه في ذلك.

جعل الزبير ينظر إلى أخيه بحزن عميق؛ وكأنه يشاهده يضرب أو حتى يقتل من قبل أحدهم. وبدأ الزبير يأكل ببطء وكأنه يأكل رغما عنه. لم يفهم دريد ماذا يحدث لأخيه؛ لكنه تناسى الأمر؛ فلم يرد أن يزعج أخاه بالمزيد من الأسئلة عن حاله وسبب حزنه.

وحالما فرغ الاثنان من تناول الطعام أتى الخادم وأزال الإناء ونظف المكان، وفورا استأذن الزبير من أخيه ودخل إلى غرفته وأخرج قارورة صغيرة بها سائل، فشرب السائل بسرعة ثم عاد إلى غرفة الضيوف ليجلس مع أخيه.

ذلك السائل لم يكن إلا مضادا للسم الذي دسه الزبير في المأدبة التي أكل منها هو والأهم أخوه! نعم، فالزبير تفكر وتفكر وتفكر في حل للمشكلة بينه وبين أخيه الذي ما فتئ يرفض تنفيذ خطته، ولم يجد أفضل من قتل أخيه، لكن بالسم ودون أن يعلم أحد. كان ذلك شيئا قذرا! خلا من المروءة والشجاعة والشهامة، لا سيما أنه تجاه أخيه! امتلأ بالخيانة والغدر! امتلأ بكل ما يتناقض والرجولة

والمبادئ التي تعلمها الزبير بل وتشبع بها منذ نعومة أظفاره! نعم، لقد عرف الزبير كل ذلك، واعترف به لنفسه وبكل صراحة، لكن لم يوجد هنالك حل أنسب.

احتار الزبير بين خيارين، الأول أن ينقلب على أخيه، والثاني أن يقتله بالسم. وفي النهاية استبعد الخيار الأول؛ لأنه إذا ما انقلب على أخيه فسيجلب العار لنفسه ولجده وكل عائلته ولقبيلته، وربما تنقسم القبائل – بما فيها قبيلة الأسد نفسها - بينه وبين أخيه. فأي رجل في التاريخ مهما أحبه من حوله، فلا بد من وجود أعداء وكارهين له حتى من أقرب المقربين له، والزبير ليس استثناء. والأهم من هذا كله، أنه لم يرد أن يعلم أخوه - الأعز على قلبه - أن الزبير خانه وانقلب عليه، الأمر الذي من شأنه أن يفطر قلب الزبير.

لهذا كله اختار الزبير خيار السم، وتوجه إلى مدينة البسطاء شرقي الكثبة، وقد عرف فيها الزبير عددا من التجار الذي يبيعون - سرا وبالخفاء عن السلطة - أشياء ممنوعة من قبلها، كالسحر المزعوم وكالخمور الممنوعة وكالسموم. واشترى من أحد تجارها سما ومضادا له.

وتحادث الأخوان الحديث الأخير ثم استأذن دريد من أخيه للمغادرة، فأذن له، وقف دريد واعتزم المغادرة وبينما هو يفعل ذلك، قال الزبير: انتظر، يا دريد.

فالتف دريد، ونظر ببراءة إلى أخيه، وتساءل: ماذا هنالك؟!

اقترب الزبير منه واحتضنه بقوة هائلة هي أقصى قوة استخدمها في حياته، ثم قال بمرارة: سامحني، يا دريد، سامحني على كل شيء.

استغرب دريد؛ فالزبير لم يؤذه طيلة عمره، وتساءل: علامَ؟!

فأجاب الزبير: على كل شيء حدث...

ارتبك الزبير وازدرد ريقه، ثم أكمل: وسيحدث.

فقال دريد كلاما قطّع قلب الزبير أكثر وأكثر: أيها الزبير، مهما فعلت بي، فأنا أسامحك في هذه الدنيا وفي الآخرة.

ثم التف ورحل، والزبير لم يصدق الكلمات التي سمعها، كانت أسوأ شيء، وعلى النقيض أفضل شيء يمكن أن يقوله دريد في الآن ذاته.

عاد الزبير إلى داره إلى غرفة المعيشة، وأرخى ظهره على الحائط وأسند قدميه إلى الأرض وضم فخذيه إلى جسده، ثم أسند يديه على ركبيته، وأرخى رأسه. أنشأ يحس بألم شديد، وأنه أسوأ من الضباع، بدأ يشعر بمرارة الذنب بسبب خيانته وغدره وقبح ما فعله! لكن الغاية العظيمة تبرر الوسيلة القذرة! وفي الحياة، إذا عَظُمَتِ الغاية كثيرا فلا بد من التضحيات، وهذه أولها: التضحية بأخيه! وما أضخمها من تضحية!

ظل الزبير يتجرع عذاب الانتظار وهو جالس جِلسته تلك، وأفكاره تأكله من الداخل، وعقله يعذبه ويحرقه بنار حامية، إذا كان مسرحا لحرب بين لوم الأخلاق وتبريرات الواقعية. ومر زمن

طويل جدا لكأنه عشرات السنين، وأتى الليل ثم حل الصباح وطرق باب دار الزبير. عرف من هو الطارق قبل أن يراه أو يسمع صوته، وأغمض عينيه بعمق لأنه عرف أن أخاه غادر الحياة، وبسببه هو، أغمض عينيه ندما وتمنى لو أنه خسر كل شيء حتى حياته، مقابل ألا يرحل أغلى الناس على قلبه عن الحياة. ولكن كل شيء فات الآن، وبم ينفع الندم؟!

نهض وفتح الباب.

وجد سهيلا بحالة يرثى لها، والخوف والفزع يشعان منه.

"عمي الزبير، أرجوك تعال فورا إلى دارنا." قال سهيل وصوته يتقطع من تنفسه السريع.

وهنا بدأ التمثيل، فالزبير تظاهر أنه لا يعرف شيئا، وظل التمثيل مستمرا بافتعاله علامات الدهشة والتفاجؤ، واستمر التمثيل وهو يركض إلى دار أخيه، ويتظاهر بالخوف عندما شاهده لا يتنفس ولا يتحرك، ثم وهو يسرع لجلب الطبيب. كان المشهد – رغم طوله – ممثلا ببراعة من رجل عهد الناس عنه الصدق والجرأة وعدم الخوف من أحد. كله كان تمثيلا في تمثيل، باستثناء شيء واحد، هو ما فعله الزبير عندما أعلن الطبيب موت أخيه، أو بالأحرى مقتل أخيه. عندما اتجه إلى جثمان أخيه، وركع على ركبتيه، وأمسك بيده، واحمر وجهه وجعل يبكي البكاء المر، ونزلت دموعه غزيرة، وجعل يقول وصوته يتهدج: لا ترحل، يا أخي، لا ترحل، يا دريد.

هذا الكلام الذي قيل بصوت عال سمعته زوجة دريد وسهيل، لكنهم لم يسمعوا الكلام الذي قيل بصوت أعلى بكثير والذي دار في خلد الزبير عندما فكر: "كيف فعلتُ ذلك؟! كيف قتلت أخي؟! تبا للبقاء ولي وللحرب ولأحلامي ولطموحاتي! تبا لي!... تبا لي!... ليت كل شيء يضيع فدى عودتك، يا دريد! ليت كل شيء يضيع!..."

ولكن بم ينفع الندم الآن، أيها الزبير؟!

***

***العام 484.**

"لماذا فعل الزبير كل ما فعله؟! ولماذا تصرف بهذه الطريقة؟! وكيف سولت له نفسه فعل كل هذا؟!" هذه تساؤلات طرحها كل الناس الذين عاشوا في زمنه، وحيرتهم، فكيف صدرت هذه الأفعال عن رجل لم يعهدوا عنه طيلة حياته سوى المروءة والشهامة والرجولة!

بدأ جنون العظمة يصيب الزبير منذ صغره، وولد هذا الجنون صغيرا أولا، وقد بدأ بسبب تعظيم جد الزبير له، والذي لطالما رآه الزبير على أنه أعظم رجل في الكون. ولم يكن جده الوحيد، فكل من حول الزبير عظموه منذ صغره. ومع مرور الزمن، أَكْثَرَ أقربُ أصدقائه قيس من تعظيمه ومديحه. حتى أخوه بعد أن صار شيخا تعامل معه على أنه الأهم كما لو كان هو الشيخ الحقيقي. والكل لطالما تعامل معه على أنه الأعظم والأسطورة. ثم فعل ما فعله بتحرير البقاء، والذي ظن الجميع – قبل ذلك – أنه مستحيل. ما أنجزه يحدث مرة كل ألف عام؛ فقد حرر مملكة ضخمة

الاتساع بأكملها منطلقا من العدم والسراب؛ فهو الفقير المستضعف الذي أتى مما تبقى من بادية قاحلة. وبعد هذا كله، أتى التعظيم من أشخاص عظماء في المجتمع فمن أعظم من أمين وسمية والمغيرة وحورية وأمين؟! ثم أتى من أهالي الممالك الثلاث التي قاتلت في حربي تحرير البقاء، بل وحتى من أهالي الممالك الأخرى التي وصلتهم حكاية الزبير الأسطورية. والأهم من كل ما سبق، أن الملك قصيا – الذي يفترض أنه أعظم رجل في المملكة كلها – عظم الزبير أيما تعظيم.

واستمر هذا كله من هؤلاء جميعا ولفترة طويلة، وتعاظم أكثر وأكثر مع مرور الزمن، وبزخم أكبر من المقربين من الزبير كقيس.

كل هذا جعله يعتقد أنه أعظم رجل في الممالك الثلاث بل في التاريخ كله، وحتى أعظم من جده الذي لطالما قدسه، وكان ذات يوم يراه الأعظم على الإطلاق.

جنون العظمة هذا اختلط بطموح ولد منذ ميلاد الزبير، وظل يزداد مع مرور الزمن ويكبر، كالنار بعد أن تشتعل في حقل واسع لا حدود له.

جنون العظمة والطموح هذان اختلطا بأمر ثالث، وهو شعوره بأنه يستحق التكريم على كل ما فعله إبان الثورة، وأنه هو الذي زرع؛ ولذا هو من يستحق أن يجني الثمار لا غيره كالملك الهارب.

هذه الأمور الثلاثة شكلت خلطة، خلطت بدورها عقل الزبير، وجعلته يقرر الانقلاب على الملك وفعل كل ما فعله.

وساعد على ذلك تشجيع قيس والداهية وكل من أخبرهم من أهل الكثبة له، عندما أسر لهم بخطة الانقلاب؛ فقد أيدوه وقالوا له إنهم معه حتى النهاية، حتى لو أودت الخطة إلى التهلكة والموت.

ولكن كيف فعل هذا وهو يحب الملك وكل من آذاهم أقصى محبة؟!

أجاب الزبير عن ذلك عندما حادث نفسه: "بما أنني قتلت أغلى الناس على قلبي، أخي دريدا، فلن أوفر أحدا أخر إذا وقف أمام طموحاتي لاحقا. الحياة لا بد فيها من التضحيات، والعظماء لا بد وأن يدوسوا على قلوبهم؛ لتحقيق أحلامهم العظيمات وقدرهم الذي قرره الله لهم!"

ولذا قبل ما يزيد على العام تقريبا من الانقلاب، طفق الزبير ومن معه يعدون - بتركيز وتروٍّ وصبر - لكل خطوة من خطوات الخطة من أصغرها وأتفهها إلى أكبرها.

وقد اختار الزبير موعد الاغتيال، في فترة يكون فيها الأمير ريان في البقاء، وليس مسافرا كعادته، كي يتمكن من اغتياله، لكن الرياح لم تأتِ بما تشتهيه سفينة الزبير، عندما رفض الملك قصي وابنه الأمير قدوم الأخير لحفل التكريم.

"كيف أقنع الزبير حارسين من حراس الملك بخيانته؟!" والإجابة أن الزبير قبل عام تقريبا من اغتيال الملك، طلب من الأخير معروفا، وهو أن يعين ابني خال الزبير حارسين للأخير، فوافق الملك، دون أن يعلم أنهما يخططان مع الزبير لاغتياله.

***

"... وأخيرا أتى هذا اليوم العظيم، اليوم الذي يجزى فيه كل رجل بما يستحقه..." قال قيس بصوت جهوري عال وهو يخطب في الحضور.

وفي هذه الأثناء وقف الزبير وهو يعلو قيسا بدرجتين، وهو يرفع رأسه وينظر إلى السماء نحو القمة وهو يحدق بعينين حادتين قاسيتين، بينما علت التعابير القاسية وجهه، وهو يمط شفتيه الغليظتين للأمام.

وظل هكذا بينما أكمل قيس خطاب التتويج: اليوم الذي يجزى فيه أهل الكثبة على مجهوداتهم الجبارة وأفكارهم النيرة التي قادت إلى تحرير البقاء بأكملها، والأهم من كل هذا أن فخرهم وصاحب هذه الأفكار وقائد هذه المجهودات، ابنهم وقائدهم الزبير يلقى اليوم الجائزة التي يستحقها. الزبير أعظم رجل في الأرض، وهو الأفضل لقيادة المملكة وهو الأفضل للناس، ويستحق أن يتوج ملكا تكريما لأفكاره البراقة ومجهوداته الخارقة.

إن الملك المقتول كان ضعيفا، ولم يكن بوسعه الحفاظ على المملكة، وقد عجز لسنوات كثيرة جدا على فعل أي شيء لتحرير البقاء، ولولا الزبير ما فعل شيئا يذكر. من يريد أن يتحدث عن المنطق والعقل والحق، فليخبرني بأي منطق وأي عقل وأي حق يمنح رجل ضعيف لم يفعل شيئا كل شيء، في حين يحرم رجل جبار فعل كل شيء من كل شيء؟! الزبير هو الأحق، الزبير هو الأجدر.

كانت الكلمات تناسب بعذوبة، وتقطر منها البلاغة من فِي قيس، بينما رقصت قلوب الحضور طربا بكلماته، وهم يقفون أمام الزبير وقيس بينما يحيط بالزبير النسور السوداء كالعادة. ففي تلك الشرفة من القصر المطلة على الهواء الطلق، والتي احتوت على درج علا أرضا منخفضة، حضر أهم أهل الكثبة الذين شاركوا في الانقلاب أثناء الحفل، وفي مقدمتهم سهيل.

وأكمل الرجل البليغ: ذلك الملك لم تكن عنده طموحات في التوسع في الممالك المحيطة أو في فرض ضرائب وجزى عليهم. وبذلك لم يكن بمقدوره أن يجلب المال للناس ولخزينة الدولة. على العكس من القائد القوي الحكيم الشجاع الزبير.

دائما ما علمنا التاريخ أن الذين ينجزون الانقلابات يدعون أخطاء ونقاط ضعف فيمن سبقوهم، حتى لو لم تكن موجودة أو واقعية؛ وذلك لتبرير الانقلاب أمام الشعب.

سحب قيس شهيقا عميقا، والفرح يجتاحه، ثم أكمل: والآن أعلن تتويج الزبير ملكا على مملكة البقاء بأكملها. فليتفضل قائد قبائل الكثبة سهيل بتتويج عمه الملك الزبير.

عندها تقدم مقاتل يحمل مخدة حمراء مطرزة حوافها باللون الذهبي الساحر، ويعلوها تاج ذهبي يسحر الأبصار أكثر وأكثر ومرصع بالألماس الثمين النادر. تقدم سهيل وأخذ التاج ثم صعد الدرجات ببطء وجلال، ثم اقترب من عمه ووضع التاج على رأسه، وهو يقول: أعلن عمي وسيدي ومولاي الزبير ملكا على البقاء بأكملها.

وعندها فارت الدماء في عروق الحاضرين من شدة الحماس، واجتاحت الفرحة قلوبهم وابتسموا جميعا، وتنافست ابتساماتهم في مدى اتساعها، وظهرت السعادة واضحة على محيا سهيل وقيس والحاضرين، الذين بدؤوا يهتفون بصوت عال موحد: يحيا الزبير... تحيا الكثبة... يحيا الزبير... تحيا الكثبة...

وظلوا يكررون كل هذا.

ظل الزبير رافعا رأسه بالوضعية نفسها بكامل تفاصيلها، بينما علا التاج الساحر رأسه، وظل على حاله هذا بينما أحاط به الهتاف. وبعد مدة التف وتوجه إلى العرش الموجود في تلك الشرفة والمستند إلى أحد حوائط القصر وجلس عليه. فوقف على يمينه هلال وعلى شماله الأقرط، وأمامه على بعد قليل وعلى الجهة اليمنى وقف بيدق. وقد أُسنِدَ رأس الضيغم إلى الكرسي، فأمسك به الزبير وأسنده إلى الأرض وهو يجلس على العرش. ومنذ ذلك اليوم ظل الزبير يمسك رأس الضيغم في كل اجتماعاته الهامة.

وبعدها بدأ قيس ينزل علم مملكة البقاء القديم علم آل الضياغم المرفوع، المكون في معظمه من اللون البنفسجي، والذي احتوى رأس أسد أسود في جزء منه. ثم وضع علما جديدا لم يره أحد من قبل، هو علم ملوك الكثبة، علم الملك الزبير وآله، وبدأ يرفع به، حتى بات يرفرف عاليا. تكون ذلك العلم في يساره من مثلث أحمر يرمز إلى لون لباس بدو الكثبة، وفي ذلك المثلث وجدت رسمة للخنجر الذهبي الثمين الخاص بالزبير، والذي كانت له مكانة عظيمة في قلبه، والذي قتل به معظم خصومه الهامين أثناء الانقلاب، هذا الخنجر الذي أوصله للمُلْكِ. وانطلق من رأس المثلث خط فصل بين اللونين الأبيض في الأعلى والأسود في الأسفل. أما اللون الأسود فرمز إلى لون لباس فرقة الزنوج التي رأسها الزبير بنفسه، وأما اللون الأبيض فرمز إلى لون مشترك بين لباس بدو الكثبة ولباس فرقة الزنوج. وأما فرقة الزنوج فمنذ ذلك اليوم بات لها علم خاص بها، احتوى رأس نسر أبيض اللون وأحاط به اللون الأسود.

لم يترك الزبير وأتباعه شيئا دون التحضير له في هذه المناسبة، حتى الأمور التي قد تبدو ثانوية بل ربما تافهة، كمكان حفل التتويج أو العلم الجديد، فقد أعدوا لها بإتقان ودقة ومنذ زمن بعيد، فهؤلاء البدو ليسوا على الإطلاق أناسا هينين بسطاء، كما اعتقد معظم الناس عنهم!

***

وبعد تنصيبه ملكا، سرعان ما أعلن الزبير في البقاء بأكملها عدة قرارات حاسمة وخطيرة. فقد أعلن أن كل من يقتل "خائنا" –وهنا قصد الموالين للملك الراحل وآل الضياغم– فإن له ألف درهم ذهبي. وهذا مبلغ هائل في ذلك الزمان والمكان. وأي رجل يقتل أحد أفراد آل الضياغم فله ثلاثون آلف درهم ذهبي. وعمم على الجنود الموالين له قتل أي واحد يتمكنون منه من آل الضياغم. وأعلن رفع راتب كل جندي من جنود الجيش ثلاثة أضعاف، حتى أولئك الذين لم يكونوا من الكثبة.

هذه مبالغ هائلة جدا في ذلك الزمان والمكان، لكن الزبير استعد للتضحية بكامل خزينة الدولة من أجل تحقيق طموحاته، وسيعوض كل هذه الخسائر لاحقا بطرائق خطط لها مسبقا.

أما القرار الأخطر والأكثر إذهالا، فهو أن أي رجل يقتل الأمير ريانا فله نصف خزينة الدولة! شكل هذا مبلغا ضخما جدا جدا، لكن قرار الزبير دل على ذكائه؛ لأن الأمير هو التهديد الوحيد – آنئذ – لعرش الزبير.

وأعلن الزبير أن أي رجل يعصيه، فمصيره القتل فورا لا السجن. وأي قبيلة تنقلب عليه، فكل رجالها يقتلون وتسبى كل نسائها وأطفالها دون استثناء، ويفرض على مدينة القبيلة أو منطقتها تضييق مالي وتجاري. وأي رجل يذكر الزبير بسوء، يسجن مدى الحياة!

هذه القرارات اتسمت بأنها جنونية، لكن كان لا بد منها. فانقلاب مثل الذي أنجزه، وبالطريقة التي أنجزه بها، خصوصا أنه ضد ملك أدمن الشعب عشقه، توجب القمع والعنف والقسوة للسيطرة على البلاد، ومنع القلاقل والفتن.

وقرر الزبير فرض ضرائب باهظة على الأغنياء في مملكته، ووضع فكرة قد ينفذها مستقبلا، وهي فرض جزية على المملكتين المجاورتين وإلا فإنه سيغزوهما، وكل هذا تعويض لما سينفقه من خزائن الدولة على من يطيعونه.

صحيح أنه بقراراته هذه ضحى بكثير من الأموال، ولكن هذا لا ينفي أنه بحث عن المال أيضا كما بحث عن السلطة – ولو بدرجة أقل - . ولكنه اعتاد على حياة صعبة في عقر الصحاري، وسيسعد بعُشْرِ ما وجد لدى الملك الهارب وآله الذين اعتادوا أضعافا من الترف مقارنة بالزبير وعائلته. كما أن الزبير سيعوض لاحقا كل ما سيخسره من خزينة الدولة على تثبيت أركان حكمه، من خلال السيطرة على أموال وممتلكات الملك الهارب وكل آله – وما أكثرهم – وسيبيع كل قصور الملك الهارب وآله - باستثناء قصر الضيغم -.

كما أعلن الزبير تعيين قيس نائبا للملك، وقائدا عاما للجيش، في حين كان الزبير القائد الأعلى للجيش.

وبعد ذلك، بات العامة يلقبون الزبير بالملك ذي الندب، بسبب الندب الذي في وجهه، وبات التكريم - الذي تم فيه تصفية خصوم الزبير - يعرف لديهم بالتكريم الأسود.

***

بدأت الانهيارات بالجيش، والانقلابات والانشقاقات، وسيطر القادة المنتمون لقبائل الكثبة أو الموالون الآخرون للزبير على الغالبية العظمى من الجيش، ولم يبق سوى قلة قليلة من القادة الموالين للملك الهارب، والذين تم قتلهم أو التنكيل بهم، في حين فر بعضهم. وهكذا أضحت الغالبية العظمى من الجيش تدين بالولاء للزبير.

وقد فر عدد من القادة الموالين للملك الهارب والذين بقوا أحياء بحياتهم. وسرعان ما هرع عدد منهم باتجاه بحران؛ لإعلام الأمير ريان بما حدث، وتحذيره من شرور الزبير. ولما وصل أول واحد منهم بحران ودخل قصر الأمير، طلب لقاءه على الفور لإعلامه بأمر جلل.

خرج الأمير ريان ومعه مستشاره وصديقه الأمير عماد للقاء القائد في إحدى شرفات القصر الواسعة، التي أطلت من بعيد على منظر البحر الرمادي الخلاب حيث عانقت زرقة مياه البحر الصافية زرقة السماء الصافية. منظر خلاب، على العكس تماما مما حمله القائد للأمير ريان من أنباء.

وانتشر الحرس في المكان.

"أهلا، بك بيننا" قال الأمير ريان فورا.

نظر القائد بحزن عميق إلى الأرض، وظهر كما لو أنه طفل في الخامسة من عمره شاهد أمرا مفزعا لا يحتمله الأطفال، إذ ظهر الخوف والارتباك واضحين على محياه، رغم أن بنيته الجسدية اتسمت بالقوة الهائلة، لا سيما مع عضلاته المفتولة وصدره المنفوخ من ضخم عضلاته، مما بين للأمير أن أمرا جللا بالفعل قد حدث.

صمت القائد؛ مما دفع الأمير ليحفزه على الكلام: ما بك؟! ماذا هنالك؟! ماذا حدث؟!

ظل القائد يحدق في الأرض، وبدأ عرقه يسيل بغزارة - من عظم عبء ما يحمله – عندما شرع قائلا: سيدي...

عاود الصمت.

فبدأ الشك يساور الأمير الذي قال: ما بك، يا رجل؟! أنت قائد عظيم في الجيش، فكيف ترتبك من أمر ما حدث؟! أيا يكن ما حدث، فإنه لن يكون هائلا لدرجة إفزاع رجل مثلك.

الأمير المسكين لم يكن يعرف ما الذي حدث، وأنه كفيل لإفزاع جيش هائل لا مجرد فرد ولو قائدا في الجيش.

"بلى هو كذلك" قال القائد، وأكمل: مولاي، أنا آسف لما سأقوله...

بدأ الارتباك يجتاح الأمير، بينما أكمل القائد: أنا آسف لأنني أنا من سينقل الأخبار إليك... لكن ذلك حفاظا على حياتك...

عندها تسارعت دقات قلب الأمير، وشك أن أمرا ما حدث في المعتزة، فحفز القائد بحزم: أخبرني بسرعة ما الذي حدث!

فقال الرجل: الزبير انقلب على جلالة الملك...

تسارعت أنفاس القائد، ثم أغمض عينيه وقال بسرعة أصعب ما نطق به في حياته: واغتاله واغتال الملكة والأميرة شقيقتك والقائد جاسما وابنه القائد عاصما.

فتح الأمير ريان عينيه على أقصى اتساعهما ولم يصدق ما سمعه، ووقف لمدة طويلة على هذا الحال، دون أن يرمش، في حين اجتاح شعور غريب من الفزع صدره.

أما الأمير عماد فقد فزع هو الآخر من هذا الخبر الهائل، أراد أن يهدئ من روع الأمير، لكنه خاف أن يفعل أي شيء من شأنه حينئذ أن يغضب الأمير، لذا التزم الصمت والهدوء.

ظل الأمير على حاله ذلك، لمدة، ولما طفق يستوعب ما سمعه، ركض بسرعة نحو القائد وأمسكه بقوة هائلة من خناقه، ورفع ثيابه للأعلى، وصرخ: ماذا تقول؟!... أنت كاذب... أنت كاذب... مستحيل... مستحيل...

الإنكار، أحد أهم الوسائل التي يستخدمها كثير من البشر لاستيعاب الطامات الكبرى وهضمها، أليس كذلك؟! وهذا هو ما فعله الأمير في تلك اللحظات.

اندفع عماد بسرعة وقوة نحو الأمير، وهو يمسك بخناق القائد الذي حاول الإفلات من قبضته، وأحس كما لو أن الأمير سيقتله. أمسك عماد بالأمير، وهو يصرخ عليه: هدئ من روعك، يا مولاي... ليس له ذنب... إنه معك وليس ضدك...

"ابتعد" صرخ الأمير على صديقه ومستشاره، ودفعه بقوة هائلة، ثم عاود الإمساك بخناق القائد.

فما كان من عماد إلا أن صرخ بقوة أكبر: إهدأ، يا ريان... ما بك؟! عليك أن تتمالك نفسك، وأن تتماسك في هذه الظروف!

لم يعتد عماد مناداة الامير باسمه دون "مولاي" أو "سيدي" على الأقل أمام الآخرين، لكن في تلك اللحظات العصيبة جدا، وجب أن يفعل ذلك ليوقظ الأمير مما هو فيه.

من جراءة عماد عليه، ترك الأمير القائد – الذي سرعان ما ذهب بعيدا – ووضع يديه على رأسه غير مصدق ما يحدث، وبينما تسارعت أنفاسه، ركع على الأرض على ركبتيه، وهو ما زال واضعا يديه على رأسه، ثم أجهش بالبكاء الشديد، وسال الدمع الغزير من الفارس القوي المغوار الذي لم يهب أشد المعارك والحروب، كأنه طفل صغير. كان الأمر مهينا، بكاء الأمير وولي العهد الذي لطالما حرص على الظهور بمظهر القسوة والشدة وأحيانا الفظاظة أمام الآخرين. لكن كل ذلك له تفسير، فما حدث أسوأ بألف مرة من كل مما حدث في حياته مسبقا، حتى باغتيال أقاربه – وهو طفل صغير - من قبل ملك ياقوتة، وما تبع ذلك من معاناة في جبال اليبس لسنوات طويلة، بعد حياة الترف والقصور.

وبينما هو يجهش في البكاء بمرارة، سارع عماد للنزول بجواره واحتضنه، ثم صرخ بالقائد وفي كل الحرس: ارحلوا فورا...

ثم صرخ بصوت أعلى: جميعا.

أنشؤوا يرحلون، وهم القائد بالرحيل، لكن قبل أن يغادر قال: مولاي، عليك أن تنجو بحياتك... والأفضل أن تغادر البقاء نهائيا...

أنصت عماد لتلك الكلمات بتمعن، وشرع يفكر في حل للمعضلة؛ فكلام القائد صحيح.

ورحل القائد وجميع الحرس، ولم يبق سوى الأمير المنهار، وصديقه العزيز يحتضنه، وحدهما، يحيط بهما بحر هادئ وسماء صامتة، وسط هذا الصراخ والجنون.

بدأ عماد يحاول تهدئة الأمير، وهو يقول: اهدأ، يا ريان... سنجد حلا...

"أبي، يا عماد" تهدج صوت الأمير وهو يقول هذه الكلمات باكيا البكاء الغزير، وأكمل: أبي... أمي... أختي... كلهم رحلوا... كل شيء ضاع في لحظة واحدة!

"اهدأ، يا ريان" قال عماد، وأكمل: أنت أقوى رجل في البسيطة، وستتجاوز كل هذا... لقد تجاوزت ما هو أعظم منه بمراحل كثيرة...

قال عماد هذا، وهو يدرك جيدا، أن ما حدث مسبقا في حياة الأمير، لا يعادل حبة رمل واحدة في صحراء الألم التي سيعيشها الأخير بعد ما فعله الزبير.

الأمير في تلك اللحظات، رغم أن الألم هو أبرز ما اجتاح صدره، إلا أنه شعر بغضب عارم تجاه الزبير الذي خانه وأباه، وبشعور هائل من الذنب؛ لأنه وثق به، ورغم شدة ألم وحزنه على أهله، قال: الوغد، كيف صدقناه؟!... كيف وثقنا به؟!... لا بد وأن يدفع الثمن...

فأمسك عماد بصديقه من كوعيه، ونظر إليه بحزم وقال بعينين ملؤهما الثقة: سننتقم منه، يا ريان... سيدفع هذا الحقير الثمن غاليا...

ثم أمسك بالأمير من كتفيه، وقال: عدني بذلك، يا ريان...

ثم صرخ: عدني بذلك...

قال الأمير الباكي، وهو يحكم إغلاق قبضته اليمنى غضبا وحنقا، وبرزت العروق في عنقه من شدة الغضب: أعدك بقتله... أعدك أنني لن أغادر الحياة قبل أن أقتله...

***

حمل عماد صديقه الأمير، وساعده للذهاب إلى غرفة نومه، وسرعان ما أخبر عماد زوجة ريان بكل ما حدث، فانهارت هي الأخرى من هول ما سمعت، وحزنت الحزن العظيم وبكت البكاء الشديد، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، فقد وجب عليها أن تقف بجانب زوجها، الذي انهار، واستلقى كطفل صغير ضعيف محطم في سريره، مكتفيا بالبكاء والحزن.

عرف عماد منذ اللحظة الأولى أنه يجب الرحيل بأسرع سرعة، قبل أن يفتك الوحش المفترس الزبير بالأمير وعائلته، إلا أنه آثر الصبر لعدة ساعات، حتى يتيح للأمير أن يستوعب –ولو قليلا- ما حدث. وبعد أن مر الوقت الذي قدره مناسبا، أتى عماد إلى غرفة نوم الأمير، حيث استلقى الأخير مكسورا على سريره.

فقال عماد: مولاي...

لم يرد الأمير، فصرخ عماد: ريان، أجبني.

كانت زوجة الأمير هنية تجلس بالغرفة، فلما رأت كل هذا، أجهشت بالبكاء حزنا وشفقة على زوجها، الرجل العظيم الجبار، الذي لطالما وقف كجبل صامد، ولم تظن يوما أنه سيأتي يوم تشفق فيه عليه!

أكمل عماد صراخه: اسمعني جيدا، يحب أن ترحل وزوجتك وأبناءك في أقرب فرصة، لا بد وأن الوغد الزبير في طريقه إليك.

عندها تناسى الأمير كل الحزن، فنهض من نومه، وقال بصوت خافت مرتجف: نعم... نعم، يجب أن أنجو بزوجتي وأبنائي.

فقال عماد: هيا، لنتوجه لجبال اليبس فورا.

الأمير كان رجلا ذكيا، بل ربما نابغة، ولم يكن رجلا هينا بسيطا ساذجا. من دلائل قوة المرء، وشدة بأسه، إدراكه لقوة أعدائه، واعترافه بها، وعدم إنكارها وخداع نفسه. وقد أدرك الأمير جيدا مدى ذكاء الزبير وقوته، وعلم أنه توقع أن يتجه – أي ريان – إلى جبال اليبس، ولا بد وأنه أرسل قوة ضخمة بانتظاره هناك.

لهذا كله قال: لا... هو ينتظرنا هناك... يجب أن نرحل إلى مكان آخر.

فقال عماد: وأين سنذهب؟! هو في كل مكان في البقاء!

رد الأمير: سأذهب إلى مملكة القدماء، هذا أفضل خيار.

قال عماد: ولكن ماذا يضمن لك أن يقبل سلطانها استقبالك هناك؟

أجاب الأمير: لا شيء... إذا لم يقبل بذلك، فهذا يعني أن الله يريد لي الهزيمة... لكن أعتقد أنه لن يرفض ذلك. القدماء بعيدة جدا عن البقاء، وليس بينهما علاقة، ولا أعتقد أن ملكها سيحسب حسابا لرضا الزبير من عدمه... والسلطان زاهي رجل ذو نخوة لا يرفض إجارة الم...

سكت ريان من صعوبة ما يريد قوله، إلا أنه استجمع قوته في تلك الظروف الصعبة، وقال: المستضعفين.

شعر بالذل لأنه وصف نفسه ب "المستضعف"، لكنه أدرك أن تلك هي الحقيقة.

نهض الأمير من استلقاءته، وبعد ساعات أبحرت سفينتان متوسطتا الحجم من بحران إلى مملكة القدماء. كان على السفينة الأولى الأمير وزوجته وابناه وابنته، وصديقه عماد مع عدد من حرس الأمير والبحارة، أما السفينة الثانية فامتلأت بحرس الأمير إضافة إلى عدد من البحارة. واحتوت السفينتان على عدد من الخيول، إضافة لكل المال الذي امتلكه ريان في بحران، واصطحبه معه كاملا؛ فهو لم يعرف إن كانت إقامته في القدماء ستطول أم تقصر.

استغرقت الرحلة ما يزيد على الثلاثة أشهر تقريبا، وكانت رحلة سوداء مليئة بالحزن والاكتئاب والألم. وُجد في أسفل السفينة حجرات للنوم، خصصت إحداها للأمير وأهله. وأخرى أصغر بكثير

خصصت لصديقه عماد. وأمضى الأمير طوال هذه الفترة وقته في اكتئاب أسودَ مطبق. لم ينبس ببنت شفة طيلة الشهور الثلاثة إلا للضرورة القصوى، حتى ظنت زوجته هنية وعماد أنه فقد القدرة على النطق. وأمضى طيلة الوقت إما نائما لساعات طويلة، أو مستلقيا في سريره يحدق في الحائط لساعات طويلة، أو يجلس فوق دكة السفينة على كرسي خشبي صغير ذي ثلاث سيقان صغيرة، يحدق في المشهد نفسه، البحر الرمادي الهائل الاتساع الذي أحاط بهم من كل جانب وهو يعانق السماء الزرقاء، زرقة في زرقة في كل مكان حوله، وسواد في سواد في كل مكان داخله. خافت هنية وعماد كثيرا على الأمير، وتحادثا سرا بوجوب إبقاء أنظارهما عليه، خشية أن يحدث له شيء، أو أن يؤذي نفسه، وفي كثير من الأحيان راودت هنية وعماد تخيلات بأن الأمير فجأة سيلقي بنفسه من على دكة السفينة إلى البحر، حتى إنهما تحادثا بذلك سرا، هذا الأمر الذي لم يظن كلاهما أنه سيحدث يوما ما للأمير الفظ القاسي الشديد أمام المآسي!

***

بعد الرحلة السوداء الطويلة، وصلت السفينتان المملوءتان بالأحزان إلى شاطئ مدينة الزهرة البيضاء شمال البحر الرمادي، وهي عاصمة القدماء.

نزل الأمير ومن معه من السفينتين، وشاهدوا منظرا خلابا حيث تعانق جمال الطبيعة وصفرة رمال الشاطئ وزرقة البحر الرمادي والسماء، مع جمال العمران حيث بنيت المدينة كلها من الحجارة الزرقاء، في منظر خلاب لم يستمتع به الأمير ريان، ففيه ما فيه! ونزل الأمير في الميناء فشاهد كثيرا من الرجال والنساء يجيئون ويذهبون، والتجار يتنقلون في كل مكان في مشهد حيوي نادر، وعلى الشاطئ وُجدت راية عملاقة هائلة الحجم لمملكة القدماء، وقد تلونت بالأزرق الداكن، ورُسم عليها زهرة بيضاء.

وانطلق الأمير من هناك نحو قصر السلطان زاهي. وحالما علم السلطان بمقدمه، سارع إلى استقباله بحفاوة في قصر الزهرة البيضاء.

كان القصر مبنيا كله باللون الأزرق الذي تفاوت في دكانة وفتاحة لونه من جزء إلى آخر، وامتلأ القصر بالزخارف والأعمدة زرقاء اللون، أما أرضية القصر فتكونت من بلاط ناعم أملس باهظ الثمن، وكانت كل بلاطة مربعة الشكل هائلة الحجم ومرسوم على كل واحدة منه زهرة بيضاء جميلة المنظر.

وكان حراس السلطان يلبسون اللون الأزرق وتعلو ثيابهم رسمة الزهرة البيضاء.

أتى السلطان ومعه زوجته السلطانة باهرة، وكان السلطان متوسط الطول قوي البنية وبرزت عضلات صدره، وكان شعر رأسه أسود كثيف، وله شارب أسود كثيف، وكذلك غطى الشعر الأسود الكثيف ذقنه. وكان عمره سبعة وأربعين عاما.

"أهلا بالأمير الحليف الحبيب، ريان" قال السلطان ليطمئن الأمير، ونجح في ذلك؛ إذ استبشر الأخير خيرا.

"أهلا بك" قال الأمير المكتئب، وهو مطأطئ رأسه في الأرض بذل.

فقال السلطان: رحم الله الملك، وعظم الله أجركم.

بدا الذهول واضحا على محيا الأمير وعماد ومن معهما، فقال السلطان: لا تستغرب، لي رجال في كل مكان، وبيننا الحمام الزاجل.

فأراد الأمير الحديث، لكنه أحس بحرج بالغ فالتزم الصمت، فقال السلطان: لا عليك، يا ريان... أنت وأهلك وكل من معك موضع ترحيب هنا... واعتبر هذا بلدك، وأننا أهلك...

ثم أضاف: أنا رجل يجير المَضِيم، ولا أرده، ولو دفعت حياتي ثمنا لذلك... تأكد من هذا جيدا... وذلك الوغد الخائن الزبير أشعل في صدري نارا تجاهه، وتجاه بشاعة ما فعله وما يحمله من شر في قلبه الأسود، الذي غدر بالملك قصي، الذي لم يلق منه الزبير الغدار إلا كل محبة ووفاء.

خف حزن الأمير بسبب كلام السلطان، ولكن النار ظلت مشتعلة بداخله تجاه الزبير.

***

بعد الزلزال المدوي الذي وقع، استاء أمراء الثورة أمر استياء، فالمحبة بينهم وبين آل الملك والزبير، كلها تلاشت، بعد أن كانت مضرب المثل. لقد حدث كابوس سيقض مضجعهم إلى الأبد، وسيجعل الكراهية هي السائدة. لم يصدقوا أن كل هذا يمكن أن يصدر عن رجل كالزبير، لم يعهدوا منه إلا الخير.

وأتى أمراء الثورة، أمين وسمية، والمغيرة وحورية، وسليم، كلهم للقاء الزبير. ولما علم بمقدمهم دعاهم إلى الساحة حيث توج ملكا، ثم دخل عليهم وجلس على كرسي العرش، وأمسك برأس الضيغم.

لم يتبادل الطرفان التحايا. وظل كل أمراء الثورة واقفين، فالغضب والحزن الذي بداخلهم منعهم من الجلوس.

وباشر أمين الحديث، قائلا: كيف تفعل هذا، أيها الزبير؟! كيف تخون ملكك؟! كيف تخون أباك؟!

وأتبع المغيرة – الذي اهتز رغم شدة قسوته بشدة مما حدث-: أيها الزبير، لا أستطيع أن أصدق ما فعلت! أنت رجل ما عهدنا منه إلا المروءة والشهامة والطيبة، فكيف حدث كل هذا؟!

جحظت عينا الزبير واحمرتا غضبا، وبعد مدة من الصمت صرخ بصوت مدو: أنا الذي صنعت كل شيء... كل حياتكم السعيدة الآن مني وبسببي... أنتم لا شيء دوني... والآن بعد كل هذه السعادة، تلومونني؛ لأنني فقط أخذت ما أستحقه.

فسكتوا جميعا، وعم الصمت في الساحة.

وظل الأمر هكذا لمدة.

سمية بكت بحرقة، طيلة الأيام الماضية حزنا على الملك وعلى ما حدث، ومنذ أتت إلى القصر للقاء الزبير وعيناها قد اغرورقتا بالدموع.

انهارت وبكت البكاء المر الشديد، وتهدج صوتها، وهي تقول: أنت كنت رجلا طيبا... أنت لم تقتل الملك فقط... لماذا قتلت الزبير الطيب الذي عرفناه؟! كيف تقتل أباك وأمك وأختك وجاسما وعاصما؟!... يا لبشاعة ما فعلته!... كلنا كنا عائلة واحدة، يحب أحدنا الآخر أكثر مما يحب نفسه... أنت رسمت الابتسامة على شفاهنا جميعا، وعلى شفاه كل أهل البقاء، بعد سنوات الضياع... خلصتنا من كابوس أسودَ طويل أقض مضاجعنا لسنين كثيرة... لكنك سرعان ما قتلت الابتسامة، وزرعت حزنا أكبر في قلوبنا، وخلقت كابوسا أسوأ بكثير من السابق... كيف يمكن لنا أن نعيش بعد ما فعلته؟! كيف يمكن لنا أن نقبل بما حدث؟! كيف يمكن لنا أن نغمض عيوننا دون أن نتخيلك

وأنت تقتل الملك وباقي من قتلتهم؟! كيف لنا أن ننام دون أن نفكر ونتساءل ماذا فكروا جميعا في لحظات قتلك لهم؟!

وعلى العكس من الغضب الذي اعتراه عندما تحدث أمين والمغيرة، اعترى الزبير حزن بالغ؛ من كلام سمية، وجعل ينظر في الأرض حزنا.

وجلس حزينا، وظل الأمر هكذا، حتى نظر إلى سليم، وقال: وأنت، يا سليم، أنت – يا بني – هل ستصطف معي، مع أبيك، أم مع الآخرين؟

التزم سليم – المعروف بخجله – الصمت.

فصرخ الزبير بعنف: ما موقفك مما حدث؟

ارتعب قلب سليم، وقال بصوته الخافت الخجول: أنا حزين جدا.

ومر وقت من الصمت، قاطعه الزبير حين قال بهدوء وثقة: اسمعوني جيدا... ما حدث قد حدث، ولن يتغير... وأنا مصر على ما فعلته وما سأفعله، وإياكم أن تتحدوني أو تقفوا في طريقي... أنتم وسواكم، كل من سيقف في طريقي، سأدمره وأنهيه نهائيا... لا تحسبوني لم أتأثر بقتلي للملك الذي أعتبره والدي... لذا لا تجعلوني أتألم بإيذائي لأي منكم؛ فأنتم أعزاء علي... ارحلوا الآن جميعا، أريد البقاء وحدي.

فشرعوا جميعا يرحلون، أما حورية فالتزمت الصمت طيلة النقاش، ولم يبدُ عليها على الإطلاق المبالاة بكل ما حدث وفعله الزبير. بل في حقيقة الأمر، أسرت لنفسها بإعجابها به وما فعله ومدى اتساع طموحه.

***

كان الزبير رجلا فريدا ويفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين، لذلك وفورا بعد استلامه الحكم، أسس فرقة من العيون مهمتها الاندساس في ربوع البقاء وحتى الممالك المجاورة، واستطلاع الأخبار والتجسس، وكل ذلك اتسم بالسرية. وعين أنسب رجل ممكن لهذه المسألة داهية الكثبة قائدا لهذه الفرقة وكلفه بإدارتها.

ولفطنة الزبير وبُعْدِ نظره – حتى لسنوات بل عقود قادمة – أيقن أنه لا بد وأن تحدث ثورة وربما ثورات بعد انقلابه على الملك قصي؛ لأن الشعب عشق الملك الهارب وآل الضياغم لذا سيسعون للانتقام لهم، ولأن طبيعة شعب البقاء امتازت برفضهم للظلم وكرهه فسيسعون لإزالته.

وقد صدق حدس الزبير، فبعد ما يقرب الأربعة شهور من انقلابه، أعلمه داهية الكثبة أنه علم من خلال عيونه - المنتشرين في كل مكان كأنهم دقائق الهواء! – أن قبيلة تعرف بالقَسَطَة تخطط لثورة ضد الزبير. وقد قطنت قبيلة القسطة في الشمال الغربي من البقاء، وقد حاولت سرا أن تقنع عددا كبيرا من القبائل في الثورة على الزبير بعد الانقلاب، وقد نجحت في ذلك.

استبق الزبير الأحداث، وأرسل جزءا كبيرا من جيشه أباد قبيلة القسطة وسائر القبائل المتحالفة معها على بكرة أبيها وسبى نساءها وأطفالها، واستحل بيوتها وأموالها ومملتكاتها، وعذب أسراها أمر عذاب ثم قتلهم أسوأ قِتلة.

وكل ذلك؛ لأنه أراد تأديب الآخرين غير المشاركين في الثورة المخطط لها، من خلال إخماد أول ثورة بعنف شديد؛ حتى لا يتجرأ أحد على ثورة ثانية. وبالفعل نجح في ذلك؛ إذ بات الجميع ترتعد فرائصهم خشية وخوفا من الملك العنيف الزبير.

وبعد مدة من استلامه الحكم، صادر الزبير كل أموال آل الضياغم وأملاكهم على بكرة أبيها، وفرض الضرائب الباهظة على الشعب غير آبه بامتعاض أي منهم أو استيائه.

***

وهكذا عاش الأمير ريان في مدينة الزهرة البيضاء في حزن عميق قاتم، كانت أيامه شديدة السواد، وتقلب بين النوم والحزن، رغم أن نومه كان قليلا جدا، وامتنع عن الطعام والشراب ومجامعة زوجته، ولم يكن يبتسم على الإطلاق، ولم يكن يتحدث إلا للضرورة القصوى.

حاولت زوجته وعماد التخفيف عنه، ولكن ذلك لم يجدِ نفعا. حتى السلطان زاهي حاول التخفيف عنه، وأرسل إليه الأموال والجواري والهدايا، وعرض عليه الأراضي والقصور، فما وجد من الأمير سوى الرفض التام!

كان يعيش في دوامة من الحزن على أبيه وأمه وأخته ومملكته الضائعة التي كان سيحكمها بلا شك يوما ما، وخالط ذلك شعور أكبر بكثير بالغضب والحقد تجاه الزبير، وتمنى الأمير أن ينتقم منه من كل قلبه، وتساءل: "هل أستطيع النجاح في ذلك؟!"

ورغم أن الأمير نادرا ما خرج، إلا أنه فعل ذلك عدة مرات بناء على إلحاح صديقه عماد عليه. وذات مرة خرج مع عماد وعدد من حراسه ليتجول في المدينة. حدث ذلك بعد خمسة شهور من مقدمه إلى القدماء.

وبينما هم يتجولون فجأة دفع عماد الأمير بقوة هائلة، فسقط عن جواده، وكادت تتكسر عظمة يده، وشعر بألم شديد نتيجة السقوط. لقد تفاجأ ولم يفهم لماذا فعل صديقه المقرب ذلك، وفي لمحة خاطفة، فكر: " هل خانني عماد؟! حتى عماد يفعل ذلك! هل يعقل أن نفوذ الزبير وصل إلى عماد نفسه؟!"

إلا أن الأمر لم يكن كذلك، فقد شاهد عماد رجلا يندفع بسرعة ثم يركع أرضا إلى إحدى ركبتيه ويوجه نشابه باتجاه صدر الأمير، فدفع الأخير ليحميه، وأطلق الرجل السهم الذي لم يصب هدفه. ثم هرب الرجل الذي اعتزم اغتيال الأمير، بينما لحقه عدد من حرس الأمير، في حين تحلق البقية – وهم الأكثرية- مع عماد حول الأمير الذي وقف - وهو مذهول - مما يحدث.

وبعد أن هدأت الأمور عاد الأمير إلى غرفته في القصر، وقد فشل حرسه في إيجاد الرجل الذي حاول اغتياله.

"تبا للزبير! ما أقواه وما أذكاه! حتى هنا، في القدماء البعيدة جدا عنه، وصل إلي!" هكذا ما انفك يفكر، واستسلم للفكرة التالية: "بالفعل، الزبير أفضل مني وأقوى... لا بد وأن هذا سبب كرهي له قبل الثورة، لا بد أن هذا سبب غيرتي منه!"

وقد خاف كثيرا، وطفق يشعر بضعف واستسلام أمام الزبير، وأنه أشقى أهل الأرض؛ لأنه لن يستطيع أبدا الانتقام بعد أن فقد كل أهله، بل كل شيء. وعاش في جحيم، رغم أنه أحيط بالقصر والمال والنساء وغيره مما وفره له السلطان.

***

أتى الأمير عماد، لزيارة صديقه الأمير ريان، في غرفة الأخير في قصر السلطان زاهي.

دخل عماد، فوجد ريانا جالسا على كرسي في الغرفة ينظر من النافذة، وهو يائس مستسلم منكسر.

حيا عماد ريانا، فرد الأخير عليه ببرود.

حاول عماد الحديث معه في أمور عامة، بيد أن ردود الأخير كانت مختصرة وقصيرة.

مما دفع عمادا لأن يقول: ريان، هنالك أمر أريد محادثتك فيه منذ زمن طويل.

انتظر عماد ردا من ريان، غير أن الأخير ظل صامتا.

ثم قال عماد: إلام ستظل يائسا مستسلما؟! عليك أن تستجمع قواك.

لم يرد ريان، بل لم يرمش له جفن، وظل صامتا.

ثم قال عماد: ريان، أرجوك... عليك العودة إلى البقاء، وتحريرها من براثن الوغد الزبير والانتقام منه.

التزم ريان الصمت من جديد، ولم يتحرك لكأنه صنم!

مما دفع عمادا ليقول: ريان، أرجوك أجبني... بأي شيء.

فقال ريان بيئس: أي بقاء؟! وأي انتقام؟! وأي تحرير؟!... لقد ضاع كل شيء... لقد انتهى كل شيء... لم أعد أملك شيئا هناك... لا الأراضي، ولا الرجال، ولا المال... وذلك الحقير قوي جدا، ويمسك بزمام الأمور... علي أن أنسى الأمر، وأن أظل أتعذب كما أنا الآن، إلى أن يقهرني الموت.

"ما هذا الكلام؟!" قال عماد مستغربا، وأكمل: عليك أن تنتصر... لا بد من وسيلة... لا تستسلم.

فقال ريان: أتدري أمرا؟! الآن أفهم لم ظل والدي يرفض خططي لتحرير البقاء عندما كنا في جبال الييبس. لأنه كان يائسا، وفقط خطة الزبير المحكمة جدا هي ما أعادت الأمل له. لقد كان الشباب وحماسته يتفجران مني آنئذ؛ لذلك ظللت أحيك الخطط... أما الآن فقد تقدم بي العمر، وتجمعت عبر السنين علي النوائب... وغدوت خائر القوى... أرجوك، يا عماد، إن كان لي عندك معزة، دعني الآن وحيدا، أتالم في صمت، بعيدا عن أي شيء يذكرني بما حدث.

حزن عماد لكلام صديقه اليائس، واقتنع أن ريانا الشاب القوي المتحمس ذات يوم مات، وبات مكانه عجوز يعيش في جسد رجل - في منتصف العمر- ينتظر الموت بهدوء. لذا قام وترك صديقه تلبيه لطلبه.

***

وبعد شهور من إقامة الأمير ريان، في قصر السلطان زاهي، أتى الأخير لزيارته.

دخل على الغرفة، فوجد ريانا يجلس جلسته اليائسة نفسها، وهو مرتخٍ وجسده متدل في الكرسي، ينظر بيأس وحزن من النافذة.

"كيف حالك، سمو الأمير؟" سأل السلطان زاهي.

نظر إليه الأمير ريان، ثم عاد ينظر من النافذة، وقال ببرود وجفاف: بخير.

لم يستاِ السلطان زاهي من عدم احترام ريان له، وهو السلطان العظيم؛ فقد قدر الحالة النفسية المزرية التي عاش فيها الأخير.

جلس السلطان على كرسي آخر في الغرفة، وبعد مدة قال: هل تعتقد أنك الوحيد الذي عانى من أحداث سيئة في حياتك؟!

لم يجب ريان.

تنهد السلطان، ثم قال: هل تعرف كيف أصبحتُ سلطانا؟.. لقد قتل أبي في حرب مع إحدى الممالك المجاورة. بعدها بويعت سلطانا. توقع الجميع أنني سأذهب وأنتقم لأبي. وهذا بالفعل ما فكرت به. لكن في النهاية، قررت أن أنهي الحرب، وأحقن الدماء، ووقعت سلاما مع المملكة المعادية. ليس لأنني لا أحب أبي، وليس لأنني ضعيف، وليس لأنني جبان... العامة يظنون أن الملوك محظوظون، وأن حياتهم مليئة بالسعادة... ربما هذا صحيح إلى حد بعيد، لكن ما لا يعرفه العامة، أن القدر إذا عبس في وجه أي ملك، فإنه سيؤذيه أذى عظيم لا يمكن أن يشهد أحد من العامة مثله. فالملك دائما خسائره عظيمة إذا خسر. إما أن يخسر جزءا من بلده، أو أن يكرهه حتى ابنه، ويتمنى موته ليصبح محله... وفي أية لحظة غفلة بسيطة، يمكن أن ينقلب عليه أي رجل في جيشه، ويطيح به...

لقد أشار الملك في جملته الأخيرة، إلى ما فعله الزبير تجاه الملك قصي.

وأكمل: الخلاصة، هو كما أن مكاسب الملوك كبيرة، فمخاسرهم كبيرة... لقد وعيت جيدا هذا، عندما قتل أبي، وقررت أن أغض الطرف عن المملكة التي قتلته، فهم خسروا من رجالهم كما خسرت... ما أريد إخبارك به، هو أنني مضيت في الحياة، ونسيت، ولهذا أنا أعيش في سلام الآن... لا أعني السلام مع الآخرين، وإنما أعني السلام الذي بداخلي...

ثم علّى من نبرته، وأكمل: وأنت، يا ريان، عليك أن تنسى، لكي تعيش السلام بداخلك.

ساد صمت طويل في الغرفة، ثم رد ريان: قصتك مختلفة جدا عن قصتي. أنا عشت طفولتي وشبابي أعاني مر الفقر والهرب والانكسار والذل بعد غنى القصور وعزتها. وبعد ذلك أتى الفرج، وعدت إلى كل هذا، ثم فجأة ضاع كل شيء من جديد. أن تتكرر المأساة، الطامة مرتين، أمر لا يمكن التغاضي عنه أو نسيانه... أتظن المشكلة في خسارتي لأبي فقط؟ أنت خسرت أباك فقط، أنا خسرت أبي وأمي وأختي وجل عائلة الضياغم... خسرت حكمي ومُلكي... ثم فررت كالنساء، فخسرت كرامتي، واحترام الشعب لي... الموت أرحم مما أنا فيه.

أحس السلطان بمدى الألم الذي يشعر به ريان، وقرر المغادرة، بيد أنه قبل أن يفعل ذلك، قال: ربما هنالك الكثير من الصحة في كلامك... أرجوك، فقط، أن تتفكر بكلامي جيدا، وأن تحاول النسيان.

بعدها نهض وغادر الغرفة.

***

لم يكن الزبير إنسانا عاديا، وبعد توليه الملك، لم يكتف بالمشاهدة والمراقبة، وانتظار الفعل للقيام برد عليه، بل بادر هو بنفسه لصنع الأفعال.

لقد علم الزبير أنه عاجلا أم آجلا، لا بد وأن يحاول ملكا ياقوتة والهيجاء الانتقام ومعاودة احتلال ما فقداه من أراض في البقاء، ولكنه علم أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، لذا بادر بالأفعال تجاه المملكتين المجاورتين؛ لإشغال كل منها بأمورها الداخلية؛ فلا تتفرغ للهجوم على البقاء.

لم يرد الزبير احتلال أي أرض من المملكتين المجاورتين؛ وذلك لأن مساحة المملكتين المجاورتين شاسعة ويحتاج عشرات أضعاف عدد الجنود الذي يملكه لفرض السيطرة على أراضيهما. كما أنه بعد الانقلاب الذي أنجزه، هو أراد التركيز على الداخل، وإخماد أية ثورة ممكن أن تنشب، وإبقاء الشعب راضخا، إن لم يكن بالسلاح فبالحذاء! لذا لم يرد أن ينشغل عن ذلك بحروب توسعية هو في غنى عنها.

لكنه أراد في الوقت ذاته أن يصرف المملكتين المجاورتين عن إيذائه، ووجد الطرائق المناسبة لذلك.

في ياقوتة، كان هنالك عدة قبائل رضخت بالقوة لحكم ملك ياقوتة، رغم رغبتها في الانفصال. وسكنت هذه القبائل في المنطقة الشمالية الغربية من ياقوتة، أي بالقرب مع الحدود مع البقاء. وبدهاء الزبير، وبتنفيذ داهية الكثبة وقيس، تم إدخال عدد لا بأس به من مقاتلي البقاء، إلى ياقوتة، ولبس هؤلاء ملابس تشبه ملابس تلك القبائل المناوئة لياقوتة، وهاجموا ثكنة صغيرة لجيش ياقوتة وقتلوا كل من فيها، وتعمدوا إبقاء عدد من مقاتليها أحياء. هؤلاء بدورهم نقلوا إلى ملك ياقوتة حازم كل ما حدث، وما ظنوه بأن مقاتلي القبائل المناوئة له هي من فعلت ذلك. وهكذا نشبت حرب لم تضع أوزارها إلا بعد عشرات السنين، رغم المحاولات الكثيرة والمتكررة لشيوخ تلك القبائل إقناع الملك حازم بأن هنالك مكيدة دبرت من قبل أحد ما للإيقاع بين الطرفين، لكنه لم يقتنع على الإطلاق.

أما بخصوص الهيجاء، فقد أتت الفرصة وحدها على طبق من ذهب للزبير. فحالما توج الملك أنيس الفتي بالمُلك بعد قتل الزبير للملك ميمون، سارع أعمامه لمحاولة الانقلاب عليه. فنشبت حرب بين الطرفين، وهنا استغل الزبير الداهية الفرصة. لقد كان الملك أنيس ضعيفا مقارنة بأعمامه، وكادوا يقضون عليه. ولكن الزبير أرسل إلى الملك قوات هائلة تلبس لباس جنود الأخير. فالزبير لا يريد لأعمام الملك أن يعلموا أنه يسانده، حتى لا يكسب عداءهم فيغزوا البقاء، ويشغلوه عن مهمة ضبط الأمن الداخلي بعد الانقلاب. وهذه القوات ساعدت الملك أنيسا في إيقاف أعمامه.

رغم العداء بين الزبير وميمون أخي أنيس، وأن أنيسا من العائلة المالكة التي قتلت جد الزبير والتي يحقد عليها الزبير بجنون، فقد سعى الزبير للصداقة مع أنيس، وكسب وده! فالزبير تعلم من أخيه دريد الحكمة والتروي والهدوء، وأن القوة وحدها لا تكفي. فقد أودت الشدة والغضب والحماسة الذين اتصف بهم جده إلى مقتل الأخير. وفي الآن ذاته، أودت قمة الهدوء والتروي بأخيه دريد إلى التهلكة، بعد أن وثق بالزبير الذي دس له السم وقضى عليه. لهذا كله أدرك الزبير أن الوضع الأفضل هو الحالة الوسطى بين الحكمة والتروي والهدوء من جهة وبين الشدة والغضب والحماسة من جهة أخرى، دون التطرف بالاعتماد على أحد الأسلوبين دون الآخر. وأدرك وجوب استخدام كل أسلوب من الأسلوبين في الظرف المناسب له.

وفي ظرف انقلاب أعمام أنيس عليه، قرر الزبير استخدام أسلوب الحكمة، وقبل أن يرسل جنوده أول مرة للملك أنيس، ذهب الزبير متخفيا بنفسه مع عدد ليس بكثير من الجنود ضم النسور السوداء وداهية الكثبة؛ وذلك لأنه احتاج خبرات الداهية ودهاءه في المفاوضات.

وصل الزبير ومن معه قصر الملك أنيس، وطلبوا مقابلته وأعلنوا عن هويتهم.

كان القصر مبنيا من الحجارة السوداء اللون في معظمها بينما علاها الذهب الخالص هنا وهناك، أما داخل القصر فقد غطى سقف القصر وأرضيته وجدرانه الرخام الأسود اللون، وانتشرت خطوط عريضة من الذهب الخالص التي أعطت اللون الأسود حولها رونقا جميلا، ودل ذلك على بذخ ملوك الهيجاء.

دعاهم الملك الفتي فورا للقائه في أكبر قاعات القصر. تحمس الملك أنيس بحماسة الشباب لرؤية هذا الزبير، الذي بات أسطورة حررت البقاء، وقلبت نظام الحكم الذي استقر لقرون فيها. وفي البداية ظن الملك أنها مجرد خدعة من أعمامه وغيرهم، لكنه بالفعل وجد الزبير ومعه جنوده يلبسون الزي الخاص بهم.

"كيف حالك، مولاي؟" قال الزبير، ليثير التعجب في صدر الملك الفتي الذي لم يصدق أن الزبير الأسطورة يناديه ب "مولاي".

ولكن فجأة اشتعل الغضب في صدر الملك أنيس؛ لأن الزبير قتل أخاه ميمونا، فقال: ماذا تريد؟! ولماذا أتيت؟! لا بد وأنك تخطط لمكيدة ما تجاهي.

"لا، يا مولاي" قال الزبير بهدوء، وأكمل بالهدوء ذاته: أنا هنا لمساعدتك.

فقال الملك أنيس بعنفوان الشباب وحماسته: أنا لن أقبل مساعدتك، بل سأقتلك لأنك قتلت أخي ميمونا.

اسود وجه الزبير، ولم يعرف بما يرد، عندها تقدم الداهية وقال: إذا فعلت هذا، فأنت مقتول لا محالة.

ازداد غضب الملك أنيس، وقال: تهددني... ووسط بيتي!

ثم نظر إلى جنوده في القاعة، وقال: اقتلوهم جميعا.

فهموا بذلك، قبل أن يقول الداهية: حاشاك، يا مولاي، أن أهددك. ومن يستطيع فعل ذلك؟!

فأشار الملك أنيس لجنوده بالتوقف، فتوقفوا، وقال أنيس: ما معنى كلامك إذاً؟!

"مولاي" قال الداهية بخبث، ثم أكمل: من سيقتلك ليس أحد أقرباء الزبير أو من يحبونه، انتقاما له، وإنما أعمامك؛ فمقتل الزبير سيعني مقتلك على يد أعمامك.

اتسعت عينا الملك أنيس على أقصى اتساع، وقال متعجبا: وكيف ذلك؟!

فأجاب الداهية: أعمامك يتقدمون عليك في الحرب بكثير، ومن خلال عيوني المنتشرة في مملكتك، فعدد جنودهم يفوق عدد جنودك بأربعة أضعاف.

تفاجأ الملك كثيرا؛ فتقدير عدد الجنود كان صحيحا تماما، واستغرب كيف تمكن الداهية من معرفة مثل المعلومة الدقيقة جدا عن شيء في عقر مملكته، ولا يعلمه إلا عدد قليل من الناس.

وأكمل الداهية: الزبير أتى هنا؛ لأنه يريد دعمك ضد أعمامك، وسيمدك بعدد من الجنود أكبر بكثير من عدد جنودهم مما سيمكنك من القضاء عليهم... لكن إذا قتلت الزبير الآن، فأنت ستقتل نفسك بيديك!

هدأ الملك الشاب، وبدأ يتفكر بعمق فيما سمعه.

ومر وقت، ثم تقدم الزبير للأمام وقال: مولاي، أنا هنا لأعرض صداقتي عليك، فهل تقبلها؟ أنا ليست لي أية مصلحة في مملكتك هذه... والآن في هذه اللحظات العصيبة، مصالحنا تستدعي أن نكون أصدقاء... اقبل صداقتي، ودعنا نشكل حلفا فولاذيا يقضي على أعدائنا... أريدك فقط أن تتخيل ماذا سيحدث لأعمامك الذين بغوا عليك وآذوك، وكيف ستدمرهم شر تدمير لو اتحدت معي... انسَ الماضي، عائلتك ظلمتني، وأنا ظلمت عائلتك، والآن كل طرف قد أخذ حقه من الآخر، فلننسَ ما حدث، ولنبدأ صفحة جديدة.

تفكر الملك بعمق أكبر، وظل يتفكر لوقت طويل، ثم تنهد وقال: دعوني أتفكر فيما قلتماه، وسأرد لكما جوابا.

ثم طلب من جنوده أن يصحبوا الزبير ومن معه إلى جناح الضيوف في قصره، ففعلوا. لم يلتق الملك بالزبير طيلة عشرة أيام، قدم فيها خدم الملك ما لذ وطاب من طعام وشراب للزبير ومن معه، وأحسنوا خدمتهم. طول هذه المدة، وامتناع الملك عن لقاء الزبير، أثارا القلق في نفس الأخير، لكن الداهية بابتسامته الصفراء ظل يطمئن الزبير بأنه سيحصد ما يريده عاجلا أم آجلا.

وبالفعل، في نهاية المطاف وافق الملك على خطة الزبير، بعد تفكير مضن، واستشارات مطولة لمستشاريه. لقد كان داهية الكثبة داهية بالفعل، واعتمد في مفاوضاته على دراسته لنفسيات الناس، واللعب على نقاط ضعفهم. لقد أردك جيدا أن أنيسا شاب فتي، قُتِل أخوه ومعشوقه ميمون؛ مما كسر قلبه وأثار الرعب والخوف فيه. كما أنه استلم المُلك صغيرا، وعليه ضغوطات هائلة من أعمامه الذين يفوقونه قوة وخبرة. كل هذا جعله إنسانا مهزوزا. والإنسان المهزوز لتجعله يرضخ لك، ما عليك سوى إخافته وهذا ما فعله الداهية تماما!

وهكذا أرسل الزبير قوته لدعم أنيس، وهزموا الطرف الآخر. ولما بات الملك أنيس على شفا طحن أعمامه، زعم الزبير أنه بحاجة قواته التي أرسلها لأنيس، لشأن داخلي فسحبها منه. وجعل تجارا – لا يعرف أحد أنهم من طرف الزبير – يبيعون الأسلحة والخيول لأعمام أنيس بأسعار زهيدة ليقويهم ضد الأخير. ثم تقدم الأعمام من جديد على أنيس، فسارع الزبير لتزويد الأخير بقواته من جديد! وهكذا ظل الزبير يتقلب بين دعم الطرفين، دون علم أحد بذلك، ليبقي الحرب مشتعلة؛ لأنه خشي إن انتصر أحد الطرفين أن يتفرغ لغزو البقاء. وهكذا أثبت الزبير من جديد مدى ذكائه ودهائه، وأنه هو دائما من يتحكم بخيوط اللعبة.

وبعد مدة، سرت الشائعات في البقاء والهيجاء، بوجود صداقة سرية بين الزبير والملك أنيس.

***

الـفـصـل الـتـاسـع

المحـبـوبـة

((34))

وأخيرا، وبعد شهور استقرت الأمور للزبير، وبدأ يستمتع بالملك والحكم والثراء والنساء، وطفق يتفكر في شؤونه ومصالحه الخاصة، وكيفية إسعاد نفسه أكثر وأكثر.

منذ أهدته سمية ذلك الخنجر الذهبي - الذي أجهز به على جل خصومه الذين حالوا بينه وبين حلمه الشخصي في الملك والحكم - وهو يمسك به ويمعن النظر فيه، والأهم يفكر في الشخص الذي أهداه إياه. وقد زاد كل هذا أضعافا مضاعفة بعد هدوء الأمور واستقرارها واستتباب الحكم له.

ما لم يعلمه أحد سوى الزبير، وهو أنه منذ أول ما رأى سمية، وهو يفكر بها، ويحسد أمينا أشد الحسد عليها، ويتمنى لو أنها له. الزبير عانى منذ طفولته وحتى كبره، من فقر في الحنان. وذلك يعود لأنه يتيم الأب منذ صغره، وموت أبيه مبكرا جعله يشعر بأنه وحيد، خاصة أن البدو غير معتادين على الحنان، وزاد كل هذا أضعافا بعد مقتل جده. لذا كانت سمية هي ما سيعوضه عن كل ما فاته وعن كل من فقدهم، وستكون أمه وأخته وابنته وحبيبته وزوجته، وستنسيه كل الأحزان.

"ولكنني لا يمكن أن أفعل شيئا!" هذا ما لطالما فكر به منذ لحظة رؤيته لها، واستمر هذا التفكير حتى بعد تتويجه ملكا، وحتى بعد استقرار الحكم له. ولكن أخيرا وصل هذا إلى نهاية، فمع التفكر العميق المستمر، فكر الزبير: "الغاية العظيمة تبرر الوسيلة القذرة... أي شيء مباح في الحب والحرب... لقد فعلت أشياء أسوأ بكثير... ضحيت بأخي... والآن سأضحي بأشياء أقل أهمية من أجل سمية".

سمية محبوبة الزبير السرية، بل هي أكثر ما أحبه قلبه في حياته كلها!

***

أرسل الزبير في طلب أمين، فلبى الأخير الطلب. ورغم أن الزبير اعتاد استقبال كل ضيوفه وإجراء كل اجتماعاته في الشرفة التي توج فيها ملكا، لكنه حرص هذه المرة على استقبال ضيفه في قاعة مغلقة من قاعات القصر.

باتت تلك الشرفة تعرف بشرفة الأسد، نسبة لقبيلة الزبير، أما قصر الضيغم فغدا يعرف بقصر الكثبة! أما القاعة التي أراد استقبال أمين فيها، فعرفت بقاعة النسور السوداء. واختصها الزبير ليجتمع فيها وحده بأي شخص يريد أن يحادثه بأمر خاص بينهما، دون وجود أحد حتى النسور السوداء.

اتسمت القاعة بالاتساع العظيم، واحتوت طاولة عريضة عظيمة الطول، يمكن أن يجلس عليها أربعون امرئ، وفي نهاية القاعة وُجِد كرسي خصص للملك. وأما جدران القاعة فعلق عليها الخناجر والسيوف، وعلى الجدار فوق كرسي الملك بمسافة عالية، علق رأس نسر ذي نظرات حادة. والطاولة وكل الكراسي بما فيها كرسي الملك، علا حوافها الذهب الخالص. وانتشرت أشرطة من الذهب في جدران القاعة وسقفها.

حضر أمين إلى قصر الكثبة ثم إلى غرفة النسور السوداء ، فوجد الزبير وحرسه الثلاثة النسور السوداء، إضافة لعدد من الحرس والخدم.

"مرحبا" قال أمين ببرود، على عكس ترحيباته السابقة بالزبير، والتي اتسمت كلها بالحرارة الشديدة التي تقترب من حرار الانصهار؛ فأمراء الثورة –باستثناء حورية – كلهم غضبوا مما فعله الملك ذو الندب في التكريم الأسود وما لحقه.

"أهلا، يا أمين" قال الزبير ببرود مماثل.

كان الزبير يجلس على كرسي المُلك في آخر القاعة، وأمامه الطاولة الطويلة جدا، فجلس أمين على أحد الكراسي المحيطة بالطاولة.

لم يضيّف الزبير ضيفه؛ فهو على وشك الدخول في نقاش حاد بل في إعصار مع أمين.

ثم طلب الزبير من كل من في القاعة المغادرة بمن في ذلك النسور السوداء، ففعلوا ذلك جميعا.

ولما بقيا وحدهما، حدق الزبير بعينين جاحظتين في ضيفه، بينما بادله أمين نظرات حادة.

ثم قال الزبير: يا أمين، اليوم أرسلت في طلبك، لأنني أريد أن آمرك بأمر لا رجعة عنه.

لطالما خدمتك – كما خدمت كل فرد من أهل البقاء دون استثناء – ولطالما ضحيت من أجلكم جميعا، واليوم عليك أن تضحي من أجلي علك تسد قليلا من ديني عليك.

استغرب أمين من هذا، بينما تنهد الزبير عميقا؛ فما سيقوله صعب جدا.

ثم قال: أريدك أن تطلق سمية.

زاد استغراب أمين أضعافا مضاعفة، وبدا ذلك جليا على قسمات وجهه.

ساد صمت مدو في القاعة لمدة طويلة، ثم قال أمين المستغرب بنبرة ملؤها الاستهجان: ولم أفعل ذلك؟!

أسوأ شيء يمكن أن يفعله أمين في حياته هو تطليق سمية؛ فقد أحبها بجنون وشعرت هي بمشاعر مشابهة بل أقوى تجاهه.

تفكر أمين بسرعة ثم قال متعجبا: لتتزوجها أنت، أليس كذلك؟!

تنهد أمين ثم وقف بسرعة، وصرخ في الملك الزبير: أمجنون أنت؟! ما درجة المرض الذي أصاب قلبك والعته الذي أصاب عقلك؟! تطلب من رجل أن يطلق زوجته لتتزوجها أنت؟!

فقال الزبير بحزم: كيف تحادثني هكذا؟!

فقال أمين: لا أستغرب كل هذا من رجل خسيس غدار، قتل رجلا اعتبره أعز من ابنه على قلبه، قتله غدرا وخيانة.

فوقف الزبير، وقال بحزم: ستندم على هذا الكلام.

ابتعد أمين عن الكرسي، واقترب مسافة قليلة باتجاه الزبير.

ثم رد أمين: افعل ما تشاء.

فقال الزبير وهو يشير بسبابته اليمنى بقوة: ستطلقها رغما عن أنفك شئت أم أبيت.

سكت لمدة ثم أضاف بهدوء: إن كنت تحبها، فطلقها؛ فهي تستحق رجلا أعظم منك بكثير... أنت مجرد رجل يملك مالا كثيرا، ولا يميزك أي شيء آخر... أنت لست ندا لامرأة عظيمة جدا لا مثيل لها مثل سمية... يجب أن تتزوج رجلا عظيما مثلها أو أعظم... وليس هنالك خير مني!

"أنت مجنون ومريض فعلا" قال أمين بثقة.

رد الزبير: سأقتلك إن لزم الأمر.

قال أمين: افعلها، وأوقن أنك ستسعى لذلك... ولست أخاف الموت، ومستعد له من أجل سمية... وحتى عندما تقتلني لن تقبل بك؛ لأنها تحبني أنا، ولم تحبّ رجلا غيري قط ولن تحب رجلا غيري أبدا...

ثم طفق يرمي الزبير بنظرات الاحتقار من الأعلى للأسفل، ثم أضاف: وحتى إن حدث ذلك، فلن يكون حبها لرجل معتوه قذر خائن قتل أباه وأمه وأخته... والله وحده يعلم ما الأعمال القذرة الأخرى التي فعلها في حياته ولا يعلم بها سواه.

تذكر الزبير فورا قتله لأخيه دريد، فعبس بشدة ونهض ثائرا واتجه نحو أمين بسرعة، ورغم أن أمينا لم يكن ندا للزبير بالقوة الجسدية ولا بالقتال؛ إلا أنه لم يخف ولم يهتز من الداخل.

وقف الزبير بالقرب من غريمه وبات أمين يشتم رائحة أنفاس الزبير الحارة المتسارعة من شدة الغضب.

جعل الرجلان يحدقان بغضب أحدهما في غريمه.

وبعد مدة من هذا، التف أمين وبدأ يغادر مسرعا غاضبا.

فصرخ الزبير: انتظر.

فوقف أمين، وظهره للزبير.

فقال الزبير: إياك وأن تخبرها... إذا فعلت ذلك، فاعتبر نفسك مقتولا.

ضحك أمين بسخرية، ثم قال: لا أخاف الموت... أتظنني مثلك، أيها الجبان.

أثارت كلماته حنق الزبير، في حين غادر القاعة في قمة السرعة والغضب.

***

أراد الزبير أن يضيق على أمين بأية طريقة، ومنذ النقاش الحاد بينهما طفق الزبير يتفكر بعمق كيف يفعل ذلك. وكعادته، نجح بعد التفكير العميق والمطول في الوصول لحل. فبعد إنشاء المملكة الجديدة بنحو الستة أشهر، عادت التجارة بين البقاء من جهة وبين كل من ياقوتة والهيجاء من جهة أخرى. لم تكن التجارة كعهدها قبل الحرب المقيتة، لكنها لم تكن بالحجم القليل. وقد كان أمين – بالطبع - من التجار بين البقاء والمملكتين المجاورتين، وقد اتجر بكميات ضخمة من البضائع.

لذا بعد النقاش الحاد بينه وبين الزبير، أصدر الأخير قانونا بأن أي رجل يُدخل بضائع أو أموال بقيمة خمسة آلاف درهم أو أكثر، فإن نصفها سيذهب لخزينة الدولة! وهذا المبلغ في ذلك الزمان والمكان هو مبلغ هائل! اتسم القرار – بالطبع – بالغرابة، وظن الناس أن الزبير هدفه استغلالهم، وأن يسعد على حسابهم.

فهم أمين الرسالة جيدا، ولكنه لم يكن امرأ سهلا على الإطلاق، واتسم بالذكاء منذ صغره. لذلك حل هذه المشكلة بأن جعل يقسم البضائع أو الأموال التي سيدخلها للبقاء على عدد كبير جدا من الرجال، بحيث لا تأخذ الدولة أي جزء.

وإذا اتسم أمين بالذكاء، فإن داهية الكثبة اتسم بالدهاء الشديد، وعلم بما يحدث من خلال عيونه المنتشرين في كل مكان، حتى في المملكتين المجاورتين. فأعلم الزبير الذي شعر بكيد عظيم، وتعاظم الحنق الهائل الذي بداخله تجاه أمين أضعافا مضاعفة.

***

وذات يوم أتت سمية إلى قصر الكثبة للقاء الزبير. تفاجأ حين علم بمقدمها، وأيقن أنه سيحدث أمر ليس بالمحمود. لذا دعاها إلى قاعة النسور السوداء في القصر، وطلب ألا يدخل عليهما أحد حتى حراسه.

دخل الملك ذو الندب القاعة الواسعة، فوجد المرأة التي يحبها من كل قلبه، وفرح كثيرا لما رآها، لكنه أخفى فرحته؛ لأنه أحس أنها تعلم بما حدث بينه وبين زوجها.

"مرحبا، يا سمية" قال، وأضاف: لقد نورت القصر بحضورك.

لم ترد عليه سمية، التي كانت تشع غضبا، وعيناها مفتوحتان على أقصى اتساعهما، والعبوس يحتل كل مكان في وجهها. لم يسبق للزبير أن رآها بمثل هذا الحال، بل بما عهده عنها من شدة نعومتها، لم يتوقع يوما أن يراها بمثل هذا الحال.

وبعد مدة من الصمت، قالت بصوت غاضب: إلى أي درجة بلغ مرضك، أيها المعتوه؟! لقد أخبرني أمين بكل شيء.

صعق من كلامها، فلا أحد يحادثه هكذا، وغضب كثيرا، لكن حزنه فاق غضبه بمراحل؛ لأنه أحب سمية من كل قلبه، وآلمه أن تحادثه بهذه الطريقة.

تغاضى عن كل هذا، وقال بصوت هادئ حزين: وبم أخبرك، حتى أعرف بما أرد؟

"تتظاهر بأنك لا تعلم!" قالت، تنهدت واستجمعت قواها، ثم قالت: أخبرني بخطتك بأن يطلقني لتتزوجني.

ازداد ذهوله، لكنه سيطر على نفسه وقال بهدوء مستفز: كيف تصدقينه؟! هذا رجل فاشل لا يميزه عن غيره سوى أنه يملك المال الكثير... أنا لم أطلب منه أن يطلقك لأتزوجك... فقط أخبرته أنني أستحقك أكثر منه.

لم يكن ما قاله مقنعا، لكن هذا هو فقط ما استطاع الخروج به في هذا الموقف الذي اتسم بقمة الإحراج له.

ازداد الغضب على وجهها، وبدا عليها الاشمئزاز العظيم مما سمعته، وقالت: أمين لا يكذب علي، ولم يكذب قط، ولن يكذب أبدا... وحتى ولو كذب فهو أصدق من رجل قتل رجلا وثق به كابنه... إياك أن تمس زوجي وحبيبي بأي سوء؛ لأنك ستدفع الثمن غاليا.

استاء الزبير كثيرا، لأنه أحس أنه سيخسرها للأبد.

ثم قال: هو يغار مني، ورغم أنني لم أطلب منه تطليقك، ألا ترين فعلا أنني الأحق به منك وأنني الأفضل لك وأنك ستسعدين أكثر بعشرات الأضعاف، عندما تتزوجينني؟!

قال هذا بعد أن أدرك أنه حان وقت الصراحة، ولم يبق هنالك شيء يخسره.

ازداد اشمئزازها، وقالت بحزم: أنت مجنون بالفعل، ومريض كذلك... أنا أحبه ولن أتركه، هل تفهم؟!

التفت وغادرت بسرعة، وبينما هي تفعل ذلك التفت وصرخت بغضب: إياك أن تؤذيه؛ لأنك ستدفع الثمن غاليا... أنت لا تعرفني جيدا... أنا أعشقه بجنون، وسأدمر العالم لأجله.

التفت من جديد وغادرت، بينما أحس الزبير نفسه غارقا في بحر اجتاحته أمواج عاتية من المشاعر السلبية، أمواج من الحزن والغضب واليأس!

***

أرسل الزبير في طلب أمين، ولما حضر استقبله الزبير في قاعة النسور السوداء، وبقيا وحدهما.

دخل أمين على الزبير فوجده وحده جالسا على الكرسي في آخر القاعة، وهو عابس أشد العبوس، وظهر على أمين عبوس ينافسه ضراوة!

فلما رآه الزبير وقف، ومشى بالقاعة حتى جعل ظهره متعمدا لأمين، عدوه اللدود الذي كان يوما صديقه الحميم.

ثم قال بغضب، وهو يسند كفه اليمنى إلى اليسرى خلف ظهره: أهلا، بصديقي العزيز. كم اشتقت إليك!

بدا الاستهزاء واضحا في العبارة الأخيرة.

لم يرد أمين التحية، بل قال: ماذا تريد؟ ليس لدي وقت كثير لك.

ازداد الجحيم في صدر الزبير حماوة من تجرؤ أمين عليه وهو الملك، وقال وهو يدير ظهره له: تريد زبدة الحكاية إذاً؟!

ثم التف ونظر بعينين ملؤهما القسوة لم يشهد أمين في حياته مثيلا لهما، ورغم ذلك لم يشعر بأي خوف.

وقال الزبير: ألم أحذرك بألا تخبرها؟! لم فعلت ذلك؟!

فقال أمين بغضب وشجاعة عارمة لم يتوقعها الزبير: لقد أخبرتها... هيا نفذ وعدك، واقتلني.

ظل الزبير واضعا يديه إحداهما فوق الأخرى خلف ظهره، ثم بدأ بالمشي ببطء شديد نحو أمين.

في هذه الأثناء ظل أمين واقفا، وعرف أنها لحظاته الأخيرة، وطفق يتخيل الزبير وهو يفعل ما سيفعله بعد لحظات، عندما يستل الخنجر الذي أهدته إياه زوجة أمين ليقتله به! ورغم كل ذلك لم يخف أمين أبدا، فعلى الرغم من أن مثل هذه اللحظات – لحظات الموت – أخافت أعظم المقاتلين وأشرسهم عبر التاريخ، فإن ذلك التاجر الذي يقل قوة بكثير عنهم جميعا، لم يخف على الإطلاق.

وظل الزبير على حاله ذاك يقترب من أمين حتى بات أحدهما يشتم رائحة نفس الآخر. بسط الزبير يديه، بينما انتظر أمين لحظة موته.

ولكن الزبير لم يستل خنجره، بل وضع كفيه بنعومة على كتفي أمين، وقال بهدوء وثقة مستغربة في موقف كهذا: أتظنني مجنونا لأقتل صديقي الذي ساعدني في خطتي التي حلمت بها طيلة عمري... صديقي الذي لولاه ما بلغت ما أنا عليه الآن.

فتح أمين عينيه تعجبا غير مصدق ما يسمعه، وزاد هذا أكثر وأكثر، عندما أكمل الزبير وهو يضع يديه على كتفي أمين: اذهب وعش سعيدا مع سمية... أنا اعتقدت أنني سأسعدها أكثر منك، لكنها تظن عكس هذا... لذا أنا آسف يا أمين على كل شيء... اذهب وعش طيب النفس مع سمية... وأحملك أمانة أن تبلغها اعتذاراتي.

لم يصدق أمين على الإطلاق ما سمعه، وبينما غرق في محيط من الذهول، أزال الزبير يديه عن كتفيه وأعادهما على حالهما خلف ظهره، وترك أمينا ثم غادر القاعة ببطء شديد!

***

بعد ما يقرب الأربعة شهور، كان أمين في رحلة تجارية في الهيجاء على رأس قافلة تجارية كبيرة. ولما اقتربوا من شرقي الهيجاء بالقرب من البقاء، خيموا في مكان معين، وحل الليل. وبينما هم نيام، هاجمهم عدد كبير جدا يفوق عدد الرجال في القافلة بكثير. لبس المهاجمون ثيابا كلها باللون الأبيض وقد تلثموا بألثمة بيضاء وعلت رؤوسهم العمامات البيضاء. واتسموا بالشدة والقوة، وطفقوا يقتّلون رجال القافلة. ولما سمع رجال القافلة بالجلبة حولهم، شرعوا يستيقظون ويهاجمون من غدر بهم، ومنهم أمين الذي استيقظ وسرعان ما استل سيفه وأنشأ يقاتل أعداءه. واستمرت المعركة التي لم تطل كثيرا؛ فعدد المقاتلين كبير جدا مقابل عدد من في القافلة، كما أن عنصر المفاجأة اصطف في جانب الطرف الأول، ناهيك أن المهاجمين مقاتلون محترفون بينما أعضاء القافلة إما تجار محترفون أو عمال عندهم، وهؤلاء جميعا ليسوا بارعين في القتال براعة من هاجمهم. ومضت المعركة، وقاتل أمين التاجر الذكي ببسالة وشجاعة نادرة، وقتل من المهاجمين أربعة، وبينما هو على رجليه، هاجمه أحد المهاجمين وهو على فرسه، فضرب صدر أمين ضربة شقته. في لحظاته الأخيرة أيقن أمين أن الزبير خدعه كما خدع الملك الهارب، وأن ما قاله له كان مجرد مخدر خدره به ليظن أنه في أمان، ثم انقض عليه غدرا في لحظة سهو.

***

انتشر نبأ مقتل أمين، حتى وصل البقاء. ولما علمت سمية بذلك شكلت تلك أسوأ لحظة في حياتها، وحزنت حزنا لا مثيل له. أما في الهيجاء، فأعلنت السلطات القبض على من قتل أمينا ومن معه، وأعلنوا أنهم قطاع طرق لطالما بحثت عنهم السلطات.

وبعد ما يقرب الشهر -وبأمر من ملك الهيجاء الملك أنيس - تم إعدام اثنين وستين رجلا؛ لأنهم اعتدوا على أمين وقافلته وأثروا سلبا على علاقات مملكة البقاء والهيجاء التجارية. فأعدموا جميعا. وبلغ كل هذا مملكة البقاء، فعلمت به سمية، لكن ذلك أبدا لم يخفف من النار التي اتقدت بداخلها، والتي لا يعلم أحد هل ستنطفئ يوما ما!

***

ولما علم الزبير بكل ما حدث، ظهر عليه الحزن العظيم أمام كل من حوله، وذكر أمينا بالخير، وأنه لولاه ما تمت الثورة المباركة. وأمر بإصدار مرسوم ملكي للتعزية بمقتل أمين، ذكر فيه أن أمينا هو ثاني أهم رجل بعد الزبير في الثورة المباركة التي قادت لتحرير البقاء.

ومضت الأيام، ومر ما يزيد على الثلاثة شهور على مقتل أمين.

طلب الزبير من داهية الكثبة أن يتقصى حال سمية، ويعلمه به. وبسرعة هائلة جلب الداهية الأنباء. فاجتمع بالزبير في شرفة الأسد، البقعة في القصر المطلة على الهواء الطلق، والتي توج فيها الزبير ذات يوما ملكا على البقاء.

"للأسف، أيها الزبير، أخبار سمية لا تسر" قال الداهية.

استاء الزبير، رغم أنه توقع أن هذا هو حال سمية.

وأكمل الداهية: المرأة في قمة الانهيار والحزن. لا تتوقف عن البكاء، والدموع تملأ جسدها ولباسها دوما. وتمتنع عن الطعام والشراب والنوم وحتى عن لقاء أهلها أو أهل أمين... وهي تظل مستلقية على السرير في غرفتها وحدها، وهي تمسك بلباس أمين، حتى تشتم رائحته لتتذكر أيامها معه.

تنهد الداهية، ثم أكمل: حتى إنه بات يقال إنها أحزن إنسان عرفته البقاء في تاريخها كله.

صمت الداهية وبادله الزبير بصمت مطبق. واجتاح الأخير حزن عارم وألم عظيم جدا، فأكثر ما يمكن أن يؤلم أي امرئ هو ألم أحب الناس عليه، وقد كانت سمية أحب البشر على قلبه دون أي منافس. وازداد حزنه؛ لأنه أيقن جيدا أنه من الصعب جدا أن تنسى سمية أمينا، ما من شأنه – لو حدث – إفساح المجال للزبير ليكون معها!

وقد أمر الزبير بإرسال مئة ألف درهم ذهبي إلى سمية، تعويضا لها عن فقدها لأمين، وتكريما لذكراه بعد كل ما أداه في الثورة، لكنها رفضت المبلغ رفضا قاطعا. وقد واسى الزبير نفسه بأنها غالبا رفضت المبلغ؛ احتراما لذكرى أمين وأنه لا يعوض، وليس كرها للزبير.

***

((36))

بعد ما يقرب السبعة أشهر على مقتل أمين توجه الزبير على رأس وفد لزيارة سمية في قصرها هي وأمين. بقي النسور السوداء في الخارج بينما دخل الزبير وحده إحدى قاعات القصر انتظارا لمقدم سمية. كانت القاعة أرضيتها وجدرانها وسقفها من الرخام الثمين، وامتلأت بالتحف والجرار المصنوعة من الخزف والأثاث المصنوع من الخشب الفاخر، وكذلك من الذهب الخالص. وهذه التحف والجرار والأثاث الذهبي، لم يكن لهم مثيل في البقاء كلها حتى في قصر الكثبة.

وبعد مدة أتت سمية. وقف الزبير فور رؤيتها، وذهل من شدة غضبها، لكأنها بركان خامد على وشك الانفجار. كانت تلك أول مرة يراها غاضبة هكذا. وبان عليها الحزن الشديد، وبدت علامات البكاء الشديد جلية عليها. بدت في حالة يرثى لها، شعرها أشعث غير ممشط، وعيناها تحيط بهما هالتان سوداوان من شدة البكاء، وبدا كما لو أنها لم تغسل وجهها أو تستحم منذ شهور. أما لباسها فبدا قذرا ومجعدا غير مكوي، كما لو أنها لم تغيره منذ شهور كثيرة. كان منظرها سيئا جدا، على عكس ما اعتاده الناس عليها.

وقف الاثنان أحدهما مقابل الآخر، ولم تنبس سمية ببنت شفة.

ومر زمن طويل من الصمت، كسره الزبير عندما قال: كيف حالك، يا سمية؟

لم ترد سمية التي بادلته نظرات الغضب الشديد، حتى بدا كما لو أن عينيها ستخرجان من محجريهما.

ثم بدأ يقول خطابه الذي حضره مسبقا: رحم الله الرجل الشجاع المغوار أمينا، الذي لولاه ولولا مجهوده ما حررت البقاء أبدا... للأسف لقد خسرت البقاء واحدا من أعظم رجالها... عظم الله أجركم، يا سمية...

وتظاهر هنا بالحزن الشديد، رغبة منه في أن تصدق سمية ذلك.

ثم أكمل: ولكن كفى حزنا، يا سمية! ويجب أن تستمر الحياة... أبي وجدي توفيا، وحزنت عليهما، لكنني تجاوزت ذلك... وفي النهاية غدوت ملكا...

تنهد ثم أكمل: وأنتِ تجاوزي هذا، وتزوجيني وأصبحي ملكة؛ لتنسي كل هذا الحزن وتعيشي أسعدَ الناس... فما ردك؟

حدقت سمية فيه بعينين جاحظتين ملؤهما الغضب، وساد القاعة صمت طويل جدا. ثم طفقت تقترب منه - بشكلها المخيف غير المرتب ذاك - بخطوات بطيئة. الزبير الذي لم يخف طيلة عمره، كانت هذه المرة الوحيدة التي اجتاح فيها الخوف قلبه، حدث هذا للرجل الذي لم يخف أعتى المقاتلين ولا حتى الملكين اللذين قتلهما!

وبينما اقتربت بخطئ بطيئة جدا، تسارعت دقات قلبه وأنفاسه، ولما أصبحت قريبة جدا منه صفعته صفعة قويا جدا، لكأنها صفعة بقوة ألف رجل، صفعة لم يشهد الزبير لها مثيلا قط. وكأن هذا أمر بسيط ولا يكفي، فأتبعته بأن بصقت في وجهه، وهي تقول بغضب: هذا هو ردي، أيها الحقير. لقد جعلت صديقك ملك الهيجاء يقتله، وألفتما تلك اللعبة المضحكة عن قطاع الطرق، وظننت أن كل هذا سينطلي علي! لقد قتلته، أيها الوغد. هو عرف أنك ستفعل ذلك، وأنا عرفت أنك ستفعل ذلك، والكل عرف.

ومسبقا، سمعت سمية بالشائعات عن الصداقة السرية بين الزبير وملك الهيجاء؛ ما دفعها إلى وضع استنتاج عن أنهما اتفقا على تصفية أمين.

صمتت ثم أضافت: ولكن اعلم جيدا أنك ستدفع الثمن غاليا... أعدك أنه حتى لو أفنيت عمري حتى آخر لحظة في سبيل ذلك، فإنه حادث لا محالة.

ثم ابتعدت عنه للخلف، وصرخت بأعلى صوتها: انصرف، أيها الحقير.

في حقيقة الأمر، كانت تلك اللحظات الأكثر إهانة التي تعرض لها الزبير في حياته، والأكثر إذلالا دون منافس.

نظر إليها بعينين جاحظتين مفتوحتين على أقصى اتساعهما، وتسارعت أنفاسه ودقات قلبه، حتى كاد يتوقف عن النبض. أي إنسان في الكون - أكان رجلا أم امرأة، أكان عدوا أم صديقا – لو فعل ربع ما فعلته سمية لغادر الحياة. الاستثناء الوحيد هو من فعل كل هذا، ألا وهي سمية.

وبينما وقفت سمية هناك مكسورة القلب، غادر الزبير هو الآخر مكسور القلب، ووجد بالخارج النسور السوداء، وبقية وفده، وقد استمعوا جميعا إلى ما حدث، مما عمق جراحه أكثر وأكثر.

***

عاد الزبير إلى حجرته الخاصة في قصر الكثبة، وجلس هنالك على كرسي في الغرفة، وهو ينظر من النافذة حيث تنساب أشعة الشمس من النافذة والستارة التي تغطيها. جلس هنالك مطأطئ الرأس، ذليلا للمرة الأولى في حياته. وما انفك يمسك بالخنجر الذهبي الذي أهدته إياه سمية، ظل يمسك به وهو يتذكر اليوم الذي أهدته إياه فيه. لقد كان هذا الزلزال أسوأ ما حدث في حياته.

وطال حاله هذا أياما وأسابيعَ وشهوراً!

***

الـفـصـل الـعـاشـر

الابـن

((37))

ترى هل نقص الملك ذو الندب عداوة جديدة بعد كل تلك العداوات التي كسبها؟! ومِنْ مَنْ، مِنْ أقرب الناس إلى قلبه، ثالث امرئ أحبه بعد سمية وابن أخيه سهيل، ألا وهو ابنه سليم.

فبينما الزبير يهيم في وديان الحزن ويئن وحيدا في حجرته على ضياع سمية إلى الأبد، أتاه داهية الكثبة محملا بعبء ثقيل وكلام جارح.

دخل الداهية على الزبير، وحياه، فقال الأخير: ماذا تريد؟ إن لم يكن في جعبتك أمر هام، فدعني وحدي.

فرد الداهية بحزن شديد، خالف ابتسامته الصفراء البدوية المعهودة: بل هو هام.

"ماذا هنالك؟" قال الزبير بجفاف غير معهود مع أتباعه المقربين.

فرد الداهية: سليم، بلغني أن أناسا ذهبوا إليه، وسألوه عن رأيه فيما فعلتَه بالملك الهارب وبأمين...

تنهد الداهية من وطأة الشجن الذي احتل قلبه، وأكمل: وقد...

تردد قليلا، ثم استجمع قواه وأكمل: وقد أخبرهم أنك رجل ظالم، ولكنه لا يستطيع فعل شيء تجاهك!

غضب الزبير كثيرا، وأحكم إغلاق قبضته اليمنى، وقال: مستحيل ما تقوله. سليم ابني! مستحيل أن يفعل ذلك!

في تلك اللحظات تذكر الزبير كل ما بينه وبين سليم، تذكر لقاءه به أول مرة، تذكر كيف ساعده على أن ينتقل من قمة الفقر والضياع إلى قمة الغنى والسعادة، تذكر كل اللحظات الجميلة التي جمعت الأب والابن، وما أكثرها!

فأكد الداهية: المسألة أكيدة تأكيدا كاملا، ويستحيل أن يوجد في أنبائي أي خطإ.

رغم أن الزبير بعد ما حدث بينه وبين سمية، ظن أنه أضحت لديه مناعة ضد أي ألم، وكان مكسور القلب، رغم كل ذلك، لما سمع كل هذا الكلام من الداهية، كُسِر قلبه للمرة الثانية.

وقد عانق شعورَ الزبير بالحزن والألم مما فعله سليم، شعوره بالغضب؛ لأنه رغم كل ما فعله لسليم، فقد خانه الإنسان الذي عده ابنا له من كل ذرة في قلبه. صحيح، أن الزبير خان الملك الهارب بدوره، لكن أغلب الناس يقبلون أن يؤذوا غيرهم، لكن من الصعب أن يتقبلوا أن يفعل آخرون الشيء ذاته معهم!

***

واتخذ الزبير قراره بعد تفكير عميق، وحكم على من كان ابنه ذات يوم - على سليم - بالإقامة الجبرية هو وأهله في قصرهم.

"لماذا لم يجهز عليه الزبير نهائيا؟" لأنه حتى لو خانه سليم فستظل له معزة خاصة في قلب الزبير، كما أن الأخير لم يرد للناس أن يقولوا إنه انقلب حتى على ابنه.

وبعد القرار، حزن سليم حزنا عظيما هو الأكبر في حياته، ولم يفهم تصرف أبيه الزبير. واجتمعت بسليم أمه سوسن.

"ألم أحذرك منه منذ اللحظة الأولى؟!" قالت الأم، التي أكسبها مَرُّ السنين ومُرُّها خبرة كبيرة وحدسا لا مثيل له. وأكملت: هو إنسان خطير... لقد عرفت ذلك من اللحظة الأولى، وتأكد لي كل هذا بخيانته للملك الهارب، ومن ثم بخيانته لك وهو الذي يصفك طيلة الوقت بابنه!

دمّعت عينا سليم عندما سمع هذا الكلام، ثم أجهش الشاب الضعيف بالبكاء الشديد، فاحتضنته أمه وقلبه قد كسر إلى الأبد، وتندم على إفساد العلاقة مع أكثر إنسان أحبه في حياته.

ثم قالت بهدوء وثقة: ولكن، يا بني، ارض بما لديك الآن، وإياك أن تتحدى هذا الرجل الخطير.

***

طلب سليم لقاء الزبير من الحرس الموجودين في قصر سليم، والذين أرسلهم الزبير لفرض الإقامة الجبرية عليه. فنقلوا ذلك للزبير، ورفض ذلك، مما زاد من اتساع الشرخ في قلب سليم الهش.

فأرسل سليم مع الحرس رسالة إلى والده، الذي لم يعد يعده ابنا له.

سارع الزبير لفتح الرسالة، وقرأ فيها:

"من سليم ابن الزبير لا ابن القائد الهيثم، إلى أبي الزبير جلالة الملك المعظم،

تحية طيبة، يا والدي. أتمنى أن تكون بأفضل حال.

أما بعد،

مولاي، أنت أبي، وأحبك مهما فعلت بي. أظن أنك فعلت كل هذا، لأن الوشاة أبلغوك ما بدر مني وما قلته لضيوفي عندما سألوني عن رأيي فيما فعلته. سامحني على ما سأقوله، لكنني أراك مخطئا، لأني أرى مدى نقاء قلبك، وأنه صاف كالزجاج، لذلك لا أستطيع تقبل ما فعلته مع الملك قصي، وما قيل إنك فعلته مع أمين. صديقك، يا أبي، من صَدَقَك، لا من صَدَّقك.

ولكن هذا كله لا يعني أنني سأسعى لإيذائك، أو أنني – لا سمح الله – سأنقلب عليك يوما ما أو أخونك.

بالنهاية من لا يخطئ منا؟! وأنا نفسي أخطأت فيما قلته عنك. وأنا لا أستطيع إنكار كل أفضالك علي، وأنك أخرجتني وأهلي من الجحيم إلى الجنة.

أنا لا أرسل هذا إليك لأنني أريد زوال الإقامة الجبرية، وليس لأنني أريد حياة الرغد والحرية من جديد.

ولكن لأخبرك أنك ستظل أبي إلى آخر لحظة في عمري، وأني أحبك بجنون، وسأظل وفيا لك.

أبتِ، أنا أخطأت، وأرجو منك السماح.

ابنك،

سليم."

جلس الزبير يقرأ هذه الكلمات وحده في غرفته، ورغم أنه ليس بإنسان عاطفي، إلا أن أنهار الحزن جرت في جوفه وهو يقرأ هذه الكلمات، وطفق قلبه يتقطع حزنا من سكين كلمات سليم إلى قطع صغيرة الواحدة تلو الأخرى. حزن كثيرا لأنه كسر قلب من كان ابنه، بعد أن كسر قلب حبيبته سمية. وأحس أنه سم يؤذي كل من يحبهم! وما زاد من حزنه وأثار فيه الشجن، خط سليم الرديء جدا، وكثرة الأخطاء الإملائية والنحوية في رسالته، فأحس بالشفقة على الشاب القروي المسكين، الذي عاش كل طفولته هاربا في قرية لم يتلق فيها أي تعليم. وتعجب الزبير من البلاغة في كلام سليم، رغم أنه ليس من أهلها، ولكن محبة الأخير له جعلته يتكلم بفنية الشعراء، وأشجان الكتاب!

ورغم كل هذا، لم يشفع أي من هذا لسليم، وقرر الزبير أن يرفض مسامحة ابنه، فهو الرجل الشديد، ولن يسامح من يخطئ في حقه، مهما قَرُب منه؛ لأن التسامح – وفق رأيه – من شيم الضعفاء.

***

الـفـصـل الحـادي عـاشـر

الـبـديـلـة

((38))

وظل الزبير على حاله من الحزن على سمية، والجلوس وحيدا مع الخنجر الذي أهدته إياه، وقلة الاختلاط حتى بأقرب المقربين له. وقد شاع كل هذا في البقاء بأكملها.

وذات يوم أتى لزيارة الزبير ضيف لم يتوقعه أبدا. توجه الزبير إلى إحدى شرفات قصر الكثبة المطلة على الهواء الطلق، فوجد حورية بانتظاره، وعلى بعد مسافة غير بعيدة وقف حارسها – غريب الأطوار – عكرمة، وهو يضع يده اليمنى على اليسرى، ويضع الأخيرة على ظهره. تفاجأ الزبير من مقدمها، وتساءل ماذا تريد.

"أهلا بك" قال الزبير بعد أن جلس، وقد انتبه جيدا لعنايتها بنفسها أقصى عناية، فقد تزينت بأجمل زينة، وتعطرت بأطيب عطر، ولبست أفضل لباس.

"مرحبا، أيها الزبير" قالت حورية ثم ارتشفت من كأس الشاي الذي ضيفه لها الخادم. ولم يكترث الزبير بعدم مخاطبتها له ب "مولاي" وهو ملك البقاء بأكملها.

ثم أضافت: كيف حالك؟ سمعنا أنك لست على ما يرام.

ضيف الخادم الزبير كأسا من الشاي، أبقاه الزبير أمامه ولم يشرب منه شيئا.

لم يجب الزبير على كلامها، في حين ابتسمت ابتسامتها المغرية، ثم قالت مبتسمة: سمعنا بحزنك العظيم على تلك المرأة!

وبينما اجتاحت التعابير المثيرة وجهها – وهذا ما استمر طيلة الحوار – أكملت: أتراها تستحق كل هذا؟!

هم الزبير بالدفاع عن سمية، ولكنه التزم الصمت؛ لأنه كان خائر القوى، مفرغا من أية طاقة بسبب حزنه الشديد واكتئابه العظيم.

"ما الذي يعجبك فيها؟!" قالت حورية، وأمالت رأسها وابتسمت بإغراء، وأكملت بنبرة استهزاء: جسدها النحيل، أم صدرها الصغير، أم قوامها الباهت، أم برودتها؟!

وضعت يديها على فخذها المدورة، ثم أكملت: أنت تحتاج امرأة ذات جسد جميل، وانحناءات، شخصيتها قوية، تثير بأنوثتها حتى الحجر.

ثم تساءلت بتعجب: لماذا تحزن على تلك، وأنت بإمكانك أن تمتلك أفضل منها؟!

جعل الزبير يحدق في حورية، متعجبا من كلامها، وتفحص جسدها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها.

وبينما وقف عكرمة كالصنم، قالت حورية: هنالك نساء متزوجات ولهن أبناء، مستعدات للتخلي عن أزواجهن من أجلك...

ابتسمت بإغراء، ووضعت رجلها اليمنى فوق اليسرى، ثم قالت مبتسمة: انظر حولك جيدا، ستجدهن الآن.

حدق الزبير في حورية التي أغرته بنجاح، وافتتن بجسدها، واحتار بين انحناءات جسمها، وجسدها المكتنز وتعابير وجهها المثيرة، وابتسامتها المغرية، وبياضها الناصع الشديد، وكل هذا أشعل نار حامية جدا بداخله، لم يعرف حينئذ ما الذي يمكن أن يطفئها.

***

بعد رحيل حورية والصنم الذي يحرسها، عاد الزبير إلى غرفته وأمسك بالخنجر الذي أهدته إياه سمية، وأنشأ يتفكر بعمق فيما قالته حورية، وظل هكذا أياما كثيرة.

لقد فهم رسالة حورية جيدا، وبدأت تجتاحه خيالات مثيرة، وأحس بنشوة وسعادة بالغتين؛ لأن هذه المرأة تمتلك جسدا وإثارة لم يشهد مثيلا لهما.

ولكنه تفكر جيدا، "هل أوذي المغيرة، صديقي الذي ساعدني ولطالما وقف بجانبي، والذي لولاه ما قامت الثورة ولا نجحت، والذي لولاه ما غدوت ملكا؟!"

ولكن الجواب أتى على شكل فكرة أخرى، إذ خاطب الزبير نفسه: "العظماء، أيها الزبير، لا بد وأن يضحوا، ولقد ضحيت بأقرب الناس إليك، أخيك دريد، وخسرت حبيبتك سمية، وابنك سليما، فهل سيقف جيش طموحاتك عند المغيرة، ومكانته في قلبك أقل منهم جميعا؟!"

***

بعد ما يقرب الشهر من زيارة حورية للزبير، توجه الأخير إلى الفيحاء، بالتحديد إلى منزل المغيرة. استقبل المغيرة وحورية ضيفهما في غرفة ضيوف منزلهما.

تكونت كل الغرفة من الخشب الثمين، بما في ذلك الأثاث، وانتشرت هنا وهناك التحف الخزفية الثمينة.

"كيف حالكما؟" سأل الزبير.

سكت المغيرة لمدة، ثم أجاب بجفاف: بخير.

ثم نظر بغضب وامتعاض إلى الأرض.

بينما قالت حورية بصوت ناعم مثير: نحن بأتم حال، أيها الملك.

لقد كان المغيرة كسائر أمراء الثورة مستاءً من تصرفات الزبير، لا سيما ما فعله مع الملك الهارب وآله، ثم ما ظن المغيرة أنه فعله مع أمين.

تفهم الزبير الأمر، فقال: أيها المغيرة، ما عهدته عنك أنك رجل شديد قاس، وعليك أن تتفهم أن الحياة لا بد في من تضحيات... أنا لم أكره الملك الهارب يوما، بل على العكس اعتبرته أبا لي... لكن مصلحة البقاء تقتضي فعل ما فعلتُه... وأنا لم أوذيك ولم أسئ إليك على الإطلاق في حياتي، فلم كل هذا الغضب؟!

وبالتأكيد عرف الزبير جيدا، أن ما دفعه لفعل ما فعله تجاه الملك الهارب لم يكن أبدا مصحلة البقاء!

ابتسمت حورية ابتسامة مثيرة، وقالت: اعذر المغيرة، يوما ما سينسى كل شيء حدث، وسيدرك أن ما فعلتَه هو الصحيح.

لم يعجب المغيرة ما قالته، لكنه لم يعلق.

فحاول الزبير من جديد استمالة المغيرة إلى صفه، فسأل: كيف أمور الفيحاء؟

ومن جديد أجاب المغيرة بجفاف وغضب: هي بخير... لا شيء جديد يذكر.

ثم قالت حورية، ووجهها تعلوه التعابير المثيرة الخبيثة: دعنا من الفيحاء... لا بد أيها الزبير أن هنالك أمراً هاما أتى بك إلى الفيحاء!

لقد عرفت حورية لماذا أتى الزبير، وأنه أخيرا وافق على خطتها، وأرادته أن يعرف جيدا أنها تعرف.

تفهم الزبير مغزاها، وأجاب: نعم... بالفعل... أمر هام... وما أهم من رؤية المرء لصديقه؟!

تنهد الزبير، ثم قال وهو ينظر إلى حورية: هل تسمحين لي بمحادثة المغيرة على انفراد؟

اتسعت ابتسامتها، وقال بصوت قمة في النعومة والدلال والإثارة: بالتأكيد.

قامت ورحلت وظل الرجلان الصديقان معا.

ثم قال الزبير: أيها المغيرة... أريدك أن تعرف أنك صديقي، وستظل صديقي للأبد... حتى لو ما فتئت غاضبا مني وحاقدا علي... ما حدث قد حدث، ورحم الله الملك الهارب... أريد أن أعترف أنه لولاك ما حدثت الثورة، ولولاك ما صرتُ ملكا... لا أظن أنني أسأت إلى شخصك يوما ما... وإذا فعلت ذلك في أي يوم قادم، فأرجو أن تسامحني من كل قلبك... وتذكر دوما أن الحياة لا بد فيها من التضحيات.

أحس المغيرة بغرابة كلام الزبير، ثم قال: أنت لم تسئ إلي شخصيا في أي يوم، لكن ما فعلته فيه إساءة لكل مواطن في البقاء، وأنا منهم، ولا أعتقد أن أي أحد منا سيقدر على أن يسامحك يوما ما؛ لأن مسامحتك تعني خيانة البقاء!

انزعج الزبير كثيرا من كلام المغيرة، وشعر بغضب عارم، لكنه لم يرد على المغيرة، وقال: ائذن لي.

وقام الزبير، واتجه إلى منزل بجوار منزل المغيرة، خصص للزوار القادمين إلى الأخير. وأقام الزبير هناك مع النسور السوداء وخدمه.

لم يمر وقت طويل، قبل أن تأتي حورية للقاء الزبير، فقد توجهت إليه في مساء اليوم نفسه.

ولكنها لم تأت وحدها، وإنما كان معها ظلها عكرمة.

جلس الزبير وحورية في غرفة واسعة في المنزل الذي قطن فيه. وكالعادة وقف عكرمة وقفته المعهودة، بيده اليسرى فوق اليمنى، في حين أسند الأخيرة إلى ظهره.

وضعت حورية فخذها المدورة اليمنى فوق مثيلتها اليسرى، وقالت بدلال يثير حتى الحجر: كيف حالك... أيها الزبير؟

الزبير الذي لطالما أجاد التحكم بنفسه جيدا، لا سيما فيما يخص النساء، أحس ببركان عارم في تلك اللحظات بداخله.

إلا إنه استجمع قواه، وقال: حورية، لقد فهمت رسالتك المرة الماضية... وتفكرت في الموضوع... وألفيت أنه لا خير منك في هذه البسيطة.

في تلك اللحظة، تذكر الزبير سمية؛ مما أثار بداخله شجنا عميقا.

اجتاحت فرحة عارمة قلب حورية، وظهر ذلك جيدا على تعابير وجهها، وابتسمت ابتسامة عريضة مثيرة، أبانت أسنانها البيضاء المصفوفة بإبداع، كأنها حجارة ألماس ثمينة.

أكمل الزبير: حورية، أنا أريدك لي.

ضحكت حورية بإثارة، ثم قالت بترقيق بالغ لصوتها وبصوت مثير: وأنا أريدك بجنون.

هاج الزبير من صوتها وما قالته.

في حين أكملت بالطريقة نفسها: أعدك أنني سأجعلك أسعد رجل عرفته البقاء يوما.

زاد هياج الزبير، وابتسم ابتسامة صفراء خبيثة، ورد: أنت امرأة ذكية تعرف مصلحتها جيدا، وتعرف ما الصحيح وما المفيد، على العكس من غيرك، أنت اخترت أعظم رجل في البقاء، لذلك سأجعلك أعظم ملكة في الكون كله، وسأجعلك تعيشين الجنة على الأرض.

وبالتأكيد، قصد من كلامه أن حبيبته الحقيقية سمية هي التي لا تعرف مصلحتها.

لكنه سرعان ما تنهد تنهيدة أخفت ابتسامته الصفراء الخبيثة، وظهر القلق جليا على وجهه وهو يقول: ولكن كيف ستتخلصين من المغيرة؟!

"لي طرقي" قالت بصوتها المثير.

اتسعت عيناها الرماديتان البراقتان الساحرتان، ثم قالت: ولكن لي شروط.

فقال الزبير: قوليها.

فردت: ولدي وبنتي لي، ولا يراهم المغيرة نهائيا... وأريد أن تظل لي مكانتي كما هي مع المغيرة، وأن أحضر اجتماعاتك وأشاركك في اتخاذ القرارات. كما أنني أريد أن تظل معي حاشيتي ومنهم حارسي عكرمة في قصرنا، وفي أي مكان أذهب إليه. أريد وعد شرف منك.

وقد كان لحورية من المغيرة ولد اسمه حسن وابنة اسمها زبيدة، عمر البنت عشرة أعوام، أما الولد فعمره ثمانية أعوام.

تفكر الزبير بعمق، ومط شفتيه العريضتين للأمام، وقال: لك ذلك، هذا وعد شرف.

***

لم تنتظر حورية على الإطلاق، فمنذ إخبار الزبير لها برغبته الزواج منها، طفقت تستخدم طرقها "الخاصة" للتخلص من المغيرة.

لقد أدركت، أنه لا شيء يمكن أن يسعد الرجل كامرأة تدلّله وتسعده، وعلى النقيض، لا شيء يتعس الرجل كامرأة تملأ حياته نكدا. لهذا جعلت تفتعل المشكلات على أبسط الأشياء وأتفهها على الإطلاق.

"لماذا ذهبت؟ ولماذا أتيت؟ ولماذا لم تجلب كذا؟ ولم فعلت كذا؟ وأين ذهبت؟ ومن أين عدت؟" هذه الأسئلة وغيرها العشرات استخدمتها مرارا وتكرارا كل يوم لملء حياة المغيرة نكدا. ورغم أنها امرأة ثرية حتى قبل أن تتزوج المغيرة، ورغم أنه لم يبخل عليها يوما، ورغم أنها جعلها أغنى وأغنى بعد أن أغدق عليه الملك الهارب المال بناء على إيعاز الزبير، رغم كل ذلك أنشأت تطالب بكثير من المال، فلبى المغيرة الطلب، فما كان منها إلا أن تطلب المزيد والمزيد، ولم تشكر زوجها على عطاياه. وشرعت الأمور تتأزم أكثر وأكثر، لما تكررت زياراتها كثيرا إلى أهلها، وفي إحدى الزيارات ظلت ثلاثة أشهر كاملة عند أهلها وهي تصحب ابنها وابنتها، وظل يراسلها المغيرة لكي تعود لكن دون جدوى. ووصلت الأمور إلى الهاوية، عندما لم تعد تكتفي بحضور الاجتماعات معه، بل وصل بها الأمر إلى مطالبتها بحضور الاجتماعات وحدها، وألا يحضرها معها، فلم يحتمل المغيرة مثل ذلك.

ظلت هذه الأمور من أتفهها إلى أعمقها، تتكرر تكررا ممنهجا، أشعل غضب المغيرة. وفي نهاية المطاف، طالبته بالطلاق، فرفض رفضا مطلقا؛ فقد أحبها بجنون، ولن يجد امرأة بجمالها، ولن يجد جسدا كجسدها، أو إثارة كإثارتها، والأهم أنه أحب ابنه وابنته بجنون ولم يرد على الإطلاق أن يحزنهما أي شيء، لا سيما من طرفه هو بتطليقه لأمهما. فزدات حورية من افتعال المشاكل أكثر وأكثر، وظلت تطلب الطلاق، وما فتئ المغيرة يرفض، فزادت حورية افتعال المشكلات، وملأت حياته نكدا وكبدا، ومضت ثمانية شهور متواصلة منعته من أن يمسها على الإطلاق، وبالنهاية قرر أصعب قرار في حياته، ووافق على طلاقها.

أراد المغيرة أن يودع جسدها وإثارتها، فهو لن يستمتع بهما بعد اليوم، فأراد أن يجامعها، ولما حاول أن يمسها رفضت ذلك مطلقا، مما أشعل بداخله ظمأً لن ينطفئ أبد الدهر.

لم يستطع أبدا أن يفهم لم كانت تتصرف هكذا، وهو الذي لطالما أعطاها كل ما تريده، وأحس أنها تفتعل المشكلات لسبب ما لكنه لم يستطع أن يعرفه.

طلقها، ووفقا لقانون البقاء أخذت حضانة الأولاد، وكان يراهما يومي الخميس والجمعة فقط من كل أسبوع. وهذا هشم قلبه شر تهشيم، فلم يحب في حياته شيئا أو إنسانا كما أحب ابنيه، أحبهما بجنون، لدرجة أنه حتى جسد حورية وإثارتها – اللذان جعلاه عبدا لها – لم تضاهِ مكانتهما في قلبه مكانة ابنيه.

***

ولما أعلمت حورية جاريتها زمردة نيتها بالزواج من الملك الزبير، تفاجأت زمردة، واعتراها مزيج متناقض من الحزن والفرح. الحزن؛ لأنها أشفقت على المغيرة الذي لم يسئ لها ولا لسيدتها

قط، بيد أنها أخفت حزنها عن حورية. وأما الفرح؛ فلأن الزبير أعظم رجل في البقاء، وربما في تاريخ البقاء – وفق وجهة نظر كثيرين-، وسيدتها بالزواج منه ستغدو ملكة البقاء كلها.

"مبارك، يا مولاتي" قالت زمردة.

لم ترد حورية – بتعاليها – على تهنئة جاريتها، ولكن قالت: ما رأيك بالزبير؟

فقالت زمردة: هو أعظم رجل في البقاء كلها. أنا سعيدة من أجلك، يا مولاتي. لا سيما وأنك ستغدين جلالة الملكة.

ابتسمت حورية ابتسامة مثيرة جدا وعريضة.

ثم قالت زمردة: لكن ألا تخشين، أنه لن تكون لك مكانتك التي وجدت عند أبيك والمغيرة؟

فضحكت حورية باستهزاء، وقالت: لقد سألتني السؤال نفسه قبل زواجي من المغيرة، ورأيتِ النتيجة.

فقالت زمردة: لكن الزبير مختلف جدا، والكل يتحدث عن قسوته العظيمة وشدته التي لا مثيل لها.

وبينما علت الابتسامة المثيرة وجهها، قالت حورية: كل رجال الأرض عبيد لي ولجسدي عندما أريد ذلك. لا الزبير ولا غيره استثناء. سأستعبده، وسأستعبد كل البقاء وكل أهلها، بعد أن أغدو الملكة الآمرة الناهية التي تتحكم بكل شيء من أصغر الأشياء إلى أكبرها.

***

مرت خمسة شهور، والمغيرة يتألم ويئن ويمتلئ حزنا. ولكنه لم يعرف أن القادم سيكون أقسى وأشد. فقد أشهر الزبير زواجه من حورية. وأقيم حفل زفاف هو الأضخم في تاريخ البقاء، فقد أراد الزبير أن يشعر الجميع بأنه الأعظم، والأهم أراد لسمية أن تتندم على رفضها إياه. وسار موكب الزبير من بداية المعتزة إلى قصر الكثبة. وعج بالمؤيدين للزبير ومحبيه. وبينما تنقل الملك ذو الندب وحورية يتبعهم المركب، جعل عدد من الجنود يرمون الورود، والدراهم الذهبية والفضية على الناس الذين وقفوا على جانبي الطريق ليشاهدوا العرس، ففرحوا بالدراهم، بل جعل بعضهم يشاجر بعضهم الآخر بغية الحصول على المال. كان أغلب المشاركين بالحفل أو الحاضرين له إما من بدو الكثبة المؤيدين للزبير، أو من حلفائه أو من الفقراء في المدينة وبعض الغوغاء، ولم يكن الحضور كبيرا جدا؛ لأن كثيرا من الشعب كره الزبير بسبب انقلابه على الملك الهارب وآل الضياغم، لا سيما مع الطريقة البشعة التي انقلب بها. واشتمل الموكب أفضل عازفين استمع لهم أهل البقاء؛ إذ عزفوا معزوفات لا مثيل لها.

ثم وصل الموكب قصر الكثبة، وهناك جلس الزبير وزوجه في الساحة الجنوبية نفسها التي اغتال فيها من اغتالهم. وبدأ المغنون يغنون للزبير وسط معزوفات جميلة تسر الآذان. ثم أقيمت مأدبة ضخمة ليأكل منها الضيوف، وحول قصر الكثبة من الخارج وضعت الولائم، وسمح لعامة الشعب بالأكل منها.

بعد ذلك، أقام الزبير مسابقة للشعر، ليمدحه الشعراء ويتغنوا بأمجاده، ومنح كل شاعر مبلغا ضخما من المال مقابل شعره، في حين منح الشاعر الذي أعجبه شعره أكثر من البقية مبلغا لم يسبق أن حازه شاعر في البقاء كلها.

ثم وزع العطايا والهدايا بسخاء على الحضور، وكذلك على عامة الشعب في المعتزة.

وهكذا أنفق مبلغا ضخما من خزينة الدولة، وبذر متعمدا على عرسه.

وحل الليل، وتوجه العريسان إلى غرفة النوم الخاصة بهما، بعد أضخم حفل عرفته البقاء في تاريخها.

وكانت حورية تلبس فستانا أبيض يتخلله اللون الوردي، وتعلوه في أماكنَ كثيرة الألماس واللؤلؤ. بينما لبس الزبير ثوبا أبيض، يتخلله لون ذهبي. وكلا اللباسين لم يشهد البقاء مثيلا له.

وجلست حورية على السرير بانتظار الزبير الفحل، بعد أن سرها مظهر القصر الجليل الفخم، وأنها ستكون الآمرة الناهية فيه، بل في البقاء بأكملها. ولكن حدثت المفاجأة، فقد لبس الزبير ثياب النوم، ثم استلقى على السرير، وتغطى باللحاف بغية النوم. لم تفهم زوجته ما يجري، وأحست بالقلق والخوف.

قالت فورا والتعجب الشديد يحتلها: ما الذي تفعله؟!

فأجاب: لا شيء. أريد أن أنام.

فغضبت وقالت: كيف تنام، وهذه ليلة زواجك، وعليك أن تتصع ما يصنعه الرجل مع زوجته؟!

فرد: ليس لدي مزاج لذلك... ربما لاحقا.

فصرخت: أيها الزبير، هذا أمر غير مقبول.

فرد بهدوء وثقة وفظاظة: مقبول أم لا، افعلي ما تشائين.

جن جنونها، واشتعلت النار بصدرها، ولم تفهم لماذا يفعل ذلك، رغم أنها أيقنت أن هذا متعمد ومُخَطَّطٌ له منذ زمن.

وزاد تعجبها وغضبها والنار بداخلها، لما امتنع الزبير عن مجامعتها شهرا كاملا، قَبِلَ بعده أن يفعل ذلك.

لقد تفهم الزبير عقليتها، وعرف كيف تحكمت بالمغيرة من خلال جسدها، ولم يرد لذلك أن يتكرر معه، ولن يسمح الزبير وهو الرجل العظيم الأسطوري، أن تتحكم به امرأة وأن تذله، بغض النظر عن هوية تلك المرأة، لم يقبل أن يغدو حيوانا تسوقه شهوته.

المرء الذكي هو الذي يتعلم من أخطائه، ولكن المرء الأذكى هو الذي يتعلم من أخطاء غيره.

***

لما علم المغيرة بزواج حورية من الزبير أغمض عينيه وتنهد عميقا، كما لم يتنهد من قبل، وآلمه قلبه.

"أيها الزبير الخسيس، لطالما سمعت عن نذالتك، لكن لم أتصور أنها تصل إلى هذا الحد. وأنتِ أيتها الخائنة، ستدفعين الثمن غاليا" هكذا فكر المغيرة آنئذ.

وفي يوم زفافهما جن جنون المغيرة، وشرب الخمر في ذلك اليوم، كما لم يسبق لامرئ أن شربه في تاريخ البقاء كله.

بعد ذلك رفع المغيرة قضية مطالبا بابنيه؛ إذ إن القانون في البقاء آنئذ أعطى الأب حق الوصاية على الأولاد، إذا ما تزوجت الأم.

وتنفيذ لوعد الشرف الذي منحه الزبير لحورية، أجبر الزبير القاضي بأن يمنح الوصاية لحورية، ومنع المغيرة نهائيا من رؤية ابنيه.

أحس المغيرة بالظلم الشديد والألم العميق، وطفق يشرب الخمور حتى عاقرها وأدمن عليها، وأنشأ يأكل بشراهة ويشرب بشراهة، وينام معظم النهار والليل. لقد دخل في اكتئاب عظيم. أخذ يتذكر كل لحظة جامع حورية فيها، ومدى الإثارة التي صاحبت ذلك، وأن ذلك لن يتكرر، بل إن

رجلا آخر سيحل محله. تذكر كل التضحيات التي فعلها من أجل جسدها، حتى كرامته تخلى عنها، وبالنهاية تركته كما يخلع الحذاء من القدم، وتفهم جيدا أن كل اصطناعها للمشكلات في الفترة الأخيرة من زواجهما، تم فقط لأجل التخلص منه والزواج من الزبير. تذكر في تلك اللحظات الأليمة كلام معلمه الأقطش بوجوب ترك حورية، وأنها ستكون السبب في هلاكه، إذا ما استمر معها. وآثار ذلك شجنا عميقا وألما شديدا في نفسه، والأقطش كان قد توفي حينئذ، ولم يعد بإمكانه الفضفضة له.

وأنشأ يقارن نفسه بالزبير مرارا وتكرارا، وآلمه أنه حتى هو رأى أن الزبير خير منه، فهو الذي حرر البقاء بعد سنوات الضياع والمعاناة، وهو الذي غدا ملك البلاد، وهو الذي بطش بكل خصومه.

وما أحزنه أكثر بأضعاف من فقدانه لحورية وخيانتها له، هو فقدانه لابنيه أعز شيئين على قلبه في الدنيا كلها, جعل يتذكر تقاسيم وجهيهما وبراءة طفولتهما وأنه لن يراهما من جديد أبدا.

ومع الإدمان على الخمور وكثرة الأكل والشرب، غدا المغيرة سمينا جدا، واختفت العضلات والقوة الجسدية التي لطالما عُرف بها.

***

ومع مرور الوقت، واستمرار المغيرة بشرب الخمور وانهياره، ظل أخوه مسعود يحاول استنهاض همته والتخفيف عنه.

دخل مسعود على غرفة أخيه المغيرة، فوجده مرتخيا على كرسي، وهو يمسك قارورة كبيرة من الخمر، وشاهده وهو يشرب منها.

"كيف حالك، أيها المغيرة" قال مسعود بحزن.

"أهلا... أهلا، بالغالي" قال المغيرة بلسان ثقيل، وهو غير مركز، وقد أذهب الخمر عقله.

حزن مسعود لما رأى هذا، وتذكر المغيرة القديم، الفارس الصنديد الذي لا يشق له غبار.

فقال مسعود: أيها المغيرة، أرجوك اصمد... عد قويا كما كنت... أرجوك لا تستسلم.

فقال المغيرة بلسانه الثقيل: اغرب عن وجهي... أريد أن أظل وحدي.

ثم شرب شربة كبيرة من قارورة الخمر.

فقال مسعود: أرجوك... الفيحاء تحتاجك.

"تبا للفيحاء... تبا لك... تبا لكم جميعا" كرر المغيرة بلسان ثقيل.

"أرجوك، أيها المغيرة... لا تستسلم... وتوقف عن الشرب" حاول مسعود تحفيز أخيه من جديد.

فجعل المغيرة يهذي: زبيدة... حسن... ضاعا... حياتي كلها ضاعت.

ثم غضب، وصرخ: انصرف من هنا... اغرب عن وجهي... أريد أن أستمتع بهذا الخمر اللذيذ.

وبدل أن ينهي مسعود استسلام المغيرة، استسلم مسعود لفكرة إعادة أخيه، وأيقن أن أخاه قد انتهى.

***

وحان موعد أول اجتماع رسمي للزبير بعد زواجه من حورية. وقد وجب عليه أن يفي بوعد الشرف الذي منحه إياها، بجعلها ندا له. ولذلك سمح لها بحضور الاجتماع.

عقد الاجتماع في ساحة الأسد، حيث جلس الزبير على كرسي العرش بالقرب من الحائط وجلست بجواره حورية على كرسي مماثل. وقد لبست أجمل لباس وتزينت بأحسن زينة تليق بملكة البقاء بأكملها. وعلى يمينها بمسافة ليست ببعيدة، وقف عكرمة حارسها وقفته المعتادة، بإسناد يده اليسرى إلى اليمنى، وإسناد الأخيرة إلى ظهره.

الطرف الثاني للاجتماع كان أحد عمال الدولة المهمين، وقد كلف بجمع الضرائب من منطقة الغُرَيرة، وهي منطقة تقع في الوسط، شمالي البقاء.

"تحيتي، جلالة الملك" قال عامل الدولة، وهو ينحني باتجاه الزبير.

ثم استوى من انحناءته، وانحنى من جديد نحو الملكة، ثم قال: تحيتي، جلالة الملكة.

ثم استوى من انحناءته، بينما شعرت حورية بنشوة لا مثيل لها، بعد أن بات الناس يخاطبونها بالملكة، فاليوم باتت رسميا أعظم امرأة في البقاء كلها، بل ربما في البقاء وما أحاط بها من ممالك.

"مولاي، أتأذن لي بالحديث؟" سأل العامل.

وفورا قالت حورية: تفضل، آذن لك.

تفاجأ العامل من حديث حورية قبل الزبير؛ وهو قد عهد من الزبير القوة والشدة.

هم الرجل بالحديث فبدأ بالقول: مولا...

فقاطعه الزبير بسرعة، وهو يشير بيده له بالتوقف، وهو يقول: انتظر... انتظر...

ثم نظر الزبير إلى حورية، وسأل: من أذن لكِ بالكلام؟!

بوغتت حورية بالسؤال، وأجابت: نحن اتفقنا على هذا.

فقال الزبير: نحن اتفقنا أن يكون لك شأن مثل شأني، وليس أعظم من شأني لتسبقيني في الحديث.

ردت بوقاحة: بل أكثر منك.

تنهد الزبير، وقال وهو غاضب: لن أرد عليك هنا أمام الناس. قومي وغادري الساحة.

"لن أغادر" قالت بصرامة وعناد.

فقال الزبير: إن لم تغادري فورا، فسأسجن والدك عاما كاملا.

غضبت حورية كثيرا، وحل لون أحمر فاقع مكان البياض الناصع في وجهها، وبرزت العروق في عنقها، واشتعلت نار حامية بداخلها، وأحست بقهر لا مثيل له.

ثم غادرت إلى غرفة النوم الخاصة بها وبالزبير، وتبعها عكرمة.

أكمل الزبير اجتماعه مع عامل الدولة، ولما فرغ ذهب إلى غرفة النوم الخاصة به، فوجد حورية جالسة على إحدى الكراسي، وهي تحترق غضبا.

تعمد الزبير ألا يحييها؛ لأنه لم يكن راضيا عن تصرفاتها.

قالت حورية بتحدٍّ: كيف تجرؤ أن تحادثني هكذا؟!

"أحادثك كما أشاء" قال الزبير بهدوء بالغ، زاد النار التي بداخلها.

ثم توجه إلى إبريق به عصير، وجعل يسكب العصير منه بهدوء في كأس بغية الشرب منه، وهدوؤه من جديد أضرم النار في صدرها.

ثم قالت: أنا ند لك... عليك أن تفهم هذا جيدا.

"لا لست كذلك" قال الزبير، ثم ارتشف من العصير.

"بلى، وأعظم منك حتى" ردت حورية.

ابتسم الزبير باستهزاء، وقال: لا يوجد من هو أعظم مني بالعالم كله. وليس الآن فحسب، بل في التاريخ كله.

نظر الزبير بغضب وحِدّة إليها، وقال: اسمعيني جيدا، لا أريد أن أهينك، يا حورية. إما أن تخضعي لي برضاك، أو سأخضعك لي رغما عن أنفك.

"خسئت" قالت وقد اتسعت عيناها أقصى اتساع. ثم صرخت: طلقني الآن.

فقال بهدوء: نحن البدو، لا طلاق عندنا.

ارتشف من العصير، ثم أضاف: لدينا، يجب أن تخضع المرأة للرجل. هذا لا يعني أن يهينها أو يذلها... أنتم أهل المدن، لا سيما أمثالك المترفين، يظنون أن أهل الصحراء بدو همج رعاع يهينون نساءهم، لكن هذا غير صحيح. لقد عاش جدي ما يقرب السبعين عاما، وعاش أبي ما يزيد على ثلاثين عاما، وكلاهما لم يمس امرأة في حياته بسوء. وأنا لم أمس امرأة، ولن أمس امرأة في حياتي بسوء. ولن أرضى أن يقال إني أضرب زوجتي.

"تقطع يدك إن فعلت" قالت فورا بغضب.

غضب الزبير من كلامها.

صمت قليلا ثم أكمل: ولكن نحن البدو، لدينا يجب أن تحترم المرأة بعلها. هذا لا يعني أنها ذليلة أو مهانة، بل يكرمها زوجها ويسعدها وينفق عليها. لكن يجب أن تحترمه، وأن تكون الكلمة الأخيرة له، تماما كما يحترم الابن أباه، والبنت أمها، وكما يحترم الصغير الكبير، وكما يحترم الرجل العادي شيخ القبيلة.

هنالك فرق بين الاحترام والذل. هذا ما يجب أن تفهميه.

فأصرت من جديد بقولها: خسئت أن تكون أفضل مني.

فقال: قلت لك: لو كان رجل من المدينة قالت له زوجه ما قلتِه، للطمها. لكن لن أفعل ذلك... بل سأؤدبك شر تأديب إن لم تنتهي... تذكري كلامي جيدا... واعلمي أن لي أساليبي الخاصة. أيام المغيرة الضعيف قد ولت، والآن زوجك هو الزبير القوي الذي لا يمكن أن تسوقه امرأة كما تساق البعير.

فقالت، وقد وصل غضبها قمته: أريد الذهاب لأهلي.

"لن تذهبي إلا عندما أسمح لك أنا" قال الزبير، وأضاف: أنصتي لي جيدا، أنا لا أخلف وعودي. لقد وعدتك أن تحضري اجتماعاتي ولقاءاتي، ولن أخلف وعدي. ولكن إياكِ أن تتحدثي فيها دون إذني... وإياك أن تغادري القصر دون إذني.

وضع كأس العصير على الطاولة، وغادر الغرفة بسرعة وهو غاضب، بينما ظلت حورية تحترق غضبا.

***

منذ اللحظة التي انتقل فيها زبيدة وحسن ابنا المغيرة وحورية، للعيش في قصر الكثبة مع الزبير وأمهما، لاحظ الزبير مدى جمال الطفلين، إذ ورثا عن أمهما صفات الجمال من شدة بياض البشرة، والعيون الرمادية، والشعر الأصهب، لكن أكثر ما لفت انتباهه هو أنهم ورثوا تعابير وجه أبيهم نفسها، تلك المملوءة بالهدوء، والتي فيها لمسة عميقة من الحزن. وكلما نظر إليهما تذكر أبيهما – الذي كان يوما ما ليس ببعيد صديقه – وحزن على ما فعله به من خطف زوجته والأهم أبنائه.

ما لم يعرفه كثيرون، حتى أقرب المقربين من الزبير، أنه رغم قسوته وشدته التي قد يعتبرها الكثيرون فظاظة، إلا أنه أحب الأطفال بجنون، ولم يتمنّ شيئا كما تمنى أن يكون له طفل من صلبه. لقد اعتبر الأطفال ملائكة الله على الأرض، واعتبرهم مخلوقات كلها بيضاء من الداخل، مملوءة بالخير دون ذرة سواد من خبث أو شر.

وزبيدة وحسن لم يشكلا استثناء، فقد أحبهما الزبير من كل قلبه، وتمنى لو أنهما يبادلانه المحبة. ولكن لسوء حظه، فإن ذلك لم يحدث.

فمنذ اللحظة الأولى خشيه الطفلان. هذا الرجل كان يخاف منه أعند الملوك، وأكثر الفرسان العلوج قوة وشدة، فما بالك بطفلين أكبرهم عمره عشر سنوات؟! لا سيما مع تعابير وجهه القاسية التي تخيف حتى الحجر، وطريقة تعامله مع من حوله، وما حدث من البداية من مناكفات بينه وبين أمهم. والذي زاد الطين بلة أنهم عرفوا أنه هو السبب في الفراق بين والديهم. كلما دخل عليهما، سواء أكانا يتحادثان أم يلعبان ويركضان أم يحادثان أمهما أم غير ذلك، التزما الصمت فورا، ونظرا في الأرض بحزن وخوف.

كل هذا جعل الزبير يحزن حزنا عظيما، لا سيما أنه عرف جيدا أنه السبب في التفرقة بين أب وابنين، وثلاثتهما لم يسئ أي منهم إليه!

***

غادرت حورية وابنيها إلى دار أهلها دون إذن الزبير، وظلت هنالك شهرا كاملا.

"ألم أحذرك من مغادرة قصري دون إذني" سألها الزبير لما عادت.

فما كان ردها إلا: افعل ما يحلو لك.

قابلها الزبير بالصمت، لكنه وعد بداخله أن يقتص منها.

بعد ذلك حضرت اجتماعين مع الزبير، وتحدثت في كلا الاجتماعين دون إذنه.

مما زاد من حنقه تجاهها.

أما القشة التي قسمت ظهر البعير، فهي مغادرتها إلى أهلها من جديد وبقائها هنالك أسبوعين دون إذنه.

ولما عادت، دخل عليها الزبير وهي في غرفة النوم الخاصة بهما، وبجوارها عكرمة، وخادمتها زمردة.

"لقد طفح الكيل معك" قال الزبير، وهو ينظر إليها بعينيه الحادتين القاسيتين.

وبينما هو ما زال واقفا قال: أخبرتك... نحن لا يضرب رجالنا نساءَنا... لكنّ الزبير دائما لديه حل لأية مشكلة... هذا ما ستتعلمينه الآن.

فردت بتحدّ: افعل ما بدا لك.

صفق الزبير بيديه.

وسرعان ما دخل الغرفة سبعة جنود ألقوا القبض على عكرمة، الذي لم يتهور ويحاول المقاومة، وأخذوه إلى غرفة في القصر احتجزوه فيها.

فوقفت حورية، وصرخت: ماذا أنت فاعل؟!

وخالجها وزمردة شعور بالخوف.

وسرعان ما اقتحمت الغرفة ست نسوة أحضرهم الزبير من قبيلة الأسد، وجميعهن ترتدين أثواب نساء الكثبة التي يلبسنها حين يخرجن أمام الرجال الغرباء. كان الثوب أبيض اللون يغطي الرأس والجسد، بينما يحيط به عباءة سوداء تغطي الجسد والرأس، في حين لا يبين من الثوب الأبيض إلا أطرافه وقبته.

أمسكت النسوة بالملكة حورية بعنف وقسوة، حاولت أن تقاوم، وحاولت زمردة مساعدتها، لكن ابنة المدينة الرقيقة وجاريتها الضعيفة لن تقدرا لنساء البادية القاسيات.

أخذوها غصبا عنها وبدؤوا يجرونها بقوة، حاولت المقاومة هي وزمردة، لكنهما فشلتا، وجعلت تصرخ كالمجنونة: اتركوني... اتركوني... أيها الزبير الوقح، سأجعل أبي يوبخك.

وبينما أخرجنها، صرخت زمردة بخوف ورعب: مولاتي.

جرّت النساء الملكة في شتى أنحاء القصر، وهي تقاوم وتصرخ بجنون، بينما تبعهم الزبير بهدوء مطلق، وهو يضع يديه خلف ظهره إحداهما فوق الأخرى.

وكلما مروا بجزء من القصر، نظر إليهم الخدم والحرس، لكنهم سرعان ما أشاحوا بنظرهم، خوفا من غضب الزبير إذا ما تدخلوا في شأنه الخاص.

وبعد مسير طويل، بدأت النسوة والملكة والزبير بنزول أحد الإدراج، حتى نزلوا تحت الأرض، فوجدوا زنزانة حقيرة صغيرة تحيط بها القضبان، وبين الزنزانة والدرج غرفة خصصت لجلوس من يحرس السجين، وفي الغرفة كرسي بُنِّيٌّ له ثلاث سيقان.

كانت الزنزانة قذرة جدا، رائحتها عفنة تشمئز لها الأبدان.

أدخلت النسوة حورية داخل الزنزانة ثم خرجن، حاولت اللحاق بهن، لكن إحداهن قذفت بها بعيدا، فسقطت حورية على الأرض ذليلة مهانة، والنار بداخلها تتضرم.

وفي هذه الأثناء، كان الزبير قد أغلق باب الزنزانة، وقفل الباب بالمفتاح.

ووسط هذا المشهد، وبينما استلقت حورية بجسدها المثير، بذل على أرض الزنزانة، قال الزبير –وهو والنسوة بالغرفة خارج الزنزانة-: المهندس الذي بنى هذا القصر رجل مبدع لا مثيل له.

وضع يديه إحداها فوق الأخرى خلف ظهره، وبدأ بالسير في الغرفة، ثم أكمل: ومن علامات نبوغه، بناؤه لسجن داخل القصر، رغم أن هذا ليس من الأمور الاعتيادية في القصور... لكنه رجل ذكي؛ لأنه أدرك أنه – أحيانا – يسكن القصور أناس لا يستحقون إلا السجون.

وبينما الزبير يضع يديه خلف ظهره، نظر إلى زوجته بعينيه الحادتين، وسأل: من سيدك؟! إما أن تقولي "أنت" أو ستقيمين هنا أبد الدهر.

وبينما الملكة حورية مذلولة قمة الإذلال على الأرض - وهي التي اعتادت العزة وإذلال كل من حولها- صرخت: خسئت!

صعد الزبير الدرج وتبعته النسوة، بينما ظلت حورية وحيدة تحت الأرض، وهي تصرخ: سأقتلك، أيها الحقير... أبي سيقتلك، أيها الوغد.

وفجأة اختفى الزبير ومن معه، وظلت حورية وحدها، وهي تحترق غيظا.

انتظر الزبير يومين ثم عاد إليها.

وظل أحد الخدم يأتيها بالطعام والشراب مرة كل يوم.

سألها الزبير من جديد: من سيدك؟

"اخرس" قالت حورية وهي غاضبة أشد الغضب.

فغادر الزبير من جديد...

***

لقد أحب الزبير الأطفال بجنون، ومع مرور الوقت ظل يتألم من طريقة معاملة زبيدة وحسن ابنا حورية له، والمتمثلة بخوفهما منه وتجنبهما له. وقرر في النهاية وضع حد لكل هذا.

ففي يوم، دخل الزبير على غرفة الطفلين، ومعه صرتان يحملهما بيديه، وقد كانت غرفة واسعة جدا، فيها نافذة عريضة طويلة تبدأ من السقف وتنتهي بالأرضية، وفيها سرير كبير جدا لكل واحد منهما، يكاد كل منهما لا يملأ سوى ربع سريره فقط عند نومه فيه!

كان الطفلان يلعبان عندما دخل، ولما رأياه تجمدا في مكانهما وتجمدت الدماء في عروقهما، وتجمدت عيونهما فلم تعد ترمش، وازدرد كل منهما ريقه؛ من شدة الخوف.

وقف الزبير مقابل الطفلين، وظل الثلاثة واقفين كلٌّ في مكانه دون حراك.

ثم قال الزبير: كيف حالكما؟

لم يردّ الطفلان.

ثم سأل الزبير: لم تخافان كل هذا الخوف مني؟!

فتح الزبير الصرة الأولى، وأخرج منها دمية جميلة جدا، وقال وهو يمسكها مخاطبا زبيدة: هذه لك، يا زبيدة.

لم تتحرك الفتاة خوفا وهيبة، فاقترب منها الزبير، وأعطاها الدمية.

ثم عاد إلى حيث كان، وفتح الصرة الثانية وأخرج منه سيفا ذهبيا جميلا جدا، يتمناه أعتى الفرسان، وقال وهو يمسكه مخاطبا حَسَناً: هذا لك، يا حسن.

لم يتحرك الفتى خوفا وهيبة، فاقترب منه الزبير، وأعطاه السيف.

اجتاحت الطفلين فرحة عارمة، بسبب الهديتين، لكنهما أخفاها خوفا من الزبير وتوقيرا له.

وسرعان ما غادر الزبير الغرفة.

"انظري إلى السيف ما أجمله!" قال حسن لأخته، وهو مبهور فاتح عينيه على أقصى اتساع، بعد مغادرة الزبير.

فقالت زبيدة: انظر إلى الدمية ما أجملها! والله لم أر شيئا أجمل منها قطّ!

وابتسم الطفلان فرحا، وكل منهما ينظر في هديته مبهورا من شدة جمالها.

بعد أيام، دخل الزبير غرفتهما من جديد.

ولما رأياه تكرر كل شيء يحدث كل مرة.

"كيف حالكما؟" قال الزبير.

لم يرد الطفلان، فأضاف الزبير: هيا معي، سنذهب في رحلة.

قاد الزبير جمعا يضم الطفلين وعددا كبيرا من الحرس يشملون النسور السوداء، إلى مزرعة كبيرة في المعتزة.

وهي مزرعة دهماء من كثرة الشجر والنباتات، امتازت بجمال خلاب. ووُجِدَ فيها إسطبل للخيول.

وفجأة أمر الزبير سائس الخيول في المزرعة أن يحضر حصانين معينين.

كان الأول فرسا بيضاء، والثاني جوادا أسود اللون.

نظر الزبير إلى الطفلين، وقال لهما: هذه الفرس البيضاء لكِ، يا زبيدة. وذلك الجواد الأسود لك، يا حسن. سنأخذهما معنا إلى قصر الكثبة. وبإمكان كل منكما ركوب جواده، متى ما شاء، وأينما شاء.

نزل الطفلان عن جواديهما بسرعة، وركض كل منهما إلى جواده الجديد، ولأول مرة تصرف الطفلان بعفوية أمام الزبير القاسي، وأخيرا انكسر الجليد.

جن جنون الطفلين، وقال حسن مخاطبا أخته - وهو يفتح فاه وعينيه على أقصى اتساع-: انظري إلى الجواد، ما أجمله! إنه حتى أجمل من جواد أبي.

وقالت الفتاة وهي فرحة مبتسمة: انظر إلى هذه الفرس! ما أجملها! سأسميها ثلجاء، لشدة بياضها.

فقال حسن، وهو فرح أقصى الفرح: وأنا سأسمي جوادي المغوار.

وهكذا ابتهج الطفلان ابتهاجا ضخما، زرع ابتهاجا أضخم بكثير في قلب الزبير.

وركب كل منهما جواده الجديد، وجعلا يقودان جواديهما في المزرعة صحبة الزبير –وهو على جواده- دون الحديث معه.

ومرة عدة أيام، جلب بعدها الزبير أكبر هدية تلقاها الولدان في حياتهما.

إذ أدخل معه شيئا لم يرياه من قبل.

دخل الزبير ومعه شبل أسد صغير جدا، عمره عدة أشهر.

خافت زبيدة كثيرا أول ما رأته وركضت إلى ركن في الغرفة، وجعلت ترتجف خوفا من الشبل.

أما حسن فركض بسرعة نحو الشبل، وقال مخاطبا الزبير للمرة الأولى في حياته: ما هذا؟! أخبرنا. إنه شبل أسد، أليس كذلك؟! لقد رأيت رسومات للأسود في كتب الحكايات لدينا في الفيحاء.

ابتسم الزبير ابتسامة عريضة؛ فأخيرا حادثه الطفل الذي تمنى من كل قلبه أن يكون ابنه، أو على الأقل أن يحادثه ويبادله المحبة.

قال الزبير: نعم، إنه شبل أسد صغير.

جعل الشبل يركض ويلعب في الغرفة، وبدت عليه أقصى مظاهر البراءة واللطف، كانت عينيه واسعتين كثيرا، وملونتين بعدة ألوان، وكان فمه رقيقا جدا ووجه وذقنه جميلين جدا.

وبينما تحرك الشبل في الغرفة، جعلت زبيدة ترتجف أكثر، ثم طفقت تصرخ من شدة الخوف.

فركض حسن نحوها، وضحك بسخرية قائلا: أيتها الجبانة!

ثم ركض نحو الشبل وجعل يداعبه ويحرك يديه على رأس الشبل، ويتلمس وجهه.

توجه الزبير فورا نحو زبيدة، وأمسكها من ذراعيها بحنية، وقال بحنية أكبر –لم يعتدها الناس من الزبير-: بنيتي، لا تخافي... لن يؤذيك ما دمت معك... وما دمت معك، فلن يتمكن إنسي ولا جني من إيذائك.

اتسم كلامه بقمة الجمال والرقي والشاعرية، وسكنت نفس البنت وأحست بالطمأنينة؛ فأقوى رجل بالبقاء، تكفل بحمايتها مدى العمر.

توجه الزبير نحو الشبل، وأمسكه بيديه، ووضعه في حضنه، ثم خاطب زبيدة وهو بعيد عنها: تعالي، والمسيه. هو ليس شرسا كالأسود الكبار... لا تخافي، سأحميك، إذا حاول إيذاءك.

عندها اقتربت زبيدة بخطوات بطيئة، ولما وصلت إلى الزبير نزل –بتواضع أثار استغراب الطفلين- على ركبته، وخاطبها: المسي رأسه.

فمدت زبيدة يدها ببطء ثم تراجعت، لكنها استجمعت قوتها، ومدت يدها ولمست رأس الشبل، الذي اتسم بأنه أملس جدا.

ثم سحبت يدها بسرعة، لكنها لما لاحظت هدوء الشبل وأُلْفَتِه وعدم شراسته، جعلت تتلمس رأسه.

أما حسن الذي وقف بالقرب منهما، فمد يده وجعل يداعب الشبل مع زبيدة، ثم أخذه من حضن الزبير وحضنه وضمه إليه، وجعل يداعبه.

بعد مدة وضع حسن الشبل على الأرض، وجعل يلاحقه، بينما نظرت إليهما زبيدة باهتمام وفرحة بالغين.

كل هذا على مرأى الزبير، الذي شعر بفرحة عامرة.

بعد مدة، اندفع حسن نحو الزبير، واحتضنه. فنزل الزبير على ركبتيه وبادل حسنا الأحضان.

فقال حسن، وأحدهما يحتضن الآخر: شكرا.

فقبله الزبير.

واقتربت زبيدة، وقالت: شكرا.

فحضنها الزبير، وقبلها.

تلك اللحظات كانت من أسعد لحظات حياته على الإطلاق.

ومن ذلك اليوم، غدا الزبير صديقا للطفلين، وباتا يحبانه ويعتبرانه ملجأ لهما، ومصدرا لسعادتهما وفرحتهما.

وبعد أيام، وبينما الزبير يجالسهما في غرفتهما، سأل: لم كنتما لا تحبانني؟!

احمرت وجنتا كل منهما خجلا وإحراجا.

ثم استجمعت زبيدة قوتها وقالت: كنا نخاف منك.

"لم؟!" تساءل الزبير.

"الجميع يخاف منك" قال حسن بعفوية وصراحة كبيرة بالنسبة لعمره الضئيل.

خالج الزبيرَ مزيجٌ متناقض من الفرحة والحزن، الأولى؛ لأن أعداءه يخشونه، والثاني؛ لأن كثيرا من المقربين منه خافوه.

"ولكن أنتم أبنائي!" قال الزبير.

"نحن أبناء المغيرة" باغت حسن الزبير بجوابه الذي حمل في طياته جرأة، وصراحة أحزنا الزبير كثيرا.

تنهد الزبير ثم قال: حسن، أنا مثل عمكم.

ومنذ ذلك اليوم طفقوا ينادونه ب "عمي".

ثم أضاف الزبير: وأبوكم صديقي.

استغرب الطفلان كلامه، ونظرا في الأرض.

ثم قالت زبيدة: لكنك دمرت العلاقة بين أبي وأمي.

تفاجأ الزبير من ردها؛ فلم يكن يعتقد أنهما يعرفان تفاصيل ما جرى.

ثم قال: لا... هذه إشاعات... أحيانا لا يتفق الزوج والزوجة فقط. وهذا لا يعني -بالضرورة- أن أحدهما أو كلاهما سيئ.

سكت قليلا، ثم أضاف: والمغيرة صديقي... وهو أشجع رجل قابلته في حياتي، ليتكما شاهدتماه وهو يقاتل كالوحش في المعارك التي خضناها... ولولاه ما حدثت الثورة، ولولاه ولولا الثورة ما غدوت ملكا... لا أستطيع ذكر التفاصيل؛ هذه حكاية طويلة جدا جدا وذات شجون.

فرح الطفلان كثيرا؛ بسبب مدح أعظم رجال البقاء لأبيهما.

لقد اتسم الزبير بالذكاء الشديد، وقد تعمد مدح أبيهما، ليلعب بنفسياتهما ويكسب محبتهما.

"ولكنك آذيت أمنا!" باغته حسن بالسؤال؛ فالزبير ظن أنهما لا يعرفان باحتجازه لها.

نفى الزبير: لا، لم أوذِها.

فقال حسن: ولكنها الآن في السجن!

فرد الزبير: لا، هذه أكاذيب... هي فقط سافرت وستعود قريبا.

ثم قال: لطالما تمنيت أن يكون لي ابن من صلبي. وكلما مر الوقت، نمت أمنيتي أكثر وأكثر... وقد وهبني الله إياكما، إلى أن أنجب – من أمكما – ابنا من صلبي، يكون أخا لكما ولا أفرق بينه وبينكما.

فرح الطفلان كثيرا بكلام الزبير.

ومرت الأيام، وفي إحدى جلساته معهما، قالت زبيدة: عمي...

خافت قليلا، لكنها سرعان ما أكملت: نريد رؤية أبينا.

فقال حسن: السيف والخيول والشبل والهدايا، كلها جميلة... ولكننا نريد رؤية أبينا.

تنهد الزبير بعمق وحزن، ثم قال: ولكنني وعدت أمكما ألا يحدث هذا... وأنا رجل لا يكسر وعوده مهما حدث، إلا للضرورات القصوى.

أغمض الزبير عينيه وتذكر ما فعله بالملك الهارب وزوجته الملكة، بعد أن وعدهما بالوفاء المطلق، وحزن لأنه اضطر لكسر وعده لهما.

"أرجوك" قال حسن بوجهه وصوته البريئين.

انكسر قلب الزبير من هذا.

وقالت زبيدة: اعتبر ذلك ضرورة قصوى... وأمنا لن يصيبها ضير إن حدث ذلك.

ومنذ تلك اللحظة بدأ الزبير يتفكر بعمق في طلبهما.

***

مع مرور الأيام، ظل المغيرة يشرب ويشرب الخمور، حتى برزت كرشه كثيرا، وأمسى ضعيفا، وباتت حالته يرثى لها. صحيح أن ما فعلته طليقته والزبير به آلمه كثيرا، وأن فقدانه لمتع جسدها أغضبه، إلا أن أكثر ما أحزنه هو فراق أبنائه.

وبعد طلب الطفلين لقاء أبيهما، ما انفك الزبير يفكر في المسألة حتى قرر كسر وعده لحورية، وقرر السماح لهما بلقاء أبيهما.

احتاج الزبير رجلا يجيد المفاوضة جيدا، ليفاوض المغيرة بخصوص لقاء الطفلين؛ فقد خشي الزبير إن أرسلهما للمغيرة، أن يخفيهما الأخير في مكان لا يعرفه إنس ولا جان، وبالتالي سيظهر الزبير أمام حورية بمظهر الضعيف الخائن الذي أضاع ابنيها.

ومن خير من داهية الكثبة لمثل هذا؟!

وبسرعة توجه الداهية مع عدد كبير من الجنود إلى الفيحاء، ووصل دار المغيرة.

ولما علم المغيرة بمقدمه، غضب كثيرا؛ لأنه من طرف الزبير الذي سلب منه كل شيء.

خرج المغيرة إلى غرفة الضيوف في داره، ومعه عدد كبير من مقاتليه، فوجد الداهية ومعه خمسة جنود.

وهكذا امتلأت الغرفة بالمقاتلين الذي استعد بعضهم لافتراس بعضهم الآخر، لو صدر من إحدى الطرفين غدر تجاه الطرف الآخر.

وبينما ظهر العبوس واضحا على محيا المغيرة، قال بغضب وبنبرة جافة قاسية مخاطبا الداهية: ما الذي أتى بك؟!

ابتسم الداهية ابتسامته الصفراء الخبيثة، وقال: ما أتى بي إلا الخير.

"أي خير يأتي من أمثالك وأمثال سيدك؟!" هكذا فكر المغيرة، وشعر أن هنالك مكيدة ما حبك الزبير خيوطها، وأرسل داهيته لتنفيذها.

ثم أكمل الداهية: ابناك...

فقاطعه المغيرة صارخا، وقد ارتعش قلبه خوفا: ماذا حدث لهما؟! والله لو مسهما سوء، لأقتلنك والزبير وكل من معكما، ولأدمرن البسيطة على أهلها.

زادت ابتسامة الداهية الصفراء اتساعا، ولم يعر كلام المغيرة أية قيمة؛ فقد علم جيدا أنه لا يستطيع فعل أي شيء مما ذكر.

رد الداهية: لا تخف... لا تخف... زبيدة وحسن بخير... لقد أصرا على الزبير أن يلقياك... وفي النهاية وافق الزبير.

فرح المغيرة كثيرا، في حقيقة الأمر كان هذا أسعد شيء حدث في حياته، لكأنه سيقابل امرأ عزيزا عاد من الموت، ولكنه خشي أن تكون هذه مصيدة يسعى الزبير من خلالها لتصفيتها.

سأل المغيرة: وكيف أعلم أن هذه ليست خدعة من الزبير؟!

فأجاب الداهية: لا شيء يمكن أن يؤكد لك أنها ليست كذلك.

"وكيف يكون اللقاء؟" سأل المغيرة، وفورا أتبعه بسؤالين من شدة توقه للقاء أبنائه: ومتى؟ وأين؟

ابتسم الداهية، وأجاب: يكون اللقاء في القلعة بالشيمية، يوم الاثنين القادم صباحا.

تنهد المغيرة، وقد اطمئن قلبه، وقال: حسن.

"ولكن" قال الداهية، وأتبع: هنالك شروط للقاء.

توجس المغيرة خيفة من الأمر، وسأل: وما هي؟

فقال الداهية: الزبير وعد حورية بالحفاظ على أبنائها، ويخشى إن أذن لك بلقائهما ألا تعيدهما، لذلك يحتاج لضمانات تؤكد له عودتهما.

"وما هي؟!" سأل المغيرة.

فأجاب الداهية: الزبير يريدك أن ترسل له أخاك مسعودا، ليحتجزه إلى حين تعيد الطفلين إليه، فيعيد لك أخاك سالما معافى.

ومسعود هذا هو أخو المغيرة الصغير، الذي أحبه الأخير بجنون، ولم يكن ليسمح لأحد بإيذائه.

مما دفع المغيرة ليقول: مستحيل، لن أضحي بأخي.

فقال الداهية بهدوء وثقة تتعجب لهما الدنيا كلها: أيها المغيرة، هذه ليست بتضحية... وحتى لو اعتبرتها كذلك، فالحياة لا بد فيها من تضحيات... ما مصلحة الزبير من قتل أخيك أو إيذائه؟! كما أنك تعرف جيدا أن الزبير لو أرادك – أو أخاك – مقتولا، لكنت مقتولا منذ زمن بعيد. الزبير منذ بداية ما حدث بينكما، لم يرد أي احتكاك بينه وبينك؛ لأنه ما يزال يعتبرك صديقه، ولا يريد خسارتك ولا خسارة الفيحاء... كل ما يريده الرجل هو إسعاد الطفلين، اللذين غدا يعتبرهما ولديه وأعز من أولاده.

تفكر المغيرة جيدا في كلام الداهية، ووجد أنه منطقي جدا، واقتنع به.

نظر المغيرة بحذر إلى الداهية الماكر، ووافق بلهفة كالمجنون قائلا: حسن أنا موافق.

وفي صبيحة يوم الاثنين توجه المغيرة صحبة أخيه مسعود، وعدد هائل من المقاتلين، إلى قلعة الشيمية. والشيمية هذه مدينة قليلة السكان، بها قلعة أثرية مهجورة ضخمة يعود بناؤها إلى مئات السنين، وتحمل حجارتها شجونا وأحزانا وانتصارات كثيرة من تاريخ البقاء. وقد كان كثير من

أجزائها إبان فترة الزبير، مهدوما، أو مكسّرا متهتكا. وقد وقعت بين العاصمة المعتزة ومدينة الفيحاء.

فلما وصلوا، وجدوا الزبير ومن معه قد عسكروا مقابل الطرف الآخر من القلعة. وضم المعسكر زبيدة وحسنا وقيسا والنسور السوداء وعددا هائلا جدا من جنود الزبير. وقد حرص الزبير على القدوم منذ الفجر، وسط حراسة مشددة، وقبل قدومه جعل جنوده يتفقدون المدينة حيا حيا، وحارة حارة، حتى يتأكدوا أن المغيرة لم يجهز أية مفاجئات.

توجه أحد جنود الزبير إلى معسكر المغيرة، فلما بلغهم، قال وهو على جواده مخاطبا المغيرة: السلام عليكم. جلالة الملك يريد مسعودا، كي يرسل إليك الطفلين.

نظر المغيرة إلى أخيه، وقال: اذهب إليهم، يا مسعود.

ثم احتضن أخاه بقوة، وبعدما ترك الأخوان أحدهما الثاني، نظر المغيرة بجدية إلى أخيه، وقال: لا تخف، يا مسعود. والله لو آذاك، فلن أهدأ حتى أتي برأسه ورؤوس كل أهله.

أومأ مسعود برأسه مظهرا تفهمه لكلام المغيرة، رغم أنه علم أن الأخير ليس بمقدوره الوفاء بقسمه، فلو تمكن من إيذاء الزبير، لآذاه مذ سلب منه زوجه وأولاده!

ورغم كل هذا، مسعود كان مستعدا للتضحية من أجل أخيه وسعادته، لذلك ركب جواده، وذهب مع جندي الزبير.

وبعد أن وصل مسعود إلى معسكر الزبير، أرسل الزبير الطفلين مع أحد جنوده إلى معسكر المغيرة، وطفق يراقب ماذا سيحدث من بعيد هو وقيس.

ولما وصل الطفلان إلى معسكر المغيرة، ركض الأخير – الذي كان يوما ما فارسا مغوارا لا يشق له غبار – كالأطفال بجنون نحوهم، وركض الطفلان نحوه، واحتضن الثلاثة بعضهم بعضا، وطفقوا يجشهون بالبكاء، وبكى المغيرة كالطفل الصغير.

فلما رأى الزبير كل هذا، حزن حزنا عظيما، ودمّعت عيناه، فرأى قيس ذلك.

وأخبر الجنديُّ المغيرةَ، أنه معه حتى مغرب الشمس لإعادة الطفلين إلى الزبير.

بعدها غادر الزبير وقيس والنسور السوداء وعدد من الجنود معسكرهم، وذهبوا إلى غابة غربيّ الشيمية، ليستريحوا فيها.

وعندما وصلوها، قال قيس مخاطبا النسور السوداء ومن وجد من الجنود: أريد محادثة الملك وحدنا.

فأومأ الزبير برأسه إلى النسور قائلا: دعونا وحدنا.

فرحلوا جميعا، وظل الزبير وقيس وحدهما.

جلس الزبير على الأرض مسندا ظهره إلى إحدى شجرات الغابة، وهو مطأطئ رأسه في الأرض حزنا.

نظر قيس إليه بحزن، وشفقة لم يشعر بهما تجاهه في حياته كلها، سوى في مرات معدودة على الأصابع.

"لماذا دمعت عيناي؟ هذا ما تريد أن تسألني إياه" قال الزبير قولا يثبت ذكاءه وفطنته وحضوره.

التزم قيس الصمت وأومأ برأسه مؤكدا صحة كلام الزبير.

فقال الزبير: صحيح أنني حزنت على صديقي المغيرة، وأنني دمرته، وحزنت أكثر على الطفلين اللذين أحبهما كما لو كانا ابنيّ وأكثر... ولكن ليس هذا السبب.

استغرب قيس وسأل متعجبا: ما هو، إذاً؟!

فأجاب الزبير: الشعور بالذنب... وهو أمر لا مثيل له. لقد فصلت الطفلين عن أبيهما دون ذنب له، أو لهما... هذا – لعمري – أسوأ شيء فعلته في حياتي... أسوأ حتى من قتلي للملك الهارب والملكة.

تنهد الزبير بشجن وأتبع: عندما فصلني الموت عن جدي – الذي كان أبي الحقيقي – وخطفه مني، كان ذلك أسوأ ما حدث في حياتي. ومرت الأيام والسنون، والآن أنا أفعل الشيء ذاته - الذي فعله الموت معي – مع طفلين لم يقترفا تجاهي أي خطأ أو ذنب، ومع أب لطالما كان خير صديق ومعين.

لم يجد قيس ما يقوله ليخفف عن الزبير، حتى قال: ولكن أنت لم تفعل ذلك وفق رغبتك، وإنما وفق رغبة حورية.

فقال الزبير فورا: حتى مع ذلك، كان لا بد وأن أرفض.

فقال قيس: الحياة لا بد فيها من التضحيات.

فرد الزبير: أتخبرني بهذا، يا قيس، وأنا من وضع هذه القاعدة أساسا؟!

ثم نظر في الأرض حزنا.

تلك اللحظة شكلت اللحظة الثالثة والأخيرة، في حياة الزبير كلها، التي شعر فيها قيس بضعفه. الأولى كانت بعد مقتل جده، والثانية بعد وفاة أخيه.

وقد أدرك قيس جيدا، في تلك اللحظة أن الزبير – رغم أنه ملك ويمتلك كل ما في الأرض، ويجب أن يكون أسعد الناس – بداخله حزن عميق لا مثيل لها، وما زال الطفل الفتي الحزين يعيش بداخله منذ مقتل جده. واستغرب قيس من الهشاشة التي أخفاها الزبير الذي دوما ما تظهر عليه

القسوة والشدة، ولكنه سرعان ما تذكر أنه حتى أقوى الوحوش، وأشرس السباع، لها قلوب تنبض وتحس وتشعر.

وبعد أن التقى الطفلان بأبيهما، جعل المغيرة يمشي مع زبيدة وحسن وحدهم في قلعة الشيمية المهجورة، حيث أحاطت بهم هنا وهناك الحجارة التي وقعت من بنيان القلعة، وانتشرت الرمال والأتربة في كل مكان، وشكلت القلعة مكانا أثريا جميلا يسر الناظرين.

سألهما المغيرة عن أحوالهما في قصر الكثبة ليطمئن عليهما، وسألهما ماذا يفعلان خلال أيامهما، وأكثر من إخبارهما بمدى حبه العظيم لهما وشوقه الجارف إليهما.

وأتت لحظة كان لا بد منها، فسأل: كيف يعاملكما الزبير؟

فأجابت زبيدة: أفضل معاملة.

فنظر المغيرة في الأرض حزنا؛ لأنه هو الذي يجب أن يكون معهما، لا رجل آخر لا يقرب لهما.

فقال حسن: أبي، الزبير يحبك... ويقول إنك صديقه.

غضب المغيرة؛ لأن الزبير آذاه أيما إيذاء، ورفض الكلام في الموضوع، وأكمل الحديث في موضوع آخر.

ورغم أنهما بقيا معه، منذ الصباح إلى المساء، تجنب المغيرة السؤال عن أمهما عمدا؛ فهو لا يطيق مجرد ذكر المرأة التي خانته ودمرت حياته.

وحل المساء، وحانت لحظة الفراق، وبينما علا السماء، شفق الشمس الغائبة، ودع المغيرة ابنيه وكلهم يجهشون في البكاء، على مرأى من الزبير الذي تمكن من رؤيتهم من خلال الضوء الخفيف للشمس الغاربة، فحزن حزنا عظيما من جديد.

وعاد الطفلان إلى الزبير، وحضن بعضهم بعضا، وقال الطفلان: شكرا، يا عم.

فرح الزبير كثيرا، ومنذ تلك اللحظة تعمقت علاقته كثيرا بالطفلين.

وسرعان ما أرجع مسعودا – الذي أكرم وفادته وضيافته – إلى أخيه المغيرة.

ومنذ ذلك اليوم صار الطفلان يلتقيان أباهما مرتين كل شهر، وفق هذه الظروف والشروط نفسها.

***

بعد أسبوع من سجنه لها، عاد الزبير إلى حورية، في السجن تحت الأرض، فسألها من سيدها، فشتمته مرة أخرى.

فأمر بإرسال طعام وشراب رديئي النوعية لها بدل الطعام والشراب الفاخرين اللذين أُرْسِلا لها في الأسبوع المنصرم. وعاد بعد أسبوع، فرفضت من جديد الإقرار بأنه سيدها.

فمنع الأكل نهائيا عنها وسمح لها بالماء فقط، وعاد بعد أسبوعين فرفضت الإقرار بأنه سيدها.

ومر أسبوع آخر من منع الطعام عنها، فنزل الزبير إليها ووضع إناء به حساء على الأرض قرب قضبان الزنزانة، وكان بداخله ملعقة. ظل الزبير واقفا بجوار الإناء، فاندفعت حورية بسرعة للشرب منه، فضربه الزبير بقدمه فانقلب الإناء، وسال الحساء على الأرض ولم تستطع الشرب.

فصرخت غاضبة: سأقتلك... سأقتلك... أبي سيقتلك... سوف أنتقم منك ولو طال الزمان، أيها الزبير... أنت لا تعرف مع من تتعامل.

ثم غادر الزبير، ومع كل لحظة لها في الزنزانة حقدت حورية أكثر وأكثر على زوجها وغضبت أكثر وأكثر.

غاب لأسبوع ثم عاد، وبحوزته صندوق خشبي صغير به ثقوب تسمح لما بداخله بالتنفس، فأخرج منه الزبير جرذا رماديا قذرا تشمئز منه الأنظار، ووضعه على الأرض، فطفقت حورية تصرخ كالمجنونة خوفا، وسرعان ما دخل الجرذ إلى داخل الزنزانة، وشرعت حورية تهرب هنا وهناك وهو يتبعها، وقد قرفت واشئمزت أقصى اشمئزاز، وجعلت تتحرك كالمجنونة. لقد فهم الزبير نفسية حورية؛ فهي المرأة التي اعتادت حياة أثرياء المدن في البيوت الفاخرة والقصور العامرة، ولم تعتد بؤس الفقراء، وما يعانونه، وذلك الجرذ القذر كان كفيلا بأن يقض مضجعها.

غاب ثم عاد بعد أسبوع، فوجدها جالسة القرفصاء في أحد أركان الزنزانة. وفجأة أتى أحدهم من الخارج وغطى النافذة الصغيرة أعلى الزنزانة بقطعة قماش خفيفة منعت الضوء عن الزنزانة تحت الأرض، بينما أبقى الزبير الباب الذي يؤدي للدرج مفتوحا حتى يدخل الهواء إلى الزنزانة؛ فهو بالنهاية لا يريد موت زوجته، فلو أراد ذلك لأمر بقتلها منذ زمن بعيد.

وبعد يومين وقف الزبير وزبيدة وحسن، بالقرب من النافذة الصغيرة في أعلى الزنزانة، وجعل الزبير يحادثهم، وطلب منهما رفع صوتيهما، ففعلا، فسمعتهما حورية في الزنزانة المظلمة، حيث الجرذ القذر.

إذ سأل الزبير: هل تحبان أمكما؟

فقالت زبيدة: نعم، نحبها.

وقال حسن: كثيرا... كثيرا.

فجن جنون المرأة التي كادت – خلال إقامتها الطويلة في الزنزانة – تتشقق شوقا لابنيها.

وجعلت تصرخ بأعلى صوتها: زبيدة... حسن.

فتردد صدى صوتها في تلك الزنزانة المظلمة القذرة تحت الأرض، دون مجيب.

بعد يومين نزل الزبير إلى الزنزانة المعتمة وهو يحمل شمعة مضيئة.

جلست حورية – في تلك الأثناء- في ركن الزنزانة حيث التقاء الحائط مع القضبان، فأسندت ظهرها للحائط.

جلس الزبير بجوارها من الجهة الثانية، خارج القضبان، وأسند ظهره للحائط، ثم وجه شمعته نحو وجهه، فرأته حورية، فسأل الزبير باستهزاء واستخفاف: هل اشتقت لي؟!

فصرخت حورية فجأة، وهمت تهاجم الزبير بيديها، إلا أنه قام بسرعة، وغادر الغرفة، وهي تصرخ: سأقتلك... سأقتلك، أيها الحقير...

ولما فشلت كل هذه الطرائق، منع الزبير الماء عن زوجته يومين، ثم نزل إليها ومعه شمعة مضيئة، وجهها بحثا عن حورية، فوجدها جالسة تسند ظهرها إلى الحائط، وهي تسند رأسها ويديها على ركبتيها المرفوعتين عن الأرض، وهي تخبئ رأسها بين كفيها.

أدرك الزبير أنها غدت محطمة نفسيا، وأن اللحظة حانت، فقال: من سيدك؟... قولي أنت.

رفعت رأسها وأغمضت عينيها ألما وذلا وانهزاما، وقالت وهي مغمضة العينين غارقة في الذل ملطخة به: أنت.

وأخيرا انتصر الزبير، وسرعان ما فتح الباب، وأمسك بها من يدها بنعومة، وساعدها على الوقوف.

فمد ذراعيه جانبا، ثم قال: أهلا بزوجتي من جديد.

ثم احتضنها بقوة، بينما ظلت مرخية ذراعيها على جانبي جسدها.

ثم تركها، وقال: أقسم لك، إنني لم أعتزم إذلالك... وإياكِ أن تظني أن الزبير يفعل ذلك مع زوجته... ولكن فقط أردت أن أعلمك كيف تحترمين زوجك، حتى تكوني من الزوجات الصالحات.

لم تستطع في تلك اللحظة أن تغضب أو أن تحقد أكثر عليه، رغم أنها أرادت ذلك من صميم قلبها؛ وذلك لأن نفسيتها كانت محطمة مكسورة.

ثم قال الزبير: الأولاد الصغار، عندما يقسو آباؤهم عليهم، يستاؤون من ذلك، لأنهم للأسف عقولهم قاصرة في تلك الأعمار. ولكن بعد سنوات عندما يكبرون ويتذكرون تلك المواقف يفرحون ويشكرون آباءهم؛ لأنهم يعلمون حينئذ أن ذلك كان لمصلحتهم... والأب الذي يحب أبناءه حبا حقيقيا هو الذي يقسو عليهم حين يخطئون... وأنت بعد سنين ستتذكرين كل هذا وستشكرينني.

لم ترد حورية ببنت شفة؛ فكل ما أرادته في تلك اللحظة هو الخروج من هذا الجحيم تحت الأرض، والذي وجدت فيه في أسابيع شقاء أنساها سعادة السنوات الطويلة قبل ذلك ورخاءها، حيث كانت الليلة في تلك الزنزانة القذرة بألف سنة.

لقد تميز الزبير بالقوة والذكاء والشدة، وتميز باحترام أعدائه وخصومه وعدم الاستخفاف بهم، وتميز بدراسة نفسيات كل منهم ونقاط ضعفه، ولعب على هذه النقاط. وهكذا لمعرفته بنفسية حورية؛ تمكن من تحطيمها وكسرها من الداخل.

خرجت حورية، وعادت إلى غرفتها، وسرعان ما حممتها الجواري، وسرعان ما تناولت الطعام والشراب اللذيذين الفاخرين، والأهم سرعان ما التقت ابنيها، فانفجرت بالبكاء، وكانت تلك أول مرة تبكي فيها أمام أحد في العالم. ثم رأت عكرمة الذي نظر إليها بحزن؛ لأنه فشل في حمايتها. ورأت جاريتها زمردة، التي احتضنت الملكة بحزن وشفقة، وجعلت تقول لها ما من شأنه أن يخفف عنها ويطمئنها.

***

بعد فترة وجيزة من احتجاز الزبير لزوجه؛ طفقت الإشاعات تنتشر خارج القصر، وفي شتى أنحاء البقاء بأن الزبير سجن حورية. لم يصدق كثير من الناس ذلك، فهل يعقل أن أقوى امرأة عرفتها البقاء عبر تاريخها، يتم إذلالها وإهانتها بل ومعاملتها معاملة المجرمين والمساجين.

وقد استشرت هذه الإشاعات حتى بلغت منيبا أبا حورية. فلما علم بذلك، توجه نحو قصر الكثبة لزيارة ابنته، وحينئذ كان الزبير قد أطلق سراحها.

دخل منيب على شرفة النسور السوداء، فوجد الملك الزبير والملكة حورية بانتظاره وهما يجلسان على كرسيي العرش.

"مرحبا بكما" قال منيب بغضب؛ بسبب ما سمعه من إشاعات.

فرد الزبير بهدوء وبرود: أهلا، بعمي... كيف حالك؟ وكيف حال عمتي وأبنائك؟

فتح منيب عينيه اللتين احمرتا، من شدة الغضب، وتجاهل الزبير، ونظر نحو ابنته، وقال: كيف حالك، يا حورية؟

ظلت حورية صامتة، وهي لم تنبس ببنت شفة من بداية اللقاء، رغم أنها اعتادت أن تكون المبادرة في الحديث سواء عندما كانت تسكن في بيت أبيها، أو بيت المغيرة. كما أنها منذ بداية اللقاء، وعكس ما عودت الناس عليه - من ابتسامتها المثيرة، وقسمات وجهها المغرية، وجلستها

التي تلهب أفئدة الرجال - في هذه المرة كانت تجلس بحزن مطأطئة رأسها تنظر إلى الأرض، وهي تشبك يديها إحداها بالأخرى، والحزن والذل باديان عليها.

لما رأى منيب كل هذا، انفجر صارخا: ما بالك؟!...

ثم نظر إلى الزبير، وقال بالأسلوب نفسه: ما بال ابنتي؟! ماذا فعلت بها؟!

"لم أفعل بها شيئا" قال الزبير، وأكمل: ابنتك بخير... بل بأفضل حال، هي ملكة البقاء بأكملها.

"ما بك، يا ابنتي؟!" سأل الأب الحزين بلهفة.

نظر الزبير- ببرود أعصاب وهدوء مستفزين لمنيب – إلى زوجته، وسأل: هل فعلت لك شيئا؟!... هيا أخبري والدك الحقيقة.

فصرخ الأب بغضب: أجيبي، يا حورية.

ظلت حورية صامتة، وعم الصمت في اللقاء زمنا كثيرا، وفجأة بخجل وبصوت خافت جدا، قالت حورية والحزن يعلو وجهها: لا.

ثم دمعت عيناها.

بعد أن رأى منيب كل هذا، صرخ مخاطبا الزبير: ماذا فعلت بابنتي؟! أين ذهبت حورية؟!

عندها وقف الزبير، وقال: سأترككما الآن وحدكما، فلا أحب التدخل بشؤونكم العائلية الخاصة.

كان كلامه مستفزا، ثم رحل – أيضا – رحيلا مستفزا، وظل منيب وابنته معا وحدهما.

حزن الأب حزنا كبيرا، وتأكد أن الإشاعات صحيحة. ابنته لطالما اتسمت بالقوة ولطالما دمرت كل خصومها، وكانت أقوى من الرجال، وهذا ما سعى إليه منيب منذ صغرها، واعتبره أكبر إنجاز في حياته. وحينئذ انهارت وأصبحت شيئا أو مخلوقا ضعيفا هشا.

توجه منيب إليها، واحتضنها، فأجهشت بالبكاء واحتضنته، وجعل يحاول تهدئتها وطمأنتها.

***

الفصل الثاني عشر

"يجب أن يُقتل"

((43))

مر ما يزيد على أحد عشر عاما على الانقلاب على الملك الهارب. خلالها عانى الكل في البقاء، وشعر الجميع بالحزن، حتى الملك ذو الندب المنتصر على جميع خصومه لم يسلم من كل هذا.

ففي عصر يوم من الأيام، توجه الزبير إلى حديقة كبيرة جميلة جدا في قصر الكثبة، مليئة بالورود بمختلف أنواعها وألوانها، وقد أشرف عليها منسق زهور هو الأفضل في البقاء كلها.

وجد الزبير بانتظاره زبيدة وحسن، ووجد طفلين: روان ذات الثماني سنوات وعامرا ذا الأربع سنوات، وقد اندفعوا جميعا عندما رأوه لتحيته، وتبادل الأحضان معهم واحدا واحدا. وروان وعامر هذان هما ابنا الزبير من صلبه أنجبتهما له حورية.

حورية تلك التي جلست وحيدة في الحديقة في ذلك اللقاء مكسورة وحزينة على كرسي ناءٍ، وهذا حالها دوما بعد ما فعله بها الزبير، فحول حياتها لعذاب مقيم وألم كل يوم بل كل لحظة، فدوما تذكرت ما فعله بها، لقد رغبت بالانتقام بكل قوة، لكنها في النهاية استسلمت كليا، وسلمت له جسدها ونفسها وأبناءها الأربعة وبات هو الآمر الناهي؛ فقد دمرها الزبير شر تدمير من الداخل وقضى على شخصيتها وكيانها.

وهكذا سلم الزبير على زبيدة وحسن بالحرارة نفسها التي سلم بها على روان وعامر؛ فهو لم يفرق بينهم مع أن الأخيرين من صلبه.

سألت روان: كيف حال أبي العزيز؟

"بخير، وكيف حال أجمل فتاة بالعالم" قال الزبير.

"بأتم حال" أجابت روان.

ثم حمل الزبير ابنه الصغير عامرا في حضنه وطفق يداعبه. وقد سماه على اسم أكثر شخص أحبه في شبابه، جده عامر. وبعد أن ولد عامر الثاني، أعلنه الزبير وليا للعهد لكامل مملكة البقاء.

وأمضى الزبير معظم وقته منذ ولادة روان ثم عامر، بمداعبتهما واللعب معهما والجلوس معهما.

لقد اتسم الطفلان بالجمال الشديد، الذي ورثا مظاهره من أمهما حورية، لكن نظرتهما الحادة وقوتهما وشراستهما ورثاها – بالتأكيد - من أبيهما الزبير.

ظهرت علامات الفرحة واضحة على محيا الزبير في عصر ذلك اليوم، لكن منظر الورود الجميل وألوانها المتعددة، وتظاهر الزبير بالسعادة، كل هذا لم ينسه كل تلك الأحزان وعلى رأسها فقدانه لحب حياته والامرأة الوحيدة التي أحبها في عمره، سمية. ففي كل ليلة منذ أهدته الخنجر، اختبأ الزبير في إحدى غرف القصر، وهو يمسك خنجرها ويقلبه وينظر إليه بتمعن وينظر إلى السماء – من الشرفة – ونجومها وقمرها، ويتذكر عندما يرى القمر وجه سمية وتفاصيله ونعومتها ورقتها وطيبتها وجمال شخصيتها، وفي كل ليلة تمنى لو أنه معها حتى لو كلفه هذا أن يتخلى عن كل شيء بما في ذلك المُلْكُ. وبعد أن فقد الأمل، ما انفك يتمنى أن يراها ولو مرة أخيرة في حياته. لكن الأمنيات شيء والواقع شيء آخر. ولكن في كل ليلة في جلسة العشق والهيام تلك، سرعان ما يشوب هذه الذكريات الجميلة العذبة، ذكرى إهانتها له وشتمها ولطمها له وبصقتها في وجهه، وكثيرا ما تلمس أجزاء وجهه حيث لطمته وبزقت عليه.

سمية هذه التي فكر بها الزبير طيلة الوقت، قضت السنوات الإحدى عشرة في عذاب وألم لم يعرف مثلهما أحد في تاريخ البقاء كله، وهي تتذكر زوجها وحبيبها أمينا، وكيف غدر به الزبير – على حد ظنها – رغم أن المعلن هو أن قطاع الطرق هم من قتلوا زوجها في الهيجاء. ما انفكت دوما تتمنى الانتقام ولطالما تحمست للبدء به، لكن – في كل مرة – سرعان ما وأدت الفكرة، حين تتذكر أن ذلك مستحيل؛ فهي لا تملك جيشا يهزم جيش الزبير ولا عيونا منتشرين في كل مكان كعيونه ولا مُلْكا كملكه. هي فقط تملك مبلغا هائلا من المال ورثته من أمين، والزبير يملك مالا كثيرا كذلك. وفق كل هذه الظروف، أنى لها أن تنتقم منه؟! كانت الواقعية دوما تقتل الحماسة والرغبة الجامحة في الانتقام داخلها.

لم تكن سمية الضحية الوحيدة، فأمراء الثورة كلهم ذاقوا من طعنات خنجر الزبير. فذلك الأمير ريان قضى السنوات الإحدى عشرة نفسها في ألم وحزن وغضب في القدماء، البعيدة جدا عن أرض ملكه الذي سُلِب منه في البقاء. فقد قضى هذه السنوات في قلة نوم وأرق وسهر، وقلة أكل حتى هزل جسمه الذي كان مفتول العضلات – ذات يوم –. وكان دوما حزينا، قليلا ما يحادث أحدا بما في ذلك زوجته وأبناؤه وصديقه عماد، وحتى سلطان القدماء الذي لطالما زاره وحاول التخفيف عنه.

وضحية أخرى هي المغيرة، الذي طعنه الزبير في عِرضه، وسلب منه أهم شيء في حياته، أبناءَه، رغم أن الزبير جعله يلتقيهما بين الحين والآخر، ولكن سرا دون علم حورية، حتى بعد أن كسر نفسيتها من الداخل؛ لأن الزبير لا يحب كسر كلمته. فظل المغيرة يسكر، وانتقل من حانة إلى أخرى، فلم يترك حانة في الفيحاء إلا وثمل فيها. وبات يأكل كثيرا وينام كثيرا، وغدا مع مرور الوقت أسمن وأسمن، وأمسى ضعيفا في القتال.

وضحية أخرى، رجل كان – يوما ما – ابن الزبير المقرب جدا منه، سليم الذي حبسه الزبير في قصره، فظل يئن ويتألم في حياة القيد والحبس اللذين سببا له العقد النفسية والآلام في صغره وهو حبيس تلك القرية النائية، فشكل ذلك كابوسا خلصه منه الزبير، لكنه سرعان ما أعاده إليه، فعاش متألما متحسرا.

كل هؤلاء، رغم آلامهم العظيمة وأدوا فكرة الانتقام من الزبير؛ فهم لا يملكون ما يملكه، وكلهم أدركوا أن الاقتصاص منه مستحيل، ورضوا بما حدث، إلى أن حدث بالنهاية أمر معين من قبل أكثر أمراء الثورة معاناة وحزنا وألما، والمفاجأة أن الانتقام أتى من الشخص الذي لن يتوقعه أحد، سمية!

***

سمية هي أكثر من عانى في تاريخ البقاء؛ فقد اتسمت بأنها حساسة جدا، وقد أحبت أمينا حبا هو أكبر حب عرفه تاريخ البقاء. لذا فاقت معاناتها معاناة الزبير وسائر أمراء الثورة، بل وفاقت معاناة الملك الهارب بعد ما حدث له في صغره ما حدث، عانت أكثر من كل امرأة مكلومة وكل امرأة أرملة وكل طفل أو طفلة تيتم، فاقت معاناتها معاناة كل من عانى من المرض أو الإعاقة أو العمى أو الصمم، فاقت معاناتها معاناة كل من فقد مالا أو حبيبا أو قريبا أو تعرض للغدر.

وفي النهاية، وبعد أحد عشر عاما مما حدث، أتت المرة التي لم تتمكن فيها الواقعية من قتل فكرة الانتقام والحماسة لها. فبنهاية المطاف، ماذا ستخسر؟! لقد خسرت كل شيء، إنها لم تعد تريد المال، حتى حياتها استعدت للتخلي عنها في سبيل الانتقام.

وقد غدا هدفها الأهم وذو الأولوية مقتل الزبير مهما كلف الأمر، مهما دُفِع من مال، مهما ضاعت من أرواح. لكنها علمت أن الزبير أقوى امرئ وأذكى امرئ وأدهى امرئ عرفته البقاء في تاريخها. لذلك وجب عليها أن تضع خطة كاملة لا يمكن لها الفشل.

إن أهم قاعدة للانتصار على عدو، هي معرفة مدى قوته ونقاطها ومدى دهائه وعدم الاستخفاف به. لذا ظلت شهورا كثيرة تفكر بالخطة وتضع خطواتها بالتفاصيل وبعناية حثيثة حتى وضعت أصغر التفاصيل وأتفهها، فلا مجال لأي خطإ مهما صغر.

وفي النهاية وصلت للخطة الكاملة، والمفاجأة أنها الخطة نفسها التي استخدمها الزبير للثورة وتحرير البقاء! نعم، فقد قررت أن تكون هي الزبير الجديد، وقررت أن تستخدم خطة مماثلة لخطته، باستخدام ملك هارب جديد ألا وهو الأمير ريان، واستخدام أقوى رجل في البقاء ألا وهو المغيرة، والرجل ذي الشعبية الكبرى في البقاء ألا وهو سليم، والمرء ذي المال الأكثر في البقاء، ألا وهو سمية نفسها!

***

بعد أن أحكمت سمية كل تفاصيل الخطة وخطواتها، بدأت فورا بتنفيذها.

تمثلت أولى خطوات الزبير الجديد – سمية - بلقاء الملك الهارب الجديد، الأمير ريان. فاتجهت على متن سفينة صغيرة إلى القدماء، وسافرت ما يزيد على ثلاثة شهور، حتى وصلت مدينة الزهرة البيضاء عاصمة القدماء. ورغم شدة التعب والإنهاك، توجهت فورا لقصر السلطان زاهي، وطلبت لقاء الأمير ريان. لقد تمتعت الزهرة البيضاء بجمال الطبيعة الخلاب الذي عانقه جمال العمران الساحر، إلا أن كل ذلك لم يجذب انتباه المرأة الجميلة، التي أعمى عينيها الرغبة الجامحة في الانتقام.

ولما علم الأمير ريان بمقدمها، تفاجأ كثيرا، وظن أنها مجرد زيارة عادية بين صديقين.

دخلت سمية على غرفة في قصر السلطان زاهي، فوجدت الأمير ريانا جالسا وهو حزين يائس مرخي الجسد على كرسي أمامه طاولة صغيرة وبجواره كرسيان آخران، وقد تميز كل الأثاث في الغرفة - وحتى الغرفة نفسها - بكونهم فاخرين ثميني التكلفة. حيته سمية فبادلها التحية، وسرعان ما وقف، وبرقي الأمراء والدماء الملكية سحب أحد الكراسي ودعاها للجلوس، فجلست، ثم جلس الأمير.

طفقا يتحدثان، حتى قالت سمية: سمو الأمير، ليس هنالك وقت كاف لأضيعه، أريد أن أخبرك بما أتيت من أجله.

"تفضلي" قال الأمير بحزن وهدوء، وساءها وأحزنها هذا، إضافة للاكتئاب والاستسلام والاعتراف بالهزيمة الذين رأتهم على الأمير، الذي لطالما اعتادت – هي وغيرها – القوة والحماسة منه.

فردت الأميرة: لدي خطة للانتقام من الزبير، وتحرير البقاء من رجسه، وإعادة ملكك لك.

لم يتحمس الأمير كثيرا، رغم أن ما ذكرته هو ما يتوق إليه، ووحده الكفيل بتخليصه مما هو فيه، لكنه أيقن باستحالة هزيمة الزبير، وإن كان ذلك ممكنا، فلن يكون من خلال خطة تضعها امرأة ما اعتادت طيلة حياتها سوى الرفاه والقصور ولون الذهب.

ولما لاحظت سمية ذلك، أصرت: أرجوك، استمع ثم احكم.

تنهد الأمير، ثم طفقت سمية تشرح خطوات الخطة، وأمضت وقتا طويلا في ذلك، وختمت كلامها: ... والأهم في هذا كله أن الزبير يجب أن يقتل.

ظلت علامات الحزن والاكتئاب بادية على الأمير، وقال بهدوء: ولكنها خطة صعبة جدا، وفرص نجاحها ضئيلة!

فقالت فورا: ماذا سنخسر إن فشلنا؟! أموالنا؟! حتى حياتنا رخيصة في سبيل الانتقام... هذا أفضل من الجحيم الذي نحن جميعا فيه.

أذهل الأمير من كلامها الأخير، وفجأة بدأ يتفكر بجدية في خطتها، وغير جلسته، واعتدل وجلس جلسة جدية، ومط شفتيه وقطب حاجبيه، وطفق يتفكر في تفاصيل الخطة فألفاها محكمة، ومع مرور الوقت لمعت الفكرة أكثر وأكثر في عقله.

"نعم، معك حق" قال، وأكمل: ليس لدينا شيء نخسره... وربما ننتصر، وحتى لو خسرنا، على الأقل نكون قد نغصنا على الوغد حياته.

فقالت فورا: أهم شيء، الزبير يجب أن يقتل. هذا أهم من أن تعود ملكا، أهم من أن أنتقم لزوجي، أهم من استعادة المغيرة أبناءه والانتقام لعرضه، أهم من استعادة سليم حريته.

فأومأ الأمير برأسه مبديا تفهمه وموافقته.

بعدها توجه الأمير وسمية للقاء سلطان القدماء السلطان زاهي، بناء على طلبها.

عرف الأمير ريان السلطان على سمية، وأعجب السلطان برقيها وجمال منظرها ولباسها وثقتها بنفسها.

أراد السلطان أن يعزم الاثنين على وليمة تليق بالأمير وسمية، إلا أن الأخيرة رفضت، وأخبرته أنها تريد إعلامه بأمر هام، وأنها لا تملك وقتا كثيرا.

ثم أخبرته بخطتها، والتي كان السلطان زاهي وجيشه جزءا منها.

أعجب السلطان زاهي بتفاصيل الخطة ودقة إحكامها، ولم يتوقع أن يأتي كل هذا من امرأة يعلم أنها أمضت حياتها في القصور ووسط الذهب، بعيدا عن وطيس المعارك والحروب، على الأقل نساء القدماء - اللاتي يعرفهن جيدا – ليس بمقدورهن الإتيان بمثل هذه الخطة.

تفكر السلطان وهو يجلس على كرسي العرش، ثم قال: ولكن لِمَ أخاطر؟! الزبير رجل قوي جدا، ومملكتي بعيدة جدا عن البقاء، ولا مصالح لي بها... أنا موقن أنكم أهل الحق، وأنه على طرف الباطل، وأن العدل والصحيح هما نصرتكما... وأنا ملك كريم ذو مروءة يرفض عدم إجارة المظلوم بل ويسعى لدعمه... لكنّ الحياة شيء مختلف بعيدا عن هذه المثاليات... لم أخاطر بشعبي ومملكتي والاستقرار والترف اللذين نعيش بهما؟! أنا آسف، لا أستطيع الموافقة.

وقفت سمية فورا من جلستها، والغضب والحقد والإصرار على قتل الزبير كلهم يشعون منها، وقالت مخاطبة السلطان: تخاطر لأن لك نصف أموالي – إن فعلت – ولا يمكنك أن تتصور كم من الأموال أملك... ولك نصف خزينة البقاء بعد انتصارنا على الزبير، إضافة لضريبة باهظة تدفعها البقاء كل سنة لخزينة القدماء لمدة عشرين عاما كاملة... وأضف إلى هذا كله، أنه بعد الانتصار سأعطيك ما يتبقى من أموالي ولم أنفقه على الثورة...

جعلت سمية تتحرك في القاعة الكبيرة، وتذهب وتجيء وتقترب كل فترة من السلطان، وهي تلوح بيديها بينما تبين النقاط التي تريد قولها، وهذا هو حالها طيلة كلامها.

وأكملت: وأنت حتى لو شاركت وخسرنا، فلن تخسر شيئا كثيرا؛ لأن عنصر المفاجأة بجانبك، وقواتك أمهر في القتال البحري بكثير من قوات الزبير. وبعد أن تدك قواتك البحرية الزبير، لن أطلب منك أكثر من ذلك، ولن أطلب منك أن تصاحبنا في الحرب البرية، التي سنتكفل بها وحدنا... عندها ستعود وقواتك إلى القدماء سالمين معافين. وحتى لو خسرنا الحرب البرية، فسنكون قد أنهكنا الزبير ولن يتفرغ للانتقام منك؛ لأنه سيكون ضعيفا جدا، وأولويته فرض الاستقرار داخل البقاء... وهذا أصلا لن يحدث؛ لأن انتصارنا مضمون.

تفكر السلطان بعمق، وتفاجأ من قدرتها على الإقناع، ومن قوة حجتها، ولم يكن وحده المتفاجئ؛ فقد تفاجأ الأمير ريان كذلك؛ فرغم معرفته بها منذ سنوات، لم يعرف أنها تملك كل هذا في طيات نفسها وعقلها.

وبعد مدة قال السلطان: موافق.

فظهرت الفرحة واضحة على سمية، التي لم يشهد السلطان في حياته كلها، شخصا حاقدا أو راغبا بالانتقام مثلها.

***

حان موعد الخطوة الثانية في خطة "الزبير الجديد". فبعد أن ضمنت سمية الشرعية، بموافقة الأمير ريان على الخطة، عادت على الفور – إلى البقاء - ودون راحة، رغم شدة الإنهاك والتعب اللذين عانت منهما في طريقه إلى القدماء. فتوجهت إلى الفيحاء للقاء المغيرة.

وبعدما علم بقدومها لزيارته، سرعان ما استقبلها في غرفة ضيوف داره.

تبادل الاثنان التحية، وطفقا يتحادثان.

استلقى المغيرة متعبا منهكا على أحد الكراسي، وقد ظهر عليه التراخي في جلسته وعدم التركيز.

ساء سمية ما رأته من سمنة مفرطة للرجل الذي كان يوما ما مفتول العضلات قوي البنية، كما ساءها ما بدا عليه من تعب وخمول وكسل وتراخي، كل هذا أكد لها ما سمعته من أنه أصبح سكيرا.

وبعد مدة قالت: أريد أن أخبرك بأمر جلل.

لم يبدُ أي تغير واضح على المغيرة، لا في جلسته ولا في انتباهه لسمية.

وشرعت تخبره بالخطة، حتى انتهت منها.

ثم قال: مستحيل لهذه الخطة أن تنجح.

فقالت: هل ستصر على رأيك، إن أخبرتك أنني حصلت على موافقة الأمير ريان، وسلطان القدماء زاهي؟!

اعتدل المغيرة في جلسته، بينما أكملت: ماذا ستخسر لو حاولت؟! حياتك؟! مالك؟!... في مقابل استعادة أولادك والانتقام لعرضك.

لمعت الخطة في عقله، وطفق يتفكر بتمعن في تفاصيلها وخطواتها فوجدها متقنة دقيقة، وأعجب بمدى ذكاء سمية.

وبعد تفكر قال: أنا موافق.

ابتسمت المرأة التي ما عرفت سوى الحزن لما يزيد على عقد، ثم اختفت الابتسامة وحل محلها الوجوم، وهي تقول: ولكن تذكر جيدا، أهم من أولادك، ومن الانتقام لعرضك... أهم من كل شيء... الزبير يجب أن يقتل.

أومأ برأسه مبديا موافقته على كلامها وتفهمه له. ومنذ تلك اللحظة، توقف المغيرة عن شرب الخمور؛ حتى يتمكن من استعادة قوته والتركيز والمساعدة بالانتقام من الزبير.

***

الخطوة التالية في خطة الزبير الجديد، تمثلت في إقناع سليم بالموافقة عليها. توجهت سمية إلى قصر سليم، وهناك طلبت لقاء الشاب الذي كان قيد الإقامة الجبرية.

التقى الاثنان في إحدى غرف القصر. تبادلا التحايا، وتحادثا. مسبقا، كانت سمية تشعر بالشفقة على سليم الشاب المهزوز الضعيف، ولما رأته هذه المرة حزنت أكثر وأكثر؛ لأنها لاحظت مدى الحزن الذي يعيش فيه بعدما فعله الزبير به.

اصطحبت معها الكثير من الهدايا واللباس لسليم، لأنها لم ترد لرجالات الزبير في القصر أن يشكوا بسبب مقدمها إلى سليم!

منحته كل هذه الهدايا واللباس وبعد مدة طويلة وبينما هما في ركن في القصر، همست بصوت خفيض: أنصت إلي جيدا، يا سليم، أريد إخبارك بأمر هام جدا. لا تخبر به أي أحد على الإطلاق.

بعدها أخبرته بالخطة بالتفصيل.

فرد سليم بصوته الناعم هامسا: لا يمكنني أن أشارك في شيء كهذا... الزبير أبي.

فردت فورا هامسة: أي أب يفعل بابنه مثل ما فعله الزبير بك؟! يحبسك أحد عشر عاما! هل تعرف ما معنى أحد عشر عاما... والله حتى الأسود والوحوش تحرص على إسعاد أبنائها... من باعك بعه، ومن هنت عليه فليهن عليك... فكر بنفسك بأهلك وبأمك المكسينة وبأخواتك... فكر بكل الذين آذاهم الزبير، بكل من سيفرحون بالتخلص منه... فكر بعمق.

توتر سليم، وبدا القلق ظاهرا عليه، وشرع يتفكر بعمق بكلامها، وفي النهاية وجده مقنعا، فقال وهو مطأطئ رأسه وعلى امتعاض: موافق.

ففرحت، ثم قالت هامسة: ولكن تذكر... أهم شيء، يجب أن يقتل الزبير، أهم من انتقامك وحريتك وحرية أهلك.

فحزن سليم كثيرا، ولكنه قرر أن يتخذ أكبر قرار اتخذه في حياته كلها قبل هذه اللحظة وبعدها، وأغمض عينيه وأومأ موافقا بحزن بالغ، وعزى نفسه أنه ليس هو من سيقتل الزبير بيديه، وسواء شارك أم لم يشارك في الخطة فهي ستنفذ.

وسرعان ما أخبر سليم أمه بخطة سمية، وبأنه سيشارك فيها.

"إياك، يا بني" قالت سوسن، وأضافت: التهور والاندفاع هما اللذان أخذا بوالدك إلى الهاوية.

فرد سليم: لا، يا أمي... الأمر الآن مختلف، أنا الآن في الجانب الأقوى. أما أبي فوقف في الجانب الأضعف.

فقالت أمه: ولكن الزبير رجل خطير جدا... مخيف جدا... لم تعرف البقاء له مثيلا طيلة تاريخها، إياك أن تتحداه.

فأجاب: بل سأتحداه... هل تريدين أن أمضي بقية عمري مسجونا هنا؟!

فردت: هذا أفضل بكثير مما قد يحدث لك، وأفضل بكثير مما عشناه في القرية النائية... أرجوك، يا بني، التزم الحياد في هذا الأمر، على الأقل.

"لا، لن أفعل" رد سليم فورا، وأضاف: أمي، أنا الآن رجل قوي، ولست ذلك الطفل الضعيف الذي لطالما أمليتِ عليه ما يجب فعله.

فسكتت سوسن، وقد أنشأت تدعو الله أن يخرج ابنها سالما مما سيحدث.

***

وهكذا اكتملت أركان خطة "الزبير الجديد"، فقد اجتمع لسمية الشرعية والقوة والشعبية والمال، ولم يتبقَ سوى التنفيذ. قامت الخطة على افتعال حرب في شمال البقاء، باتفاق سمية مع شيخ عدد من القبائل هناك. إذ وقع معسكر لجيش الزبير بالقرب من تلك القبائل، إضافة لتمركز مجوعة أخرى قليلة العدد على الحدود الشمالية للبقاء، لعدم وجود أي مملكة أو دولة قريبة منها شمالا.

عندما أحكمت سمية وضع خطتها، قررت أن الضربة يجب أن تبدأ من الشمال، لأنه الأقرب إلى القدماء، التي بنت خطتها على قدوم المساعدات منها. ولذلك درست مناطق الشمال بأكملها، مدنها وقراها وقبائلها، وأيها الأكثر كرها للزبير. فلم تجد خيرا من منطقة التميرية، فشيخ شيوخ هذه القبائل غنيم، ذاع وانتشر في كل البقاء، استياؤه من الزبير ومن الضرائب الباهظة التي فرضها على الشعب. بالطبع الزبير علم باستياء الشيخ وكلامه الكثير، لكنه آثر عدم الاصطدام بقبائل تلك المنطقة؛ لأنه سيخسر بالحرب معها أكثر مما سيكسب، خاصة أن الأمور لم تخرج عن نطاق الاحتجاج الكلامي إلى الأفعال التي قد تهدد ملكه أو الاستقرار في مملكته.

لهذا توجهت سمية إلى الشيخ غنيم وأخبرته بخطتها، ولأنها تعلم أن أفضل وسيلة لإغراء أي إنسان في البسيطة هو لون الذهب، فقد عرضت عليه عُشْرَ ثروتها – التي ورثتها من أمين – مقابل موافقته، فوافق الرجل فورا، لا سيما أنه اقتنع بخطتها ومدى إحكام خطواتها وتفاصيلها، وأنها ستنجح لا محالة، وستنتهي بقطف رأس الزبير، وعندها لن يسعى الأخير للانتقام منه.

وقد وقعت منطقة التميرية بالقرب من الساحل الشمالي للبقاء على البحر الرمادي الذي تقع على ضفته الشمالية البعيدة جدا القدماء، وكأي حد من حدود البقاء، تمركز حراس الحدود هناك، لكنهم تمركزوا بأعداد قليلة جدا، مقارنة مع أعداد الجنود على الحدود الشرقية مع ياقوتة والغربية مع الهيجاء، وذلك لأن الزبير استبعد أي حرب على الجهة الشمالية، لأنه كان في حالة سلم مع القدماء – البعيدة جدا أصلا عن البقاء – وسائر الجزر الموجودة في بحر الرمادي، والتي على الرغم من كثرتها كانت ضعيفة، لا طاقة لها بمقاتلة الزبير.

لذلك هاجمت قوات قبائل التميرية بقيادة الشيخ غنيم القوات الحدودية القريبة منها على الساحل الشمالي، ولأن عدد قوات القبائل أكبر بكثير، تمكنت من قتل كل الجنود. وقد تأكدت سمية أن الزبير سيرسل قوات المعسكر القريب من قبائل التميرية، لتأديب الشيخ غنيم بعد ما فعله.

وبالفعل صدق توقع سمية، فقد أرسل الزبير نصف قواته في المعسكر الشرقي للقضاء على قبائل التميرية، لكن القوات تفاجأت بعدد هائل من المقاتلين فاقها بأربعة أضعاف تمثل بقوات الشيخ إضافة لقوات الأمير إضافة لقوات القدماء! اندلعت معركة بين الطرفين، أجهزت فيها قوات الأمير وحلفائه على قوات الزبير، فما كان من جل قوات الزبير سوى محاولة الهرب، لكن قوات الأمير وحلفائه تبعتهم حتى أجهزت على معظمهم. ثم توجهت قوات الأمير وحلفائه إلى معسكر جيش

الزبير الشرقي – والذي يبعد عن منطقة التميرية مسيرة نصف يوم – فأجهزت على كل من هناك دون رحمة أو رأفة.

فقبل ستة أشهر من بدء تنفيذ الخطة، بدأ المؤيدون المضمون وفاؤهم للأمير ريان بالتجمع في جبال اليبس.

فبعد أن أعلمته سمية بخطتها، أرسل الأمير إلى أقرب رجاله الأوفياء والذين كانوا قد تبقوا في البقاء، بالتجمع في جبال اليبس، وتجميع بقية الموالين له هناك. وأصلا قبل أن تتوجه سمية إلى القدماء للقاء الأمير ريان، توجهت إلى جبال اليبس، وما أحاط بها من قرى ومناطق، فوجدت أن الزبير لم يضع رجاله هناك. فأي امرئ مهما بلغ ذكاؤه وحرصه، لا بد وأن يزل ويخطئ والزبير ليس استثناء، فقد ظن أن الأمور انتهت خلال أحد عشر عاما، وأن آل الضياغم لا عودة لهم. وبعد أن اطمأنت سمية لعدم وجود قوات للزبير، بنت خطتها على تجمع الموالين للأمير هناك، وهو ما حدث خلال خمسة أشهر، نظموا خلالها أنفسهم وتدربوا وتجهزوا للقتال. وقبل هجمة الشيخ غنيم على القوات الحدودية بشهر، بدأت القوات الموالية للأمير تتوجه بجماعات قليلة العدد كل فترة إلى منطقة التميرية، حتى لا يلاحظ عيون الزبير وداهية الكثبة ذلك، وقد نجحت القوات الكثيرة أخيرا بالتجمع في التميرية، لا سيما مع تكتم أهل القبائل المطبق على قدوم القوات إليهم، وفي النهاية هاجمت قوات الأمير مع أفراد قبائل التميرية القوات الحدودية.

وقبل ستة أشهر، وبناء على توصيات سمية وخطتها، اتفق سلطان القدماء زاهي مع جزيرة قريبة من البقاء - مسيرة أسبوع بالسفر عبر البحر-على افتعال حرب بينهما. فادعى سلطان القدماء أنه سيفسخ معاهدة السلم مع جزيرة الرهفاء القريبة من البقاء؛ لأن سلطانها الذي كان خاضعا لزاهي رفض أن يدفع الضريبة الجديدة الباهظة التي فرضها عليه السلطان. فوجه السلطان عددا هائلا من السفن ضم عددا كبيرا من المقاتلين إلى الجزيرة لاحتلالها. كل هذا هَدَف إلى أن لا تشك عيون الزبير وداهية الكثبة، بأن حركة السفن هدفها الحقيقي هو الهجوم على البقاء لا الرهفاء. وبالفعل انطلت الخدعة على داهية الكثبة والزبير، وصدقوا أن هنالك حربا بين القدماء والرهفاء. وصلت السفن إلى الرهفاء وتمركزت هناك. وقبل أسبوع من مهاجمة قبائل التميرية وقوات الأمير ريان للقوات الحدودية، أبحرت كل السفن باتجاه البقاء، وبعد أس وصلت فوجدت الساحل مفرغا من قوات الزبير، ووجدوا الشيخ غنيم وقواته وقوات الأمير بانتظارهم. وقد كان على متن السفن الواصلة السلطان زاهي والأمير ريان بنفسيهما! لقد تميزت قوات القدماء، بالخبرة الهائلة في الحروب البحرية، وذلك لأنها خاضت على مدى السنين حروبا بحرية كثيرة، لذا امتلك سلطان القدماء أساطيل ضخمة من السفن المتطورة، الذين أجاد جنودها الإبحار بسرعة وبإتقان عبر البحار.

***

لم تكن كل هذه المفاجآت المهولة كافية، فقد وجدت مفاجأة أخرى لا تقل حجما، ففي اليوم نفسه - وبناء على اتفاق مسبق – بدأت انتفاضة عارمة في جل مدن البقاء وقراها ومناطقها، وقاتل الثوار جنود الزبير في هذه المناطق وقتلوا معظمهم وأسروا عددا لا بأس به، في حين لاذ عدد من

الجنود بالفرار. وهكذا سيطر الثوار على جل المدن والمناطق. ومن بين المدن المنتفضة، كانت الفيحاء، فقد قاد المغيرة ثورة عارمة حرر بها المدينة من سلطة الزبير، وقد أبدع المغيرة في القتال، رغم سمنته المفرطة وكرشه البارزة؛ وذلك لأن لمسة الفارس المقاتل الماهر لم تختف داخله. ففي الستة أشهر التي سبقت هذا اليوم الموعود، قامت دعوة سرية للثورة في المدن والمناطق الأكثر نفورا من الزبير وكرها له، والأكثر ولاء لآل الضياغم. وقد صبرت سمية طيلة هذه الأشهر الكثيرة، لأن غاية سامية – وفق نظرها – صعبة جدا وقد تكون مستحيلة في نظر الكثيرين، وتحتاج للصبر طيلة هذه المدة، وماذا ستخسر إن صبرت ستة أشهر بعد أن صبرت أحد عشر عاما؟!

بعد كل هذا خسر الزبير ما يقرب من ثلث مقاتليه، لكن وُجِدَت هنالك مفاجأة أخيرة، فقد بدأت الانقلابات والانشقاقات في جيش الزبير، وبدأ قتل العمداء وسائر الرتب الكبيرة وحتى الصغيرة الموالية للزبير في الجيش. فكما وُجدت هنالك دعوة سرية للثورة في المدن، وُجد هنالك دعوة سرية للانقلابات والانشقاقات في الجيش، وهذه الدعوات كلها أنجزها رجال الأمير ريان، بناء على توصيات سمية.

بالمحصلة خسر الزبير نصف جيشه في يوم واحد! وكل هذا بسبب خطة "الزبير الجديد"؛ سمية التي استخدمت خطة تشبه كثيرا خطة الزبير قبل أعوام كثيرة حين حرر البقاء. أي شخص في البقاء، لو أخبره أحدهم في ذلك اليوم، أن كل هذا من تخطيط امرأة، فبالتأكيد سيتهمه بالجنون، ولو أخبره بهوية تلك المرأة، وأنها ليست امرأة قوية شرسة – كحورية مثلا في شبابها – بل هي امرأة مسالمة جدا لا تفقه شيئا في المكائد والحروب، لزاد اتهامه له بالجنون أضعافا. حتى سمية نفسها، لو أخبرها أحدهم قبل أحد عشر عاما أنها ستفعل كل هذا، لوصفته بالجنون. ولكن، الحياة لطالما علمتنا أن بداخل كل منا قوة هائلة وعزيمة حديدية وقدرات لا يعلم عنها، وأن القدر عندما يقسو، والظروف عندما تضع المرء على المحك وتدفعه إلى حافة الهاوية، فإنها تخرج كل هذا من جوف المرء. وهذا ما حدث، فقد حول القدر سمية، من امرأة مسالمة هادئة بسيطة، إلى وحش كاسر، وإلى داهية تشع ذكاء. وقد أغرقت بدهائها، الزبير البحار الماهر والمخضرم في بحر الذكاء والدهاء والقوة في يوم واحد!

***

بعد أن انتهى كل شيء، كان الملك ذو الندب نائما في غرفته في قصر الكثبة، وكان الوقت في بداية مغرب شمس ذلك اليوم. أتى حاجب القصر فطرق على باب غرفة الزبير فتجاهله الأخير، انتظر مدة ثم عاود الطرق، فقال الزبير متذمرا بصوت عال: من هناك؟ ماذا تريد الآن؟!

فقال الحاجب: أنا حاجب القصر، يا مولاي... أريد أن أنبئك بأمر هام.

فوبخه الزبير بصوت عال ونبرة جافة: انصرف الآن، أريد أن أنام.

غاب حاجب القصر لمدة ثم عاد إلى الزبير ليوقظه، فطرق الباب.

"هل عدت من جديد؟!" صرخ الزبير، وأكمل موبخا بعنف: انصرف، ما الذي سيكون قد حدث؟!

مرت مدة، حتى عاد أحدهم، وطرق الباب، وقال: مولاي، هنالك أمر جلل.

كان هذا صوت يعرفه الزبير جيدا، رغم أنه نادرا ما يسمعه، هو صوت بيدق أهم النسور السوداء، وقائد فرقة الزنوج، الذي نادرا جدا ما تحدث.

فلما سمعه الزبير، أيقن بالفعل أن هنالك أمرا جللا قد حدث، وتفاجأ، وقال: بيدق!

نهض الزبير مسرعا من فراشه، وفتح الباب، فوجد حارسه الأمين بيدقا، ويقف خلفه حاجب القصر المُوَبّخ مطأطئ الرأس خَجِلا. وكان الشيب قد التهم كل رأس بيدق ولحيته وشاربه، والأمر مماثل لهلال والأقرط، فقد شاب الرجال.

فسأل الزبير حارسه الأمين: ماذا هنالك؟!

حتى بيدق المقرب جدا من الزبير، لدرجة أن الأخير ائتمنه على حياته، خشي إخبار الزبير بما حدث، فقال: مولاي، قيس والداهية وعدد من قادة الجيش والعيون ينتظرونك في القاعة الذهبية، ويريدون إعلامك بأمر ما.

والقاعة الذهبية هذه، قاعة كبيرة خصصت من أيام ملوك الضياغم، لمناقشة الحروب والحالات الطارئة والتخطيط لها.

اندفع الزبيرمسرعا نحو القاعة الذهبية، ودخلها، فوجد جمعا ضم قيسا قائد الجيش، والداهية قائد فرقة العيون، وعددا من كبار قادة الجيش وفرقة العيون، والنسرين الأسودين الآخرين هلالا والأقرط، وأمامهم طاولة عليها حجارة ملونة بألون مختلفة فوق خريطة البقاء، وكل لون منها رمز لجيش أو قوة معينة. وخلف الزبير وقف بيدق.

فلما رأى الزبير كل هذا، أيقن أن هنالك أمرا جللا بالفعل، وأن هذا الأمر الذي حدث يهدد ملكه.

فتح الزبير عينيه على أقصى اتساعهما، وتنفس بغضب وبسرعة، لكأن ألسنة النار انبعثت من منخريه، مما زرع الرعب في قلوب كل الحاضرين بمن فيهم قيس والداهية والنسور السوداء، رغم أن هؤلاء جميعا، حتى الموت والحروب بالنسبة لهم أمور تافهة هينة لا قيمة لها.

مرت مدة من الصمت في القاعة، حتى قال الزبير بهدوء وغضب وبنبرة جافة: ما الذي حدث؟!

سكت الجميع بمن فيهم قيس والداهية.

فصرخ الزبير هائجا: ما الذي حدث؟!

بنهاية المطاف، وبعد صمت طويل، لم يجد قيس بدا من إخبار الزبير بما حدث، لا سيما أنه صاحب أعلى رتبة من بين الحاضرين بعد الزبير، فقال: أمراء الثورة، خططوا لانقلاب وثورة جديدة، بمساعدة ملك القدماء، ودمروا معسكرنا الشرقي، وقتلوا معظم جنوده، وحدثت انتفاضات

في مدن كثيرة سيطر الثوار عليها، كما حدثت انقلابات بالجيش بأعداد كبيرة، وقتل عدد هائل من كبار القادة المؤيدين لك، وعدد كبير من كل من رفض هذا الانقلاب وهذه الثورة... بالمحصلة خسرنا نصف قواتنا...

صمت قيس لمدة ثم أكمل: أو أكثر.

وبسرعة قال الداهية: عيوني في كل مكان، بما في ذلك القدماء، لكن غَدْرَ ملكها، وإحكام خطتهم بالتفصيل أنجحها.

وازدرد الداهية ريقه خوفا وخشية.

لقد علم قيس والداهية أن بركانا سينفجر الآن لم يشهدا له مثيلا في حياتهما، هما أصلا أرسلا بيدقا لإيقاظ الزبير؛ لأنهما خشيا من ردة فعل الأخير.

الغريب أن الزبير في تلك اللحظات التزم الصمت، ونظر بهدوء إليهما، وتباطأت أنفاسه. عندها بدأ الخوف – وبسرعة – ينمو أكثر وأكثر فيهما؛ فلو صرخ فورا لانتهى الأمر، لكنهما علما عندئذ أنه سيحدث شيء لم يشهدا عُشْرَه في حياتهما كلها.

مضت مدة طويلة على هذا الحال. لم يرمش الزبير طيلة هذه المدة على الإطلاق! وشرع قيس والداهية يرتجفان، وتسارعت دقات قلبيهما وأنفاسهما، وأنشآ يزدردا ريقهما.

وفجأة اتسعت عيناه، وأحكم قبضتي كفيه، وبدأت شفتاه تتحركان حركات غريبة من شدة الغضب، ثم صرخ صرخة هي الأقوى في تاريخ قيس والداهية وسائر الحاضرين، وهو يلوح بيده وذراعه اليمنيين: غنم، بقر، بعير.

ثم هجم بسرعة على الطاولة، ورمى كل ما عليها على الأرض، ثم قلب الطاولة رأسا على عقب، وطفق يدوس عليها وعلى الحجارة التي كانت عليها، وحتى على خريطة البقاء – المقدسة لدى الزبير وجميع أهلها – التي كانت عليها. فشرع يتحرك بالغرفة بجنون وعشوائية، وهو يلوح بذراعيه، ويصرخ: غنم... بقر... بعير... من معي همج بهائم... أضاعوا ملكي.

في هذه الأثناء كلها كان قيس والداهية قد تحركوا مبتعدين عن الزبير وهو يهيج كوحش في الغرفة، وباقي الحاضرين فعلوا الشيء نفسه، كلما اقترب الزبير منهم.

بعدها وقف الزبير ونظر إلى قيس والداهية، فخافا أشد خوف في حياة كل منهما؛ إذ لم يسبق للزبير توبيخ أي منهما طيلة حياتهما.

تراجع الاثنان للخلف خشيةً، وبينما نظر إلى قيس، قال الزبير: أنت قائد جيش؟!... أنت لا تصلح لقيادة قطيع من الجمال.

وفورا نظر إلى الداهية، وقال: وأنت... داهية الكثبة؟! أنت داهية الفشل والعار والهزيمة.

ثم صرخ بقوة: تبا لكم!... تبا لكم جميعا!

ثم صرخ والعروق نافرة في عنقه: انصرفوا جميعا فورا... لا أريد أن أرى أيا منكم.

بقي الجميع واقفين، ليس عصيانا لأمره، وإنما من هول الزلزال الذي رأوه ومن شدة الصدمة.

فصرخ بجنون: انصرفوا جميعا... لا يعودن أحد منكم إلا عند مشرق الشمس.

من الطبيعي، ما شعر به – في تلك اللحظات – قيس والداهية من الحزن والمهانة والإذلال. والسبب الرئيس لحزنهما لم يكن التوبيخ أمام كل هؤلاء من قبل الزبير، وإنما لأنه حبيبهما وأنهما بالفعل شعرا بالذنب؛ لأنهما بالفعل شعرا أنهما أضاعا ملكه.

فرحلوا جميعا، الزبير في تلك اللحظات كادت عيناه تخرج من رأسه، وشعر بدوخة وأنه سيقع من شدة الغضب. جلس على كرسي المُلك المخصص له في الغرفة. تسارعت أنفاسه ودقات قلبه، واستمر شعوره بالدوخة، وفجأة صرخ بصوت عال جدا: تبا!... تبا!...

ورغم أنهم جميعا رحلوا، فقد انتظروا خارج الغرفة، ولم يبتعدوا عنها. وقد سمعوا صراخ الزبير. واستمر الأخير بالصراخ لساعات، وهم يستمعون له بحزن وخوف. بعدها اختفى الصراخ. في تلك اللحظات جلس الزبير وقد استجمع هدوءه وتركيزه، وأسند رأسه بيديه وهو ينظر إلى الأرض. وبعد مدة جعل يحدق في حائط الغرفة، وهو يسند رأسه إلى كرسي المُلك، ثم وضع يديه خلف رأسه إحداها فوق الأخرى، وهو مسترخ وما زال ينظر إلى الحائط.

ثم قال بصوت منخفض: لن يهزمني أحد... مستحيل... الزبير لا يهزم... يجب أن أجد خطة أهزمهم بها... يجب ذلك كما فعلت قبل سنوات كثيرة، ونجحت في تحقيق المعجزة بتحرير البقاء بأكملها، والآن سأفعل ما هو أسهل بكثير.

أحكم الزبير تركيزه، وبعد وقت طويل من التفكير والتركيز والتحديق في الحائط، قام من جِلسته تلك، وأعاد الطاولة مستندة على أرجلها، ووضع الخريطة على الطاولة، وأعاد الحجارة ذات الألوان المختلفة على الخريطة وفق الترتيب الذي وُجِدَت عليه عندما دخل الغرفة، وطفق يتفكر بعمق، ووضع نصب عينيه أن من قواعد الانتصار النهائي في أي حرب هو عدم إنكار الهزائم التي يتعرض لها المرء، وعدم إنكار قوة أعدائه، وأنه يجب أن يكون واقعيا يدرك ما لديه من قوة وما لدى خصومه. لذا وضع نصب عينيه أنه خسر ما يقرب نصف قواته، في حين ينتظره جيش قوي، متعطش أفراده للانتقام والثورة وتملأ الحماسة أفئدتهم، في حين أن الموالين له قلوبهم ملأى بذل الهزيمة والفشل. طفق ينظر إلى الخريطة والحجارة بتركيز وأنشأ يتفكر بعمق، وظل هكذا وقد أخذ يحوم حول الطاولة. وكلما مر الوقت جعل يحرك الحجارة لتجريب خطة معينة، وعندما يجد الخطة فاشلة ضعيفة لا يمكن لها أن تنجح، عاود ترتيب الحجارة ترتيبا آخر ليجرب خطة أخرى، وعندما يجدها فاشلة عاود تكرير الأمر. وتخلل ذلك شعور باليأس والضعف، فيعاود الجلوس على كرسي العرش، إلا أنه سرعان ما يستجمع قواه، ويرفض الاستسلام والخسارة، ويعاود المحاولة بالحجارة والخطط من جديد، فالزبير ليس بالمرء الذي يمكن أن يستسلم ما دام حيا!

وبعد ساعات طويلة من كل هذا، وصل أخيرا إلى الحل وإلى الخطة المثالية التي يستحيل لها الفشل، ووضع كل خطواتها من أصغرها إلى أكبرها بالتفصيل والإتقان.

ثم عاد وجلس جلسته تلك على كرسيه ذلك، وهدأ واسترخى.

وجعل يقول بصوت منخفض: سأهزمهم... الزبير لا يهزم... لقد جنوا على أنفسهم... الزبير لا يهزم...

قال ذلك، وعيناه مفتوحتان على أقصى اتساعهما وهما تلمعان طموحاً ورغبةً بالانتصار والانتقام والاقتصاص من الخونة الذين خانوه – على حد ظنه – بعد أن جعلهم أمراء البقاء كلها، وبعد كل ما فعله لهم.

وظل على حاله هذا من الهدوء والجلوس والتأمل مدة طويلة.

وحالما بدأت الشمس بالإشراق، عاد جميع الذين طردهم الزبير إلى القاعة الذهبية، والخوف والرعب يجتاحان قلوبهم؛ لأنهم توقعوا المزيد من الغضب والتوبيخ. وزاد خوفهم ورعبهم عندما رأوا الزبير بهدوئه واسترخائه وهو يجلس على كرسي المُلك.

وقفوا جميعا كالأولاد الذين ينتظرون توبيخ والدهم، أو كالتلاميذ الأطفال الذين ينتظرون توبيخ أستاذهم، وأخذوا ينظرون في الأرض من شدة الخجل والعار والحزن والذل. إلا أن المفاجأة حدثت كما عود الزبير الجميع – عبر تاريخه – بالمفاجأت التي أذهلت حتى أقرب المقربين إليه.

وقف الزبير بهدوء، وبسرعة وقفت الدماء في عروقهم.

"آسف" قال الزبير بنبرة حزينة هادئة.

فتحوا عيونهم على أقصى اتساعها من هول المفاجأة، ونظروا إليه بتعجب حتى بيدق.

"أنا أعتذر لكم جميعا" قال الزبير، وأكمل: لم يجب أن أتصرف هكذا... أنتم أخطأتم لأنكم بشر... حتى أنا أخطأت لأنني اطمأننت، في حين وجب علي أن أظل حذرا تجاه أمراء الثورة لآخر لحظة، وألا آمن شرورهم.

ثم نظر إلى قيس والداهية اللذين وقفا متجاورين، وأكمل خطابه: أنتم من صنعني... أنتم من نفذ كل خططي منذ البداية... لولاكم أنا لا أسوى شيئا، لولاكم ما كسبت شيئا.

ثم اقترب من قيس، ووضع جبينه على جبين قيس، وقال بالنبرة الحزينة الهادئة نفسها: أنا آسف، يا قيس. فداك كل ملكي، آسف.

فحضنه قيس وطفق يبكي، فبادله الزبير الأحضان، وقال: لا تبكِ، يا قيس. نحن سننتصر... نحن سننتصر وسنذلهم.

ثم توجه الزبير إلى الداهية وأمسكه من كتفيه، وقال: أعتذر، يا داهية الكثبة، بل داهية البقاء... بل داهية الكون... أنت أذكى رجل قابلته في حياتي كلها.

فقال الداهية فورا: نحن فداك، أيها الزبير. ما يهمنا هو حياتك... تبا للبقاء، تبا للكثبة... تبا لنا جميعا! المهم هو أنت... أنت هو البقاء، أنت هو الكثبة، أنت كل شيء... حتى لو فقدنا حياتنا في سبيلك فذلك رخيص... المهم أن تظل أنت على قيد الحياة.

"لا، لن تفقدوا حياتكم... لن تفقدوا أي شيء" قال الزبير بهدوء، وأكمل: نحن سننتصر وسندوس عليهم بنعالنا، وسنعلمهم أن بدو الكثبة هم ملوك العالم.

بعدها اعتذر الزبير لبقية القادة الحاضرين وللنسور السوداء.

لقد اعتذر الزبير لجميعهم، وصالحهم؛ لأنه أحبهم من كل قلبه، ولأنه بالفعل ندم على توبيخه لهم، ولأنه أيضا يعلم جيدا أنه لن ينتصر ولن تقوم له قائمة دونهم.

ثم قال: الآن حان وقت العمل.

وفورا طلب منهم الاقتراب من الطاولة حيث الخريطة والحجارة الملونة، وشرع يشرح لهم الخطة بتؤدة ودقة، وهو يحرك الحجارة من مكان إلى آخر.

وقد انبهروا بذكائه وحكمته وكيف سيطر على نفسه في هذه الظروف التي ينهار خلالها أي رجل مهما بلغت عظمته، وقد بلغ كل هذا أوجه حالما انتهى من شرح الخطة. حتى إن الداهية – على عظم دهائه – فكر: "أنا لست نقطة في محيط ذكائه!".

"يحيا الزبير!" هتف قيس الذي كانت لحيته الكثة قد ابتلت من كثرة الدموع. وأنشؤوا جميعا يهتفون: يحيا الزبير!

لكأنهم في هذا أطفال متحمسون، رغم أن أصغر من في الجلسة كان في الأربيعنات من عمره.

"الآن نبدأ التحرك نحو الفتناء، فورا" أمر الزبير.

والفتناء هذه مدينة محصنة بسور عظيم غليظ، في أقصى الغرب الشمالي للبقاء على حدودها مع الهيجاء، وقد استندت خطة الزبير على الذهاب إليها وسحب جل قواته إليها.

توجه الزبير ليخرج من القاعة، وعندما وصل بابها توقف، ثم عاد ونظر إلى قيس والداهية، وسأل: أيهم صاحب الخطة؟

وكان قد شك بشخص معين.

فقال الداهية: الإشاعات بأنها سمية.

تنهد الزبير، وأغمض عينيه شجنا وحزنا وألما؛ لأن من خطط لكل هذا هي حبيبته وآسرة قلبه، وقد صدق توقعه؛ فقد توقع أنها هي من سعى لكل هذا، إلا أنه تفاجأ من مدى قوتها وذكائها وقدرتها على إحكام كل هذه الخطة الناجحة.

غادر الزبير مكسور القلب، بعد علمه بهوية المخطط للثورة عليه.

***

بدأ الملك ذو الندب بتنفيذ خطته، وبدأت قواته تنسحب من شتى أرجاء البقاء، نحو مدينة الفتناء في أقصى الغرب. وانسحب الزبير وزوجه وابناها وابناهما مع المنسحبين نحو الفتناء، وأخلت قوات الزبير المعتزة. وحالما علم الأمير ريان بكل ذلك، بدأت قواته تزحف لاحقة بقوات الزبير، ودخل الأمير ريان وأمراء الثورة – عدا سليما – وسلطان القدماء زاهي وقواته المعتزة.

أما سليم، ففي يوم الثورة أرسل الأمير ريان – وفق تعليمات سمية وخطتها – خمسين مقاتلا تسللوا إلى المعتزة ثم إلى القصر حيث يسكن سليم وأهله، وقتلوا كل الحراس الذين يحرسون القصر ويفرضون الإقامة الجبرية على سليم وأهله. وهرّبوا سليما وأهله إلى خارج المعتزة إلى مكان آمن في قرية صغيرة في ضواحي المعتزة.

ولما دخل الأمير ريان المعتزة توجه إلى قصر الكثبة مع أمراء الثورة وملك القدماء، وسرعان ما التحق بهم سليم.

وسرعان ما بويع الأمير ريان ملكا على البقاء، من قبل مناصريه، ومن قبل أمراء الثورة. وأعاد تسمية قصر الكثبة بقصر الضيغم، وأعاد تسمية قاعاته – التي غير الزبير أسماءها – بأسمائها القديمة. كانت تلك أمور بسيطة، إلا أنها رمزت لأشياء عظيمة جدا.

وفي المساء، اجتمع أمراء الثورة الأربعة وسلطان القدماء بإحدى قاعات القصر. وقد بدت الفرحة عارمة على محياهم جميعا، إلا سليما الذي ظهر الهدوء والقلق عليه.

وبدؤوا يتبادلون التهنئة، والإثناء، وتكررت كلمة "مبارك" مرارا وتكرارا.

ثم قال سلطان القدماء، مخاطبا الملك ريانا: لقد أوفيت بوعدي لك، والآن لا أستطيع الاستمرار. لا أستطيع المخاطرة بمصالح شعبي، وبحياة جنودي، من أجل معركة هي ليست بمعركتهم... الأمر الآن بين يديك وحدك... بالتوفيق، فأنت على حق وهو على باطل.

أومأ الملك ريان برأسه للسلطان زاهي مبديا تفهمه.

ثم قال السلطان زاهي: ائذنوا لي الآن.

وغادر القاعة؛ فقد أراد إعطاء مساحة خاصة لأمراء الثورة، يتحادثون فيها براحة مطلقة.

وطفقوا من جديد يتبادلون التهنئة والفرحة والضحكات والبسمات لا تغادر وجوههم، عدا سليما.

"أخيرا سننتقم" قال الملك ريان.

"نعم، أخيرا سنعيش بسكينة وطمأنينة واستقرار من جديد" قال المغيرة.

لقد فرحوا جميعا، فقد اقترب كل واحد منهم من استعادة حقوقه ومن الانتقام شر انتقام من الزبير.

أقلهم فرحا هو سليم، الذي وقع بين نارين، نار استعادة حريته هو وأهله، والانتقام من الزبير، ونار حزنه على أنه سيضطر لمواجهة الرجل الذي لطالما اعتبره أباه، حتى في تلك اللحظات. إلا أنه داس على قلبه، وقرر السير نحو مصلحته ومصلحة أهله، ورفع الظلم عنه وعنهم وعن سائر المظلومين من قبل الزبير.

فقالت سمية فورا: ولكن أريد منكم أن تعدوني أنه مهما حدث ومهما طال الأمر، فإن الزبير يجب أن يقتل.

فنظرت إليهم واحدا واحدا بجدية ونظرات حادة، لم يتوقعها أحد من امرأة، لا سيما من سمية.

"هيا عدوني" حفزتهم بجدية وحزم.

فمدت يدها اليمنى للأمام.

اقترب الثلاثة منها، ووضعوا واحدا واحدا أيديهم اليمنى الواحدة فوق الأخرى.

"الزبير يجب أن يقتل" قالت سمية، فنظرت إلى الملك ريان.

فقال بعينين حادتين غاضبتين: الزبير يجب أن يقتل.

فنظرت سمية إلى المغيرة، فقال بعينين تماثلان عيني ريان تماما: الزبير يجب أن يقتل.

فنظرت إلى سليم، الذي التزم الصمت لمدة ونظر في الأرض، فنظرت إليه سمية بحدة وبغضب، فلما رأى عينيها تتهد، وقال: الزبير يجب.... يجب أن يقتل.

وأغمض عينيه ألما وحزنا على ما قاله.

وفي تلك الليلة جلس ريان في غرفة أبيه وأمه ثم في غرفته في قصر الضيغم، وأرقه السهر، وهو يستعيد ذكرياته في القصر ومع أبيه وأمه وأخته، وخالجه شعور من الحزن والشجن، وسيطرت عليه رغبة جامحة في قهر الزبير حتى يمحو هذا الحزن والألم إلى الأبد.

***

عندما بدأت خطة الزبير، تحرك أولا بسرعة بصحبة زوجته حورية وابنيها زبيدة وحسن وابناهما روان وعامر، إلى الفتناء، وسط حراسة مشددة جدا من قبل فرقة الزنوج، وبالأخص النسور السوداء.

وصل الزبير الفتناء، في أقصى الغرب الشمالي من البقاء، على حدودها مع الهيجاء، ولم يفصل بين المدينة والهيجاء، سوى بحر صغير، يعرف ببحر الدم. وقد سمي بذلك لكثرة الدماء التي سالت فيه إثر الحروب الطاحنة بين الهيجاء والبقاء للسيطرة على الفتناء لشدة جمالها وكثرة مواردها ومظاهر الرفاهية والجمال في بنيانها وطبيعتها، ومهارة أهلها في شتى المهن، ومدى غناهم. وللسبب نفسه، سميت الفتناء بهذا الاسم، لأنها سببت الفتنة بين أهل المملكتين. وقد بنيت من الحجارة السوداء القاتمة في منظر جميل جدا، وأحاط بها سور من جميع الجهات بما في ذلك جهة بحر الدم الذي فصلها عن الهيجاء، حتى لا تستطيع سفن الهيجاء دخول المدينة من ساحلها، وكذلك أطل جزء من الفتناء على البحر الرمادي شمالا، وحتى ذلك الجزء أحيط بالسور. لقد حرص المهندس الذي صمم المدينة على جعلها منيعة حصينة؛ لكثرة الحروب التي خيضت فيها، فأحاط بها سور ضخم هائل الارتفاع وغليظ السمك، أما القلعة الكبرى فيها فقد كانت منيعة وأحيطت بسور يتميز بالصفات نفسها، وكانت نوافذ القلعة واسعة من الداخل ضيقة من الخارج، حتى يتمكن المقاتلون داخل القلعة من إطلاق السهام بأريحية، في حين يجد المقاتلون خارجها صعوبة بالغة في إيصال أسهمهم داخل القلعة. وقد امتازت الفتناء بلونها الأسود الذي ميزها، وأما القلعة فيها، فقد بنيت من الحجارة السوداء الباهظة الثمن، وغطى أرضيتها وسقفها وحيطانها الرخام رمادي اللون باهظ الثمن.

بعدها بدأت القوات الموالية للزبير بالتوجه نحو الفتناء، وأكبر قوة فيها كانت بقيادة قيس والداهية. وبأوامر الزبير أحرقوا في طريقهم كل زرع وكل شيء قابل للأكل. وكلما مروا على مدينة أو قرية، عرضوا على التجار ثلاثة أضعاف سعر البضائع لشرائها كلها، فوجدوا موافقة من الغالبية العظمى من التجار، وبذلك أخلوا كل تلك القرى والمدن من البضائع، ونقلوا كل البضائع والمؤن والأغذية معهم إلى الفتناء. وقد قرر الزبير إنفاق كل أموال خزينة الدولة على هذه الحرب حتى آخر قرش؛ لأنه لم يعد هنالك شيء يخسره، وليس أمامه سوى البحث عن الانتصار بأية طريقة. الهدف من كل هذه الإجراءات، تزويد القوات المتجمعة بالفتناء بالطعام والشراب والبضائع لأطول فترة ممكنة، لأن خطة الزبير بنيت على أنه سيكون هنالك حصار طويل جدا لقوات الفتناء من قبل قوات ريان. كما أنهم تعمدوا إحراق الزرع وإخلاء المدن من البضائع والأغذية، حتى تجد قوات ريان صعوبة بالغة في إيصال البضائع والطعام والشراب إلى معسكرها حول الفتناء – أثناء حصارها المتوقع – مما سيصعب مهمتهم. كما أتلفت قوات الزبير كل المجانيق في معسكرات الجيش، فهم لا يريدون أخذها معهم لأنها لن تفيدهم كونهم المحاصرين،

كما أنه ستؤخر وصولهم للفتناء، وزد على ذلك أنهم لم يريدوا أن تجدها قوات ريان، فتصحبها معها وتستخدمها أثناء حصار الزبير .

وقد أمر الزبير متعمدا، بأن تتوجه ثلث قواته التي تبقت بعد الثورة الجديدة، إلى الكثبة، وأن يبقوا هناك. وأمر أن يتوجهوا إلى هناك في جماعات قليل عدد أفرادها قلة شديدة، حتى لا يعلم أحد بتوجه ثلث جيشه إلى هناك. وأمر متعمدا ابن أخيه سهيلا شيخ قبائل الكثبة، أن يبقى بدو الكثبة المقاتلين فيها، وكذلك أن يبقى ثلث الجيش الذاهب هناك فيها، إلا إذا أتاهم أمر بالتحرك.

***

وهكذا تجمع الزبير وجل التابعين له في الفتناء، إذ أقام الزبير وآله وأكثر المقربين إليه وكبار القادة في قلعة الفتناء الكبرى، بينما انتشرت قواته في شتى أرجاء المدينة الحصينة المنيعة. وطفقوا ينتظرون قدوم قوات ريان.

وزحف الثوار لاحقين بالزبير وقواته حتى سيطروا على كل المناطق في طريقهم من المعتزة إلى الفتناء، وعسكروا هناك وأحكموا حصار الزبير وقواته من كل الجهات، عدا الجهات التي أطلت من خلالها المدينة على البحر الرمادي وبحر الدم. وبلغت قوات ريان عدة أضعاف قوات الزبير. ووجدت قواته في طريقها إلى الفتناء كل المناطق الزراعية محروقة، فلم يتمكنوا من الاستفادة منها، كما وجدوا المدن والقرى في الطريق مفرغة من البضائع والأطعمة والأشربة، مما جعل أمراء الثورة يوقنون بأن الزبير تعمد فعل كل هذا.

قرر ريان التوجه مباشرة إلى الفتناء؛ لأن الأولوية هي القضاء على الزبير، لذلك لم يكترث بفرض سيطرته على مناطق البقاء المختلفة، فظلت كثير من المناطق دون سيطرة الأمير، ومنها صحارى الكثبة الموالية للزبير، خاصة وأن ريانا أيقن أن الأمور ستنتهي بسرعة، وأنه سيقضي على الزبير بسرعة كبيرة، وبعدها سيتفرغ لفرض سيطرته على البقاء، ومناطقه المختلفة ومنها الكثبة.

وبدأ الحصار، وبدأت الأيام تمر وتمر، ولم تتمكن قوات ريان من إجبار الزبير على الخروج لمواجهتها. وبعد مرور الشهر الأول، طفق التوتر يجتاح ريانا ومعسكره وكل من معه، لا سيما أمراء الثورة، وكلما مر الوقت، ازداد التوتر والقلق وحتى الخوف لديهم.

ثم مر شهران آخران، جعلا سمية تتساءل: كيف استطاع الصمود طيلة هذه الفترة؟!

فرد ريان: لا بد وأن لديه مخزونا هائلا من البضائع والطعام والشراب... غالبا، جمعها من المدن والقرى في الطريق بين المعتزة والفتناء.

وبالفعل صدق تحليل ريان، فالبضائع والطعام والشراب الذين جلبهم الزبير من المدن والقرى في الطريق كانت كثيرة جدا، وكفته جيدا، مما جعله قادرا على تحمل الحصار ورفض الخروج.

ونظرا لإحراق الزبير الأراضي الزراعية، وتفريغه الطريق من المعتزة إلى الفتناء من البضائع، غدت مهمة معسكر ريان صعبة، إذ خصص جزءا كبيرا من قواته وفرّغها فقط لجلب البضائع من المعتزة البعيدة إلى معسكره حول الفتناء باستمرار، مما أجهد هؤلاء وقلل أعداد المحاصرين.

أيقن ريان أن الزبير – لا محالة – سيخرج في نهاية المطاف. إلا أن ذلك لم يحدث، فقد مرت ستة شهور منذ بدء الحصار، ومع ذلك، لم يخرج الأخير.

وبعد مرور الأشهر الستة حدث أمر غريب ومفاجئ لمعسكر ريان، إذ أرسل إليهم الزبير رسولا لم يتوقعوه، وأي رسول كان!

توجه داهية الكثبة إلى معسكر ريان، ولما علم الأخير بمقدمه تفاجأ كثيرا، وقد طلب الداهية مقابلة ريان، وباقي أمراء الثورة، فوافق ريان على ذلك، واجتمع هو وباقي أمراء الثورة، في خيمة من خيام المعسكر، ثم دخل عليهم الداهية.

لقد أصر الزبير على إرسال الداهية المقرب كثيرا منه، إلى معسكر ريان؛ وذلك ليظهر حسن نواياه لهم، وكذلك لأن الداهية أفضل مفاوض عرفه الزبير في حياته. كما أن الزبير أيقن باستحالة قتل ريان للداهية أو إيذائه حتى؛ بعد ما فعله أسود الوجه الحنشي، وما حدث له بعد قتله لرسول أرسل إليه.

لما دخل الداهية، قال بهدوء وبرود: السلام عليكم.

وقد ظهرت عليه علامات اليأس والحزن، بل والهزيمة حتى.

"كيف حالكم؟" أضاف الداهية.

فرفضوا الرد عليه.

ثم نظر إلى سليم، وقال: كيف حالك، يا سليم؟

أراد سليم الرد، غير أنه رفض؛ لأن ذلك سيغضب باقي أمراء الثورة.

فقال الداهية بهدوء، ناظرا إلى ريان: ليست هذه وسيلة لاستقبال الضيوف.

فبرزت العروق في عنق ريان، واحمر وجهه غضبا، وهاج صارخا: أنت لست بضيف... أنتم قتلة خونة.

لم يستئ الداهية، وحافظ على هدوء أعصابه، ورد بثقة: ربما نحن كما وصفتنا... لكن بالنهاية من غيرنا لو أتيحت له الفرصة ما استغلها؟! ولاحظوا الآن – جميعكم – أنكم انتصرتم، والله قد أعانكم علينا... ربما هذا عقابنا لكل ما فعلناه.

"الآن، ادخل في المسألة مباشرة" صرخ ريان، وأكمل بالنبرة نفسها: لم أرسلك الخائن؟!

تنهد الداهية، ثم قال بحزن وأسى: الزبير يريد الاستسلام، وتسليم نفسه لكم، ولكن بشروط.

"لا نقبل ذلك" قالت سمية، وأكملت بغضب: يجب أن يقتل.

تفاجأ الداهية – الذي لا تفاجئه حتى أكبر المصائب - مما رآه من سمية، فهو مطلقا لم يتوقع مثل هذا الكلام والتصرف، منها بالذات.

"وما هي الشروط؟" قال ريان بحزم وغضب.

فصرخت سمية وقد برزت عيناها في محجريهما -غير آبهة بكون ريان هو ملك معسكرها وأنه الآمر والناهي فيه -: قلنا واتفقنا: يجب أن يقتل.

فنظر إليها ريان بحزم وقال بهدوء: لا خيار أمامنا، نحن نحاصره منذ ستة أشهر، ولا أدري ما مصادر البضائع والمؤن لديه. ويبدو أنه لن يخرج أبدا... ربما هذا هو الحل، أن يستسلم لنا.

فقال المغيرة مخاطبا سمية: ستحقن دماء كثيرة، إن وافقنا... ونحن حتى لو لم نقتله، فسوف نفرض عقوباتنا عليه، وأقلها السجن مدة الحياة.

"لا أقبل" قالت سمية وعيناها قد برزتا أقصى بروز، وأكملت: أريد مقتله.

تفاجأ الداهية؛ فقد توقع أن يكون الرفض والنكاية إما من ريان الفاقد لملكه، أو من المغيرة الفاقد لزوجته وأهله، خاصة أن كليهما مقاتل شرس ذاقت سيفه أجساد عشرات المقاتلين. لم يتوقع الرفض والنكاية من امرأة هادئة ناعمة لا تستطيع إيذاء الحيوانات حتى، وليس لها خبرة في الحروب والمكائد.

تجاهل ريان كلام سمية، وخاطب الداهية: ما الشروط؟

فقال الداهية فورا: لن نتحدث هنا... الزبير يريد أن يذهب أحدكم إليه؛ ليتأكد من حسن نيتكم وأنكم لن تغدروا به، إذا تمكنتم منه بعد أن يستسلم لكم لاحقا.

فصرخت سمية بغضب: مستحيل.

وقال ريان فورا: أخبرنا هنا الآن بشروطك.

فرد الداهية فورا: لا... الزبير يريد أن يتأكد أنكم لن تغدروا به... هذا أول شروطه وأهمها. وأنت تعلم جيدا أنه لا يمكن أن يؤذي رسولك أو رسول سواك، بعد ما حدث لأسود الوجه الحنشي.

"هذا صحيح" قال المغيرة.

فقالت سمية: مستحيل، لن أسمح بذلك.

فقال ريان: اهدئي قليلا... لن يحدث شيء للرسول.

فردت: لن يحدث ذلك إلا على جثتي.

فقال ريان: سمية، اهدئي... نحن المنتصرون عاجلا أم آجلا... المسألة مسألة وقت فقط.

فلما رأى الداهية اختلافهم وتشاكسهم فيما بينهم، قال: سأتركك الآن، وردوا لي بقراركم حين تجمعون عليه.

ثم غادر الخيمة، وظل فيها أمراء الثورة الأربعة، في حين لم ينبس سليم ببنت شفة حتى تلك اللحظة.

حالما غادر الداهية، قالت سمية بغضب: هذه مكيدة من مكائده، سيقتل الرسول لا محالة.

"مستحيل" قال المغيرة فورا، وأضاف: بعد قصة أسود الوجه الحنشي، لم يجرؤ شخص في البقاء - ولا حتى الهيجاء وياقوتة - على قتل أي رسول، ذلك لم يحدث لما يزيد على ألف عام.

وأسود الوجه هذا كان ملكا لإحدى الممالك في البقاء، قبل ما يقرب الألف عام من حرب ريان والزبير. وقد أرسل له ملك مملكة معادية رسولا، فقتله، فحمل العار، وظل العار يحرق أهله، حتى قتله أحد إخوته ليغسل العار.

فردت سمية: الزبير نذل، الزبير استثناء. لطالما كان كذلك.

فرد المغيرة: قتل الرسل لم يحدث منذ ألف سنة، والزبير لن يفعل ذلك.

فقال ريان: لا خيار أمامنا. هذا سيضمن لنا النصر وسيحقن الدماء... وسنسجنه مدى الحياة.

فردت سمية بحزم: لا، أنا أرفض. سأسحب مالي من الحرب.

فأطرقوا جميعا يتفكرون، ومرت مدة حتى قال ريان: حسنٌ، سنسجنه، وبعد ثلاث سنوات سنغتاله ونغدر به، سندس من يفعل ذلك، وندعي أن ذلك خارج عن سيطرتنا... أنا مستعد لفعل ذلك إن كان يرضيك... وفكري جيدا، بهذا سنضرب عصفورين بحجر واحد؛ سنقتله وفي الآن نفسه سنحقن الدماء.

عندها طفقت سمية تهدأ، وحدثت المفاجأة بأن تنهدت ثم قالت: ولكن من الرسول؟!

فنظر ريان والمغيرة إلى سليم الوحيد الذي لم يتكلم منذ مقدم الداهية.

فقالت سمية بغضب: مستحيل... تريدان استغلاله؛ لأنه شاب ضعيف.

فقال المغيرة: اذهبي أنتِ إذاً.

فرد ريان: لا... الزبير يعشقها بجنون، وسيؤذيها لا محالة... أنا أرفض ذهابها.

فقالت سمية: أنا موافقة، سأذهب أنا، لا سليم.

فقال ريان: كلا... لن أرضى بأن يقال: ضحى الرجال بامرأة.

فقالت: أنا سأذهب، وسأتحمل كامل المسؤولية.

فرد ريان: لا، هذا أمر نهائي مني كوني الملك.

ثم قال ريان: نحن الثلاثة الأهم، أنا أمثل الشرعية، والمغيرة القوة، وأنت المال... والأهم من هذا كله أن سليما هو ابن الزبير، ويستحيل له أن يؤذيه... في أقصى الحالات سيحتجزه أو سيسجنه.

نظر سليم بخوف عظيم إلى ريان، وهو يستمع إلى كلامهم.

فقالت سمية: لا.

فقال المغيرة: هذا هو السبيل الوحيد.

ثم نظر إلى سليم، وأضاف: وهذه هي الفرصة الأخيرة لك للقائه قبل أن نسجنه مدى الحياة.

فقال ريان مخاطبا سليما: سأعينك وزيرا في الدولة الجديدة... بل لك كل ما تطلب.

"ولكن..." قال سليم الضعيف بصوت خافت يريد معارضة كلامهم.

فقال المغيرة - الذي أراد إقناعه بأية وسيلة-: هل كان أبوك الهيثم الرجل المغوار، القائد العظيم سيقبل مثل هذا الرفض وهذا الخوف؟!

فأغمض سليم عينيه؛ لأن المغيرة تمكن منه، وقال بصوت هادئ راضخ خافت: أنا موافق.

فصرخت سمية بجنون: لا... لا... لا... فلنلغ كل شيء.

فقال ريان: اهدئي، يا سمية. كلامك غير معقول.

وأضاف المغيرة مؤيدا: اهدئي، يا سمية. وها هو موافق. اهدئي.

عندها بدأت بالبكاء الشديد، وطفقت تتحرك في الخيمة حركات قوية جنونية، وهي تبكي بحرقة، وتصرخ وصوتها يتهدج بعبارات مثل: "لن أسمح بذلك" و "على جثتي" و "لن أسمح بالتضحية بسليم".

لم يعرها ريان والمغيرة اهتماما؛ فهما أصرا على تنفيذ قرارهما.

وفجأة حدثت المفاجأة حين قال سليم بصرامة لم يسبق أن تحدث بها: سأذهب، يا سمية، سواء أوافقت أم لا.

فاحتضنته سمية، وهي تبكي بحرقة، وتقول بصوت يتهدج: لا... يا حبيبي... لا... ما أجبننا!... هذه مملكة الجبناء... لا مملكة الشجعان كما يُزعم عنها... تبا لكم... تبا لنا جميعا... تبا لي...

وفي النهاية استدعى ريان الداهية، وأخبره بأن الرسول هو سليم وعدد من قادة قبائل البقاء.

أومأ الداهية برأسه، واصطحب معه سليما وقادة القبائل وعاد إلى الزبير.

***

توجه الداهية صحبة سليم ووجهاء قبائل كثيرة من قبائل البقاء – الذين أرسلهم – ريان، حتى دخلوا على الزبير في كبرى قاعات قلعته الحصينة، بحضور قيس والنسور السوداء، وعدد من كبار دولة الزبير، وحراسه وجنوده.

لقد تعمد ريان إرسال عدد من وجهاء القبائل مع سليم، حتى يصعّب على الزبير فعل المفاجأة وقتل سليم؛ فإن كان سيفعل ما فعله أسود الوجه الحنشي مرة مع سليم، فبالتأكيد سيحسب ألف حساب للفضيحة لو فعلها مع كل هؤلاء، لا سيما مع ما يمثلونه من قبائل كثيرة وقوية ومتنوعة من سائر أنحاء البقاء.

تقدم سليم الضعيف مهزوز الشخصية الوفد بمسافة كبيرة، وهو خجل ينظر في الأرض. ثم جعل يقلب نظره بين الزبير وحوله، وبين النظر في الأرض. والتزم الصمت.

عم الصمت في القاعة لمدة طويلة، وساد فيها التوتر، ليس فحسب في من يمثلون معسكر ريان، بل حتى في من يمثلون معسكر الزبير، فحتى قيس والداهية شعرا بتوتر شديد وترقب منهك.

ثم قال الزبير – وهو يجلس على كرسي العرش -: أهلا بابني وحبيبي... كم اشتقت إليك!... لقد كنت بانتظارك.

تنهد الزبير وحدق بحدة في سليم، ثم أكمل: لقد أيقنت أنهم سيختارونك – أنت – بالذات. فأنت أقلهم أهمية، فهم يمثلون الشرعية والمال والقوة... أخبروك أنه يستحيل أن يُقتل رسول بعدما حدث لأسود الوجه الحنشي... "الزبير لن يقتل ابنه" هذا ما أخبروك به... وهذا صحيح؛ الزبير لا يمكن أن يقتل ابنه مهما حدث.

فتح الزبير عينيه على أقصى اتساع، ووقف بغضب، وحدق بقوة وحدة أكبر في الشاب، الذي ارتعب كثيرا حتى ارتعدت فرائصه، وبدأ يرتجف، وطفقت دقات قلبه وأنفاسه تتسارع.

شرع الزبير يتحرك في الساحة حركة سريعة وعنيفة مقتربا من سليم حينا، ومبتعدا عنه حينا آخر.

وبينما هو على حاله هذا، أكمل: ابنه الذي كان نكرة لا قيمة له، لا أحد يعرفه، فارا كالأرانب الجبانة في قرية نائية خوفا على نفسه من الرجال... ابنه الذي كان يعيش أدقع درجات الفقر، وأكبر درجات الخوف، وأقل درجات الحرية... ثم أتى أبوه الذي بعثه الله له ليعوضه عن أبيه الأول، انتشله من كل هذا، وأخذه من أدنى القاع إلى أقصى القمة... أعاد له أمجاد أبيه الأول، وبنى له مجدا في البقاء كلها، بل في الكون كله... وجعله غنيا، هو وأهله ، وأعطاهم قصرا لهم يرتعون ويمرحون ويفرحون فيه... ومرت الأيام، وبدل أن يقف الابن مع أبيه – الذي فعل له كل هذا – وقف ضده ومع أعدائه وخانه، داس على النعم التي أعطاها إياه وكفر بها جميعا، وأنكرها وطعن أباه في ظهره... وماذا بدر من الأب؟! لم يأخذ منه المال ولا القصر ولا آذاه ولا عذبه لا هو ولا أهله، فقط احتجزه في قصر يتمنى كل الشعب أن يعيشوا في قصر يمتلك عُشْر صفاته يوما واحدا

فقط... وماذا حدث بعد ذلك؟! عاد الابن الخائن ليخون أباه، وهذه المرة يريد أن يساعد أعداءه في قتل أبيه... هذا أمر غير مستغرب من شبه رجل تربى على يد النساء.

أثناء هذا الكلام الذي قاله الزبير بقسوة بالغة وغضب عارم وإهانة جارحة، وحركته العنيفة القوية ذاهبا وراجعا، اجتاح الخوف قلب الشاب، وشرع يبكي بحرقة.

ثم قابل الزبير سليما، واقترب منه، وهو يرتجف أشد ارتجاف، ودقات قلبه وأنفاسه سريعة سرعة غير معقولة. أجهش سليم بالبكاء؛ خوفا من الزبير ومما قد يحدث وحزنا على أبيه وحبا له.

"لا تبكِ، يا بني. لا تبكِ" قال الزبير وهو يمسح دموع سليم ببرود.

ثم أكمل: ما أخبروك به صحيح... الزبير لن يقتل ابنه... وأنا لن أقتل ابني.

ثم استل الزبير خنجره الذهبي بسرعة، وطعن سليما بقوة وعنف حتى اخترق الخنجر أحشاء الشاب بعمق، وقال الزبير: لكنك لست ابني.

ثم طعنه الثانية بصفات الأولى نفسها، وهو يقول: لست ابني، أيها الخائن.

ثم طعنه الثالثة بصفات سابقتيها نفسها، وهو يقول: أبناء الزبير الحقيقيون لا يخونونه.

تفاجأ سليم أقصى مفاجأة، ولم يصدق ما يحدث. وجزن حزنا عظيما؛ لأن الزبير – أباه – قتله بيديه.

حتى قيس والداهية ساءهما ما حدث – رغم علمهما المسبق بأنه سيقع- وذلك لأنه أمر سيئ جدا أن يقتل الأب ابنه، لا سيما مع علمهما بمحبة الزبير العارمة لسليم. وأغمضا عيونهما حزنا.

أما وفد ريان، فهالهم ما رأوه من قتل رسول، الأمر الذي لم يحدث منذ ما يزيد على ألف عام في البقاء كلها وما جاورها.

فطفقوا يصرخون وأفواههم وعيونهم مفتوحة على أقصى اتساع.

"قذر"، "وغد" ،"كيف تقتل رسولا؟!" ،"أيها الخائن الحقير"، أمثلة على العبارات التي صدرت منهم.

في هذه الأثناء، كان سليم قد سقط قتيلا على الأرض، ثم نظر الزبير إلى جثته باحتقار، ثم قال: خذوا هؤلاء الكلاب، واصلبوهم جميعا على باب الفتناء. وخذوا رأس هذا الكلب الخائن واغرزوا رمحا فيه، وضعوه على باب الفتناء.

"تبا لك" ،"ستدفع الثمن غاليا" ،"لن يتركك الملك ريان بعدما فعلته"، هي بعض العبارات التي صرخ بها أعضاء الوفد دون فائدة، فقيس والداهية نسيا حزنهما، وانضما إلى سائر العدد الكبير من جنود الزبير، وبدؤوا تنفيذ تعليماته بحذافيرها.

الزبير علم جيدا بالعار الذي سيلحقه مدى عمره، بعد قتله للرسول، لا سيما وأنه ابنه. فبعدما فعله أسود الوجه الحنشي، اعتبر قتل الرسول أقبح فعل يمكن لأي امرئ فعله. غير أن الزبير الذي ضحى حتى بأخيه من أجل مصلحته، وفي تلك اللحظات التي وضع فيها بين خيارين إما أن يخسر كل شيء – حتى حياته – أو أن ينجو من هذه الحرب، قرر فعل أي شيء لكي ينتصر..

أما الداهية، فقد تعمد عند ذهابه إلى ريان ومن معه، التصرف على أنه مهزوم، وإخفاء ابتسامته الصفراء، والتظاهر بأنه يسعى للصلح، حتى يقنعهم بأن يرسلوا سليما معه، وهذا أقصى درجات الدهاء، وهو ما امتاز به.

***

فقبل شهر ونصف من قتله لسليم، أرسل الزبير – عبر الحمام الزاجل – رسالة إلى ملك ياقوتة حازم.

ولبعد المسافة بين الزبير والملك حازم، تنقل الحمام الزاجل من الفتناء إلى منطقة ثانية في البقاء، ثم تنقل حمام زاجل آخر من منطقة إلى أخرى في البقاء، وتكررت المسألة، حيث استلم عيون الزبير رسالة الحمام الزاجل وعاودوا إرسالها بينهم، حتى وصلت في النهاية إلى الملك حازم.

أخبره الزبير من خلال الرسالة أنه مستعد أن يتخلى عن نصف أراضي البقاء ونصف أملاكها له، في حين سيذهب النصف الآخر من الأراضي والأملاك لملك الهيجاء أنيس، وكل هذا مقابل أن يرسل ملك ياقوتة قواته لمساعدة الزبير، وبعد الحرب ضد ريان، على ملك ياقوتة أن يرسل قواته لمعاونة ملك الهيجاء أنيس ضد أعمامه. وفي المقابل يتخلى الزبير عن الملك، على أن يستلم مدينة بحران، ويغدو أميرا لها، وله حكم ذاتي فيها.

فأرسل ملك ياقوتة رسالة للزبير يعلمه فيها بموافقته على العرض.

بعدها غادر الزبير الفتناء في قارب صغير عبر بحر الدم الصغير جدا، بصحبة النسور السوداء فقط، حتى وصل الهيجاء.

ثم سافر عبر أراضي الهيجاء حتى وصل عاصمتها القاسمة ثم قصر الملك أنيس، وطلب لقاء مستعجلا مع الملك، فوافق الأخير فورا.

حيا الزبير الملك أنيسا، فبادله التحية، وجلس الملك أنيس على كرسي العرش في آخر القاعة، بينما وجدت الكراسي بالعرض أمامه على اليمين والشمال. وطلب من الزبير الجلوس على إحدى الكراسي في القاعة هائلة الاتساع، فجلس الزبير ووقف النسور السوداء حوله، بيدق أمامه وهلال والأقرط خلفه على اليمين والشمال – على الترتيب-.

ثم ضيف أحد الخدم الملك أنيسا من القهوة وضيف الزبير منها.

طفق الاثنان يشربان، حتى قال الزبير: أيها الملك أنيس، لدي عرض لك.

فقال الملك أنيس: نتحدث عنه لاحقا، بعد أن تتغدى.

فقال الزبير: لا وقت لمثل هذا... لا بد وأنك تعرف أن قوات ريان تحاصرني في الفتناء، ولا وقت لدي.

"ما العرض؟" سأل الملك أنيس.

فقال الزبير: سأمنحك نصف أراضي البقاء ونصف أملاكها، في حين سيحوز ملك ياقوتة على النصف المتبقي من كل من الأراضي والأملاك، وذلك مقابل أن تساعداني على دحر قوات ريان، ثم منحي إمارة في بحران، ذات حكم ذاتي، بعد أن أتخلى عن المُلك... وقد وافق ملك ياقوتة على العرض. وأريد منك أيضا أن تمدني بما أحتاجه من البضائع والطعام والشراب عبر بحر الدم.

تفكر الملك أنيس لمدة، وأطرق، ثم قال: ولكنك قد تخسر ضد ريان، وعندها سيهاجمني بقواته – دون رحمة – وقد يسلب ملكي...

تنهد الملك، ثم أضاف: وأعمامي لا بد وأن يستغلوا الفرصة ويحاولوا الانقضاض علي من الخلف.

فقال الزبير فورا، والذي توقع كلام الملك أنيس بتفاصيله: الأمران مستحيلان. لن ينتصر علي ريان، فأنا سأغتال قريبا اثنين من أقرب المقربين إليه، وجيش ياقوتة سيعينني وجيشك كذلك، وجيش ابن أخي سهيل سيأتي من أراضي الكثبة لمعاونتي، وإذا أضفنا هذه القوات إلى من تبقى من قواتي، فإنها ستشكل ستة أضعاف قوات ريان.

"وماذا عن أعمامي؟!" سأل الملك أنيس.

فأكمل الزبير: الحرب ضد ريان ستأخذ يوما واحدا فقط، وسيعود جنودك بسرعة، ولكن ليس وحدهم وإنما مع جنود ياقوتة – الذي وافق ملكها على مساعدتك – ومع جنودي ومقاتلي الكثبة، وسيقضون على أعمامك على بكرة أبيهم، حتى لو لم يبادروك بالقتال.

أطرق أنيس مفكرا بتمعن، وبعد مدة قال: حسن، أنا موافق.

وابتسم الزبير ابتسامة صفراء، واستأذن من الملك أنيس، وسافر فورا باتجاه الفتناء.

***

((46))

مع مشرق شمس اليوم التالي من مقتل سليم، رأى الجنود في معسكر ريان الأجساد المصلوبة على سور الفتناء، وما زال أصحابها أحياء ينتظرون الموت بأسرع وقت من قبل نار الشمس؛ حتى يستريحوا من العذاب. ورأوا كذلك رأس سليم والدماء تعلوه، والمغروز به رمح، يعلو سور الفتناء. فنادوا ريانا والمغيرة وسمية. أتوا على الفور، فلما رأوا هذا المنظر، هالهم وأدهشهم. وشعروا برعب وخوف وحزن اجتاحهم على الفور، حتى ريان والمغيرة الفارسان اللذان ذاقت سيوفهما من دماء أشرس المقاتلين، ارتعبا من المنظر.

أما سمية فجن جنونها، وطفقت تبكي، وتتقيأ من شدة المنظر، وركعت على ركبيتها، خصوصا عندما رأت رأس سليم.

وسرعان ما أمسك بها ريان والمغيرة، واحتضنها ريان وجعل رأسها على صدره، وغطى على عينيها؛ حتى لا ترى مزيدا من بشاعة المنظر، وجعل يقول لها: اهدئي، يا سمية... اهدئي... أقسم لك بروح أبي أنني سأنتقم من الحقير.

وبينما احتضنها، أخذ يدفعها بعيدا عن المكان عائدا إلى خيام المعسكر، حتى لا ترى المنظر المرعب.

وطفقت تقول: أخبرتك ألا ترسله... لقد قتلناه... أنا قتلته.

فجعل ريان يقول: لم تقتلي أحدا... لم نقتل أحدا... تمالكي نفسك.

وظلت تبكي البكاء الشديد، ونزلت الدموع غزيرة من عينيها.

وحتى المغيرة وريان، دمّعت عيناهما على سليم، وخاصة لما رأيا دموع سمية.

لم يتوقع ريان، ولا المغيرة، ولا سمية، ولا أحد في البقاء كلها، ولا حتى أقرب المقربين من الزبير أن يفعل الفعل القبيح الملعون الذي فعله أسود الوجه الحنشي قبل ما يقرب ألف عام، والذي أودت به اللعنة إلى مقتله. لكن كلهم خاب توقعهم؛ فهنالك رجل واحد لا تنطبق عليه القاعدة ولا التوقعات، هنالك رجل واحد يضحي بأي شيء لتحقيق أهدافه، رجل اسمه الزبير.

تلك لم تكن آخر مفاجأة من الزبير لخصومه في ذلك اليوم، فالزبير لا يسكن، وهو في حراك دائم مستمر، وهو يصبر حين يكون الموقف مناسبا للصبر، ويسارع الأمور حين يكون الموقف مناسبا لذلك.

ففي ظهيرة اليوم نفسه، توجه عشرة جنود صحبة الزبير - بأمر منه - إلى إحدى غرف القصر حيث جلست حورية وابناؤها الأربعة زبيدة وحسن وروان وعامر، ووقف بالغرفة عكرمة كعادته، وجلست الجارية زمردة.

دخل الزبير ومن معه الغرفة، وألقوا القبض على عكرمة - الذي لم يجد فائدة من المقاومة – وغادروا الغرفة. عرفت حورية أن الزبير يخطط لأمر ما. وفي تلك الأيام كانت المرأة قد انكسرت شخصيتها منذ حبسها الزبير، وحل الضعف والهشاشة محل القوة والغرور فيها. لهذا كله قالت والخوف يحتلها: ماذا تريد أن تفعل؟!

"لا شيء، لا تخافي" قال الزبير بثقته وهدوئه المعتادين.

ثم نظر إلى زبيدة وحسن، وقال: أريدكما أن تأتيا معي.

"لا تلمس أولادي" صرخت حورية بجنون وخوف، وأكملت بالطريقة نفسها: ماذا ستفعل بهما؟!

فأجاب الزبير: لن أفعل بهما شيئا... أقسم لك بروح جدي.

وخافت زمردة، وجعلت تصرخ: مولاي، أرجوك، لا تؤذهما... أرجوك...

ثم نظر إلى روان وعامر، ثم عاود النظر إلى حورية، وقال: أولادك غالون علي كأولادي تماما.

لم تقتنع حورية – الملكة – بكلامه، وركعت على الأرض، وحاولت تقبيل قدميه، وهي تقول: أرجوك، سأفعل أي شيء تطلبه، لكن لا تلمس أولادي بسوء.

ساء الزبيرَ ما حدث، وقال: لا يصح مثل هذا... أنتِ ملكة وزجة الزبير.

لقد أشفق عليها في تلك اللحظات، وتذكر حورية القديمة القوية التي يهابها أشرس الرجال، ذلك شعور متناقض غريب من الشفقة؛ لأنه هو من دمرها وجعلها امرأة ضعيفة هشة بلا شخصية.

فبكت بضعف وجنون، وأمسكت ساقيه، وهي تقول باكية صارخة صراخا جنونيا: أرجوك... أرجوك...

فنادى الزبير بصوت عال: علياء.

فدخلت نسوة يلبسن لباس نساء قبائل الكثبة، وأخذن حورية التي ظلت تقاوم بعنف – هي وزمردة - لكن دون فائدة. وانكب أبناؤها الأربعة يحاولون حمايتها، وقد اجتاحهم الرعب والفزع والخوف، وحتى ابنا الزبير من صلبه روان وعامر، انطبق عليهم هذا. لكن محاولتهم باءت بالفشل، فعدد النسوة فاق العشرين، وكن من نساء الكثبة البدويات القويات جسديا.

وبعد أن ساق نسوة الكثبة حورية – الملكة – خارج الغرفة، نظر الزبير إلى زبيدة وحسن اللذين ما زال الرعب في قلبيهما، وقال: تعالا معي.

"ماذا تريد أن تفعل بنا؟!" سأل حسن ببراءة.

"لا شيء" قال الزبير بهدوئه وثقته، وأكمل بالطريقة نفسها: هل آذيتكما يوما؟! هل تعتقدان أنني يمكن أن أؤذيكما يوما؟! أنتما ابناي.

فخضعت زبيدة وحسن لأمر عمهما – الذي أحباه بجنون وأحبهما بجنون – وغادرا الغرفة معه.

خرج الزبير وسط حراسة مشددة – ضمت النسور السوداء – صحبة زبيدة وحسن، حتى بلغوا جميعا سور الفتناء، الذي اتسم بالسمك، وبإمكانية الوقوف والحركة عليه بسهولة. وهناك وقف قيس والداهية.

صعد الزبير والنسور السوداء وزبيدة وحسن السور، ووقفوا عليه.

نظر الزبير إلى زبيدة وحسن بجدية وحسم، وقال: ما سيحدث الآن مجرد تمثيل، ولن أوذيكما مهما حدث، حتى لو لم يستجب والدكما.

توجس الشابان خيفة، وسأل حسن: ماذا ستفعل بنا؟! وما دخل أبي؟!

فتجاهله الزبير.

لم يصدق الشابان كلام الزبير؛ لأنهما أيقنا أنه مستعد للذهاب إلى النهاية لتحقيق أهدافه. بيد أنه صدق بالفعل بكل كلمة قالها.

ثم أنشأ الزبير يصرخ: أيها المغيرة... يا سمية، يا ريان.

صوته الجهوري القوي، بلغ معسكر ريان، وسرعان ما نادى الجنود ملكهم ريانا والمغيرة وسمية، فأتوا.

كان رأس سليم على الرمح يحيط بالزبير، ويحيط به الرجال المصلوبون الذين يتعذبون، إذ تقتلهم أشعة الشمس ببطء.

ولما أتى المغيرة ومن معه، صرخ الزبير بصوته الجهوري القوي: لقد رأيتم إلامَ قاد طيشكم وشركم.

وأشار إلى رأس سليم والمصلوبين حوله.

ثم أكمل بالصوت نفسه: والآن، إذا ظللتم مصممين على ما تفعلونه فسأقتل ابني المغيرة زبيدة وحسنا.

فبدأت زبيدة وحسن بالارتجاف، واجتاحهما الخوف والرعب دفعة واحدة.

"كيف تفعل هذا، يا عمي؟!" صرخ حسن سائلا ببراءة وخوف.

وقالت زبيدة ببراءة وخوف أكبر صارخة: أرجوك عمي، لا تفعلها.

نظر إليهما الزبير بحزن، لكنه تجاهلهما.

ثم قال: أيها المغيرة، معك حتى مغرب الشمس، لئن لم تغادر أنت - وكل قواتك من أهل الفيحاء- معسكر ريان، لأقتلن ابنيك.

ثم أخرج سيفه في منظر مهيب مخيف، وأتى الجنود وركّعوا زبيدة وحسنا على ركبهم، وربطوا أيديهما وأقدامهما بحبل غليظ.

ثم قال الزبير – وهو يلوح بسيفه الغليظ نحو الشابين -: إني جاد، أيها المغيرة.

ثم وضع سيفه على مقربة كبيرة من عنق زبيدة، وتعمد فعل ذلك معها لا مع حسن؛ حتى يثير خوفا أكبر في المغيرة، كونها الأنثى بين ابنيه.

طفقت فرائص الشابين ترتعد، وطفقا يرتجفان، وعلت الزرقة بشرتهما وشفاههما، وتسارعت دقات قلبيهما وأنفاسهما.

وشرعا يرجوان الزبير وصوتهما يتقطع خوفا ورعبا: أرجوك... كيف تفعل هذا بنا؟!

أما المغيرة – وعلى مرأى الزبير- حدثت له التغييرات نفسها التي حدثت لابنيه، وسقط على ركبتيه، وطفقت فرائصه ترتعد، وطفق يرتجف، وعلت الزرقة بشرته وشفتيه، وتسارعت دقات قلبه وأنفاسه.

وجعل يهذي وصوته يتقطع خوفا ورعبا: ابناي... لا يمكن... ولداي...

المغيرة الرجل الذي سيطر على الفيحاء، أشرس المدن في البقاء، حيث اللصوص والعصابات والمجرمون، المغيرة الذي أرهب الأعداء في حربي التحرير، وفي الحرب ضد الزبير، المغيرة هذا الرجل المغوار، تحول إلى طفل ضعيف جبان خائف في تلك اللحظات.

ظل الزبير ينتظر بهدوء وثقة وبرود، وهو يشهر سيفه نحو عنق زبيدة، رغم محبته الشديدة لها ولأخيها.

بعد مدة قصيرة من حال المغيرة، نهض، وقال: سأرحل فورا.

فصرخ ريان: كيف تفعل هذا؟! أنى لنا أن ننتصر عليهم دونك؟!

فقال المغيرة: لا أعرف... ابناي أهم شيء.

فقال ريان بحزم: لن أسمح لك بالرحيل.

فقالت سمية - التي اجتاحها الرعب والخوف من كل ما يحدث-: دعه يرحل... ابناه أهم من كل شيء... من الحرب... وحتى منا... وأصلا – إن ظل معنا - لن يستطيع القتال، إن حدث لهما أي مكروه.

فسكت ريان مذعنا، وقام المغيرة، واتجه إلى كل قواته، وأخبرهم بأنهم سيرحلون معه إلى الفيحاء.

وقبل أن يرحل طلب من أحد كبار قادة جيش ريان اللحاق به لاحقا، وإخباره ماذا صنع الزبير بابنيه.

وبينما طفق المغيرة ورجاله بالرحيل، صرخ الزبير بصوته الجهوري: لئن عدتَ – أيها المغيرة – لأقتلنهما فورا، دون أن تأخذني بهما رأفة.

أنصت المغيرة جيدا لهذه الكلمات، وقرر أن يرحل دون عودة إلى الأبد.

بعد رحيل المغيرة وقواته من معسكر ريان، أمر الزبير جنوده ففكوا وثاق زبيدة وحسن، وفورا حضن أحدهما الآخر، وهما يرتجفان خائفين تعلو الزرقة بشرتهما وشفاههما.

بعد مدة نظرت زبيدة إلى الزبير بعينين حادتين قاسيتين وبحنق وغضب عارمين، لم يشهد الزبير لهما مثيلا على زبيدة قط، وقالت بغضب: كيف تفعل هذا بنا؟!

ثم قال حسن بغضب وحنق مماثلين، وبقسوة شديدة، وبنظرة مماثلة: أنت لست عمنا... ولا تعني لنا شيئا منذ هذه اللحظة.

حزن الزبير كثيرا وتألم من هذا الكلام أقصى ألم، وأغمض عينيه شجنا، ثم رحل عنهما بسرعة. وفي تلك اللحظات تذكر كل لحظاته معهما، بما فيه لحظات لعبه معهما وهما طفلان، ولحظات إهدائه الدمية والسيف والحصانين لهما، ولحظة أحضر لهما الشبل، وكيف طفق الثلاثة يداعبونه، تذكر كل لحظاته معهما، وأيقن أنها رحلت دون عودة. أما قيس والداهية فقد حزنا وتألما؛ لأنهما علما جيدا مبلغ محبة الزبير لزبيدة وحسن، وأنه يتألم بعد اضطراره لفعل ما فعله.

فبعد أن ضحى الزبير بكل شيء، ضحى بمحبة الشابين له، رغم أنه لم يكن ليقتلهم لو عاند المغيرة ورفض المغادرة؛ فقد صدق في وعوده لهما ولأمهما.

عاد الشابان إلى أمهما في غرفة نومها، بعد أن أطلق النسوة سراحها، ووجدا روانَ وعامرا وزمردة، بانتظارهما مع حورية.

وحالما رأت الأم ابنيها، ركضت نحوهما وركعت على ركبتيها، واحتضنتهما، وقد زاد بكاؤها وسالت دموعها غزيرة، إذ إنها بكت بحرقة قبل مجيئهما.

"الحمد لله" قالت باكية، وأضافت: الحمد لله أولادي بخير.

ثم انضم إليهم روان وعامر، وحضن الخمسة بعضهم بعضا.

ثم قالت حورية: اللعين كاد يقتلكما فيقتلني.

وطفق الخمسة جميعا يبكون.

ثم قالت حورية: تبا له... لا تخافوا من الوغد... إنه إبليس بل أسوأ، كان سيضحي بشابين يافعين لطالما زعم أنهما ابناه!

وفي الغرفة وقف عكرمة دون حراك؛ فهو لا يملك شيئا يفعله، ورغم قسوته وشدته، دمّعت عيناه ألما على ما حدث؛ فحتى قسوة عكرمة العارمة، لا تضاهي - على الإطلاق - قسوة الزبير. وأما زمردة فقد بكت البكاء الشديد، حزنا على ما حدث للشابين.

أما المغيرة وبينما هو في طريقه من الفتناء إلى الفيحاء، لحق به القائد الذي أوصاه بمراقبة ما سيفعله الزبير بابنيه. وأخبره أن الزبير لم يؤذ أبناءه، فارتاح المغيرة وسر وفرح، وزال الاضطراب الذي اجتاحه منذ لحظة تهديد الزبير له. وأحس أنه مستعد الآن، لأي شيء - حتى الموت - براحة، ما دام ابناه بخير.

عاد القائد الذي أبلغ المغيرة بما حدث إلى معسكر ريان، واستمر المغيرة وقواته في رحلتهم نحو الفيحاء.

وفي طريقهم مروا بمنطقة اسمها الشويرية، وهي صحراء فيها بعض الزرع وتحوي جبالا شاهقة كثيرة تحيط بأرض مبسوطة. ما لم يعلمه المغيرة ولا حتى ريان ولا سمية ولا كثير من أتباع الزبير، أن سهيلا وقوات الكثبة التابعة له وثلث قوات الزبير – المتبقية بعد ما فعله ريان وقواته بقوات الزبير- انتظرت في جبال الشويرية. وعندما أصبح المغيرة وقواته في الأرض المبسوطة بين الجبال، وأحاطت به قوات سهيل، أغارت الأخيرة على قوات المغيرة.

شكلت قوات سهيل ما يقرب ثمانية أضعاف قوات المغيرة. ولما رأى المغيرة وقواته قوات البدو وقوات الزبير، متجهة نحوهم من الجبال بهذا العدد المهول، جزعوا وارتعبوا وتفاجؤوا.

واندلعت المعركة واتسمت بالشراسة والقوة، غير أن كفة سهيل رجحت على كفة المغيرة؛ لأن قوات الأول فاقت قوات الثاني بكثير. كما أن قوات الأول تمتعت بالتدريب والانضباط العسكريين، بينما قوات الثاني تشكلت من مقاتلين عاديين من أهل الفيحاء.

أما المغيرة فقاتل بشراسة، ففي البداية كلما هاجمه أحدهم قتله المغيرة دون رحمة، وبعد مدة وبعد أن كثر القتل في قواته، لم يرض المغيرة بالفرار، بل بادر قوات سهيل بمهاجمتهم، ولم يؤثر الكرش ولا الوزن الزائد كثيرا على قوته؛ فما زال يتمتع بلمسة المحارب، وفن المقاتل. وطفق يقتل من قوات سهيل، حتى قتل منهم الكثير، وفي إحدى اللحظات هاجم ثلاثة فرسان معا المغيرة، لكنه قتلهم وحده جميعا. وظل يندفع نحو قوات سهيل، ويقتل منهم، إلى أن تجمع حوله ثمانية مقاتلين وبينما يقاتلونه غرس أحدهم سيفه في ظهر المغيرة من الخلف، ثم أجهز عليه آخر بطعنه في بطنه من الأمام، فسقط عن جواد، وخر قتيلا.

وهكذا ظل المغيرة يقاتل حتى آخر لحظة، وقُتِل الفارس المغوار البطل وهو يقاتل ولم يمت ميتة الجبناء، وعزاؤه الوحيد في لحظات مقتله، أنه اطمئن جيدا إلى أن ابنيه بأمان.

***

أحد الفارين من المعركة والمنتمين لمقاتلي الفيحاء، عاد فورا إلى معسكر ريان، وطلب لقاءه فورا؛ لإخباره بالأمر الجلل الذي قد حدث، فوافق ريان على لقائه.

حيا الرجل ريانا، فبادله التحية، وقال فورا، وهو متعب منهك: مولاي... باغتتنا قوات تابعة للزبير، وانتصرت علينا، والمغيرة قتل في المعركة.

فتح ريان عينيه على أقصى اتساعهما، ولم يصدق آذانه، وتمنى لو أن ما سمعه مجرد كذب. أحس بدوخة، وأنه سيفقد الوعي من هول الموقف. فهذه مفاجأة جديدة من الزبير لم يكن لها حساب عند ريان، الذي تساءل من أين خرج الجنود التابعون للزبير، وهو يحاصره منذ أشهر كثيرة ويمنع النمل حتى من مغادرة الفتناء. أحس ريان أن أمراء الثورة باتوا حجارة شطرنج يتخلص منهم الزبير الواحد تلو الآخر، وأحس أنه – أي ريان – مجرد لعبة تافهة حقيرة، يحركها الزبير كيفما يشاء بخيوطه.

وسرعان ما أعلم ريان كبار قادة جيشه بما حدث، واستشرى الخبر في الجيش حتى علمت به سمية.

فأتت على خيمة ريان، وطلبت لقاءه.

دخلت عليه منهارة أقصى انهيار، وعيناها وما حولهما منفوخون من شدة البكاء. وبدت علامات الضعف والوهن عليها.

فقالت: لقد خدعنا الوغد.

ثم انفجرت بالبكاء.

فسارع ريان، وأمسكها من كوعيها بكفيه، وقال: اهدئي... سأنتقم للمغيرة وسليم والجميع... اهدئي... نحن اقتربنا من بغيتنا... سوف آتيك برأس الزبير وبرؤوس كل من معه... أعدك بذلك... ما تزال دفة السفينة بأيدينا لا أيديه، ونحن الذين نحاصره ونحشره في بقعة ضئيلة.

قال ريان هذا وهو يتساءل هل ما زال هنالك مفاجآت أخرى من طرف الزبير، أم إنه استنفد كل أوراقه؟!

وكان ريان قد قرر - منذ علمه بمقتل المغيرة – عدم ملاحقة قواته للقوات التي يقودها سهيل، فذلك صعب، وقد يظل سهيل يهرب في شتى أرجاء البقاء، التي خلت من أي مقاتل من الطرفين، وستظل قوات ريان – لو أرسلها – تلاحق سهيلا وجيشه، مما سيقلل عدد القوات المحاصرة للزبير، وسيضعف موقف ريان الذي أراد التركيز على شيء واحد، رجل واحد، الزبير.

استمر حصار ريان للزبير عدة أشهر، وتعجب الأول كيف استطاع الأخير الصمود تحديدا في الشهور الأخيرة! فحتى لو جلب كل بضائع وطعام البقاء في طريقه هاربا من المعتزة إلى الفتناء، فإنها حينئذ ستكون قد نفدت، فمن أين له الطعام والبضائع الكافية للصمود في الشهور الأخيرة؟! لم

يعلم ريان، أن الزبير ذهب إلى الهيجاء، وضمن اتفاقه مع ملكها، وعده الأخير بتزويده بكل ما يحتاجه من طعام وشراب وبضائع عبر بحر الدم.

وأثناء الحصار، بدأت قوات ياقوتة تزحف نحو الفتناء. وقد علم ريان وسمية بذلك.

"ماذا نفعل الآن؟!" سألت سمية ريانا.

تنهد ريان، ثم قال: كيف أقنعهم هذا الشيطان؟! هل يعقل أنه باع البقاء فقط من أجل سلامته وانتصاره؟!

فقالت سمية: يبدو أننا سنخسر، بل يبدو أننا قد خسرنا كل شيء!

نظر ريان إلى سمية بتمعن، وقال: لا تقولي مثل هذا الكلام... لا تخافي، سنظل هنا، ولن يتمكنوا منا.

"فلنستعن بملك القدماء" قالت سمية.

فرد ريان: لقد رفض مساعدتنا ونحن في موقع قوة، أترينه سيساعدنا الآن ونحن في موقع ضعف، وسنقاتل جيشا أضخم من جيشنا؟! كما أن قواته بضخامتها تحتاج ما لا يقل عن شهور كثيرة من الإبحار لتصل من القدماء إلى البقاء!

بعد ذلك استمر الحصار إلى أن اقترب جيش ياقوتة وجيش الكثبة – الذي ضم ثلث قوات الزبير – بقيادة سهيل من معسكر ريان. وبات ريان المُحَاصَرَ بعد أن كان المُحَاصِرَ، وانقلب السحر على الساحر. عندها أيقن الزبير أن ساعة الحرب قد حانت.

***

تجمع مقاتلو الهيجاء في الفتناء عبر الشهور الماضية؛ فقد أتوا إليها بقوارب وسفن من خلال بحر الدم.

وطلب الزبير عقد اجتماع في القاعة الذهبية. وحضر الاجتماع قيس وداهية الكثبة وسائر قادة جيش الزبير وقادة عيونه، إضافة لقائد جيش الهيجاء المتجمع في الفتناء.

بادلوا الزبير التحايا، وبادل بعضُهم بعضا التحايا.

جلس الزبير على كرسي المُلك في القاعة وحوله النسور السوداء، في حين وقف سائر الحاضرين.

فقال الزبير بهدوء: لقد جمعتكم اليوم هنا؛ لأنني أريد أن أخبركم بأمر، هو أهم أمر في هذه الحرب على الإطلاق.

فأنصت الجميع بمتعن وتركيز.

وأكمل الزبير: عندما ننتصر، لا أريد لأحد أن يقتل سمية مهما حدث...

تفاجأ الجميع من هذا الطلب؛ فالزبير الرجل القاسي الشرس، يجمع كل هؤلاء القادة لإخبارهم بأمر كهذا!

وتابع الزبير: هذا الأمر هام جدا، ومن يفعل ذلك سأقتله هو وكل أهله وقبيلته وسأدمر مدينته... أما إذا فعله واحد من جيش الهيجاء أو ياقوتة، فسأنقض اتفاقي مع المملكة المعنية.

سكت الزبير قليلا، بينما عم الصمت في القاعة، ثم سأل: هل هذا مفهوم؟ هل لأحد أي اعتراض؟

ثم نظر لقائد جيش الهيجاء، فأجاب الأخير: لا اعتراض لدي. هذا شأن داخلي لكم أنتم أهلَ البقاء.

فقلب الزبير نظره بين قادة جيشه وعيونه، وسأل: هل لأحد اعتراض؟

قيس، لأنه قريب جدا عاطفيا من الزبير، التزم الصمت ورضي بقراره.

أما داهية الكثبة، فرغم قربه الشديد من الزبير؛ غير أنه أقل قربا منه من قيس؛ لذا هو لطالما فكر بعقله ولم يحكم بعاطفته في مثل هذه الأمور.

هذا جعله يعترض قائلا: لم لا نقتلها، وهي السبب في كل هذا؟! السبب في إضاعة ملكنا، السبب في إضاعة البقاء، السبب في كل هذه الفتنة المقيتة!

فغضب الزبير، وقال مخاطبا الداهية بغضب: لا يهمني أي من هذا. أنا تهمني سمية وحسب. لا أريد قتلها وهذا أمر نهائي.

ثم صرخ في كل الحاضرين: لا أحد يقتلها، هل هذا مفهوم؟

فالتزم الداهية الصمت، وحزن كثيرا؛ لأن الزبير وبخه لأجل المرأة التي أضاعت ملك الزبير، والبقاء بأكملها.

جميع الحاضرين استعجبوا كيف أن الزبير، الرجل القاسي جدا القوي جدا يسامح امرأة ضيعت كل ملكه! وأدركوا حينها أنه يحبها حبا جنونيا لا مثيل له، وأنه لا يوجد في البقاء كلها رجل يعشق امرأة بالجنون والزخم نفسيهما، اللذين عشق بهما الزبير سمية.

ثم أرسل الزبير – عبر الحمام الزاجل – رسالتين إلى سهيل وقائد جيش ياقوتة، اللذين حاصرت قواتهما معسكر ريان. أخبرهم عبر الرسالتين بقراره بعدم قتل سمية. فعاود كلاهما إرسال رسالة – عبر الحمام الزاجل- إلى الزبير يخبره – من خلالها – بأنه موافق ومتفهم للأمر.

***

وحان اليوم الموعود. ففي صبيحة ذلك اليوم، استيقظ الزبير بهناء وراحة، على العكس من ريان وسمية اللذين استيقظا في ريب وشك وارتباك.

ومن شدة استرخاء الزبير، جعل حلاقه الخاص، يحلق له حلقته المعتادة، فحلق جانبي رأسه ولحيته وشاربه فلم يبق في أي من هذه الأماكن أية شعرة.

وعند العصر، فتحت أبواب الفتناء فجأة، فخرج الزبير يقود قواته، والنسور السوداء يحيطون به ويحمونه. وضم جيشه فرقة الزنوج بأكملها.

شاهد ريان وسمية كل هذا، وقال لها: أخيرا الوغد أذعن وخرج لنا!

غير أنه لم يعلم أن الزبير – ومن جديد – حضر له مفاجأة، وهذه المرة مدوية للغاية.

ففجأة خرج مقاتلو الهيجاء، وهم يلبسون لباسهم الأسود والذهبي المعروف عنهم.

فتفاجأ ريان وسمية مما رأياه، واجتاحهما الخوف والريبة.

وقالت سمية – وصوتها يتهدج والعبرات تترقرق في عينيها غير مصدقة ما تراه-: سنهزم... الحقير سيهزمنا... انتصر بعد كل الظلم الذي فعله... كيف سننتصر وحدنا على أربعة جيوش... تبا له... تبا له... لا أصدق أن أهل الظلم سيهزمون اهل الحق...

ثم ركعت على ركبتيها، وجعلت تهذي باكية: تبا له... تبا له...

فأمسكها ريان من كوعيها، وساعدها على الوقوف، وقال: اهدئي، يا سمية... نعم، نحن غالبا سنهزم... ولكن لدينا أمل حتى اللحظة الأخيرة... وأعدك أن أولويتي ستكون قتله... لا يهمني من سينتصر ومن سيهزم... سأظل ألاحقه حتى أقتله، ولأقتلْ بعد ذلك... لا يهني الأمر.

ثم نادى ريان، قائد حرسه الخاص، وقال: اسمعني جيدا، أولويتكم في هذه الحرب، حماية سمية لا حمايتي. فلتبق أنت وخمسون حارسا من حرسي معها أينما ذهبتْ، ولتحرسوها حتى آخر قطرة دم من آخر مقاتل منكم... خذها إلى طرف المعسكر، وظل اصحبها إلى أقل الأماكن من حيث عدد المقاتلين والقتال.

فأومأ القائد برأسه مبديا تفهمه، ثم خاطب سمية: هيا، يا مولاتي. لنذهب.

فذهبت معه، وهي منهارة حزينة هاذية بالشتائم واللعائن على الزبير.

لم يستطع ريان تهريب سمية من الحرب؛ فقد حوصر جيشه من كل الجهات.

واستعد جيش ريان، وباقي الجيوش للمعركة.

ثم صرخ الزبير صرخة قوية عنيفة انتشر صداها في كل مكان: هجوم.

وانطلق الزبير صحبة جنوده، وجنود الهيجاء نحو جيش ريان. وفي الآن نفسه انطلق جيش سهيل وجيش ياقوتة نحو جيش ريان.

جعل الرماة في جيش ريان، يطلقون السهام التي اصطاد كثير منها من جنود الأعداء، غير أن ذلك لم يحدث فارقا كبيرا، فعدد أعدائهم فاقهم بما يقرب الستة أضعاف.

واشتبك المعسكران معا. وطفق الزبير يستخدم سيفه وخنجره وهو يقتّل جنود ريان الواحد تلو الآخر بينما صحبه النسور السوداء في كل مكان، وقتلوا كثيرا ممن حاولوا إنهاء حياة الزبير. أما قيس والداهية وسهيل، كل منهم قتل بسيفه وخنجره الكثير من مقاتلي ريان.

أما ريان، فلم يكن بالمقاتل الهين، فذاقت طعمَ سيفه أجسادُ مقاتلي أعدائه، وقتل منهم العدد الهائل، وهو يستخدم أسلوبه في القتال، بأن يمسك مقبض سيفه بيديه الاثنتين.

واستمرت المعركة، وكثر القتل في صف ريان، بفارق أضعاف هائلة عن القتل في صف الزبير.

ومنذ البداية ما انفك ريان يحاول ملاحقة الزبير لقتله، وظل يفشل في ذلك، إلى أن حل المساء؛ فقد وصل ريان إلى الزبير الذي أحاط به النسور السوداء. وبالفعل – كما وعد ريان سمية – شكل قتل الزبير هاجسه الأول، لا الانتصار في المعركة؛ لأن ذلك كان شبه مستحيل.

"أيها الكلب الخائن، لن أغادر هذه الحياة إلا وقد قطعت رأسك" صرخ ريان مخاطبا الزبير.

في تلك اللحظة لم يكره اثنان أحدهما الآخر، كما كره الزبير وريان أحدهما غريمه.

غضب الزبير من كلام ريان، وقال: الآن حانت نهايتك، أيها الوضيع.

ثم نظر إلى النسور السوداء، وقال: لا يقتربن أحد منكم من المبارزة بيني وبينه. هذا أمر خاص بيننا وسأصفيه بنفسي.

لم يقتنع بيدق والنسران الأسودان الآخرن بذلك، فصرخ الزبير: هل هذا مفهوم؟

فأومؤوا برؤوسهم، وتجنبوا القتال.

تبادل الزبير وريان نظرات الحقد والكره، لكأنهما وحشان سيأكل أحدهما الآخر. في تلك اللحظات لم يكن ما سيحسم المبارزة قوة الاثنين في القتال، بل بالأحرى معنويات كل منهما ونفسيته والحافز لديه.

ريان، كان أفضل من هذه الناحية؛ فالزبير دمر حياته، وقتل أباه وأمه وأخته وسلب ملكه.

كاد الغل في جوف ريان يفجره، فانطلق نحو الزبير صارخا: أيها الحقير.

فانطلق الزبير نحوه وهو صارخ: إني قاتلك.

واشتبك الفارسان على مرأى من النسور السوداء الذين – رغم شدتهم وقوتهم وتقدم عمرهم وكثرة حروبهم – لم يشهدوا مبارزة أقوى من هذه.

ضرب ريان بسيفه يقصد الزبير فصد الزبير الضربة بسيفه، فضرب ريان من جديد فصد الزبير ضربته بخنجره، ثم ضرب الزبير بسيفه يقصد ريانا، فصد الأخير ضربة الزبير بسيفه. وهكذا تكرر القتال بينهما، وكانت محاولات ريان أكثر وأقوى لقتل الزبير، في حين صد الزبير ضرباته حينا بسيفه وحينا بخنجره وحينا بالاثنين معا. وكذلك هاجم الزبير ريانا مرة بسيفه ومرة بخنجره ومرة بالاثنين معا، لكن ضرباته كانت أقل عددا وقوة من ضربات ريان.

وفي خضم المبارزة حامية الوسيط، صرخ ريان، وضرب بسيفه يقصد رأس الزبير، فأزاحها الزبير محاولا تفادي الضربة، إلا أن رأس سيف ريان جرح وجه الزبير في الناحية اليسرى جرحا طويلا كبيرا.

فتحسس الزبير خده الأيسر، حيث الدماء السائلة ثم نظر إلى كفه وهو يحرك دماءه بأصابعه، ثم صرخ بغضب عارم لا مثيل له: آااااااااااااااااااااه.

هم بيدق والنسران الأسودان بالهجوم على ريان؛ لإنقاذ الزبير، فصرخ الأخير ناهرا إياهم: لا تهاجموه... لن أموت جبانا... الزبير لن يموت جبانا... اتركوني أقاتل وحدي... وأنا أصلا لن أُقْتَلَ من قبل هذا الضعيف المدلل... إني قاتله مهما حدث.

تفهم النسور السوداء، أن هذه المبارزة كانت بين رجل ورجل، ولا يصح لهم التدخل، فنفذوا أمر الزبير، وقرروا عدم التدخل.

في تلك اللحظة، أدرك الزبير أن النفسية والمعنويات – لا القوة الجسدية – هي التي ستحسم المبارزة. لقد كان ريان ككتلة جمر كبيرة ملتهبة؛ فالزبير دمر حياته بالكامل والانتقام منه وحده ما سيريحه. لهذا كله قاتل ريان في تلك المبارزة بكامل قوته الجسدية، بل ربما بقوة أكبر من قوتة الجسدية كاملة. لذا قرر الزبير أن يلعب على نفسية ريان؛ ليتمكن من قتله.

وفي تلك اللحظة - كما اعتاد الزبير دوما – قرر الدمج بين أسلوبي أخيه وجده، أسلوبي الحكمة والقوة.

بدأ أولا باستخدام أسلوب أخيه –أسلوب الذكاء والعقلانية والحكمة- وبدأ يستفز ريانا، فقال: أتدري ماذا، يا ريان؟ هل تعلم أن أباك جبان، حتى إن اسمه الملك الهارب. إنه جبان وضعيف، ولقد خاف كالكلب عندما قتلته. هل تعلم أنني بصقت على جثته بعدما قتلته؟! أما أمك وأختك فهما مجرد عاهرتين أنهيت حياتهما، كما تُنْهى حياة الخراف في الأعياد.

ونجح الزبير باستفزاز ريان، الذي اجتاحه غضب عارم، حتى إن قلبه المشتعل الملتهب كاد يخرج من صدره. فهاجم بغضب وجنون ودون تركيز الزبير.

عندها استخدم الزبير أسلوب جده – أسلوب القوة – وجعل يقاتل بكل حماسة وتركيز.

جعل ريان يتحرك كثيرا، ويندفع بقوة مهاجما الزبير الذي لم يتحرك كثيرا، واكتفى بصد ضربات غريمه بسيفه أو خنجره أو كليهما معا. وظلت المعركة على هذه الحال، وما انفك الزبير يستفز ريانا، فمثلا أثناء المبارزة، قال الزبير: أتعلم لم كنت تكرهني بجنون؟... لأنك كنت تغار مني... أتعلم لماذا؟ لأنك علمت في قرارة نفسك أني أفضل منك وبكثير... حتى أبوك عرف ذلك، وأحبني أكثر منك...

وكلما قال الزبير شيئا مستفزا، هاجمه ريان بقوة واندفاع دون تركيز ودون فائدة.

وهاجم ريان الزبير في إحدى اندفاعته فصد الزبير ضربه سيف ريان، بخنجره وسيفه معه، والتحم جسداهما معا ودفع أحدهما الآخر.

وكان ريان قد تعب كثيرا وأنهك كثيرا وفقد تركيزه تماما، من كثرة الحركة والغضب، في حين لم يتعب الزبير كثيرا؛ فحركته أقل بكثير، وتركيزه أكبر بكثير.

وهاجم ريان من جديد مندفعا يقصد قتل الزبير، فصد الزبير سيف ريان بخنجره، فطعن ريانا المنهك عديم التركيز بسيفه طعنة اخترقت بطنه حتى خرج سيف الزبير من ظهره، فأجهز عليه بطعنة من خنجره الذهبي، الذي أهدته إياه – قبل سنوات كثيرة – حليفة ريان نفسه.

وسالت الدماء غزيرة من جسد ريان من محل طعنات الزبير، وسال الدم غزيرا من منخريه، وبزرت عيناه والعروق في عنقه، وهو غير مصدق أن قاتل أبيه وأمه وأخته، قتله، وأنه فشل في الانتقام، وأن الظلم هزم الحق.

ثم قال الزبير بشماتة وتشفٍّ وهدوء - وسيفه وخنجره مغروسان في جسد ريان، بلا رحمة ولا رأفة، ولا تقدير لأخلاق الفرسان -: خسئت – أيها الوضيع – أن تهزمني.

وسقط ريان قتيلا وهو مذهول حزين مقهور، بينما فرح الزبير دون أن يتضح ذلك عليه، وفرح النسور السوداء، وقد ظهرت علامات الفرحة والابتسامات جلية على وجوههم.

واستمر القتال في الحرب الشرسة حتى طحنت جيوش الزبير وحلفائه، جيش ريان، وتألق قيس والداهية وسهيل، غير أن المتألق الأكبر كان الزبير، الذي قاتل في هذه الحرب أفضل قتال في حياته.

وبما أن جيش ريان حوصر من جميع الجهات؛ فقد قل عدد الهاربين منه من أرض المعركة.

أما سمية فمنذ بداية المعركة، ظل قائد حرس ريان، والخمسون الذين معه، يحمونها، ويتنقلون معها، من منطقة إلى أخرى، بحثا عن المنطقة التي فيها أقل قتال وجنود. وطفقوا يقتلون الواحد تلو الآخر. وفي خضم المعركة قتل قائد الحرس. وظل حراسها يُقتلون حتى لم يظل معها سوى ثلاثة حراس. وفي نهاية الحرب، ظلت سمية وحيدة، وبينما حاولت الهرب، ركض نحوها جنود جيش الزبير، بسرعة كبيرة، وهم يخاطب أحدهم الآخر بعبارات مثل: "لا تقتلها"، "إياك أن تقتلها"، "ها هي سمية، أمسكوها وهي بخير".

وبينما حاولت سمية الهرب، تعثرت وسقطت، ثم عاودت النهوض وركضت بسرعة، ومع ذلك فاقت سرعة الجنود سرعتها – بالطبع – وتمكنوا من الإمساك بها حية؛ ليتجنبوا غضب الزبير، الذي توعد من يقتلها بالجحيم على الأرض.

ظل الرعب يحتل قلب سمية من قبل أن تندلع المعركة أصلا، غير أنه بلغ أوجه عندما أمسك الجنود بها.

الزبير كان قد خطط لكل خطوة فعلها منذ تركه للمعتزة وحتى انتصاره على ريان وسمية. ففي اليوم الذي أُعْلِمَ فيه في القاعة الذهبية بما حدث، وبعد أن جلس وحيدا يتفكر فيما سيصنع، وضع هذه الخطة بكل خطوة من خطواتها دون استثناء.

"لماذا انتظر الزبير طيلة هذه الفترة من حصار جيش ريان له؟!" والجواب هو أن الزبير أراد امتصاص حماسة ريان ومن معه، وإتلاف أعصابهم نهائيا، قبل أن ينقض عليهم، وبذلك يضمن النصر المبين.

***

الخاتمة

انتهى كل شيء، وانتصر الزبير أخيرا، كما اعتاد على أن ينتصر دوما. وأوفى بعهده لمملكتي ياقوتة والهيجاء، ومنحمها أراضي البقاء وأملاكها مناصفة بينهما على طبق من ذهب، وباتت البقاء لقمة سائغة ابتلعتاها بسهولة، في حين أوفت المملكتان بعهدهما له، ومنحتاه منطقة بحران، وغدا أميرا له، وصار لها حكم ذاتي. ومسبقا طلب منه سهيل أن يعود إلى الكثبة ويغدو شيخ كل قبائلها بدلا منه؛ غير أن الزبير رفض ذلك؛ لأنه وعد سهيلا ذات يوم أن يكون الأخير شيخ الكثبة.

في نهاية المطاف، قرر الزبير معاقبة سمية، باحتجازها في قصر الهيثم – الذي عاش فيه سليم وعائلته قبل الحرب الأخيرة – وفرض عليها إقامة جبرية فيه مدى الحياة، وأمر بتوفير الأكل والشراب الفاخرين لها وكذلك المال والخدم.

توجه الزبير لرؤية سمية للمرة الأخيرة.

دخل عليها في حديقة القصر، وهي جالسة مكسورة القلب والكرامة، وحولها الحرس، وحوله النسور السوداء، فطلب منهم جميعا الرحيل، وظل وحده مع سمية.

جلس الزبير وعلى خده الأيسر ندب، على خده الأيمن ندب آخر، وهو يضع على خصره الخنجر الذهبي الذي أهدته إياه سمية عندما كانا في الصف نفسه، وقرر –منذ لحظة استلامه له- أن يظل يحمله أبد العمر. ووضع كفه اليمنى على رأس الضيغم، الذي أسنده إلى الأرض.

لم تنظر سمية إليه حتى؛ فلم يعد يهمها شيء في هذه الحياة، بعد أن انتصر الظلم على الحق. ولم تتوقع أن يأتي الزبير – بالتحديد – لزيارتها.

وبينما علا الحزن وجه الزبير، وبينما أشاحت سمية بنظرها عنه، قال بهدوء: لقد دمرتِ كل شيء، يا سمية... كل شيء... سلبتِ ملكي، وسلبتِ مالي، وأضعتِ مالك الغزير... وضاعت أرواح كثيرة كان يمكن أن تبقى.

تنهد الزبير، وأحس بشجن عظيم، وقال: أسامح في كل شيء، لكن هل تعرفين ما أهم شيء سلبتِه مني ولا يمكن أن أسامحك فيه؟... هو أنتِ، فقد سلبتِكِ مني... المقربون مني طالبوني بقتلك. ولما رفضتُ، طالبوني بسجنك في أي سجن حقير من سجون المملكة. هل يمكن أن أقتلك؟! إذا فعلت ذلك، فسأقتل جزءا من نفسي... سأقتل قلبي. وفي المقابل، أردتُ من كل قلبي أن ألا أعاقبك على الإطلاق، بل حتى لاح في بالي فكرة أن أطلب يدك للزواج. هل تصدقين هذا، بعد كل ما فعلتِه بي؟! وفي النهاية قررت عقابا وسطا بين الطرفين، فلا يمكن أن أسامحك مسامحة كاملة... كان لا بد من العقاب.

ساد صمت في الحديقة، خلا صوت العصافير التي زقزت هنا وهناك، وبعد مدة وضع الزبير كفيه أحدهما فوق الآخر، فوق رأس الضيغم الذي أسنده إلى الأرض، وقال: لا تعلمين كم عانيت بسببك... لقد أحببتك حبا جنونيا سيستمر أبد الدهر... كل يوم – منذ أهديتني الخنجر الذهبي – أمسك به ليلا، وأقلبه وأنظر إليه بتمعن تحت ضوء القمر... أنظر إلى القمر والنجوم وأحاول تذكر وجهك الحسن وشخصيتك الجميلة، والأهم حنانك الذي شاهدته مع زوجك الراحل... نعم، أنا رجل، منذ كنت طفلا وأنا أعاني من انعدام الحنان... أصلا أهل البادية لا يعرفون ما الحنان، حتى أمي. وزاد الطين بلة حين قتل أبي ثم جدي... كنت دوما أبحث عن الحنان الذي افتقده الزبير الطفل... الزبير الذي يعتقد الجميع بقسوته، لكن بداخله طفل هش ضعيف ورقي زجاجي. كنتِ – أنتِ – الحنان الذي سيعوضني عن كل شيء، لكنكِ سلبتِكِ مني، وكسرتِ قلبي، وفضلتِ أمينا علي.

أطرق الزبير مفكرا، ثم قال: أمين! أتدرين أنا بالفعل لا أستحقك. أمين ضحى بحياته من أجلك. لقد علم أنني سأقتله، وأنتِ علمتِ، وأنا علمتُ. وبالنهاية أنا قتلتُه... أعْتَرِفُ بذلك، اتفقت مع ملك الهيجاء ونفذنا تلك الخطة القذرة... أمين كان يعلم أنه سيقتل من أجلك، ولكنه أصر على القتال حتى اللحظة الأخيرة... أمر لم أكن لأفعله قط.

وبالفعل اتفق الزبير مع ملك الهيجاء، على أن يوجه الأخير جنودا من جنوده لقتل أمين ومن معه، ومن ثم الادعاء أن قطاع طرق هم الذين فعلوا هذا. أما من أعدمهم ملك الهيجاء، بحجة أنهم قاتلو أمين ومن معه، فهم سجناء سابقون كان الملك سيعدمهم على أية حال.

وبينما اعترف الزبير بجريمته، دمّعت عينا سمية، وأغمضتهما بعنف وقوة وحسرة.

ساد الصمت من جديد في الحديقة، خلا صوت زقزقة العصافير، ثم – بينما بكت سمية بحرقة وصمت – قال الزبير: هل ظننتِ أنه يمكنك هزيمتي؟! هل ظننت أن الزبير يمكن أن يهزم، ومن امرأة؟! وأي امرأة؟! امرأة لم تعرف الحرب في حياتها، ولا التفكير العميق ولا المكائد، ولا الخطط التي تحاك عبر السنين!... أنا أعترف أنكِ كنتِ خصما قويا للغاية، وأعطيتِ أكثر مما توقعتُ منكِ... لكنّ الزبير لا يهزم.

صمت ثم أكمل: أنتِ تظنين أنني ظالم... هذا أمر فيه وجهة نظر. أنا لم أوذِ أيا ممن آذيتهم من أجل كرهي لهم أو غيرتي منهم، بل لأن مصلحتي اقتضت ذلك... أنا أحببت الملك الهارب وأحببت زوجته وابنته، لكنهم وقفوا في طريقي نحو الملك... أحببت أمينا، لكنه وقف في طريقي نحوكِ... أحببت سليما، لكنه خانني... أحببت المغيرة لكنه وقف في طريقي نحو حورية... أحببت الأمير ريانا، لكنه أصر على الانتقام... والأهم أحببتك أكثر من أي شيء آخر، حتى جدي... لكنكِ دمرتِني، وفي النهاية عندما وُضعتُ بين خيار نفسي وبينكِ، اخترتُ نفسي... كل هذا فقط؛ لأنني أريد مصلحتي وليس لأنني ظالم أو أكرهكم. لم تكن المسألة شخصية... الأسد في الغابة عندما يلتهم فرائسه هل هو ظالم؟! لو لم يفعل ذلك، فسيعيش الغزال، لكن الأسد سيموت... هو يفعل ذلك من أجل مصلحته، من أجل بقائه... وأنا فعلت كل ما فعلته من أجل مصلحتي، من أجل بقائي.

سكت لمدة، ثم أكمل: وحتى لو اتفقتُ معكِ، وأقررتُ بأنني ظالم، هل تظنين أن صاحب الحق ينتصر دوما على الظالم؟! الحياة لا تعترف بمنطق العدل والظلم، وأن العادل يجب أن ينتصر على الظالم... بل بمنطق القوة والضعف، وأن القوي سينتصر على الضعيف سواء أكان القوي ظالما أم عادلا، أو كان الضعيف عادلا أم ظالما... وأنا انتصرت عليكِ؛ لأنني الأقوى رغم أنني الظالم – وفق وجهة نظرك التي قد تكون صحيحة-... هذا أمر، امرأة بمثل عمرك، يجب أن تعرفه منذ سنوات كثيرة، وهذه حقيقة واضحة لكل الناس... كم رجلا في التاريخ ظلم وعاث في الأرض فسادا، ثم ظل حيا وهو غني سعيد سليم الجسد، كثير الأبناء، بل إنه حتى قد يكون ملكا أو أميرا؟!

صمت ثم تابع: عندما كنتُ طفلا، كنت بريئا مثلكِ، أظن أن العدل ينتصر بغض النظر من القوي ومن الضعيف، إلى أن أتت الصفعة المدوية من القدر... عندما احتلت الهيجاء أجزاء شاسعة من البقاء، والتقى جيش الكثبة بجيشها، أيقنت أن جدي سينتصر. فهو البطل المغوار القوي صاحب الحق في هذه الحالة؛ فهو لم يؤذ أحدا، وكل ما أراده رد العدوان عن أهله والغدر عن البقاء من قبل الظلمة الغدارين جيش الهيجاء... ثم شاهدته بعينيّ وهو يقتل وسط شماتة ملك الهيجاء... عندها أدركت أن الحياة لا تعمل وفق نظم العدل والظلم، وإنما وفق نظام القوة والضعف... ومن يومها قررت أن أكون الأقوى – بغض النظر ظالما أم عادلا – وأن أدوس على كل من يتحداني.

في حقيقة الأمر، صدق الزبير؛ فهكذا كانت طريقة تفكير سمية تماما. ظنت أن العادل في جانبه العدالة الإلهية، لكنها لم تعرف أن هذه العدالة قد تتأخر للآخرة. ظنت أن العادل في جانبه منطق الحق الذي يمنحه المعنويات القوية، ويبث في نفس عدوه الخوف والرهبة، ويضمن له ضمانا كبيرا وقوف أغلب الناس معه. إلا أنها لم تعرف أن هنالك أمورا أخرى في صف الظالم؛ فالظالم مستعد لفعل أي شيء، حتى مصافحة الشيطان، بل حتى لو اضطر أن يبايع الشيطان بالولاء والطاعة! الزبير ضحى بكل شيء، بالملك الهارب وأهله، ثم بصديقيه أمين والمغيرة، ثم بابنه سليم، وقتل الرسول، بعد كل ما حدث لأسود الوجه الحنشي، ضحى بسمعته بين الناس، ضحى بصديقه ريان، ضحى بالبقاء نفسها وباعها لأعدائها، رغم أهميتها وقدسيتها بالنسبة له. لكن الزبير الذي ضحى يوما ما بأخيه، لم يكن ليوفر أية تضحية، حتى سمية نفسها أغلى ما على قلبه، ضحى بها.

لم تنبس سمية طيلة الحوار ببنت شفة، ولم تنظر إلى الزبير ولو مرة واحدة.

نهض الزبير، ثم قال: وداعا، يا سمية. أنا أحبك، وسأظل أمسك خنجرك أقلبه –كفتى يافع – وأتذكرك كل ليلة.

وبينما هم بالرحيل، قال بصوت ملؤه الحزن: وداعا.

***

((النهاية))

قــوائــم شخصيــات الــروايــة

عائلة الزبير:

جده عامر

أبوه رؤبة

أخوه دريد

صديقه قيس

ضرار (داهية الكثبة)

سهيل ابن أخيه

رند زوجة دريد

بيدق قائد فرقة الزنوج

هلال والأقراط عضوا فرقة الزنوج

روان وعامر ابنا الزبير

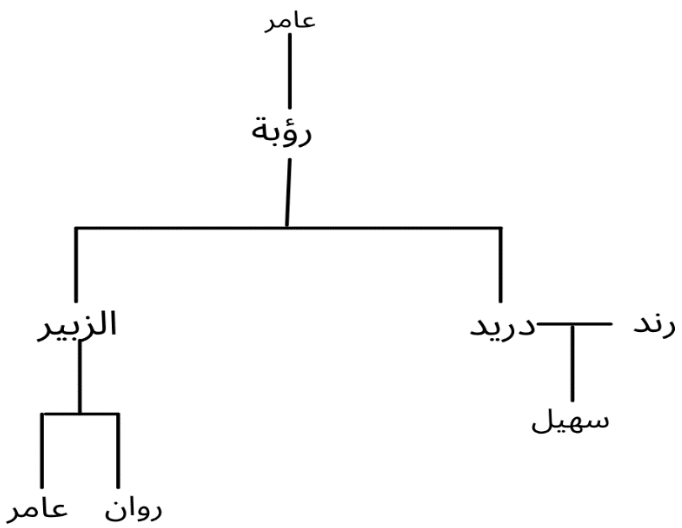

عائلة قصي الملك الهارب:

ريان ابن قصي

هزبر عم قصي

المثنى أبو قصي

الهيثم قائد الجيش

رقية زوجة قصي

هدى ابنة قصي

الأمير عماد صديق ريان

جاسم قائد قوة الحماية

عاصم ابن جاسم

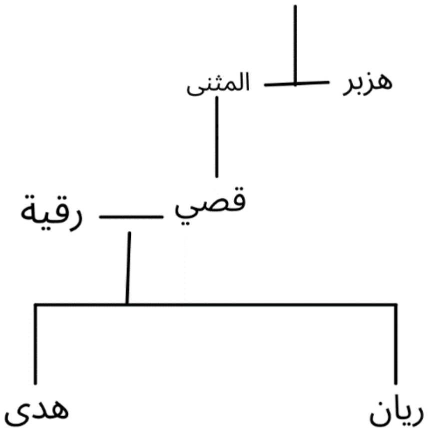

مملكة ياقوتة:

خلدون الملك

ابنه حازم

حفيداه إيهاب وسامح

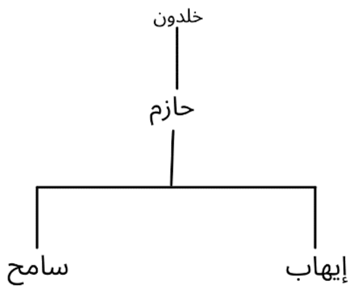

مملكة الهيجاء:

هزيم

ابنه ميمون

أنيس أخو ميمون الصغير

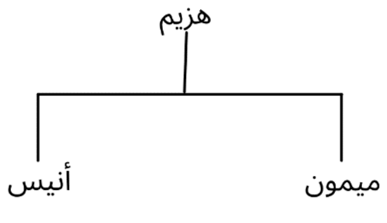

عائلة أمين:

سمية زوجته

زياد أبو سمية

عائلة المغيرة:

حورية زوجته

منيب أبوها

أخوها حمدان

زبيدة وحسن ابنا المغيرة وحورية

مسعود أخو المغيرة

عكرمة حارس حورية

زمردة خادمتها

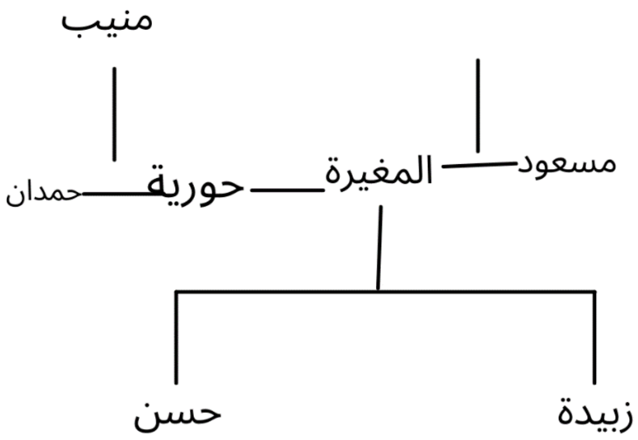

عائلة سليم:

أبوه الهيثم

أمه سوسن

بهاء وصلاح والمعتصم الأقوياء الثلاثة

الهيثم —— سوسن

سليم

سلطنة القدماء:

زاهي السلطان

***

"أفضل وسيلة لشكر كاتب، هي أن تكتب مراجعة صادقة عن روايته."

-ليث طاهر، 2021

نبذة عن الكاتب

د. ليث طاهر

روائي وطبيب أردني.

ولد في الظهران- السعودية عام 1988م.

ثم انتقل مع عائلته إلى الأردن. وهناك حصل على البكالوريوس في الطب من الجامعة الأردنية عام 2011م. ثم على الاختصاص في التخدير والعناية الحثيثة عام 2020م من الجامعة الأردنية. ويعمل حاليا طبيب تخدير وعناية حثيثة.

صدرت له عدة روايات:

الأبيون 2013 وهي فانتازيا تاريخية عن صراع بين ملك وقبيلة تنتهي بحدوث فتنة داخل القبيلة - عن الدار العربية للعلوم بيروت.

حكاية رجل من زيزيا 2016 رواية عن قصة شاب يعاني من فقر مدقع في سبعينات القرن الماضي في الأردن، ثم يتحول لملاكم بغية تحقيق أحلامه - عن الدار العربية للعلوم بيروت.

THE PROUDS

2016 رواية الأبيون بالانجليزية أعاد كتابتها د. ليث بنفسه ونشرتها

THE SOLSTICE PUBLISHING- USA

يمتاز أسلوبه بالخيال القوي، لكنه يلتزم في الحين ذاته بقواعد الواقعية، ويعتمد على حبك الشخصيات والحبكة والمكان بما يناسب الفكرة. ولديه قدرة على ابتكار الزمان والمكان بتناسق بما يخدم الفانتازيا التاريخية في أعماله.

يرجى زيارة صفحة الكاتب

https://www.goodreads.com/author/show/6940994.Laith_Taher

الزبير يجب ان يُقتل

رواية

ليث طاهر

روائي من الاردن

روايات أخرى للمؤلف:

الأبيون (2013)

حكاية رجل من زيزيا (2016)

(2016) The Prouds

novellaithtaher

novellaithtaher

لا تنسَ وضع مراجعتك على Goodreads

جميع الحقوق محفوظة

تندرج الرواية ضمن الفانتازيا التاريخية، حيث المكان والزمان متخيلان، وهنالك الاعتماد على الخيول والسيوف. تقع مملكة البقاء، بين مملكتي ياقوتة والهيجاء. تقع الحرب المقيتة، وتحتل المملكتان المجاورتان معظم أرجاء البقاء. يقتل ملك ياقوتة ملك البقاء وجل أهله، فيفر ابن أخ الملك، الأمير قصي، إلى جبال اليُبْس، ويختبئ هناك

الكثبة هي صحراء ذات قبائل كثيرة في البقاء

شيخ كل القبائل عامر يقتله ملك الهيجاء أثناء احتلال "الأخير للبقاء. تمر الأيام ويصبح حفيد عامر "الزبير شيخ قبائل الكثبة. وتمر السنوات، ويضع الزبير خطة محكمة لتحرير البقاء
وهذه الخطة المعقدة التي أمضى الزبير سنوات يحضر لها، ينفذها بدقة ويجمع أقوى رجال البقاء وأهمهم للثورة ضد المملكتين العدوتين

ويهدف لإعادة الأمير قصي – الذي غدا أسطورة كذبها الكثيرون – إلى الحكم
وخلال ثورة الزبير ومن معه، يواجه الصعوبات والمكائد ويضحي بالغالي والنفيس لإنجاح مخططه. مما يخلق له أعداءً كُثرا يتفقون ويتحدون على التخلص منه. بل ويصبح قتله الهدف الوحيد لحياة كل منهم

رواية تتحدث عن الصراع بين الحق والباطل والخير ،والشر في الحياة، وتبرز التناقض بين الوفاء والخيانة وتتضمن فلسفات عميقة في الحياة، وكيف من الممكن للمرء أن يضحي ويتخذ أصعب القرارات للوصول إلى أهدافه! وكيف يفني المرء عمره في سبيل الانتقام

رسم لوحة الغلاف: الفنان سامر الحوراني

تصميم الغلاف: د.ليث أبومحفوظ